حسن بن أحمد البلوشي

سلسلة التقريب بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية
(٢)

التفريد في شرح كتاب التوحيد

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نَحمده ونَستعينه ونستَغفره ، ونَعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ، وسَيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضِل له ، ومن يُضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ و رضي الله عن الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . وبعد . . فهذا العمل هو الحلقة الثانية من سلسلة التقريب بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية (أهل السُّنة والجماعة)، من خلال شرح كتاب ـ التوحيد الذي هو حقُ الله على العبيد ـ للشيخ محمد ابن عبد الوهاب ، وقبل الشروع في ذلك لا بد من كلمة في جمع الكلمة .

الصوفية والسلفية[١]

الصوفية الحقة لا تُخالف السلفيةَ المُخلصة ، التي تريد تنقيةَ الإسلام من كل البِدع والشوائب ، التي لحقته عبر العصور التي مر بها . فالصوفي يهدفُ إلى تنقيةِ نفسه وقلبِه من كل شوائب الأغيار ، حتى تصبح خالصةً لله سبحانه وتعالى ، والسلفي المخلص يهدِف الى تنقيةِ الإسلام من البِدع والدخائل ، فلا تناقضَ بينهما ولا تعارض ، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص ، ومُريد الحق لابد أن يصل إليه .

(١) «التصوف بين الإفراط والتفريط» صـ ٢٠-٢٢ ، الدكتور عمر عبد الله كامل .

فالتصوفُ الصحيح هو الإسلام الكامل في مقاصدِه وأهدافهِ ، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين ، استقامَ سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجِه . . .

الكتاب والسُّنة أولاً وقبل كل شيء

والجنيد رحمه الله تعالى ، سيد القومِ وإمامهم ـ كما وصفه القشيري ـ قال في هذا الموضوع : (من لم يحفظِ القرآن ، ولم يكتبِ الحديثَ ، لا يُقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيدٌ بأصول الكتابِ والسنة ...) . ا هـ . وقال أيضا : (علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ ، الطُرق كلها مسدودةٌ على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول ؟ واتبعَ سنته ولزم طريقته...) . ا هـ

وقال الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى [1] : (كل طريقٍ لم يمشِ فيه الشارع ﷺ فهو ظلام ، ولا يكون أحد ممن مشى فيه على يقين من السلامةِ وعدم العطب) .

وقال رحمه الله تعالى : (دوروا مع الشرع كيفَ كان ، لا مع الكشف فلأنه يُخطئ وينبغي إكثارُ مطالعةِ كتب الفقه ، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقةٌ من الطريق فمنعوا مطالعةَ الفقه ! وقالوا : إنه حجاب ! جهلاً منهم !)...

وقال الإمام الغزالي : (قال الجنيد رحمه الله : قال لي السري شيخي يومًا : إذا قُمت من عندي فمن تُجالس ؟ قلت : المحاسبي ، قال : نعم خُذ من علمه وأدبِه ، ودع عنك تشقيقه الكلامَ ورده على المُتكلمين . ثم لما وليت سمعته يقول : (جَعلك الله صاحب حديثٍ صوفيًا ، ولا جعلك صوفيًا صاحبَ

(١) كشف الغمه ، ١/١٠

حديث) . قال الغزالي : أشار إلى أن من حصل الحديث ـ أي العلم ـ ثم تَصوف أفلحَ ، ومن تَصوف قبل العلم خاطر بنفسِه) .

في سياق بعض أسماء مشائخ الحنابلة الذين دخلوا في رِحاب الصوفة وأخَذوا عنهم الإجازات والخرقات والأذكار(١)

١- **عبد القادر بن أبي صالح الجيلي البغدادي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٢٩٠/١ : قُدوة العارفين وسيد أهل الطريقة في وقته صاحبُ المقامات والكرامات والأحوال المعروفة ، وقال الشيخ موفق الدين صاحب المغني : لم أسمع عن أحدٍ يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية : إنه لم تتواتر كرامات أحدٍ من المشايخ إلا الشيخ عبد القادر فإن كراماته نُقلت بالتواتر .

٢- **عثمان بن مرزوق بن حميد القرشي أبو عمرو الزاهد** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٠٦/١ : انتهت إليه تربِية المُريدين بمصر ويقال إنه اجتمع وأبومدين بعرفات مع الشيخ عبد القادر الجيلي فلبسا منه الخرقة وسمعا منه جزءًا من مروياته .

٣- **سعد بن عثمان بن مرزوق القرشي المصري البغدادي الزاهد** ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٨٤/١ : قال القادسي : هو أحد الزُهاد الأبدال الأوتاد .

٤- **عبد الله أبو محمد الجبائي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٦/٢ : صحب الشيخ عبد القادر الجيلي مدة مائلاً إلى التزهد والصَلاح والخير وكان يحكي عنه كثيرًا من أحواله وكراماته .

---

(١) « تحقيق المقال في تخريج أحاديث فضائل الأعمال »صـ٣٩-٤٨، الإمام الكاندهلوي . اعتنى به الشيخ لطيف الرحمن البهراجي القاسمي .

٥- **محمد بن أحمد بن عبد الله بن أبي الرجال اليـونيني البعلبكـي** ، قـال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقـات الحنابلـة ٢٦٩/٢ : لـبس خرقة التصوف من الشيخ عبد الله البطايحي صاحب الشيخ عبد القادر وكان ذا أحوال وكرامات .

٦- **أحمد بن إبـراهيم بـن مسـعود الحزامـي** ، قـال الحـافظ ابـن رجـب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٥٨/٢ : هو الزاهد القدوة العارف كان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية وكان الشيخ تقـي الـدين ابـن تيميـة يُعظمـه ويُجله ويقول عنه هو جنيد وقته قلت (ابن رجب) : وكان معمورَ الأوقـات بالأوراد والعبادات والتصنيف والمطالعة والـذكر والفكـر مصـروف العنايـة إلى المُراقبة والمحَبة والأُنسِ بالله والبقاء به كثير اللهجِ بـالأذواق والتجليـات والأنوار القلبية .

٧- **عبد الله بن أحمد بن قدامة شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد** ، قـال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ١٣٣/٢ : أقام عند الشـيخ عبد القادر الجيلي بمدرسته مدةً يسيرة .

٨- **جنيد بن محمد بن الجنيد أبو القاسم الخزاز القواريري البغدادي** ، قال ابن كثير في التاريخ ١١٣/١١ : اشـتهر بصُـحبة الحـارث المحاسـبي وخالـه سري السقطي ولازم التعبد ففَتَح الله بسبب ذلك علومًا كـثيرة وتكلـم علـى طريق الصوفية ، وقال القاضي أبو الحسـين في طبقـات الحنابلـة ١٢٨/١ : قال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القال والقيل ولكـن عـن الجـوع وتـرك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

٩- **معـروف بن الفيرزان أبـو محفوظ العابد المعـروف بـالكَرخي** ، قـال أبـو الحسـين في طبقـات الحنابلـة ٣٨١/١:كـان أحـد المشـهورين بالزُهـد

والعُزوف عن الدنيا يَغشاه الصالحون ويتبركُ بلقائه العارفون وكان يوصف بأنه مجابُ الدعوة وحكي عنه كرامات .

١٠- **إبراهيم بن هاني أبو إسحاق النيسابوري** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٧٩/١ : كان ورعًا صَبوراً على الفقر ، قال أحمد : إن كان في البلد رجل من الأبدال فأبو إسحاق النيسابوري .

١١- **محمد بن عبد الله بن عمر بن أبي القاسم المقرئي الصوفي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٥٣/٢ : لبس الخرقة من السهروردي وحدث بالكثير .

١٢- **عبد العزيز بن أبي القاسم البابصري الفقيه الأديب الصوفي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٣٨/٢ : قال الذهبي : سَكن دمشق وأقام بالخانقاه .

١٣- **أبو القاسم بن يوسف الحواري** ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٢٦٢/٢ : هو الصوفي الزاهد المشهور صاحبُ الزاوية بحواري له أتباع وأصحاب ومُريدون . . .

١٤- **يحيى بن يوسف الأنصاري الصرصري** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ١٥١/٢ : سمع الحديث من الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي صاحب الشيخ عبدالقادر وصحبه وسلك به ولبس منه الخرقة .

١٥- **محمد بن الخضر بن محمد . . . بن تيمية الحراني الفقيه** ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٥١/٢ : كان والده يُعد من الأبدال وكان الشيخ محمد بن الخضر (فخر الدين) رجلاً صالحًا يَذكر له كرامات وخوارق .

١٦- **محمد بن عثمان بن مكارم البغدادي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل

على طبقات الحنابلة ٦٣/٢ : صَحب الشيخ عبدالقادر وتأدب به وكانت له رياضات ومجاهدات وكان يجلس في رِباطه للوعظ .

١٧- **محمد بن معالي بن غنيمة البغدادي** ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٧٧/٢ : هو الفقيه الزاهد انتهت إليه معرفته مع الدِيانة والورع والانقطاع عن الناس . . . وكان أحد الأبدال الذين يحفظُ الله بهم الأرض ومن عليها . وكان ملازمًا لزاويته في المسجد .

١٨- **يوسف بن عمر بن مسرور أبو الفتح القواس** ، قال أبو الحسين في طبقات أبي يعلى ١٤٣/٢ : كان من الأبدال .

١٩- **محمد بن أحمد أبو الحسين المعروف بابن سمعون** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٥٥/٢ : كان واحد دهرِه وفريدَ عصره في الكلام على علم الخواطر والإشارات .

٢٠- **أبو عمران** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٤٢٥/١ : هو الصوفي نقل عن إمامنا شيئًا .

٢١- **يوسف بن حسين أبو يعقوب الرازي** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٤١٨/١ : هو من مشايخ الصوفية . . . قلت لأحمد بن حنبل حدثني فقال : ما تَصنع بالحديث يا صوفي .

٢٢- **عثمان بن عيسى أبو عمرو الباقلاني** . قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٦٩/٢ : كان أحد الزهاد المتعبدين منقطعًا عن الخلق ملازمًا للخلوة وكان يقول إذا كان وقت غُروبِ الشمس أحسست بروحي كأنها تخرج يعني لاشتغاله في تلك الساعة بالإفطار عن الذكر . انتهى .

٢٣- **عبد الله البرداني أبو محمد الزاهد** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٨/١ : كان منقطعًا في بيتٍ بجامعِ المنصور يتعبد خمسين سنة .

٢٤- **أحمد بن علي المقرئ** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ١/٤٥ : هو الصوفي المؤدِّب أبو الخطاب البغدادي .

٢٥- **عبد الله بن محمد الأنصاري** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل ١/٥٠ : هو الحافظ الصوفي الواعظ شيخ الإسلام . . . وكان عابدًا زاهدًا ذا أحوالٍ ومقاماتٍ وكراماتٍ ومُجاهدات .

٢٦- **علي بن عقيل بن محمد البغدادي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ١/١٤٤ : كان يقول : شيخي في آداب التصوف أبو المنصور وأثنى عليه بالزهد والتَخلق بأخلاق متقدمي الصوفية .

٢٧- **الحسن بن مسلم بن الحسن** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل ١/٣٩٥ : صحِب الشيخ عبد القادر . . . ذا الكرامات . . . وكان أحد الزهاد الأوتاد والأبدال العباد .

٢٨- **حرب بن إسماعيل الكرماني** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/١٤٥ : كنت أتصوفُ قديمًا فلم أتقدم في السماع .

٢٩- **محمد بن إبراهيم** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/٢٦٨ : هو أبو حمزة الصوفي . . . قال أبو حمزة : كان الإمام أحمد بن حنبل يَسألني في مجلسه عن مسائل ويقول : ما تقول فيها يا صوفي .

٣٠- **عبد العزيز بن أبي القاسم البابصري** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٣٨ : الفقيه الصوفي . . . وانقطع في آخر عمره بالخانقاه الشميساطية .

٣١- **علي بن مسعود بن نفيس** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٣٥١ : هو الصوفي . . . وشَيعه الشيخ تقي الدين ابن تيمية وجماعة .

٣٢- **محمد بن عبد الله البغدادي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على

طبقات الحنابلة ٣٥٣/٢ : هو المحدث الصوفي . . . ولبس خِرقة التصوف من السهروردي .

٣٣- **أبو الفرج عبد الواحد بن محمد الشيرازي** ، قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٢٤٨/٢ : كانت له كرامات ظاهرة . . . ويقال إنه اجتمع مع الخَضر عليه السلام دفعتين .

٣٤- **محمد بن مسلم أبو عبد الله الصالحي** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة ٣٨٠/٢ : هو الفقيه الصالح الزاهد . . . وكان من الصالحين قضاة العدل . . . وهو الذي حكم على ابن تيمية بمنعه من الفُتيا بمسائل الطلاق وغيرها مما يخالفُ المذهب .

٣٥- **عبد الله بن عبد الحليم أبو محمد أخو الشيخ تقي الدين** ، قال الحافظ ابن رجب في الذيل على الطبقات ٣٨٢/٢ : الزاهد العابد القُدوة . . . وكان زاهدًا عابدًا ورعًا يخرج من بيته ليلاً ويأوي إليه ليلاً ، ولا يجلس في مكان معين بحيث يقصد فيه لكنه يأوي إلى المساجد المهجورة خارج البلد ، فيختلي فيها للصلاة والذكر ، وكان كثيرَ العبادة والتأله والمراقبة والخوف من الله تعالى ، ذا كرامات وكُشوف .

٣٦- **إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الشنويهي ثم القاهري** ، قال ابن حميد في السحب الوابلة ٢٢/١ : (أحد صوفية الأشرفية) وراجع المنهج الأحمد ٥١٨ .

٣٧- **إبراهيم بن عبد الوهاب البغدادي ثم القاهري** ، قال ابن حميد ٤٥/١ : « كان مواظبًا على الجماعات وحضور التصوف » وراجع المنهج الأحمد ٤٩٨ .

٣٨- **أحمد بن إبراهيم الكناني القاهري الصالحي** ، قال ابن حميد ٨٧/١ : « لبس خرقة التصوف مع تلقين الذكر من الزين ولبسها أيضًا من خاله » راجع المنهج الأحمد ٥٠٤ .

٣٩- **أحمد بن عبد العزيز بن النجار الفتوحي** ، قال ابـن حميـد ١/١٥٩ : « كـان في أول عمـره يُنكـر علـى الصـوفية ، ولمـا اجتمـع بسـيدي علـي الخّواص وغيره أذعن لهم واعتقدهم ، وصار بعد ذلك يتأسّف علـى عـدم اجتماعه بالقوم من أول عمره ، ثم فُتح عليه في الطريق وصـار لـه كشـفٌ عظيم قبل موته» .

٤٠- **أحمد بن عبـد الله البعلـي** ، قـال ابـن حميـد ١/١٧٤ : «أخـذ طريقـةَ الخلوتية عن الأستاذ محمد بـن عيسـى الكنـاني الحنبلـي» راجـع النعـت الأكمل ٣٠٨ .

٤١- **أحمد بن علي بن سالم الدمشقي الخلوتي** ، قال ابن حميد ١/١٩٣ : « قال المحبي كان خليفة الشيخ أيوب والشيخ أيوب أخذ طريقة الخلوتيـة عن العسالي ثم قـال . . . وأخـذ التصـوف عـن شـيخه المـذكور» راجـع النعت الأكمل ٣٣٤ .

٤٢- **حسن بن عمر الشطّي الدمشقي** ، قال ابن حميد ١/٣٦١ : «له نصيبٌ وافرٌ من التصوف ومشـربٍ روي ، صـاحب عبـادات وأذكـار وأوراد ، إلى أن قال : وله مولدٌ نَبوي» .

٤٣- **سلمان بن عبد الحميد القابوني** ، قال ابن حميد ٢/٤٠٧ : «كان خيّرًا صوفيًّا بالخاتونّية» .

٤٤- **عبد الباقي بن عبد الباقي ابن فقيه فصـة** ، قـال ابـن حميـد ٢/٤٣٩ : «أخذ طريق الصوفية عن ابن عمه ، ولقنه الذكر» .

٤٥- **عبد الجبار بن علي البصري** ، قال ابن حميد ٢/٤٤٣ : «شيخ الطريقة وأستاذ الحقيقة» .

٤٦- **عبد الحق بن محمد المرزبـاني الصـوفي القـادري** ، قـال ابـن حميـد ٢/٤٥٨ : «كان من مشاهيرِ صوفية الشام» .

٤٧- **عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود صاحب الزاوية** ، قال ابن حميد ٤٨٠/٢ : « أخذ عن أبيه التصوف » .

٤٨- **عبد الرحمن بن عبد الله البعلي الحلبي** ، قال ابن حميد ٤٩٩/٢ : « أخذ عليه طريق السادة الخلوتية ولقنه الذكر » .

٤٩- **عبد الرحمن بن عمر القبابي** ، قال ابن حميد ٥٠٩/٢ : رأى الشيخ عبد الله العشقي شيخ الشيخ عبد الله البستامي وأجازه ولبس منه الخرقة .

٥٠- **عبد القادر بن محمد الجزيري صاحب الدرر الفوائد** ، قال ابن حميد ٥٧٢/٢ : « إن شيخنا ومولانا العارف بالله تعالى مربي المريدين قدوة السالكين العارفين شهاب الدين أبا العباس . . . لقنني الذكر وألبسني الخرقة . . . » .

٥١- **عبد القادر الجعفري** ، قال ابن حميد ٥٧٦/٢ : « هو الإمام العلامة الصوفي » .

٥٢- **عبد القادر بن محمد بن الرجيحي** ، قال ابن حميد ٥٨١/٢ : « ثم تصوف ولبس الخرقة من جماعةٍ » .

٥٣- عبد الله بن علي جمال الدين العسقلاني المعروف بالجندي . قال ابن حميد ٦٣٩/٢ : « ألبسه خرقة التصوف القُطب القسطلاني وكذا لبسها من شيخه حمزة » .

٥٤- **علي بن عمر بن علي الصالحي** ، قال ابن حميد ٧٥٣/٢ : « لبس خرقة التَصوف القادرية من جماعة » .

٥٥- **علي بن محمد بن البهاء البغدادي** ، قال ابن حميد ٧٥٩/٢ : « لازم الشيخ عبد الرحمن بن داود صاحب الزاوية ولبس منه خرقة التصوف القادرية وتَلقن منه الذكر العظيم نفيًا وإثباتًا » .

٥٦- **علي بن محمد نور الدين الجيلي الأكحل** ، قال ابن حميد ٧٦٢/٢ : « لبس الخرقة القادرية من آبائه وألبسها جماعة » .

٥٧- **علي بن محمد نور الدين المناوي المعروف بباهو** ، قال ابن حميد ٧٦٢/٢ : « وباسمه أطلاب ووظائف منها التصوف بالأشرفية » .

٥٨- **عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي** ، قال ابن حميد ٨٠٧/٢ : « وصل إلى الشيخ العارف بالله محمد العباسي فأخذ عليه الطريق ولم يزَل عنده في أعلى مكانةٍ حتى برِع في طريق القوم وأشار إليه بالخلافة بعده فوليها وكانت تَظهر له كرامات وأحوال » .

٥٩- **عيسى القدومي** ، قال ابن حميد ٨١٠/٢ : « أخذ الطريقة الخلوتية عن الأستاذ البكري وانقَطع للعبادةِ والأوراد » .

٦٠- **محمد بن أحمد تقي الدين البسطي** ، قال ابن حميد ٨٥٠/٢ : « واختص بالطائفة القادرية بحيث لازم تغري بردي » .

٦١- **محمد بن أحمد بن الخطيب** ، قال ابن حميد٨٦٣/٢ : « ابتنى هناك مكانًا والتصوف بالبرقوقّية » .

٦٢- **محمد بن أحمد شمس الدين الغزولي** ، قال ابن حميد ٨٦٨/٢ : « وكان أحد صوفية البيبرسية ولذلك اختص بالشيخ محمد بن سلطان القادري ».

٦٣- **محمد بن أبي بكر البكري المحلي** ، قال ابن حميد ٨٩٧/٢ : « تنزل في صوفية الحنابلة بالبرقوقية أول ما فُتحت وكان بشره بذلك بعض الأولياء » .

٦٤- **محمد بن عبد الله بن فيروز النجدي ثم الأحسائي** ، قال ابن حميد ٩٧٨/٣-٩٧٩ : « ذو مشربٍ من منهج الصوفية . . . وكان صاحب أوراد يبتدئ فيها بعد صلاة العصر ولا يفرغ منها إلا بعد المغرب ».

٦٥- **محمد بن عمر العبّاسي الخلوتي** ، قال ابن حميد ١٠٢١/٣ : « أخذ الطريق عن الأستاذ العارف بالله أحمد العسالي لازمه بقرية عسال وتخرج به حتى صار خليفته من بعده ، وله كرامات كثيرة مشهورة » .

٦٦- **محمد بن عيسى بن كنان الدمشقي** ، قال ابن حميد ١٠٢٧/٣ : « أخذ الطريق عن والده وعن جماعة » .

٦٧- **محمد بن محمد المرزناتي** ، قال ابن حميد ١٠٣٦/٣ : « كان من أمثل صوفية الشام وأخذ **طريق القادرية** عن الأستاذ أحمد بن سليمان . . . وكان له في ما يفعله مشايخ الصوفية من النشر والتعويذات شهرة تامة » .

٦٨- **محمد بن محمد الجعبري القبّاني** ، قال ابن حميد ١٠٤١/٣ : « هو كأبيه صوفي سعيد السعداء » .

٦٩- **ذيَّال العراقي** ، قال ابن مفلح في المقصد الأرشد ٣٨٩/١ : « هو الزاهد العارف صنف الحافظ الضياء جزءًا في كراماته . . . ووقع له أمور غَريبة تدلُ على الكشف » .

٧٠- **جعفر بن محمد الصندلي** ، قال ابن مفلح ٣٠٤/١ : « كان يقال إنه من الأبدال » .

* * *

في سياق بعض المخاريق والكرامات والتصرُفات والكشوفات التي نُقلت عن مشائخ الحنابلة وحُفاظ الحديث[1]

- علاقة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بالصوفية :

قال أبو محمد بن تميم الحنبلي في عقيدة الإمام أحمد بن حنبل الملحقة بطبقات الحنابلة ٢/٢٧٩ : « كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يُعظم الصوفية ويكرمهم ، وقال : وقد سئل عنهم وقيل له : يجلسون في المساجد ؟ فقال : العلم أجلسهم » .

- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وموافقته على سماع الصوفية :

يروي الإمام المناوي في « الكواكب الدرية » ١/٣٤٤ : أن ابن الإمام قال : سمعت أبي يقول وقد قيل له إن هؤلاء الصوفية قُعودٌ في المساجد على التوكل بغير علمٍ قال : العلم أقعدهُم ، قيل له : إن همتهم كسير وخرقة ، قال : لا أعلم أعظم قدرًا ممن هذه صِفته ، قيل : فإنهم إن سمعوا السَماع يقومون فيرقُصون ، قال : دعهم يفرحون بربهم .

- الإمام أحمد رحمه الله وحصوله على المرتبة الصديقية من مراتب الصوفية :

يروي الإمام القشيري في رسالته ١/٦٩ بسنده عن بلال الخواص أنه قال : كنت في تيه بني إسرائيل فإذا رجلٌ يُماشيني فتعجَبتُ منه ، ثم أُلهِمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له : بحق الحق من أنت ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت له : أريد أن أسألكَ ، فقال : سل ، فقلت : ما تقول في الشافعي رحمه الله؟ فقال : هو من الأوتاد ، فقلت : ما تقول في أحمد بن حنبل رضي الله عنه ؟ فقال : رجل صدِّيق ، انتهى . وتوجد عدة نصوص بمعناه بأسانيدَ مختلفةٍ عند أبي نعيم في الحلية ٩/١٨٧-١٩٣ .

---

(١) تحقيق المقال في تخريج أحاديث فضائل الأعمال (ص٥٠، ص٩٩-١٠١، ١٠٥).

- بُكاء أحمد بن حنبل على أبي حنيفة رحمه الله وترحمه عليه :

أسند الخطيب في التاريخ ٣٢٧/١٣ عن إسماعيل بن سالم البغدادي يقول : ضُرب أبو حنيفة على الدخول في القضاء فلم يقبل القضاء ، قال : « وكان أحمد بن حنبل إذا ذكر ذلك بكى وترحَّم على أبي حنيفة ، وذلك بعد أن ضُرب أحمد رحمه الله » .

- أهمية الأوراد عند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

في كتاب الاعتقاد لأبي الفضل التميمي ـ الملحق بطبقات الحنابلة ٣٠٦/٢ : « يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : من كان له ورد فقطعهُ خفت عليه أن يسلب حلاوة العبادة » .

وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببتَ أن يَدوم الله لك على ما تحُب فَدم له على ما يحب . انتهى .

- تفضيل الإمام أحمد بن حنبل على كل أحد :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٧/١ في ترجمة الإمام أحمد ابن حنبل بإسناده : قال الميموني : سمعتُ علي بن المديني يقول : ما قام أحدٌ بأمرِ الإسلام بعد رسول الله ﷺ ما قامَ أحمد بن حنبل ، قال قلت له : يا أبا الحسن ولا أبو بكرٍ الصديق ، قال : ولا أبوبكرٍ الصديق ، إن أبا بكرٍ الصديق كان له أعوانٌ وأصحاب ، وأحمد بن حنبل لم يكن له أعوانٌ ولا أصحاب . انتهى .

- الموت في يده وبدعائه :

قال الذهبي في السير ٢٤١/١١ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل : قال صالح بن أحمد : قال أبي فلما صرنا إلى أذنه ورحلنا منها في جوف الليل وفُتح لنا بابُها إذا رجلٌ قد دخل فقال : البشرى قد مات الرجل يعني المأمون ، قال أبي : وكنت أدعو الله أن لا أراه . قال محمد بن إبراهيم البوشنجي :

سمعت أحمد بن حنبل يقول : تبينتُ الإجابـة في دعـوتيـن : دعـوت الله أن لا يجمع بيني وبين المأمون فلم أر المأمون ، مات بالبذندون . انتهى .

- كرامات الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بعد موته :

قال الذهبي في السير ١١/٢٣٠ : عن فاطمه بنت أحمد بن حنبل قالت : وقع حريقٌ في بيتِ أخي صالح ، وكان قد تزوج بفتية فحملوا إليه جهازًا شبيهًا بأربعة آلاف دينار فأكلتهُ النار فجعل صالح يقول : ما غمنّي ما ذهب إلا ثوب لأبي كان يصلي فيه أتبرك به . وأصلي فيه ، قالت : فطفي الحريق ، ودخلوا فوجدوا الثوب َعلى سريرٍ قد أكلتِ النارُ ما حوله وسلم .

قال ابن الجوزي : وبلغني عن قاضي القضاة علي بن الحسين الزيني : أنه حكى أن الحريقَ وقع في دارهم فأحرق ما فيها إلا كتابًا كان فيه شيء بخطِ الإمام أحمد ، قال : ولما وقع الغَرق ببغداد في سنة ٥٥٤ هـ وغرقت كتبي سلم لي مجلدٌ فيه ورقتان بخط الإمام ، قلت (الذهبي) : وكذا استفاض وثبت أن الغرقَ الكائنَ بعد العشرين وسبع مائة ببغداد عام على مقابر مقبرة أحمد وأن الماء دخل في الدهليز علوّ ذراع ووقف بقدرة الله ، وبقيت الحصر حول قبر الإمام بغبارها ، وكان ذلك آية . انتهى .

- علي بن الموفق صاحب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تمنيه الموت ثم كلامه مع الرب :

أسند أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/٢٣٠ : عن العباس بن يوسف حدثني علي بن الموفق قال : كنت ليلةً في المسجدِ الحرام فقلت يا سيدي : كم تَردني ولم تتبعني ؟ اقبضني إليك وأرحني ، فبينا أنا نائمٌ إذ رأيت رب العزة عز وجل في النوم يقول لي : يا علي بن الموفق أرأيت لو أنك بنيتَ دارًا من كنت تدعو إليها من تحب أم من تكره ؟ فقلت : لا يا رب بل من أحب ؟ فقال عز وجل : يا علي بن الموفق قد دعوناك إلى دارنا . انتهى .

- جاءت الورقة من الله خاصة لعلي بن الموفق صاحب الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله مكتوب فيها أنا ربك :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/ ٢٣١ : قال علي بن الموفق خرجتُ يومًا لأؤذِن فأَصبتُ قرطاسًا فأخذته ووضعته في كمي فأذنت وأقمت وصليت فلما صليت قرأته فإذا مكتوبٌ فيه : بسم الله الرحمن الرحيم يا علي بن الموفق تخاف الفقر وأنا ربك .

- أبوجعفر العابد المعروف بالطوسي يأخذ السفرجلة من كم معروف الكرخي :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/ ٣١٨ في ترجمة أبي جعفر العابد المعروف بالطوسي : عن سعيد بن عثمان قال : كنا عند محمد بن منصور الطوسي يومًا وعنده جماعةٌ من أصحاب الحديث وجماعة من الزهاد وكان ذلك يوم الخميس فسمعته يقول : صمت يومًا وقلت لا آكل إلا حلالاً فمضى يومي ولم أجد شيئًا ، فواصلت اليوم الثاني واليوم الثالث والرابع حتى إذا كان عند الفطر قلت لأجعلن فطر الليلة عند من يزكي الله طعامه ، فصرت إلى معروف الكرخي فسلمت عليه . . . حتى صلى المغرب وخرج من كان معه في المسجد فما بَقي إلا أنا وهو ورجلٌ آخر فالتفت إليَّ وقال : يا طوسي قلت : لبيك فقال لي : تحول إلى أخيك فتعش معه فقلت : ما بي من عشاء فتركني ، ثم ردّ عليَّ القول فقلت : ما بي من عشاء ، ثم فعل ذلك الثالثة فقلت : ما بي من عشاء فسكت عني ساعة ثم قال : تقدم إليّ فتحاملت وما بي من تحامل من شدة الضعف فقعدت عن يساره فأخذ كفي اليمنى فأدخلها إلى كمه الأيسر فأخذت من كمه سفرجلة معضوضة فأكلتها فوجدت طعم كل طعام طيب واستغنيت بها عن الماء ، قال : فسأله رجل كان معنا حاضرًا أنت يا أبا جعفر ؟ قال : نعم وأزيدك أني ما أكلت منذ ذلك حلوًا ولا غيره إلا أصبت فيه طعم تلك السفرجلة . انتهى .

- يهتف هاتف وينادي الشيخ . . . الحنبلي في البئر مثل ما نودي موسى عليه السلام :

قال أبو الحسن في طبقات الحنابلة ٢٦٨/١ في ترجمة محمد بن إبراهيم أبي حمزة الصوفي يقول : سافرت سفرة على التوكل ، فبينا أنا أسير ذات ليلة والنوم في عيني إذ وقعت في بئر فرأيتني قد حصلت فيها ، فلم أقدر على الخروج لبعد مرتقاها ، فجلست فيها ، فبينا أنا جالس إذا وقف على رأسها رجلان فقال أحدهما لصاحبه نجوز ونترك هذه في طريق السابلة والمارة ؟ فقال الآخر : فما نصنع؟ قال : نمطّها ، فبدرت نفسي أن أقول أنا فيها فنوديت : تتوكل علينا وتشكو بلاءنا إلى سوانا ؟ فسكت فمضيا ثم رجعا ومعهما شيء جعلاه على رأسها غطّوها به ، فقالت لي نفسي أمنت طمعها ولكن حصلت مسجونًا فيها ، فمكثت يومي وليلتي فلما كان الغد ناداني شيء يهتف بي ولا أراه تمسك بي شديدًا ، فمددت يدي فوقعت على شيء خشن فتمسكت به فعلاها فطرحني ، فتأملت فوق الأرض فإذا هو سبع فلما رأيته لحق نفسي من ذلك ما يلحق من مثله فهتف بي هاتف : يا أبا حمزة استنقذناك من البلاء بالبلاء وكفيناك ما تخاف بما تخاف . انتهى .

- الفارة تموت بدعاء أبي القواس الحنبلي عليها :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٤٣/٢ : قال أبو ذر : كنت عند القواس وقد أخرَج جُزءًا من كتبه فوجد فيه قرض الفارة فدعا الله على الفارة التي قرضته ، فسَقَطت من سقف البيت فارة ولم تزل تضطرب حتى ماتت .

- الجارية . . . الحوراء كسرت كوز سري السقطي :

حكى الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ٣٧٤/٢ عن الجنيد قال : دخلتُ على سرّى وهو جالسٌ يبكي وبين يديه كوزٌ مكسور فجلست حتى سكت فقلت : ما يبكيك ؟ قال كنت صايمًا فجاءت ابنتي بكوزٍ فيه ماءٌ فعلقتُه هناك ،

فقالت : يبرد لك لتفطر عليه فحملتني عيني فرأيت كأن جاريةً قد دخلت عليّ من هذا الباب عليها قميص فضية وفي رجليها نعلان لم أر قدمًا قط في نعل أحسن منهما فقلت لها : لمن أنت ؟ قالت : لمن لا يبرد الماء في الكيزان الخضر وضربت بكُمها الكوز فرمت به وهو هذا ثم انتبهت ، قال جنيد : فمكثت أختلف إليه مدة طويلة أرى الكوز بين يديه مكسورًا عليه التراب وهو لا يرفعه . انتهى .

- التوسل بالميت وبآثار الصالحين :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ٦٨/٣ : العاشرة قولهم في الاستسقاء لا بأس بالتوسل بالصالحين وقول أحمد يُتوسل بالنبي ﷺ خاصة مع قولهم إنه لا يستغاثُ بمخلوق : فالفرق ظاهرٌ جدًّا وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي ﷺ وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه فهذه المسألة من مسائل الفقه ، ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور إنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ولا إنكار في مسائل الاجتهاد .

وقال الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ١٥٦/٢ عن أبي بكر بن صدقة قال : ذكر لأحمد بن حنبل صفوان بن سليم وقلة حديثه وأشياء خولف فيها فقال : هذا رجلٌ إنما كان يُستشفى بحديثه ويُستنزلَ القطرُ بذكرِهِ . انتهى .

- التوسل بالميت :

قال الذهبي في تذكرة الحافظ ١٣٧١/٤ في ترجمة ابن عبيد الله : « قال أبو الربيع بن سالم الحافظ : كان وقت وفاةِ أبي محمد بن عبيد الله قحط مصر فلما وُضع على شفير القبرِ تَوسلوا به إلى الله في إغاثتهم فسُقوا في تلك الليلةِ مطرًا وابلاً وما اختلفَ الناس إلى قبرهِ مدة الأسبوع إلا في الوحل والطين ».

وحكى الذهبي في السير ٢٥٢/٢١ في ترجمة شيخ الإسلام أبي محمد

الحجري : «عن أبي الربيع بن سالم يقول : صادف وقت وفاته (صاحب الترجمة) قحط فلما وضعت جنازتُه توسلوا به إلى الله فسُقوا ، وما اختلف الناس إلى قبره مدة الأسبوع إلا في الوحل» انتهى .

وقال ابن فرتون : حدثنا شيخنا الراوية محمد بن الحسن بن غاز عن بنت عمه وكانت صالحةً وكانت استحيضت مدة قالت : حدثت بموت ابن عبيد الله فشق عليّ أن لا أشهده فقلت : اللهم إن كان وليًّا من أوليائك فأمسك عني الدم حتى أصلي عليه ، فانقطع عني لوقته ثم لم أره بعد . انتهى .

وأسند الخطيب في التاريخ ١/١٢٠ عن شيخ الحنابلة أبي علي الخلاّل يقول : ما همني أمرٌ فقصدتُ قبر موسى بن جعفر الكاظم فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب .

- الاستسقاء بالميت :

أسند الخطيب في التاريخ ٨/١٨٢ : عن إسماعيل بن الحسين الصرصري يقول : استَسقى أبو عمر حمزة بن القاسم بن عبد العزيز الهاشمي فقال : اللهم إن عمر بن الخطاب استَسقى بشيبَة العباس فسقي وهو أبي وأنا أستسقي به ، قال : فأخَذَ يحول رِداءه ، فجاء المطر وهو على المنبر . انتهى .

- الاستسقاء بابن العشاري :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٢/١٩٢ : حكى أبو الحسين ابن الطيوري قال : قال لي بعض أهلِ البادية : إذا قحطنا استسقينا بابن العشاري فنسقى . انتهى .

- الاستسقاء بالإمام البخاري :

حكى الذهبي في السير ١٢/٤٦٩ في ترجمة الإمام البخاري رحمه الله : قال أبو علي الغساني أخبرنا أبو الفتح نصر بن الحسن السكتي السمَرقندي قدِم

علينا بلنسيةَ عام أربعة وستين وأربع مائة قال : قحطَ المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام فاستسقى الناس مرارًا فلم يسقوا ، فأتى رجلٌ صالحٌ معروفٌ بالصلاحِ إلى قاضي سمرقند فقال له : إني رأيت رأيًا أعرضه عليك ، قال : وما هو ؟ قال : أرى أن تخرُج ويخرُج الناس معك إلى قبر الإمام محمد ابن إسماعيل البخاري وقبره بخرنتك ونستسقي عنده فعسى الله أن يسقينا ، قال : فقال القاضي : نِعم ما رأيت ، فخرج القاضي والناس معه واستسقى القاضي بالناس وبكى الناسُ عند القبر وتشفعوا بصاحبه ، فأرسل الله تعالى السماء بماءٍ عظيمٍ غزيرٍ أقامَ الناس من أجله بخرنتك سبعة أيام أو نحوها لا يستطيع أحدٌ الوصولَ إلى سمرقند من كثرةِ المطر وغزارته ، وبين خرنتك وسمرقند نحو ثلاثة أميال .

- زيارة قبر النبي ﷺ :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٢/٢٥٥ في ترجمة أبي بكر أحمد ابن علي العلثي من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : حكى لي أنه كان إذا حجَ زار القبور بمكة ويجيء إلى عند قبر الفُضيل بن عياض ويخطط بعصاه الأرض ويقول يارب ههنا يارب ههنا فاستجاب الله له : قلت : توفى عشية عرفةَ على جبال عرفاتٍ محرمًا فحُمل إلى مكة وطيف به حول البيت ودفن عند قبر الفضيل بن عياض الزاهد ، وقال أبو الحسين : حج مرارًا وزار النبي ﷺ .

قال الذهبي في السير ١٨/٣٩٣ في ترجمة هياج بن عبيد الشافعي : يزور ابن عباس بالطائف كل سنة مرة . . . ويزور قبر النبي ﷺ كل سنة مع أهل مكة . . . وكان يمشي حافيًا من مكة إلى المدينة . انتهى .

قال الذهبي في السير ٤/٤٨٤ في ترجمة الحسن : زيارةُ قبره ﷺ من أفضلِ القُرب وشد الرحال إلى قبورِ الأنبياء والأولياء لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله صلوات الله عليه : « لا تُشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » فشد

الرحال إلى نبينا ﷺ مستلزمٌ لشد الرحل إلى مسجده فليبدأ بتحية المسجد ثم بتحية صاحب المسجد رزقنا الله وإياكم ذلك آمين .

- الاستعانة بقبر النبي ﷺ :

قال الذهبي في السير ٥/٣٨٥ في ترجمة محمد بن المنكدر : عن إسماعيل ابن يعقوب التيمي قال : كان ابن المنكدر يجلِس مع أصحابِهِ فكان يصيبهُ صمات فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي ﷺ ثم يرجع ، فعوتب في ذلك فقال : إنه يصيبهُ خطر فإذا وجدت ذلك استعنتُ بقبر النبي ﷺ .

- صوت يخرج من قبر الرسول ﷺ :

قال الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/٢٠٥ : عن أبي أيوب رجل من قريش : أن امرأةً من أهله كانت تجتهدُ في العبادة وتُديم الصيام وتُطيل القيام فأتاها الملعون (الشيطان) فقال : إلى كم تعُذبين هذا الجسم وهذه الروح لو أفطرت وقصرت عن الصيام والقيام كان أدوم لك وأقوى ؟ قالت : فلم يزل يوسوس لي حتى هممتُ والله بالتقصير ، قالت : ثم دخلت مسجد رسول الله ﷺ متعصمة بقبره وذلك بين المغرب والعشاء فحمدتُ الله وصليت على رسوله ثم ذكرت ما نزل بي من وسواس الشيطان واستغفرت وجعلت أدعو الله أن يصرف عني كيدهُ ووساوسَه قالت : فسمعتُ صوتًا من ناحية القبر ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (فاطر:٦) قالت : فرجعت مذعورة وجلة القلب ، فوالله ما عاودتني تلك الوسوسة بعد تلك الليلة .

- الاستغاثة بالنبي ﷺ :

قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ٣/٩٧٤ في ترجمة ابن المقري : روي عن أبي بكر بن أبي علي قال : كان ابن المقري يقول : كنت أنا والطبراني

وأبو الشيخ بالمدينة فضاق بنا الوقتُ فواصلنا ذلك اليوم فلما كان وقتُ العشاء حضرتُ القبر وقلت : يا رسول الله الجوع ، فقال لي الطبراني : اجلس فإما أن يكون الرزق أو الموت ، فقمت أنا وأبو الشيخ فحضر الباب علوي ففتحنا له فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شيء كثير . قال : شكوتموني إلى النبي ﷺ رأيتهُ في النوم فأمرني بحمل شيء إليكم . انتهى .

- الاستبراك بآثار رسول الله ﷺ حسن مطلوب :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب الحنبلي في المؤلفات ١٧٤/٤ : السابعة والعشرون إن التبرك بذلك وإمساكه والتداوي به ليس من الشرك كما كانوا يفعلون بآثار رسول الله ﷺ بل ذلك حسنٌ مطلوب . انتهى .

- الدعاء يستجاب عند القبور :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٢٨٧/٢ في ترجمة عثمان بن موسى الطائي : . . . توفى يوم الخميس . . . سنة أربع وسبعين وستمائة بمكة ويقال إن الدعاء يُستجاب عند قبره . انتهى .

قال الذهبي في السير ٢١٥/١٧ في ترجمة الشيخ أبي بكر محمد ابن الحسن بن فورك الأصبهاني : قال عبد الغافر في سياق التاريخ : الأستاذ أبوبكر قبره بالحيره يُستسقى به . وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٧٢/٤: مشهده بالحيرة يزار ويُستجاب الدعاء عنده .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٠١/٢ في ترجمة إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي : قال : وكان يواظِب على الدعاء يوم الأربعاء بين الظهرِ والعصرِ بمقابرِ الشُهداء من باب الصغير وقال : ما رأيتُ مثل هذا الدعاء أو أسرع إجابة منه يا الله يا الله يا أنت الله بلى والله أنت الله لا إله إلا أنت الله الله والله إنه لا إله إلا الله . حكى الذهبي في السير ٧٦/١٩، ٧٧ ، عن القاضي أبي الحسن الخلعي الشافعي راوي السيرة النبوية

مسند الديار المصرية : قال ابن الأنماطي : قبر الخلعي بالقرافة يُعرف بقبرِ قاضي الجن والإنس يُعرف بإجابة الدعاء عنده . انتهى .

أسند الخطيب في التاريخ ١٢٢/١ عن إبراهيم الحربي يقول : قبرُ معروف التِرياق المجرب . انتهى . ونقل أبو الفضل الزهري عن أبيه أن قبر معروف الكرخي مُجرب لقضاء الحوائج ويقال : إنه من قرأ عنده مائه مرة قل هو الله أحد وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته . وعن أبي عبد الله ابن المحاملي يقول : أعرف قبر معروفٍ الكرخي منذ سبعين سنة ما قصده مهمومٌ إلا فرج الله همه ، ثم ذكر الخطيب عدة قبور يستجاب الدعاء عندها .

وقال الذهبي في السير ١٠٧/١٠ في ترجمة نفيسة ابنة أمير المؤمنين الحسن بن زيد بن السيد سبط النبي ﷺ : . . . قيل كانت من الصالحات العوابد والدعاء مستجابٌ عند قبرها بل وعند قبور الأنبياء والصالحين وفي المساجد وعرفة ومزدلفة وفي السفر المباح وفي الصلاة وفي السحر ومن الأبوين ومن الغائبِ لأخيه ومن المضطرِ وعند قبورِ المُعذبين وفي كل وقتٍ وحين . لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠) ، ولا ينهى الداعي عن الدعاء في وقت إلا وقت الحاجة وفي الجماع وشبه ذلك ويتأكد الدعاء في جوف الليل ودبر المكتوبات وبعد الأذان . انتهى . وعقد الإمام الجزري في « الحصن الحصين » فصلاً لأماكن إجابةِ الدعاء فقال : إن الدعاءَ مستجابٌ عند رؤيةِ الكعبة . . وورد مجربًا في مواضع كثيرةٍ مشهورةٍ في المساجد الثلاثة وبين الجلالتين في سورة الأنعام وفي الطواف وعند الملتزم . انتهى .

وقال الشوكاني في تحفة الذاكرين صـ ٦٣ معلقًا على كلام الجزري بما نصه : وجه ذلك مزيدُ الشرفِ ونزول البركةِ وقد قدمنا أنها تسري بركة المكان على الداعي كما تسري بركة الصالحين الذاكرين الله سبحانه على من دخل فيهم من ليس هو منهم كما يفيد قوله ﷺ : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ».

- استبراك الشافعي رحمه الله بقبر الإمام أبي حنيفة رحمه الله والدعاء عند قبره :

أسند الخطيب في التاريخ ١٢٣/١ : « عن علي بن ميمون قال : سمعت الشافعي يقول إني لأتَبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائراً فإذا عرضت لي حاجةٌ صليت ركعتين وجئت إلى قبرهِ وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضى » . انتهى .

- الميت يدفع عذاب جاره بل ينور قبره :

أسند الخطيب في التاريخ ١٢٢/١ : عن أبي يوسف بن بختان قال : لما مات أحمد بن حنبل رأى رجل في منامه كأن على قبره قنديلاً فقال : ما هذا ؟ فقيل له : أما علمت أنه نوّر لأهل القبورِ قبورهم بنزول هذا الرجلِ بين أظهُرهم قد كان فيهم من يعذب فرُحم . انتهى .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٣٩/١ في ترجمة طلحة بن أحمد العاقولي أبي البركات : « يقول : كان لي صديقٌ اسمه ثابت ، وكان رجلاً صالحًا يقرأ القرآن ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فتوفي ، فلم أصل عليه لعذر منعني ، فرأيتهُ في المنام فسلمت عليه فلم يردّ عليّ السلام وأعرض عني ، فقلت : يا ثابت ما تُكلمني وأنت صديقي وبيني وبينك مودة ؟ فقال : أنت صديقي ولم تصل عليّ ؟ فاعتذرت إليه ثم قلت له : حدثني كيف أنت بقبر أحمد بن حنبل ؟ لأنه دفن هناك فقال : ليس في قبر أحمد أحدٌ يعذب بالنار » انتهى .

وقال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٨٨/١ : أوصى عبد الله ابن الإمام أحمد أن يدفن بالقطيعة بباب التبن قلت : لم قلت ذاك ؟ فقال : قد صَح عندي أن بالقطيعة نبيًّا مدفونًا وأن أكون في جوارِ نبي أحب إليّ من أن أكون في جوار أبي .

وقد أسند الخطيب في التاريخ ١/١٢١ عن أبي يعلى الحنبلي عن طاهر ابن أبي بكر قال : حكى لي والدي عن رجلٍ كان يختلفُ إلى أبي بكرٍ بن مالك أنه قيل له : أين تحب أن تُدفن إذا متَّ ؟ فقال : بالقطيعة وإن عبدَ الله ابن أحمد بن حنبل مدفونٌ بالقطيعة وقيل له يعني لعبد الله في ذلك قال : وأظنه كان أوصى بأن يدفنَ هناك وقال : قد صح عندي أن بالقطيعة نبيًّا مدفونًا ولأن أكون في جوارِ نبيٍّ أحب من أكون في جوار أبي . انتهى .

- القبور تدفع البلايا :

أسند الخطيب في التاريخ ١/١٢١ عن أحمد بن العباس يقول : خرجب من بغداد فاستقبلني رجلٌ عليه أثرُ العبادة فقال لي : من أين خرجت ؟ قلت : من بغداد هربتُ منها لما رأيت فيها الفساد خفت أن يُخسف بأهلها ، فقال : ارجع ولا تخف ، فإن فيها قبور أربعةٍ من أولياء الله هم حصن لهم من جميع البلايا ، قلت من هم ؟ قال : ثَم الإمام أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار ، فرجعت وزرت القبور ولم أخرج تلك السنة . انتهى .

- الخضر عليه السلام حيّ :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٧٧ : وكتاب الإفصاح فيه فوائدُ جليلة غريبة . وقال فيه : الخضر الذي لقيه موسى عليه السلام قيل كان ملكًا وقيل كان بشرًا وهو الصحيح ثم قيل إنه عبد صالح ليس نبيًّا وهو الصحيح ، والصحيح عندنا أنه حيٌّ وأنه يجوز أن يقف على باب أحدٍ مستعطيًا له وغير ذلك لما حدثني محمد بن يحيى الزبيدي وذكر عنه حكايات تتضمن رؤية الخضر والاجتماع به .

- الخضر عليه السلام ينصح عمر بن عبد العزيز :

قال الذهبي في السير ٥/١٢٢ : عن رياح بن عبيدة قال : خرج عمر

ابن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متكئ على يده فقلت في نفسي : هذا شيخٌ جافٍ ، فلما صلى ودخل لحقته فقلت : أصلح الله الأمير من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك ؟ فقال : يا رياح رأيته ؟ قلت : نعم ، قال : ما أحسبك إلا رجلاً صالحًا ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر الأمة وأني سأعدل فيها .

وقال الذهبي في السير ٥٣/١٩ في ترجمة أبي الفرج الحنبلي : يقال : إنه اجتمع بالخضر عليه السلام مرتين .

- الخضر عليه السلام يعلم الغيب :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٢٤٠/١ في ترجمة إبراهيم بن دينار أبي حكيم : قال ابن الجوزي : رأيت بخطه يعني أبا حكيم على ظهر جزءٍ له : رأيت ليلة الجمعة عاشر رجب سنة خمس وأربعين فيما يرى النائم كأن شخصًا في وسط داري قائمًا قلت : من أنت ؟ قال : الخضر قال : تأهب للذي لا بد منه من الموت الموكل بالعباد ، ثم كأنه علم أني أريد أن أقول له : هل ذلك عن قربٍ ؟ فقال : قد بقي من عمرك اثنا عشر سنة تمام سني أصحابك وعمري يومئذ خمس وستون سنة قال ابن الجوزي : فكنت دائمًا أترقب صحة هذا . . . وتوفي يوم الثلاثاء بعد الظهر ثالث عشر جمادى الآخرة من سنة ست وخمسين وخمس مائة فكان مقتضى حساب منامه أن يبقى له سنة فتأولت ذلك وقلت : لعله دخول سنة لا تمامُها أو لعله رأى في آخر سنة ومات في أول الأخرى أو لعلها من السنين الشمسية . انتهى .

- الخضر عليه السلام يطعم الجائع :

قال الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ١٩٧/٢ : عن مصعب بن ثابت ابن عبد الله بن الزبير : وكان مصعب يصلي في اليوم والليلة ألف ركعةٍ ويصوم الدهر ، قال : بت ليلةً في المسجد بعدما خرج الناس منه فإذا برجلٍ قد جاء

إلى بيت النبي ﷺ فأسند ظهره إلى الجدار فقال : اللهم إنك تعلم أني كنت صائمًا ثم أمسيتُ فلم أفطر على شيءٍ اللهم فإني أمسيت أشتهي الثريد فأطعمنيه من عندك قال : فنظرتُ إلى وصيف داخل من خوخة المنارة ليس في خِلقة وصفاء الناس ومعه قصعة فأهوى بها إلى الرجل فوضعها بين يديه وجعل الرجل يأكل وحصبني ، فقال : هلم فجئته وظننت أنها من الجنة فأحببت أن آكل منها فأكلت منها لقمة فأكلت طعامًا لا شبه طعام أهل الدنيا ، ثم احتشمت فقمت فرجعت لمجلسي ، فلما فرغ من أكله أخذ الوصيف القصعة ثم أهوى راجعًا من حيث جاء ، وقام الرجل منصرفًا فتبعته لأعرفه فلا أدري أين سلك فظننته الخضر عليه السلام .

- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وسفره للحج مع الخضر عليه السلام :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/١٩١ في ترجمة عبد الله بن محمد أبي القاسم بن أحمد بن منيع : قال أبو الطيب قال لي أبو القاسم البغوي قال لي أحمد بن حنبل : خرجت أشيع الحاج إلى أن صرت في ظهر القادسية فوقع في نفسي شهوة الحج ففكرت فقلت : بماذا أحج وليس معي إلا خمسةُ دراهم أو قيمة ثيابي خمسة شك الراوي فإذا أنا برجلٍ قد عارضني وقال : يا أبا عبد الله اسم كبير ونية ضعيفة عارضك كذا وكذاً ؟ فقلت : كان ذاك ، فقال : تعزم على صحبتي ؟ فقلت : نعم ، فأخذ بيدي وعارضنا القافلة فسرنا بسيرها إلى وقت الرواح وهو بين العشاء والعتمة ونزلنا فقال : تعزم على الإفطار ؟ فقلت : ما بي ذلك ، فقال لي : قم فأبصر أي شيء هناك فجيء به فأصبت طبقًا فيه خبزٌ حار وبقل وقصعة فيها عراق يفور وزق فيه ماء فجئت به وهو قائم يصلي فأوجز في صلاتة فقال : يا أبا عبد الله كل ، فقلت : فأنت ؟ فقال : كل ودعني أنا ، فأكلت وعزمت على أن أدخر منه فقال لي : يا أبا عبد الله إنه طعام لا يدخر ، فكان هذا سبيلي معه كذلك ، فقضينا حجنا

وكان قوتي مثل ذلك حتى وافينا إلى الموضع الذي أخذني منه فودعني وانصرف ، فقال أبو الطيب للبغوي : أتعرف الرجل ؟ فقال : أظنه الخضر عليه السلام . انتهى .

- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وعلاجه في أيام الضرب من الطبيب الجني الهندي بماء الجنة :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/١٩٥ في ترجمة عبد الله بن محمد ويعرف بفوزان : قال أبو بكر المطوعي : حدثنا فوزان ، قال : دخل السجنَ على أبي عبد الله شابٌ بعد ضربه ومعه قارورة فيها ماء رائحته رائحة المسك وقد هاج عليه الضرب في اليوم الثالث وصعب قال : فأتاه الشاب فقال : أقسمتُ عليك بالله إلا مكنتني من علاجك ، فتركه أبو عبد الله فصب عليه ذلك الماء ومسحه فهدأ الضرب وسكن ، فلما رأى ذلك السجان تبع الشاب فقال : لو أعطيتني من هذا الماء ، فقال : إن ذلك لا يستقيم إنه من ماء الجنة أنزله لعقبة آدم بأرض الهند وأنا من سكان ذلك المكان من الجن ، ثم غاب عن عينه فأقبل السجان مذعوراً . انتهى .

- المشي على الماء :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقت الحنابلة ٢/١٣٨ في ترجمة شيخ الإسلام موفق الدين يقول : قرأت بخط الحافظ الذهبي : سمعت رفيقنا أبا طاهر أحمد الدريبي سمعت الشيخ إبراهيم بن أحمد بن حاتم وزرت معه قبر الشيخ الموفق ، فقال : سمعت الفقيه محمد اليونيني شيخنا يقول : رأيت الشيخ الموفق يمشي على الماء .

وحدث العفيف كتائب بن أحمد بن مهدي البانياسي بعد موت الشيخ الموفق بأيام قال : رأيت الشيخ الموفق على حافةِ النهر يتوضأُ فلما توضأً أخذ قبقابه ومشى على الماء إلى الجانب الآخر ، ثم لبس القبقابَ وصعد إلى المدرسة يعني مدرسة أخيه أبي عمر ، ثم حلف كتائب بالله : لقد رأيته ومالي

في الكذبِ حاجةٌ وكتمت ذلك في حياته ، فقيل له : هل رآك ؟ قال : لا ، ولم يكن ثَمَّ أحدٌ وذلك وقت الظهر فقيل له : هل كانت رجلاه تغوصُ في الماء ؟ قال : لا كأنه يمشي على وطأ رحمه الله . انتهى .

- الطيران في الفضاء والتصرف في الكون :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي على طبقات الحنابلة ١٣٨/٢ في ترجمة شيخ الإسلام موفق الدين ، قال : حكى أبو الحسن بن حمدان الجرائحي قال : مرضت مرضًا شنج أعضائي وأقمت سبعة أيام لا أتحرك وتمنيت الموت ، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ عليَّ آيات ... وقال : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الإسراء:٨٢) ومسح على ظهري فأحسستُ بالعافية وقام فقلت : يا جارية افتحي له الباب فقال : أنا أروح من حيث جئت وغاب عن عيني ، فقمت من ساعتي إلى بيتِ الوضوء فلما أصبحت دخلتُ الجامع ، فصليت الفجر خلف الموفق وصافحته فعصر يدي وقال : احذر أن تقول شيئًا ، فقلت : أقول وأقول ، وقال قوام جامع دمشق : كان ليلة يبيت في الجامع فتفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها . انتهى .

- قوَّام الأرض :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٠٣/٢ في ترجمة الشيخ عماد الدين المقدسي : حدثني عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار أن زوجته عائشة بنت خلف ابن راجح حدثته أنها رأت في النوم قائلاً يقول : قولوا للعماد يدعو لكم فإنه من السبعة التي تقوم بهم الأرض .

- الأعمى برئ باستخدام رغيف الشيخ رحمه الله :

يقول يوسف بن عبد الهادي في الذيل على طبقات ابن رجب صـ ١١١ في

ترجمة يوسف بن محمد المرداوي الحنبلي ، يحكى عنه : أنه لما جاء القاصد بتوقيع القضاء من مصر جاء بيته فسأل عنه ؟ فقيل له : ذهب يخبز ، وإذا به بعد ساعة قد أقبل والطبق على رأسهِ فدفع ذلك فناوله رغيفين فغضبَ وأخذهما وقال : لا آكلهما حتى يراهما السلطان وأنه ذهب بهما إلى مصر ، فلما كان في بعض الطريق حصل جوعٌ فأكل أحدهما وذهب بالآخر فدفعه إلى السلطان وأخبره بالخبر فأعطاه مائة دينار وقال : لو جئت بالآخر أعطيتك مائة دينار ، فلما كان بعد مدة عمي الرسول فافتقده السلطان فقيل : إنه عمي ، فأمر بإحضاره فجيء به فدق من ذلك الرغيف وكحله به فبرأ فقال : هذا من ذلك الرغيف الذي أتيت به أما هذا معناه . انتهى .

- النمل تخرج من دار الإمام أحمد بن حنبل ثم لا تعود إليها :

قال الذهبي في السير ١١/٢١٨ : قال عبد الله : رأيت أبي حرّج على النمل أن يخرجوا من داره ، فرأيت النمل قد خرجن بعدُ نملاً سوداً ، فلم أرهم بعد ذلك .

- القفل يفتح بالكلام :

قال الذهبي في السير ١١/١٩١ : قال الخلال : حدثنا علي بن سهل ، قال رأيت يحيى بن معين عند عفان ومعه أحمد بن حنبل فقال : ليس هنا اليوم حديث ، فقال يحيى : ترد أحمد بن حنبل وقد جاءك ؟ فقال : الباب مقفل والجارية ليست هنا ، قال يحيى : أنا أفتح ، فتكلم على القفل بشيء ففتحه ، فقال عفان : أفشاش أيضًا ، وحدثهم .

- رؤية عمر بن عبد العزيز الملائكة قبل موته :

قال الذهبي في السير ٥/١٤١ : عن ليث بن أبي رقية أن عمر ابن عبد العزيز قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاثًا ، ولكن لا إله إلا الله ثم أحد النظرَ وقال إني لأرى

خضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قُبض ، وروى نحوها أبو يعقوب الخطابي عن السري بن عبيد الله . انتهى .

- رؤية الملائكة :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٧٥ في ترجمة يحيى بن محمد الوزير أبي المظفر : سمعته يقول : كنت جالسًا في سطحٍ أصلي على النبي ﷺ وعيناي مُغمضتان فرأيتُ كتابًا يكتب في قرطاسٍ أبيضٍ بمدادٍ أسودٍ ما أذكره وكلما قلت : اللهم صل على محمدٍ كتب الكاتب اللهم صل على محمدٍ ، فقلت لنفسي : افتح عينك وانظر بها ، ففتحت عيني فخطف عن يميني حتى نظرت بياض ثوبه وهو شديد البياض فيه صقالة .

- رؤيته في السماء بابًا مفتوحًا :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٧٦ : ذكر الوزير كتابه «الإفصاح» قال : الصحيح عندي أن ليلةَ القدر تنتقلُ في أفراد العشر فإنه حدثني من أثق به أنه رآها ، في ليلةِ سبعٍ وعشرين ، وحدثني أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله أنه رآها ، فأما أنا فكنت في ليلة إحدى وعشرين وكانت ليلة جمعة فواصلت انتظارها بذكرِ الله عز وجل ولم أنم تلك الليلة فلما كان وقت السحر وأنا قائم على قدمي رأيت في السماء بابًا مفتوحًا مربعًا عن يمين القبلة قدرت أنه على حجرةِ رسول الله ﷺ فبقي على حاله وأنا أنظر إليه نحو قراءة مائة آيه ولم يزل حتى التفت عن يساري إلى المشرق لأنظر هل طلع الفجر فرأيت أول الفجر فالتفت إلى ذلك الباب فرأيته قد ذهب ، وكان ذلك مما صدق عندي ما رأيت .

- التصرف :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٢/١٠٠،١٠١ في ترجمة الشيخ عماد الدين المقدسي : قال : كنت أمشي خلف الشيخ العماد

في السوق الكبير فإذا صوت طنبور ، فلما وصلنا إلى عند صاحبه قال الشيخ : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ونفض كمهُ ، فرأيت صاحب الطنبور قد وقع وانكسر طنبوره فقيل لصاحب الطنبور : إيش ؟ قال ما أدري .

- عليم بذات الصدور :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٠١/٢ في ترجمة الشيخ عماد الدين المقدسي ، قال : ذكر الحافظ الضياء في كتاب الحكايات المقتبسة من كرامات مشايخ الأرض المقَدسة فصلاً في كراماته وقرأته بخطه قال : سمعت الشيخ المجاب الدعوة أنا أحمد نصر بن محمد المرداوي بها يقول : جاء إلى عندنا الشيخ العماد وكنت أشتهي أن أسأله عن أشياء فكنت أستحي فكان يبتدئ ويذكر كل ما أريد أن أسأل عنه . انتهى .

وسمعت عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار يقول : حدثني أبو الحسن ابن مشرق العطار ، قال : أصابني جنابة ففاتتني الصلاة يعني صلاة الفجر ، ثم اغتسلتُ وقضيتها في النهار وأتيت إلى صلاة الظهر معه فوجدت في التشهد فصليت وسلمت عليه فقال : يا فلان تفوتك في يوم صلاتان ، فقلت : يا سيدي أنا تائب .

قال : وسمعت بعض أهلنا يقول كنتُ ربما احتجت إلى شيء من الملبوس أو أشتهي شيئًا من المأكول فما أعلم حتى يبعث إليَّ الشيخ يعني العماد بالذي أحتاج إليه أو أشتهيه . انتهى .

- الاطلاع على أسرار الرجل والمرأة :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٠٢/٢ في ترجمة الشيخ عماد الدين المقدسي : حدثني أبو الربيع سليمان بن إبراهيم الأسعردي وغيره أنهم كانوا عند الشيخ في مسجده يومًا فقال لرجلٍ : اخرج

إلى هذا الرجل والمرأة اللذين خلف المسجدِ واطردهما من ها هنا ، فخَرج فإذا رجلٌ وامرأة يتحدثان ، ففرق بينهما . انتهى .

- كشف الصدور وتأييد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله له :

حكى الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٩٦ في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلي البغدادي ، عن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول رحمه الله : حدثني الشيخ عز الدين أحمد بن إبراهيم الفاروقي أنه سمع الشيخ شهاب الدين السهروردي صاحب العوارف قال : كنت قد عزمتُ على أن أقرأَ شيئًا من علم الكلام وأنا مترددٌ هل أقرأ الإرشاد لإمام الحَرمين أو نهايةُ الإقدام للشهرستاني أو كتابًا آخر ذكره ، فذهبتُ مع خالي إلى النجيب وكان يصلي بجنب الشيخ عبد القادر ، قال فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي : يا عمر ما هو من زاد القبر ما هو من زاد القبر ، فرجعتُ عن ذلك . قال الشيخ تقي الدين : ورأيت هذه الحكاية معلقةً بخطِ الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي رحمه الله . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإخباره عن المغيبات نظرًا إلى اللوح المحفوظ :

يحكي الشيخ ابن قيم الجوزية في مدارجِ السالكين شرح منازلِ السائرين ٢/٤٨٣ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول : أخبر أصحابهُ بدخولِ التتار الشام سنة تسع وتسعين وست مائة وأن جُيوش المسلمين تُكسر وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولاسبي عام وأن كلبَ الجيش وحدته في الأموال ، وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة ، ثم أخبر الناسَ والأمراء سنة اثنين وسبع مائة لما تحركَ التتارُ وقصدوا الشام أن الدائرةَ والهزيمةَ عليهم وأن الظفرَ والنصرَ للمسلمين وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينًا فيقال له : قل إن شاء الله ، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا ، وسمعته يقول ذلك ، قال : فلما

أكثروا عليَّ قلت : لا تكثِروا كتبَ الله تعالى في اللوح المحفوظ أنهم مهزومـون في هذه الكرة وأن النصر لجيوشِ الإسلام . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإخباره عن عدة مغيبات :

حكى الشيخ ابن قيم الجوزية في مـدارج السـالكين شـرح منـازل السـائرين ٤٨٣/٢ لمـا طُلـب (شـيخ الإسـلام) إلى الـديارِ المصـرية وأُريـد قتلـه بعـدما أنضِجت له القُدور وقلبت له الأمور اجتمع أصحابه لوداعـه وقـالوا قـد تـواترت الكتب بأن القومَ عاملون على قتلك فقال : والله لا يصلون إلى ذلك أبدًا ، قالوا : أفتحبس ؟ قال : نعم ويطـول حبسـي ثـم أخـرج وأتكلـم بالسـنة علـى رؤوسِ الناس ، سمعتـه يقـول ذلـك ، ولمـا تـولى عـدوه الملقـب بالجاشـنكير المُلـك أخبروه بذلك وقالوا : الآن بلغ مرادهُ منك فسجد لله شكرًا وأطال فقيـل لـه : ما سبب هذه السجدة ؟ فقال : هذا بداية ذلّة ومفارقة عزة مـن الآن وقـرب زوال أمره فقيل : متى هذا ؟ فقال : لا تربط خيول الجنـد علـى القـرط حتـى تغلـب دولته ، فوقع الأمر مثل ما أخبر به ، سمعت ذلك منه .

وقال مرة : يدخل عليّ أصحابي وغيرهم فأرى في وجوههم وأعينهم أمورًا لا أذُكرها لهم فقلت له أو غـيري : لـو أخـبرتهم ؟ فقـال : أتريـدون أن أكـون معرفًا كمعرفِ الـولاة ، وقلـت لـه يومًـا : لـو عاملتنـا بـذلك لكـان أدعـى إلى الاستقامة والصلاح فقال : لا تصبرونَ معي علـى ذلـك جمعـةً أو قـال شـهرًا ، وأخبرني غير مرة بأمورٍ باطنةٍ تخـتصُ بـي ممـا عزمـت عليـه ولـم ينطـق بـه لساني ، وأخبرني ببعض حوادثٍ كبارٍ تجري في المستقبل ولم يعـين أوقاتهـا ، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها ، وما شاهد كبار أصحابه من ذلـك أضـعاف أضعاف ما شاهدته ، والله أعلم . انتهى .

- **شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والاطلاع على الخواطر والمغيبات:**

ذكر الحافظ عمر بن علي البزار في «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» صـ ٥٦ يقول: أخبروني غير واحد من الثقاتِ ببعض ما شاهده من كراماتٍ، وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار، وأبدأُ من ذلك ببعض ما شاهدته فمنها اثنين: جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعة في عدة مسائل وطال كلامنا فيها وجعلنا نقطع الكلام في كل مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها، ثم إن الشيخ رضي الله عنه حضر فلما هممنا بسؤاله عن ذلك سَبقنا هو وشرع يذكر لنا مسألة مسألة كما كنا فيه، وجعل يذكر غالب ما أوردناه في كل مسألةٍ، ويذكر أقوالَ العلماء ثم يرجح منها ما يرجحه الدليلُ حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأل عنه وبين لنا قصدنا أن نستعمله منه.

فبقيتُ أنا وصاحبي ومن حضرنا أولاً مبهورين متَعجبين مما كاشفنا به، وأظهرهُ الله عليه مما كان في خواطِرنا. وكنت في خلال الأيام التي صحبته فيها إذا بحث مسألة يحضر لي إيراد فما يستتم خاطري به حتى يشرع فيورده ويذكر الجواب من عدة وجوهٍ.

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحرمي أنه سافر إلى دمشق، قال: اتفق أني لما قدِمتها لم يكن معي شيء من النفقةِ البتة وأنا لا أعرفُ أحدًا من أهلها، فجعلت أمشي في زقاقٍ منها كالحائرِ فإذا شيخٌ قد أقبل نحوي مسرعًا فسلمَ وهشَ في وجهي ووضع في يدي صُرةً فيها دراهم صالحة وقال لي: أنفق هذه الآن وخلي خاطرك مما أنت فيه فإن الله لا يضيعك، ثم رد على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي، فدعوت له وفرحت بذلك وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟ فقال: وكأنك لا تعرفه هذا ابن تيمية لي مدة طويلة لم أرهُ اجتاز بهذا الدرب.

وكان جلّ قصدي من سفري إلى دمشق لقاءهُ فتحققتُ أن الله أظهرهُ عليَّ وعلى حالي فما احتجت بعدها إلى أحدٍ مدة إقامتي بدمشق بل فتح الله عليَّ

من حيث لا أحتسب ، واستدللت فيما بعد عليه وقصدت زيارته والسلام عليه فكان يكرمني ويسألني عن حالي فأحمد الله تعالى إليه .

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله بن الشيخ أحمد بن سعيد قال : سافرت إلى مصر حين كان الشيخ مقيمًا بها ، فاتفق أني قدمتها ليلاً وأنا مثقلٌ مريضٌ فأنزلت في بعض الأمكنة ، فلم ألبث أن سمعت من ينادي باسمي وكنيتي فأجبته وأنا ضعيف ، فدخل إليَّ جماعةٌ من أصحابِ الشيخِ ممن كنتُ قد اجتمعت ببعضهم في دمشق فقلت : كيف عرفتم بقدومي وأنا قدمت هذه الساعة ، فذكروا أن الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض وأمرنا أن نُسرع بنقلك ، وما رأينا أحدًا جاء ولا أخبرنا بشيء ، فعلمت أن ذلك من كرامات الشيخ رضي الله عنه . وحدثني أيضًا قال : مرضتُ بدمشق إذ كنت فيها مرضةً شديدةً منعتني حتى من الجلوسِ فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي وأنا مثقلٌ مشتد بالحمى والمرض ، فدعا لي وقال : جاءت العافية ، فما هو إلا أن فارقني وجاءت العافية وشفيت من وقتي .

. . . وحدثني أيضًا قال: أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال: قدمت على الشيخ ومعي حينئذٍ نفقة فسلمت عليه فرد عليَّ ورحَب بي وأدناني ولم يسألني هل معك نفقةٌ أم لا ، فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتي وأردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه فمنعني وأجلسني دونهم ، فلما خلا المجلس دفع إليَّ جملة دراهم وقال: أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذه ، فعجبت من ذلك وعلمت أن الله كشفه على حالي أولاً لما كان معي نفقة وآخرًا لما نفدت واحتجت إلى نفقة .

وحدثني من لا أتهمه : أن الشيخ رضي الله عنه حين نزل المغل بالشامِ لأخذ دمشق وغيرها رجف أهلها وخافوا خوفًا شديدًا وجاء إليه جماعةٌ منهم وسألوه الدعاء للمسلمين فتوجه إلى الله ثم قال : أبشروا فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثلاث حتى ترون الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض ، قال الذي

حدثني : فوالذي نفسي بيده أو كما حلف ما مضى إلا ثلاث مثل قوله حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض .

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النسّاج أن الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يعود المرضى بالبيمارستان (أي المستشفى) بدمشق في كل أسبوع فجاء على عادته فعادهم فوصل إلى شاب منهم فدعا له فشفي سريعًا ، وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه فلما رآه هش له وأدناه ثم رفع إليه نفقةً وقال : قد شفاكَ الله فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك ، أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعًا ضيعة وتقيم هنا ؟ فقبل يده وقال : يا سيدي أنا تائبٌ إلى الله على يدك ، وقال الفتى : عجبت مما كاشفني به وكنت قد تركتهم بلا نفقةٍ ولم يكن قد عرف بحالي أحد من أهل دمشق . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان صوفيًّا من الطريقة القادرية :

قد كتب بروفيسر جورج مقدسي ثلاثة مقالات عن ابن تيمية ومنها أن ابن تيمية صوفي من الطريقة القادرية في مجلة (The American gaurnal Of Arabic Studices . Part 1 , Page 118-1973 , 129) واستند فيه إلى سِلسلة شيوخِ ابن تيمية التي تَبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ عبد القادر المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد ، واستند كذلك إلى الاحترام والتقدير اللذين يُبينهما ابن تيمية في كتاباته للشيخ عبد القادر ، فهو في رسائله وكتبه يُشير إلى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الذي يشير فيه الإمام أحمد بن حنبل ، من خلال الألقاب التي يسبغها عليه ، فهو قطب العارفين وهو شيخنا أبو محمد قدس الله روحه وهو أعظمُ زمانه أمرًا بالتزام الشرع ، والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمرًا بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق ، ومن أعظم المشايخ أمرًا بترك الهوى والإرادة النفسية ، وإذا ضرب ابن تيمية مثلاً قال : ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ ، وهو كثير الاستشهاد به كنموذج يُقتدى به في الاعتقاد والسلوك ، وكذلك شرح ابن تيمية

مقتطفاتٍ كثيرةٍ من أقوال عبد القادر وشرح كتابه فتوح الغيب في مئات الصفحات التي تضمنها المجلد العاشر من الفتاوى المسمى كتاب علم السلوك، وخلال هذه الشروح يقدم ابن تيمية الشيخ عبد القادر ، كنموذجٍ يُجسد الالتزام الصحيح بالكتاب والسنة ، وهناك بعض الإشارات في كتب ابن تيمية تدل على أنه كان لأسرته صلة روحية بالشيخ عبد القادر فمثلاً يذكر في كتاب علم السلوك ما يلي : حدثني أبي عن محيي الدين النحاس وأظنني سمعتها منه أنه رأى الشيخ عبد القادر في منامه وهو يقول أخباراً عن الحق تعالى من جاءنا تلقيناه . . . ثم مضى في شرح هذه العبارة في صفحات . انتهى . حكاها ماجد أرسان الكيلاني في الفكر التربوي عند ابن تيمية ــ ابن تيمية في الدراسات الأجنبية المعاصرة صـ ٢١-٢٧ نشرته مكتبة التراث بالمدينة المنورة ١٤٠٧ هـ ترجم تلك المقالة إلى الأردوية محمد سهيل عمر في مجلة راويت بمكتبة روايت ، لاهور ـ باكستان برقم ١ صـ ١٥٧-١٧٧ ، سنة ١٩٨٣ م .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وحصوله على الخرقة الصوفية :

قد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فصل مستقل من كتابه منهاج السنة ٤/١٥٥، ١٥٦ طبعة المكتبة السلفية بلاهور باكستان سنة ١٣٩٦ هـ ، أسانيد الخرقات للصوفية وأثبت الحقَّ وأبطل الباطلَ منها ثم ذكر سند خرقته بقوله : وقد كتبت أسانيدَ الخرقة لأنه كان لنا فيها أسانيد فبينتها لتعرف الحق من الباطل ولهم أسانيد أخر بالخرقة المنسوبة إلى جابر وهو منقطع جدًّا . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإثبات منزلته من تاج العارفين وروح المعاني وقطب الكون والأبدال ونحوها :

ذكر الحافظ ابن عبد الهادي الحنبلي السفلي في العقود الدرية قصيدةً طويلةً من نُظم الشيخ عبد الله بن خضر بن عبد الرحمن الرومي يرثي الشيخ تقي الدين بن تيمية وهو أحد أصحابه ننقل بعض الأبيات التي تتعلق بالموضوع :

أتانـــا بأوصـــافِ الأئمـــةِ كلـــها وصنفَ كتبًـــا في صـــفاتِ الأئمـــة .
أتانـــا بوصـــفِ الصـــالحين وحـــالهمِ وماهم عليه مـــن جميـــلِ العقيـــدة .
فمن كان قُطب الكونِ في حال عصره سواهُ ومن كان قـــد فـــاز بالبدليـــة .
فمن كـــان تـــاج العـــارفين لوقتنـــا وشيخِ الهدى قـــل لي بغـــير حَميـــة .
هو الحبرُ والقطبُ الذي شاع ذكـــرهُ وفـــاح شـــذاهُ كـــالعبير المفتـــت .

وله قصيدة أخرى ذكرها الحافظ ابن عبد الهادي في العقود الدرية ٣٢٠ :

قُطب الزمان وتاج النـــاس كلـــهمو روحُ المعاني حوى كـــل العبـــادات .
قُطب الحقـــائق حـــاروا في فضـــائلهِ أهلُ التصوف أصحابُ الرياضـــات .

– شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغداؤه بالأذكار والأوراد :

قال الشيخ ابـن القـيم الجوزيـة في الوابـل الصـيب صــ ٧١ : حضـرت شـيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجـر ثـم جلسَ يـذكُر الله تعـالى إلى قريبًـا مـن انتصاف النهار ثم التفت إليَّ وقال : هـذه غُـدوتي ولـو لم أتغـد الغـداء سـقطت قوتي أو كلاهما قريبًا من هذا : وقال لي مرةً : لا أترك الـذِكر إلا بنيـةِ إجمـام نفسي وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر أو كلامًا هذا معناه ، انتهى .

– شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجنته في الدنيا قبل جنة الآخرة :

حكى الإمام ابن القيم الجوزية في الوابل الصيب صــ ٨١ عـن شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمـه الله يقـول : إن في الـدنيا جنـةً مـن لم يدخلـها لا يـدخل جنـةَ الآخرة ، وقال لي مرةً : ما يصنعُ أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوةٌ وقتلي شهادةٌ وإخراجي من بلدي سياحةٌ . قال : سبحان من أشهد عبادَه جنته قبل لقائه وفـتح لهـم أبوابهـا في دار العمل فآتاهُم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قـواهم لطلبهـا والمسـابقة إليها .

- الشيخ الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وموقفه من إثبات طرق الصوفية :

يقول الشيخ رحمه الله في رسالته الهدية السنية صـ ٥٠ : ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطنِ من رذائلِ المعاصي المتعلقة بالقلبِ والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي والمنهج القويم المرعي . انتهى .

- التصوف يثبته الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في عدة مواضع من كتبه :

يقول رحمه الله في القسم الثالث من المؤلفات ٣١ : اعلم أرشدك الله أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذي هو العلمُ النافع ودين الحق الذي هو العملُ الصالح إذا كان من ينتسب إلى الدين ، منهم من يتعانى بالعلم والفقه ويقول به كالفقهاء ، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية فبعثَ الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين . انتهى .

ثم يقول في القسم الثاني من المؤلفات صـ ٤ : اعلم رحمك الله أن أربع هذه الكلمات مع اختصارهن يدور عليها الدين سواء كان المتكلم في علم التفسير أو في علم الأصول أو في علم أعمال القلوب الذي سمي علم السلوك . انتهى .

ويقول رحمه الله في ملحق المصنفات صـ ١٨٢ : ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ لفظه ومعناه . . فأخبر عنهم بكمال بر القلوب مع كمال عُمق العلم وهذا قليل في المتأخرين كما يقال : من العجائب فقيه صوفي وعالم زاهد .

ويقول رحمه الله في ملحق المصنفات صـ ١٢٤ : فنفس محبته أصل عبادته والشر فيها أصل الشرك . . . ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون يوصون كثيراً بمتابعة العلم .

ويقول رحمه الله في القسم الرابع من المؤلفات صـ ٨٤ : لما كان صلاح القلب واستقامته في طريق سيره إلى الله تعالى . . . ومدار رياضة أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة .

- الحافظ ابن القيم الجوزية رحمه الله وتصوفه :

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ٢/٤٤٨ : كان عالمًا بعلومِ السلوك وكلام أهل التصوف وإرشاداتهم ودقائقهم ، وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلى الله والانكِسار له والإطِراح بين يديه على عتبة عُبوديته لم أشاهد مثله في ذلك . . . وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوةِ القرآن بالتدبر والتفكر ، ففتح عليه من ذلك خير كثير وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم وتصانيفه ممتلئة بذلك .

- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان من الأبدال :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١/٢٠١ في ترجمة عبيد الله ابن عبد الكريم أبي زرعة الرازي : قدم حمدون البردعي على أبي زرعة لكتابةِ الحديث فرأى في بعض داره أواني وفرشًا كثيرةً ، قال : وكان ذلك لأخيه فهم أن يرجعَ ولا يكتب عنه ، فلما كان من الليل رأى كأنه على شط بركةٍ ورأى ظِل شخصٍ في الماء فقال : أنت الذي زهدت في أبي زرعة ، أعلمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال فلما أن مات أبدل الله مكانه أبا زرعة . انتهى .

- أوصاف الشيخ وأهميته في مجال السلوك :

قال الشيخ ابن القيم الجوزية في الوابل الصيب صـ ٦٨ : فإذا أراد العبدُ أن يقتدي برجلٍ فلينظر هل هو من أهل الذكر أو الغافلين وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي ، فإن كان الحاكم عليه الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره

فرطًا . . . فينبغـي للرجـلِ أن ينظـرَ في شـيخه وقدوتـه ومتبوعـهِ ، فـإن وجـده كذلك فليبعد منه ، وإن وجـده ممـن غلـب عليـه ذكـر الله تعـالى واتبـاع السـنة وأمره غير مفروطٍ عليه بل هو حازم في أمره فليتمسك بغرزه . انتهى .

- الذكر منشور الولاية :

قال الشـيخ ابـن قـيم الجوزيـة في الوابـل الصـيب صــ ١١١ أن الـذِكر رأس الأصول وطريق عامة الطائفة ومنشور الولاية فمن فتح له فيه فقد فـتح لـه بـاب الدخول على الله عز وجل ، فليتطَهر وليدخُل على ربه عز وجل يجد عنده كـل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عـز وجـل فاتـه كل شيء . انتهى .

- الأرواح تتزاور وتعرض أعمال الأحياء على الأموات :

نقل الحافظ ابن القيم الجوزية في الروح صـ ٨ . . . عن رجل من آل عاصـم الجحدري قال : رأيت عاصمًا الجحدري في منامني بعد موتـه بسَـنتين فقلـت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلـت : فـأين أنـت ؟ قـال : أنـا والله في روضـةٍ مـن رياضِ الجنة ، أنا ونفر من أصحابي نَجتمع كل ليلةِ جمعةٍ وصبيحتها إلى بكـر ابن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم ، قال : قلت أجسـادكم أم أرواحكـم ؟ قـال هيهات بليت الأجسامُ وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتِنـا إياكم ؟ قال : نعم نعلم بها عشِية الجُمعة كله ويوم السبتِ إلى طلوعِ الشـمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضلِ يومِ الجمعـةِ وعظمتـه . وقال في صـ ١٠ : وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءًا قالوا : اللهم راجع به . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وإثباته الأبدال من الحديث :

يقول رحمه الله في مجموع الفتاوى ١٥٩/٣ ... هم أهـل السُّـنة والجماعـة ،

وفيهم الصديقون والشُهداء والصالحون ، ومنهم أعلامُ الهدى ومصابيح الدجى ، أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة». انتهى .

- الاطلاع على المغيبات والخواطر :

قال ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ٢٦٩ : قال إبراهيم الخواص : كنتُ في الجامع فأقبل شابٌ طيب الرائحةِ حسن الوجه حسن الحرمة فقلت لأصحابنا : يقع لي أنه يهودي فكلهم كَره ذلك ، فخرجتُ وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال : إيش قال الشيخ فيَّ ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا : قال إنك يهودي ، فجاء فأكب على يدي فأسلم فقلت : ما السبب ؟ فقال : نجدُ في كتابنا أن الصديق لا يخطئ فراسته ، فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة فلبست عليكم فلما اطلع هذا الشيخ عليَّ وتَفرسني علمت أنه صديق .

قال ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ٢٦٩ قال أبو سعيد الخراز : دخلتُ المسجدَ الحرام فدخل فقيرٌ عليه خرقتان يسأل شيئًا فقلت في نفسي : مثل هذا كلٌّ على الناس ، فنظر إليَّ وقال : ﴿ **وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ** ﴾ (البقرة:٢٣٥) ، قال : فاستغفرت في سري فناداني وقال : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ** ﴾ (الشورى:٢٥) .

قال ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ٢٦٩ : دخل أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يَعودانه فاشتريا في طريقهما بنصفِ درهمٍ تفاحًا نسيئةً فلما دخلا عليه قال : ما هذه الظلمة ؟ فخرجا وقالا : ما عملنا لعل هذا من قبل ثمنِ التُفاح فأعطيا الثمن ثم عادا إليه

ووقع بصره عليهما فقال : يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة أخبراني عن شأنكما ؟ فأخبراه بالقصة فقال : نعم كان كل واحدٍ منكما يعتمدُ على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستحٍ منكما في التقاضي . انتهى .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتاب الروح صـ ٢٦٩ : كان شاب يصحبُ الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال : إيش هذا الذي ذكر لي عنك ؟ فقال له : اعتقد شيئًا فقال له الجنيد : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : فاعتقد ثانيًا ، قال اعتقدت فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال فاعتقد ثالثًا ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : هو كذا وكذا ، قال : لا فقال الشاب : هذا عَجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبي ، فقال الجنيد : صدقت في الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك .

قال الشيخ ابن قيم الجوزية صـ ٢٦٩ : كان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأةٍ سبب قبل موته فكان يومًا واقفًا على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحي . انتهى .

- الميت يخبر الأحياء في المنام المغيبات :

قال الشيخ ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ١٧ : صح عن حماد ابن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك كانا متآخيين قال صعب لعوفٍ : أي أخي أينا ماتَ قبل صاحبهِ فليتراء له قال : أو يكون ذلك ؟ قال : نعم ، فمات صعبٌ فرآه عوف فيما يرى النائمُ كأنه قد أتاه قال قلت : أي أخي : قال : نعم قلت : ما فعلَ بكم ؟ قال : غُفر لنا بعد المصائب ، قال : ورأيت لمعة سوداء في عنقه قلت : أي أخي ما هذا ، قال عشرةُ دنانيرِ إستسلفتها من فلانِ اليهودي فهن في قرني فأعطوه إياها . واعلم إياي أخي أنه لم يحدث في أهلي حدثٌ بعد موتي إلا قد لحقِ بي خبرهُ حتى

هرةٌ لنا ماتت منذ أيـام ، واعلـم أن بـنتي تمـوتُ إلى سـتة أيـام فاستوصـوا بهـا معروفًا . فلما أصبحت قلت : إن في هذا لمعلمًـا فأتيـت أهلـه فقـالوا : مرحبًـا بعـوف أهكـذا تصـنعون بتركـة إخـوانكم لم تقربنـا منـذ مـات صـعب ، قـال : فاعتللت بما يعتل به الناسُ فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتثلت مـا فيـه فوجـدت الصرة التي فيها الدنانير فبعثت بها إلى اليهودي فقلت : هل كان لك على صعبٍ شيء ؟ قال : رحم الله صعبًا كان مـن خيـار أصـحاب رسـول الله ﷺ هـي لـه . قلت : لتخبرني : قال : نعم أسلفته عشرة دنـانير ، فنبـذتها إليـه قـال : هـي والله بأعيانها ، قال : قلت هذه واحدة . قال : فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب ؟ قالوا : نعم حدث فينا كذا حدث ، قال : قلت اذكروا ، قالوا : نعم هـرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان قلت : أين ابنة أخي ؟ قالوا : تلعب فأتيت بها فمسست فإذا هي محمومة فقلت : استوصوا بها معروفًا فماتـت في سـتة أيـام . انتهى .

وذكر ابن قيم الجوزية في الروح صـ ١٨ : قال أبو عمر بن عبد البر . . . عن ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت : لما نزلت ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ** ﴾ (الحجرات:٢) . . . قالت : فلما كان يوم اليَمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمةَ فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ ثم حفر كل واحدٍ له حفرةً فثبتا وقاتلا وعلى ثابت يومئذ درعٌ له نفيسة فمر به رجلٌ من المسلمين فأخذها ، فبينما رجلٌ من المسلمين نائمٌ إذ أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصيةٍ فإياك أن تقول هذا حلم فتُضيعه ، إني لما قتلت أمس مر بي رجلٌ من المسلمين فأخذ درعي ومنزلهُ في أقصى الناس وعند خبائه فرسٌ يستن في طوله وقد كفأ على الدرع برمةٍ وفوق البرمة رجل فأت خالدًا فمره أن يبعث إلى درعي فيأخُذها ، وإذا قدمت المدينةَ على خليفةِ رسول الله ﷺ يعني أبا بكرٍ الصديق فقل له : إن عليَّ من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق

وفلان ، فأتى الرجل خالدًا فأخبره فبعثَ إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته ، قال : ولا نعلم أحدًا أجيزت وصيتُه بعد موته غير ثابت ابن قيس رحمه الله .

- الاطلاع على الغيب :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٣٧/٢ في ترجمة عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي موفق الدين شيخ الإسلام ، قال سبط ابن الجوزي : حكى أبو عبد الله بن فضل الأعتاكي قال : قلت : في نفسي : لو كان لي قدرةٌ بنيت للموفق مدرسةً وأعطيتهُ كل يومٍ ألف درهمٍ ، قال فجئت بعد أيام فنظر إليَّ وتبسم وقال : إذا نوى الشخص نيةً كُتب له أجرها . انتهى .

- الشيخ كان مطلعًا على وقت موته :

يقول يوسف بن عبد الهادي في الذيل على طبقات ابن رجب صـ ٤٠ في ترجمة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي : قال الشيخ الإمام العلامة شمس الدين ناصر الدين فيما وجدته بخطه قال : حدثني من حفر لحد ابن رجب أن الشيخ زين بن رجب جاءه قبل أن يموتَ بأيامٍ فقال : احفر لي هاهنا لحدًا وأشار إلى البقعة التي دُفن فيها ، قال : فحفرت له فلما فرغتُ نزل في القبر واضطجع فيه فأعجبه وقال : هذا جيد ، ثم خرج قال : فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أتي به ميتًا محمولاً في نعشِه فوضعته في ذلك اللحد وواريته فيه . انتهى .

- تنبيه العصاة بمعايبهم السرية :

يقول يوسف بن عبد الهادي في الذيل على طبقات ابن رجب صـ ٦٢،٦٣ في ترجمة على بن حسين بن عروة الحنبلي : قال الشيخ شهاب الدين بن زيد

ما دخـل مجلسَـه أحـدٌ وفي قلبـه شـيء إلا تكلـمَ في ذلـك بـأمرٍ ، وحكـي أن شخصًا كان في جنابة قد نسيها فدخل مجلسه فنادى الشيخ رجلاً فقال لـه : قـل لهذا يذهب يغتسل ثم يأتي . وسمعت أنه كان أولاً ينـاجي مـن رأى منـه أمـرًا ويقول أنت تَصنع كذا أنت في عينيك كذا أنـت في عينيـك كـذا فلامـه أصـحابه وقالوا : أنت تُهرب الناس منك ، فقال : ما أصنع أرى ذلك في أعيـنهم فقـالوا : ولو رأيت ذلك لا ينبغي هذا يُنفر الناس منك وتفضـحهم ، فكـان بعـد إذا رأى أحدًا وكان ثَمَّ أحدٌ يراه يزجره ولا يواجهه بـذلك وإنمـا يقـول : بعـض النـاس يرى كذا وكذا ويفعل كذا وكذا ويذم ذلك الفعل . انتهى .

- الكشف عن أحوال الآخرة والخطاب مع روح القدس :

قال يوسف بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي في ذيله على طبقات ابن رجب صـ ١٨ في ترجمة جده أحمد بن حسن بن أحمد بـن عبـد الهـادي : رأيـتُ في مرضه أمورًا دلت عندي على ولايته وكشفٍ عن أحوال الآخرة ورضًى بـالموت بحيث إنه حصل له مرةً من المرار فجَعل كلما أغصّه يستغيث بجبريـل ويقـول له : يا روح الله هـؤلاء عنـي وجعل كلما جلست عنده يقول لي . . . فأقول لـه أنت طيب فيحلف ويقول : ما بقي فيها شيء ، وجعلت أدعو له بالعافيةِ عقيـب الصلاة فكأنه كان يتأخر عن القبض لذلك العذر السابق ، وكأنه اطلع على ذلـك فجلست عنده مرة فجعل علي ويقسم ويقول : بالله سألتكَ بـالله أفضـلنا وخلنـا نستريح وأخبرني غير واحـدٍ مـن الرجـال والنسـاء عنــد رفعــه . . . يـدق مـن السماء . انتهى .

- الإخبار عن المغيبات :

حكى الذهبي في السير ١٠/٤٠ في ترجمة الإمام الشافعي : عن الربيع قال : كنت والمزني والبويطي عند الشـافعي فنظـر إلينـا فقـال لـي : أنـت تمـوتُ في الحديث ، وقال للمزني : هذا لو ناظرهُ الشيطان قطعه وجدله ، وقال للبـويطي :

أنت تموتُ في الحديد ، قال : فدخلت على البويطي أيام المحنة فرأيته مقيدًا مغلولاً . انتهى .

- الأبدال والأوتاد :

قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ١/٧٠ في ترجمة ربعي بن حراش : توفي سنة إحدى ومائة ، وقد كان في هذا القرن الفاضل خلق عظيم من أهل العلم وأئمة الاجتهاد وأبطالِ الجهاد في أقطار البلاد وسادة عباد أبدال أو أوتاد ، وقد أسند الخطيب في التاريخ ٣/٤٢٣ في ترجمة محمد بن يحيي حامل كفنه : قال : كان بالرملية رجل يقال له عمار وكانوا يقولون : إنه من الأبدال ، فاشتكى البطن فذهبت أعوده وقد بلغني عنه رؤيا رآها . . . وفيه قال : رأيت الخضر ، فقلت : ما تقول في القرآن ؟ فقال : كلام الله ليس بمخلوق . انتهى مختصراً .

وحكى الذهبي في التذكرة ١/٣٢٦ في ترجمة يحيى بن سليم : عن الشافعي قال : كان يحيى بن سليم فاضلاً كنا نعده من الأبدال .

- الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون :

في كتاب الاعتقاد لأبي الفضل التميمي الملحق بطبقات الحنابلة ٢/٣٠٣ : كان يقول الإمام أحمد بن حنبل : إن الأنبياءَ أحياءٌ في قبورهم يصلون .

- الشهداء أحياء يرزقون :

في كتاب الاعتقاد لأبي الفضل التميمي ٢/٣٠٣ : كان يقول الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : إن الشهداء بعد القتلِ باقون يأكلونَ أرزاقهم .

- الميت يعلم بزائره :

في كتاب الاعتقاد لأبي الفضل التميمي ٢/٣٠٣ : كان يقول الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله : إن الميت يعلم بزائرهِ يوم الجمعة بعد طلوعِ الفجرِ وقبل طلوع الشمس .

- **الميت يسمع الأذان ويجيبه :**

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٤٠٧/١ في ترجمة يحيى بن معين : عن محمد بن بشر قال : سمعت يحيى بن معين يقول : حدثني حفار مقابرنا قال : أعجب ما رأيتُ في هذه المقابر أني سمعتُ أنينًا من قبرٍ كأنين المريض ، وسمعت مؤذنًا يؤذن وهو يجاب من قبرٍ كما يقول المؤذن أو كما قال يحيى .

- **الميت يصلي في قبره :**

قال الذهبي في السير ٢٢٠/٥ في ترجمة ثابت بن أسلم البناني قال أحمد ابن حنبل : ثابت ثبتٌ في الحديث وكان يقص ـ وكان محدثًا ـ . . . عن حماد ابن سلمة قال : كان ثابت يقول : اللهم إن كنت أعطيت أحدًا الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري ، فيقال : إن هذه الدعوة استجيبت له وإنه رُئي بعد موته يصلي في قبره فيما قيل .

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ٤٠/٢ : أخرج مسلم عن أنس أن النبي ﷺ عندما أسرى به مرّ بموسى ﷺ وهو قائم يصلي في قبره ، ولأحمد عن عفان عن حماد عن ثابت أنه قال : اللهم إن كنتَ أعطيتَ أحدًا الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري . ولأبي نعيم عن جبير قال : أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلتُ ثابتًا البناني في لحده ومعي حميد الطويل فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنةٌ فإذا أنا به يصلي في قبره . انتهى .

- **الرأس يقرأ القرآن ويتكلم بعدما قطعه من الجسد :**

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٨١/١ في ترجمة أحمد بن نصر : قال إبراهيم بن إسماعيل بن خلف كان أحمد بن نصر خلّي ، فلما قتل في المحنةِ وصلبَ رأسه أخبِرت أن الرأسَ يقرأ القرآن ، فمضيت فبتُ بقربِ الرأسِ

مُشرفًا عليها وكان عنده رجالة وفرسان يحفظونه فلما هدأت العيون سمعت الرأس يقول : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:١-٢) فاقشعَر جلدي ثم رأيتهُ بعد ذلك في المنام وعليه السندس والإستبرق وعلى رأسه تاج فقلت له : ما فعل الله بك يا أخي ؟ قال : غفر لي وأدخلني الجنة . انتهى .

وقال أحمد بن كامل القاضي : حمل أحمد بن نصر من بغداد إلى سرمن رآه فقتله الواثقُ ونصَب رأسه ببغداد على رأس الجسر ، وأخبرني أنه رآه وأن الموكل به ذكر أنه يراه بالليل يستدير إلى القبلة بوجههِ فيقرأ سورة يس بلسانٍ طلقٍ ، وأنه لما أخبر بذلك طلب فخاف على نفسه . انتهى .

- الميت ينقذ الميت الآخر من النار :

قال الحافظ ابن القيم في الروح ١٠٣ : قد ذكر ابن أبي الدنيا حدثني محمد ابن موسى الصائغ حدثنا عبد الله بن نافع قال : مات رجلٌ من أهل المدينة فرآه رجلٌ كأنه من أهل النار فاغتم لذلك ، ثم إنه بعد ساعة أو ثانية رآه كأنه من أهل الجَنة فقال : ألم تكن قُلت إنك من أهل النار ؟ قال : قد كان ذلك إلا أنه دُفِن معنا رجلٌ من الصالحين فشفع في أربعينَ من جيرانه فكنت أنا منهم .

قال ابن أبي الدنيا : وحدثنا أحمد بن يحيى قال : حدثني بعض أصحابنا قال : مات أخي فرأيته في النوم فقلت : ما كان حالك حين وضُعت في قبرك ؟ قال : أتاني آتٍ بشهابٍ من نار فلولا أن داعيًا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به . انتهى .

- الميت يقرأ القرآن في القبر :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٤٠٧/١ : قال أبو بكر الخلال : وأخبرني محمد بن بشر قال : حدثني سلمة بن شبيب قال : حدثني حماد

الحفار قال : دخلتُ المقابر يوم الجمعةِ فما انتهيت إلى قبرٍ إلا سمعت فيه قراءة القرآن .

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في المؤلفات ٢/٤٠ : لابن جرير عن إبراهيم المهبلي قال : حدثني الذين كانوا يمرون بالجص بالأسحار قالوا : كنا إذا مررنا بجبانة قبر ثابت البناني سمعنا قراءةَ القرآن .

- تحفيظ القرآن في القبر :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات /٤١ : لابن أبي الدنيا عن الحسن قال : بلغني أن المؤمنَ إذا مات ولم يحفظِ القرآن أمر حفظته أن يعلموهُ القرآن في قبره حتى يبعثهُ يوم القيامةِ مع أهله ، وله عن يزيد الرقاش نحوه ، وروى السلفي معناه من مراسيل عطية العوفي .

- قراءة القرآن على القبور :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٢٢١/١ في ترجمة عثمان بن أحمد الموصلي قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل في جنازة فلما انتهى إلى القبر رأى رجلاً يقرأ على قبرٍ فقال : أقيموه ، وقائم إلى جنبه محمد بن قدامة الجوهري فقال له : يا أبا عبد الله كيف مبشر بن إسماعيل عندك ؟ فقال : ثقة ، فقال : فإنه حدثنا عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج قال : قال لي : إني إذا متُ فوضعتني في لحدٍ فسوّ قبري واقعد عند قبري واقرأ فاتحةَ سورة البقرة وخاتمتها فإني رأيت ابن عمر يفعل ذلك : فقال أبو عبد الله : ابعثوا إلى ذلك فردوه . انتهى .

- زيارة الموتى في قبورهم ولقاؤهم مع الآخرين من أهل القبور وطلبهم اللباس الجديد لهذه المناسبة من الأقارب :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ٤١/٢ :

أخرج ابن أبي الدنيا بسندٍ لا بأس عن راشد بن سعد أن رجلاً توفيت امرأتُه فرأى نساءً في المنام ولم ير امرأته معهنَ فسألهن عنها فقلن : إنكم قصرتم في كفنها فهي تستحي تخرُج معنا ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره ، قال النبي ﷺ : انظر هل إلى ثقة من سبيل ، فأتى رجلاً من الأنصار قد حضرته الوفاة فأخبره فقال الأنصاري : إن كان أحد يبلغ الموتى بلغت ، فتوفي الأنصاري فجاء بثوبين مزودين بالزعفران فجعلهما في كفن الأنصاري ، فلما كان الليل رأى النِسوة ومعهن امرأتُه وعليها الثوبان الأصفران . وروى ابن الجوزي عن محمد ابن يوسف الفريابي قصة المرأةِ التي رأت أمها في المنام تشكو إليها الكفنَ فقصوا على محمد وسألوه وفيه : أن أمها قالت لها : اشتروا لي كفنًا وابعثوه مع فلانة ، قال الفريابي : فذكرت الحديث أنهم يتزاورون في أكفانهم فقلت : اشتروا لها كفنًا فماتت المرأة في اليوم الذي ذكرت ووضعوه معها .

- خروج الميت الكافر من القبر لشدة العذاب وطلبه الماء :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ٢٧/٢ : فلابن أبي الدنيا عن الحويرث بن الرباب قال : بينا أنا بالأثاية إذ خرج علينا إنسان من قبرٍ يلتهبُ وجههُ ورأسهُ نارًا في جامعة من حديد فقال : اسقني اسقني ، وخرج في أثرهِ إنسانٌ يقول : لا تسق الكافرَ فأدركه وأخذ بطرف له بسلسلة فكبه ثم جره حتى دخلا القبر جميعًا . قال الحويرث : فصارت الناقة لا أقدر منها على شيء حتى التوت بعرق الضبية فبركت فنزلت فصليت المغرب والعشاء ، ثم ركبت حتى أصبحت بالمدينة فأتيت عمر بن الخطاب فأخبرته فقال : يا حويرث والله ما أتهمك ولقد أخبرتني خبرًا شديدًا ، فأرسل عمر إلى مشيخة من أهل كنفي الصفراء قد أدركوا الجاهلية ثم دعا الحويرث فقال : إن هذا حدثني حديثًا ولستُ أتهمه حدثهم يا حويرث بما حدثتني فحدثتهم فقالوا : قد عرفنا هذا يا أمير المؤمنين هذا رجلٌ من بني غِفار مات في الجاهلية ولم يكن يرى للضيف حقًّا .

وأخرج عن عروة قال : بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة فإذا رجل قد خرج من قبره يلتهب ناراً مصفداً في الحديد فقال : يا عبد الله انضح يا عبد الله ، وخرج آخر يتلوه فقال : يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ، وغشي على الراكب فأصبح وقد ابيض شعره ، فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده . انتهى .

- إحياء الموتى :

أسند الذهبي في تذكرة الحفاظ ١/٢٨٤ في ترجمة عبد الله بن إدريس : عن ابن أبي خالد عن أبي سبرة النخعي قال : أقبل رجلٌ من اليمنِ فلما كان في بعض الطريق نَفق حمارهُ فقام وتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال : اللهم إني جئت من الدثينة مجاهداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك فأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور لا تجعل لأحدٍ عليَّ اليوم منة أطلب إليك أن تبعث لي حماري ، قال : فقام الحمار ينفض أذنيه . انتهى .

- الميت يحيى بدعاء العجوز :

قال الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/٧٣ : عن أنس قال : دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل فلم نبرح حتى قضي ، فبسطنا عليه ثوبه وأم له عجوزٌ كبيرةٌ عند رأسِه فالتفت إليها بعضنا فقال : يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله عز وجل ، قالت : ما ذاك ؟ أمات ابني ؟ قلنا : نعم ، قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم ، قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم ، فمدت يدها إلى الله فقالت : اللهم إنك تعلم أني أسلمتُ وهاجرتُ إلى رسولك ﷺ رجاء أن تعينني عند كل شدةٍ ورخاءٍ فلا تحملني هذه المصيبة اليوم ، قال فكشف عن وجهه فما برحنا حتى طعمنا معه . انتهى .

- **مشاهدة الأنوار قبل موته :**

يقول يوسف بن عبد الهادي في الذيل على طبقات ابن رجب صـ ٢٧ في ترجمة حسن بن أحمد بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي : توفي ليلة الجمعة ثاني عشر من شهر رجب سنة تسع وتسعين وثمان مائة بالصالحية وكانت وفاته قُرب ثلث الليل أو نصفه وألقي عليه نورانيةٌ شديدةٌ . . . ورأيت له منامات حسنة وخُتم له بخاتمةٍ صالحةٍ حتى أنَّا لم نُشاهد موتةً أحسن منها رحمه الله تعالى وإيانا . انتهى .

- **الجنازة تحملها الملائكة :**

قال يوسف بن عبد الهادي المقدسي في ذيله على طبقات ابن رجب صـ ١٨ في ترجمة جده أحمد بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي : أخبرني غير واحدٍ ممن كان في جنازته وأنهم كانوا يرفعون أيديهم جهدهم فلا يصلون إليها ، قال : وكان الناس يطلبون التأني فيقولون : نحن نجري ولا نلحق الجنازة ، وأخبرني غير واحد قال : لما رأيت ذلك وضعت يدي في قائمة السرير وتعلقت فيه لأتُله فوقعت . انتهى .

- **الميت يعض على يديه :**

قال الشيخ ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ٨٠ : قال ابن أبي الدنيا : حدثني أبي عن أبي الحريش عن أمه قالت : لما حفر أبو جعفر خندقَ الكوفةِ حول الناس موتاهُم فرأينا شابًا ممن حُول عاضًّا على يده . انتهى .

- **الميت يضحك بعدما ألحد في القبر :**

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٤٣/٢ : ورأيت بخط أبي علي البرداني : سمعت قاسم الحفار يقول : سمعت جدي يقول : لما نزلتُ في قبر القواس حتى ألحده وأخذته على يدي حتى أنزله اللحد سمعته وهو يضحك ودفن بالقرب من أحمد بن حنبل . انتهى .

- الميت ينازع غاسله وقت غسله :

حكى الذهبي في التذكرة ٤/١٢٨٠ في ترجمة إسماعيل بن محمد أبي القاسم التيمي المعروف بقوام السنة : قال ابن ناصر الحافظ : حدثني أبو جعفر محمد بن الحسن ابن أخي إسماعيل الحافظ : حدثني أحمد الأسواري الذي تولى غَسل عمي وكان ثقة : أنه أراد أن ينحي عن سوءته الخرقة لأجل الغسل قال : فجبذها إسماعيل بيده وغطى فرجه ، فقال الغاسل : أحياة بعد موتٍ ؟

- الميت يعاتب على عدم أداء المسئولية :

حكى الذهبي في التذكرة ٤/١٢٢١ في ترجمة الحميدي : عن الحافظ ابن عساكر أن الحُميدي كان أوصى إلى الأجل مظفر ابن رئيس الرؤساء أن يدفِنه عند بشرٍ فخالف وصيته ، فلما كان بعد مدةٍ رآه في النوم يعاتبه على ذلك ، فنقله في صفر سنة إحدى وتسعين وكان كفنه جديدًا وبدنه طريًّا تفوحُ منه رائحةُ الطيب رحمة الله عليه . انتهى .

- التصرف بعد الموت :

حكى الذهبي في تذكرة الحفاظ ٣/١١٧٢ في ترجمة الحافظ أبي علي الحسن الوخشي : عن عمر بن علي السرخسي قال : كنت مراهقًا وقت موت الوخشي فحضرته ، فلما وضعَ في القبر سمعنا صيحة فقيل : خرجت الحشرات من المقبرة وكان في طرفها وادٍ انحدرت إليه ، وأبصرت العقارب والخنافس وهي منحدرة في الوادي والناس ما يتعرضون لها . انتهى .

- الميت يتكلم جالسًا على قبره بموضوع لغة الطير :

حكى الذهبي في السير ٤/١٩٣ في ترجمة مطرف بن عبد الله بن الشخير : عن أبي التياح قال : كان مطرف بن عبد الله يبدو فإذا كان ليلة الجمعة أدلج على فرسه فربما نور له سوطُه ، فأدلِج ليلة حتى إذا كان عند القبور هوّم على

فرسه قال : فرأيت أهل القبور صاحب كل قبر جالسًا على قبره ، فلما رأوني قالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، قلت : أتعلمون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم نعلم ماتقول الطير فيه قلت : وما تقول الطير ؟ قالوا : تقول سلام سلام من يوم صالح . إسنادها صحيح .

- الاستشفاء بتعويذ أحمد بن أبي المكارم المقدسي الحنبلي :

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في الذيل على طبقات الحنابلة ١٦٤/٢ في ترجمة أحمد بن أبي المكارم المقدسي قال : سمعت شيخنا الإمام عماد الدين ... وذكر له كرامات من تكثير الطعام في وقت احتيج فيه إلى تكثيره ومن المعافاة من الصرع بما كتبه . انتهى .

- الاستشفاء بشعر النبي ﷺ :

قال الذهبي في السير ٢١٢/١١ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل : قال عبد الله بن أحمد : رأيت أبي يأخذ شعرةً من شَعرِ النبي ﷺ فيَضَعها على فيه يُقبلها وأحسب أني رأيته يضعها على عينه ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به .

ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه قلت (الذهبي) : أين المتنطع المنكر على أحمد وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي ﷺ ويمس الحجرة النبوية ؟ فقال : لا أدري بذلك بأسًا ، أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع . انتهى .

- الإستبراك بخاتم النبي ﷺ والاستشفاء به :

أسند الذهبي في السير ١٦/٧ في ترجمة معمر بن راشد : أن عبد الله ابن محمد بن عقيل أخرج خاتمًا زعم أن النبي ﷺ كان يختتم به فيه تمثال أسد ، فرأيتُ بعض القوم غسله بالماءِ ثم شربه .

- الاستبراك ببرد رسول الله ﷺ :

قال الذهبي في السير ١٣٥/٥ في ترجمة عمر بن عبد العزيز : قال مروان ابن محمد حدثنا محمد بن مهاجر حدثني أخي عمرو : أن عمر ابن عبد العزيز كان يلبِس بُرد رسول الله ﷺ ويأخذ قضيبه في يده يوم العيد . انتهى .

- الاستبراك ببرنس ابن عمر رضي الله عنهما :

قال الذهبي في السير ٣٧٠/٦ في ترجمة أبي عون : قال معاذ بن معاذ : رأيت عليه بُرنسًا من صوف رقيقًا حسنًا فقيل له : ما هذا البرنس يا أبا عون ؟ قال : هكذا كان لابن عمر كساه لأنس بن سيرين فاشتريتُه من تركته .

- الاستبراك بالثوب الذي قاتل فيه يوم بدر :

قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢٢/١ في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : قال الزهري إن سعدًا لما احتضر دعا بخلق جبة صوف وقال : كفنوني فيها فإني قاتلتُ فيها يوم بدرٍ وإنما خبأتها لهذا .

- الاستبراك بثوب يحيي بن يحيي التميمي :

قال الذهبي في السير ٥١٧/١٠ في ترجمة يحيي بن يحيي التميمي النيسابوري قال : بلغنا أن يحيي أوصى بثيابِ بدنه لأحمد بن حنبل ، فلما قدمت على أحمد أخذ منها ثوبًا واحدًا للبركة ورد الباقي ، وقال إنه ليس تفصيل ثيابه من زيّ بلدنا . انتهى .

- شعر النبي ﷺ يدفع البلية :

قال الذهبي في السير ٢٥٠/١١ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في قصة المحنة : قال كان صار إليَّ شعر من شعر النبي صلى الله عليه في كم قميصي فوجّه إليَّ إسحاق بن إبراهيم يقول : ما هذا المصرور ؟ قلت : شعرٌ من شعرِ

رسول الله صلى الله عليه ، وسعى بعضهم ليخرق القميصَ عني فقال المعتصم : لا تخرِقوه فنزع ، فظننت أنه إنما درئ عن القميص الخرق بالشعر .

- شعره وظفره ﷺ يدفع البلايا :

وروى ابن سعد في الطبقات ٤٠٦/٥ قال : أخبرنا محمد بن عمر حدثنا محمد بن مسلم ابن جماز عن عبد الرحمن بن محمد قال : أوصى عمر ابن عبد العزيز عند الموت فدعا بشعرٍ من شعرِ النبي ﷺ وأظفارٍ من أظفاره فقال : اجعلوه في كفني .

- عامة الناس يقبلون يد الإمام أبي مسهر :

قال الذهبي في السير ٢٣٥/١٠ في ترجمة أبي مسهر ، قال أبو داود : سمعت أحمد بن حنبل يقول : رحم الله أبا مسهر ما كان أثبته وجعل يُطريه ، قال أبو حاتم الرازي في الجرح والتعديل ٢٩/٦ : ما رأيت أحدًا أعظم قدرًا من أبي مسهر ، كنت أراه إذا خرج إلى المسجد اصطفّ الناس يسلمون عليه ويقبلون يده . انتهى

- سفيان بن عيينة يقبل يد الفضيل بن عياض :

حكى الذهبي في تذكرة الحفاظ ٢٤٦/١ : قال إبراهيم بن الأشعث : رأيت ابن عيينة يقبل يد الفضيل بن عياض مرتين . انتهى .

- الإمام مسلم يقبل بين عيني البخاري حتى رجليه :

قال الذهبي في السير ٤٣٦/١٢ في ترجمة الإمام البخاري : قال أبو حامد أحمد بن حمدون القصّار : سمعت مسلم بن الحجاج وجاء إلى البخاري فقبل بين عينيه وقال : دعني أقبل رجليك .

- عامة العلماء والفقهاء والمحدثون وبنو هاشم وقريش والأنصار يقبلون يد الإمام أحمد بن حنبل ورأسه رحمه الله :

حكى الذهبي في السير ٣٠٤/١١ عن الخلال قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : رأيت كثيراً من العلماء والفقهاء والمحدثين وبنو هاشم وقريش والأنصار يقبلون أبي بعضهم يده وبعضهم رأسه .

- مسألة تقبيل اليد والوجه :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ٢٨٤/٥ : وأما تقبيل اليد فلا يجوزُ إنكارُ مثله وهي مسألة فيها اختلاف بين أهل العلم وقد قبل زيد بن ثابت يد ابن عباس وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ .

- أئمة السلف واهتمامهم بتلاوة القرآن :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٣٩٢/١ : قال يحيي بن أكثم : صحبتُ وكيعًا في السفر والحضر فكان يصومُ الدهر ويختم القرآن كل ليلة .

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ١٥٨/٢ : ويستحب أن يختم في كل سبعةِ أيامٍ لحديث عبد الله بن عمرو وحديث أوس ابن حذيفة رواه أبو داود ، وعنه : أنه غير مقدر على حسبِ النشاط والقوة ، لأن عثمان كان يختمه في ليلة .

قال الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة ١٤٦/٢ : عن شعبة قال : كان سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري يصوم الدهرَ ويقرأ القرآن في كل يومٍ وليلة . انتهى .

حكى الخطيب في التاريخ ٣١٥/٢ في ترجمة محمد بن عبد الرحمن ابن شبرمة الضبيّ : عن إسماعيل بن علي قال : كان هذا (صاحب الترجمة) الشيخ

من أدرس من رأيناه للقرآن ، سألته عن أكثر ما قرأ في يوم من أيام الصيف الطِوال وكان يوصَفُ بكثرةِ الدرسِ وسرعتهِ فامتنع أن يخبرني فلم أزل به حتى قال لي : إنه قرأ في يوم من أيام الصيف الطوال أربع ختم وبلغ في الخامسة إلى براءة وأذن مؤذن العصر وكان من أهل الصدق . انتهى .

وأسند الخطيب في التاريخ ٦٣/٢ في ترجمة الإمام الشافعي رحمه الله : عن الربيع بن سليمان يقول : كان الشافعي يختم في كل ليلةٍ ختمة ، فإذا كان شهر رمضان ختم في كل ليلة منه ختمة وفي كل يوم ختمة ، فكان يختمُ في شهر رمضان ستين ختمة . انتهى .

وأسند الخطيب في التاريخ ١٤١/١٤ في ترجمة يحيي بن سعيد القطان عن يعقوب بن سفيان قال : قال : علي : كان يحيي يَختم القرآن في كل يومٍ وليلةٍ بين المغرب والعشاء . وعن يحيي بن معين قال : أقام يحيي بن سعيد عشرين سنة يختم القرآن في كل ليلةٍ ولم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة ، وما رؤي يطلب جماعة قط .

وأسند الخطيب في التاريخ ٣٨٢/١٤ في ترجمة أبي بكر بن عياش عن أبي هشام الرفاعي قال : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : لي غرفةٌ قد عجزت عن الصعود إليها وما يمنعني من النزولِ منها إلا أني أختم فيها القرآن كل يومٍ وليلةٍ منذ ستين سنة . انتهى .

قال الخطيب في التاريخ ١٩٠/١٠ في ترجمة مأمون بن هارون الرشيد عن ذي الرياستين : أن المأمون ختم في شهر رمضان ثلاثًا وثلاثين ختمة . انتهى .

وأسند الخطيب في التاريخ ٤٨٥/٨ في ترجمة زهير بن محمد بن قمير عن ابنه محمد قال : كان أبي يجمعنا في وقت ختمة القرآن في وقت شهر رمضان في كل يوم وليلة ثلاث مرات تسعين ختمة في شهر رمضان . انتهى .

وحكى الذهبي في السير ٤٣٨/١٢ ، عن مسبح بن سعيد قال : كان محمد ابن إسماعيل يختم في رمضان في النهار كل يوم ختمة ، ويقوم بعد التراويح كل ثلاث ليال بختمةٍ . انتهى .

- مكالمة مع الحوراء . . . بشرائها بأربعة آلاف ختمة :

يقول أبو الحسين في طبقات الحنابلة ١٥٩/١ في ترجمة زكريا بن يحيي أبي يحيي الناقد البغدادي الحنبلي : قال أبو زرعة الطبري قال أبو يحيي الناقد : اشتريت من الله تعالى حوراء بأربعة آلاف ختمة فلما كان آخر ختمة سمعت الخطاب من الحوراء وهي تقول : وفيت بعهدِك فها أنا التي قد اشتريتني ، فيقال إنه مات عن قريب .

- هدي السلف : الذكر من الفجر إلى الشروق :

قال الذهبي في السير ١١٤/٧ في ترجمة الأوزاعي : قال الوليد ين مسلم : رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ويُخبرنا عن السلف أن ذلك كان هَديهم ، فإذا طلعتِ الشمس قام بعضهم إلى بعض فأفاضوا في ذكر الله والتفقه في دينه .

- التعريف في الأمصار عشية عرفة لا بأس به :

قال أبو الحسين في طبقات الحنابلة ٣٩/١ : قال أبو طالب قال أحمد : والتعريف عشية عرفة في الأمصار لا بأس به إنما هو دعاء الله عز وجل ، وأول من فعله : ابن عباس وعمرو بن حريث وفعله إبراهيم . انتهى .

وقال أبو الحسين في ٤١٤/١ ترجمة يعقوب بن إبراهيم الدورقي : قال : سألت أبا عبد الله عن الرجل يحضر في المسجد يوم عرفة ؟ قال : لا بأس أن يَحضر المسجد فيحضر دعاء المسلمين قد عرّف ابن عباس بالبصرة ، فلا بأس أن يأتي الرجل المسجد فيحضر دُعاء المسلمين لعل الله أن يرحمه إنما هو

دعاء ، قال يعقوب : رأيت يحيي بن معين عشية عرفة في مسجد الجامع قد حضر مع الناس ورأيته يشرب ماءً ولم يكن بصائم . انتهى .

- السبحة والتسبيح :

حكى الذهبي في السير ٦٦/١٢ في ترجمة سحنون عن إسماعيل ابن إبراهيم قال : دخلت على سحنون وهو يومئذٍ قاضٍ وفي عنقه تسبيح يسبح به .

أسند الخطيب في التاريخ ١٨٩/١٠ في ترجمة أمير المؤمنين مأمون ابن هارون الرشيد : ما زدت على أن جعلته عجوزًا في محرابها في يدها سبحة فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها وهو المطوق لها ألا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد ، فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ، ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله . وقال الذهبي في التذكرة ٩٣/١ في ترجمة خالد بن معدان : ويروى أنه كان يسبح في اليوم سبعين ألف مرة . قال الذهبي في التذكرة ٣٥/١ في ترجمة أبي هريرة ﵁ : عن عكرمة قال أبو هريرة : إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه كل يومٍ اثني عشر ألف مرةٍ وذلك على قدر ذنبي . وعن أبي هريرة أنه كان له خيط فيها ألفا عقدةٍ لا ينام حتى يسبح به . انتهى .

- النفوس والأرواح لها تأثيرات قوية وخاصة حالة تَجردها عن الأبدان فهي تستطيع قتل الحيوان الكبير وشق الحجر العظيم وإزالة النعم من أحد ونحوها وإثبات عالم الأرواح والأبدان :

قال الشيخ ابن قيم الجوزية في كتاب الروح صـ ٢٣٩ : تأثيرات النفوس بعضها في بعض أمرٌ لا ينكره ذو حسٍّ سليم ولا عقلٍ مُستقيم ولا سيما عند تَجردها نوع تجرد عن العَلائق والعَوائق البَدنية فإن قواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ، ولا سيما عند مخالفةِ هواها وحملها على الأخلاق العاليةِ من العِفة والشجاعةِ والعدلِ والسخاءِ وتجنبها سفساف الأخلاق ورذائلها وسافلها

فإن تأثيرها في العالم يقوى جدًّا تأثيرًا يعجز عنه البدن وأعراضه ، أن تنظر إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتتلفه أو إلى نعمة فتزيلها . . . ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة في العالم وتستعين بها وتحذر أثرها . . . وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها في بعض عند تجردها في المنام عجائب تفوت الحصر ، فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان وأحكامه ، وآثاره أعجب من آثار الأبدان ، بل كل مافي العالم من الآثار الإنسانية فإنما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن ، فالنُفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل وتنفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البَدن ولا يكون للبدنِ تأثيرٌ لا تشاركه فيه النفس . انتهى .

- شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكتابته التعويذ :

يقول الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٨ : كتابٌ للرعاف كان شيخ الإسلام ابن تيميه قدس الله روحه يكتب على جبهته : ﴿ **وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ** ﴾ وسمعته يقول : كتبتُها لغير واحدٍ فبرأ .

- بيانه نسخة للعرق الضارب :

يقول رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٩ : روى الترمذي في جامعه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقولوا باسم الله الكبير أعوذ بالله العظيم من شر عرق نعّار ومن شر حرّ النار .

- وبيانه نسخة لوجع الضرس :

يقول رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٩ : يكتب على الخد الذي يلي الوجع : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ**

وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلاً مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ ، وإن شاء كتب : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ .

- وبيانه نسخة للخراج :

يقول رحمه الله يكتب عليه : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفۡصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ﴾ .

- بيانه نسخة للحزار :

يقول رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٨ : يكتب عليه ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡ ﴾ : بحول الله وقوته .

كتاب آخر له : عند اصفرار الشمس يكتبُ عليه ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

- بيانه نسخة للحمى المثلثة :

يكتب على ثلاث ورقات لطاف : باسم الله فرّت باسم الله مرّت باسم الله قلت ، ويأخذ كل يوم ورقةً ويجعلها في فمه ويبتلعها بماء .

- بيانه نسخة لعرق النساء :

يقول رحمه الله : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم ربَ كل شيءٍ ومليك كل شيءٍ وخالق كل شيءٍ أنت خلقتني وأنت خلقت عرق النساء فيّ فلا تسلطه عليّ بأذى ولا تسلطني عليه بقطع واشفني شفاءً لا يغادرُ سقمًا لا شافي إلا أنت .

- الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله ومنهجه في بيان منافع كتابة التعاويذ :

يقول رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٧ : كل ما تقدم من الرقى فإن

كتابتهُ نافعةٌ ورخص جماعةٌ من السلف في كتابةِ بعـض القُـرآن وشـربه وجعـل ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه .

- بيانه نسخة لعسر الولادة :

يذكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : مرّ عيسى صلى الله علـى نبينـا وعليـه وسلم على بقرةٍ وقد اعترض ولدُها في بطنها فقالت : يا كلمة الله ادع الله لي أن يُخلصني مما أنا فيه ، فقال : يا خالقَ النفس من النفس ، ويا مخلص النفس من النفس ، ويا مخرج النفس من النفس خلِّصها ، قـال : فرمـت بولـدها فـإذا هـي قائمة تشمه قال : إذا عسر على المرأة ولدها فاكتبه لها .

كتاب آخر لذلك : يكتب في إناء نظيـف : إذا السـماء انشـقت وأذنـت لربهـا وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ، وتشرب منه الحامل ويـرش على بطنها .

- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وكتابته التعاويذ :

كتابته التعويذ لعُسر الولادة وطلبه الزعفران والجامع الواسـع : يقـول الشـيخ ابـن قـيم الجوزيـة في الطـب النبـوي صـ ٢٧٧ : قـال الخـلال أنبأنـا أبـو بكـر المروزي : أن أبا عبد الله جاءه رجلٌ فقال : يا أبا عبد الله تَكتب لامرأةٍ قد عَسُر عليها ولدها منذ يومين ؟ فقال له يجي بجام واسع وزعفران ورأيته يكتب لغـير واحدٍ .

وقال الخلال : حدثني عبد الله بن أحمد قال : رأيـت أبـي يكتـب للمـرأة إذا عسر عليها ولادتها في جامع أبيض أو شيء نظيـف يكتـب حـديث ابـن عبـاس رضي الله عنهما لا إلـه إلا الله الحلـيم الكـريم سـبحان الله رب العـرش العظـيم الحمد لله رب العالمين كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضـحاها كـأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة مـن نهـار بـلاغ فهـل يهلـك إلا القـوم الفاسقون .

- **وكتابته للحمى :**

يقول الشيخ ابن قيم الجوزية في الطب النبوي صـ ٢٧٦ : قال المروزي : بلغ أبا عبد الله أني حممت فكتب لي من الحمّى رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله وبالله ومحمد رسول الله قُلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين اللهم رب جِبريل وميكائيل وإسرافيل اشف صاحبَ هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك إله الخلق آمين .

قال المروزي : وقرئ على أبي عبد الله وأنا أسمع : حدثنا أبو المنذر عمرو ابن مجمع حدثنا يونس بن حبان قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي أن أعلق التعويذ قال : إن كان من كتاب الله أو كلام عن نبي الله فعلقه واستشف به ما استطعت . . . اكتب هذه من حمى الربع : باسم الله وبالله ومحمد رسول الله إلى آخره ؟ قال : أي نعم .

- **كتابته التعويذ لإزالة البلاء :**

يقول ابن القيم رحمه الله في الطب النبوي صـ ٢٧٧ : قال أحمد وقد سئل عن التَمائم تُعلق بعد نزولِ البلاء ؟ قال : أرجو أن لا يكونَ به بأس ، قال الخلال : وحدثنا عبد الله بن أحمد قال : رأيت أبي يكتبُ التَعويذ للذي يفزع وللحمى بعد وقوع البلاء . انتهى .

- **فتوى عطاء في التعويذ :**

أخرجه الدارمي في السنن برقم (١١٧٧) : أخبرنا يعلى بن عبيد ثنا عبد الملك عن عطاء في المرأة الحائض في عنُقها التعويذ أو الكتاب قال : إن كان في أديم فلتنزعهُ ، وإن كان في قصبة مصاغة من فضة فلا بأس إن شاءت وضعت وإن شاءت لم تفعل ، قيل لعبد الله : تقول بهذا ؟ قال : نعم . انتهى .

- التمائم وإباحتها عند الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في المؤلفات ١/٢٩ : التمائمُ شيء يعلق على الأولاد من العين لكن إذا كان المُعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف . وقال ١/٧٩ : الثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز .

منهجي في الشرح :

١- اعتمدت على طبعة دار الصميعي[1] لكتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد .

٢- تفسير الآيات القرآنية الكريمة .

٣- شرح الأحاديث النبوية الصحيحة .

٤- اعتمدت في تفسير الآيات القرآنية[2] على كتاب : «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» لابن عجيبة الحسني المالكي .

٥- اعتمدت في شرح الأحاديث النبوية الصحيحة[3] على الكتب الآتية :

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي الشافعي .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي الشافعي .
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري الحنفي .
- جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الدمشقي الحنبلي .

٦- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها .

٧- خرجت الأحاديث النبوية من مصاردها .

أسأل الله العظيم أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم .

---

(١) الرياض ـ المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

(٢) في السياق القرآني .

(٣) مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

الشرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] :

الحمد لله وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

١- كتاب التوحيد .

قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾

(الذاريات:٥٦).

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ، ١٧٠٣-١٧٩٢م) : زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب . ولد ونشأ في العيينة (بنجد) ورحل مرتين إلى الحجاز ، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها . وزار الشام . ودخل البصرة فأوذي فيها . وعاد إلى نجد ، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضيها بعد العيينة . ثم انتقل إلى العيينة ، ناهجاً منهج السلف الصالح ، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام . وله مصنفات أكثرها رسائل مطبوعة ، منها (كتاب التوحيد) ورسالة (كشف الشبهات) و (أصول الإيمان) و (معرفة العبد ربه ودينه ونبيه) ، و (فضل الإسلام) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٥٧/٦) .

التفسير :

قال ابن عجيبة[(١)] :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ أي : إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي ، لا لنستعين بهم على شأنٍ من شؤوني ، كما هي عادة السادات في كسب العبيد ، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش ، ويدلُ على هذا التأويل : قوله تعالى : ﴿ **مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ** . . ﴾ (الذاريات:٥٧) ، قال ابن المنير : إلا لآمرهم بعبادتي ، لا لطلب رزقٍ لأنفسهم ، ولا إطعام لي ، كما هو حال السادات من الخلق مع عبيدهم ، بل الله هو الذي يرزق ، وإنما على عباده العبادة له لأنهم مُكلفون ، ابتلاءً وامتحانًا ، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها ، لقوله ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ** ﴾ (الأعراف:١٧٩) . هـ . وقيل المعنى : ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة ، متمكنين منها أتم استعداد ، وأكمل تمكن ، فمنهم مَن أطاع ، ومنهم مَن كفر ، وهو كقولهم : البقر مخلوقة للحرث ، أي : قابلة لذلك ، وقد يكون فيها مَن لا يحرث . والحاصل : أنه لا يلزم من كون الشيء مُعدًّا لشيءٍ أن يقع منه جميع ذلك . أو : ما خلقتهم إلا ليتذللوا لي ، ولقدرتي ، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع ، وهذا عام في الكل ، طوعًا أو كرهًا ، إذ كل ما خلق مُنقاد لقدرته وقهريته ، عابد له بهذا المعنى . وفي البخاري :

---

(١) هو أحمد بن محمد بن المهدي ، ابن عجيبة ، الحسني الأنجري (١١٦٠-١٢٢٤هـ ١٤٧٤-١٨٠٩م) : مفسر صوفي مشارك . من أهل المغرب . دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة ، منها (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) ، و(أزهار البستان) بالخزانة الزيدانية بمكناس ، لم يتمه ، في طبقات الأعيان المالكية ، و (شرح القصيدة المنفرجة) و(شرح صلوات ابن مشيش) و (تبصرة الطائفة الزرقاوية) و (الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) و (الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية) جمع فيه بين النحو والتصوف ، و (إيقاظ الهمم في شرح الحكم) . انظر : خير الدين الزركلي « الأعلام » (١/٢٤٥) .

وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا لِيُوحّدون . وقال بعضهم : خلقهم ليفعلوا ، ففعل بعضٌ وترك بعضٌ . وليس فيه حجة لأهل القدر . ا هـ . والمراد بأهل القدر : المعتزلة ، القائلون بأن الله تعالى لم يُرد الكفر والمعاصي ، وهو باطل ، وسيأتي في الإشارة بقية تحقيق إن شاء الله .

الإشارة : اعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ إنما بعث الرسلَ بإظهار الشرائع ، ليحوُشوا العباد إلى الله ، ويدعوهم إليه كافة ، ويأمروهم بالتبتُّل والانقطاع ، من غير التفات لمَن سبق له السعادة والشقاء ؛ لأن ذلك من سر القدر ، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه في حالة الدعوة ، فقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦) هذا ما يمكن الأمر به في ظاهر الأمر ، ويُؤمر بإظهاره في حالة الدعوة ، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة ، وسر القدر لا يقدح في عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر ؛ لأنه من قبيل الحقيقة ، وما جاءت الرسل إلا بالشريعة ، فالدعاة إلى الله يُعممون الدعوة ، ويُحرِّضون على التبتُّل والانقطاع إلى الله ، وينظرون إلى ما يبرز من غيب المشيئة . وقال الورتجبي : عن جعفر الصادق ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦) أي : ليعرفوني . أهـ . ومداره قوله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة : (كنت كنزًا مخفيًّا لم أُعرف ، فأحببتُ أن أُعرف ، فخلقت الخلق لأعرف) [١] أي : ما أظهرت الخلق إلا لأعُرف بهم ، فتجليت بهم في قوالب العبودية ، لتظهر ربوبيتي في قوالب العبودية ، فتظهر قدرتي وحكمتي ، فسبحان الحكيم العليم . قال أبو السعود : ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن المعتَبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى ، لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة . **اهـ** . قلت : **وكل معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها ، بل هي زندقة أو دعوى** . وبالله التوفيق[٢] .

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٠٢٣) : لا أصل له اتفاقاً .

(٢) تفسير البحر المديد ٢١٦/٧ ، ٢١٧ .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ** ﴾ أي : ما ينظر هؤلاء الكفرة ، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي : هو أساطير الأولين ، ﴿ **إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ** ﴾ لقبض أرواحهم ، ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ : قيام الساعة ، أو العذاب المستأصِل لهم فى الدنيا ، ﴿ **كَذَٰلِكَ** ﴾ أي : مثل ذلك التكذيب والشرك ، ﴿ **فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ ، فأصابهم ما أصابهم ، ﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ** ﴾ بإهلاكهم ، ﴿ **وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ لكفرهم ومعاصيهم ، المؤدية إلى عذابهم . ﴿ **فَأَصَابَهُمْ** ﴾ جزاء ﴿ **سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ** ﴾ من الكفر والمعاصي ، وهو العذاب ، ﴿ **وَحَاقَ** ﴾ أي : وأحاط ﴿ **بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ أي : نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به . والحيق لا يكون إلا في الشر . ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ** ﴾ كالبحائر والسوائب والحوامي . قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة ، والاحتجاج على صحة فعلهم ، أي : إن فِعلَنا هو بمشيئة الله ، فهو صواب ، ولو شاء الله

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (النحل:٣٣-٣٧) .

ألا نفعله ما فعلناه . والجواب : أن الاحتجاج بالقدر لا يصح فى دار التكليف ، وقد بعث الله الرسل بالنهي عن الشرك ، وتحريم ما أحل الله ، ونحن مكلفون باتباع الشريعة ، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة ، فإنه زندقة ، فالشريعة رداء الحقيقة ، فمن خرق رداء الشريعة ، وتمسك بالحقيقة وحدها ، فقد استحق العقاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ** ﴾ فأشركوا بالله ، وحرموا ما أحل الله ، وردوا رسله . ﴿ **فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ أي : الإبلاغ الموضح للحق ، فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب ، ومن أعرض عنه فهو على ضلال ، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة . والحقيقة هي أنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، طاعة كان أو معصية ، كفرًا أو إيمانًا ، لكن الأمر غير تابع للإرادة ، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط . ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم الماضية ، جعلها سببًا لهدى من أراد اهتداءه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي ـ أي : المعتدل ـ ويقويه ، ويضر المزاج المنحرف ويعييه ، فقال : ﴿ **وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا** ﴾ قائلا : ﴿ **أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾ أي : يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه ، ﴿ **فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ** ﴾ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه ، ﴿ **وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ** ﴾ فلم يوفقهم ، ولم يُرد إرشادهم ، فليس كل من تمسك بشيء وأمهل فيه يدل أنه على صواب ، كما ظن المشركون ، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع ، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك . ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل ، فقال : ﴿ **فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ يا معشر قريش ، ﴿ **فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ ؛ كعادٍ وثمودٍ وغيرهم ، لعلكم تعتبرون . ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال : ﴿ **إِن تَحۡرِصۡ** ﴾ يا محمد ﴿ **عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ** ﴾ أي : من يريد إضلاله وقضى بشقائه ، وهو الذي حقت عليه الضلالة ، وقرأ غير الكوفيين بالبناء للمفعول ، وهو أبلغ ، أي : فإن الله لا يهدى

من يضله ، أي : لا يهدى غير الله من يريد الله إضلاله . ﴿ **وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ** ﴾ ليس لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم .

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه ، وأكب على متابعة حظوظه وهواه ، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه ، فيندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت به القدم ، فيتمنى ساعة تزاد فى عمره فلا يجدها ، أو يأتى أمر ربك أمر يحول بينه وبين العمل الصالح كمرض مزمن ، أو فتنة مضلة ، كذلك فعل من قبله ، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه . وما ظلمهم اللّه ، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير ، فحادوا عنهم ، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، من وبال التقصير ، وفوات مقام أهل الجد والتشمير . وقال الذين أشركوا في محبة الله سواه ، من الحظوظ وزهرة الدنيا : لو شاء الله ما فعلنا ذلك ، محتجين بالقدر ، مع الإقامة على البطالة والخذلان ، كذلك فعل مَن قَبلهُم من أهل الغفلة ، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذّروا من متابعة الدنيا ، وبلّغوا أن الله غيور لا يُحب من أشرك معه غيره فى محبته ، فقد بعث في كل أمة وعصر نذيرًا ، يأمر بعبادة الله وحده ، واجتناب كل ما سواه ، فمنهم من هداه الله ، فاختاره لحضرته ، فلم يُحب سواه ، ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص ، فبقى في مقام البعد مُكَذّبًا بطريق الخصوص ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان . ويقال للعارف المذكّر لمثل هؤلاء : ﴿ **إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ** ﴾ . . الآية . وبالله التوفيق[١] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٤/٢١-٢٣ .

وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ [١]
(الإسراء:٢٣).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ** ﴾ أَمَر أمرًا مقطوعًا به ، بـ ﴿ **أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ** ﴾ لأن غاية التعظيم لا يكون إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام ، وهو الله وحده ، ﴿ **وَ** ﴾ أحسنوا ﴿ **بِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا** ﴾ لأنهما السبب الظاهر فى وجود العبد ، وبهما قامت نعمة الإمداد من التربية والحفظ فى مظاهر الحكمة ، وإلا فما ثَم إلا تربية الحق تعالى ، ظهرت في مظاهر الوالدين ، لكن أمر بشكر الواسطة (مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله) [٢]. ثم أمر ببرهما ، فقال : ﴿ **إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا** ﴾ أي : مهما بلغ زمن الكبر ، وهما عندك في كفالتك ، هما أو أحدهما ، ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ**﴾ أي : فلا تضجر فيما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنتهما ، ولا تنطق بأدنى كلمة توجعهما ، فأحرى ألا يقول لهما ما فوق ذلك . فالنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسًا بطريق الأحرى . وقال في الإحياء : الأفّ : وسخ الظفر ، والتف : وسخ الأذن ، أي : لا تصفهما بما تحت الظفر من الوسخ ، فأحرى غيره ، وقيل : لا تتأذّ بهما كما يتأذى بما تحت الظفر . اهـ ﴿ **وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا** ﴾ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ ، فإن كان لإرشاد ديني فبرفق ولين . ﴿ **وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا** ﴾ جميلاً لينًا لا غلظ فيه .

الإشارة : كل ما أوحى الله تعالى به في حق والدي البشرية ، يجري مثله في والد الروحانية ، وهو الشيخ ، ويزيد ؛ لأنه أوكد منه ؛ لأنَّ أب البشرية كان

---

(١) تمام الآية : ﴿ **إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا** ﴾ (الإسراء:٢٣).

(٢) سنن أبي داود (٤٨١١) قال الألباني : صحيح .

السبب في خروجه إلى دار الدنيا ، معرضًا للعطب أو السلامة ، وأب الروحانية كان سببًا في خروجه من ظلمة الجهل إلى نور العلم والوصلة ، وهما السبب في التخليد في النعيم الذي لا يفنى ولا يبيد وقد تقدم[١] في سورة النساء تمام هذه الإشارة والله أعلم[٢].

وقوله : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ (النساء:٣٦) [٣].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾** أي : وَحدُوه وأطيعوه **﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾** جليًّا أو خفيًّا في اعتقادكم أو في عبادتكم ، فمن قصد الحج والتجارة ، فقد أشرك مع الله في عبادته ، وأحسنوا بالوالدين إحسانًا حسنًا ، وهو برهما والقيام بحقهما ، **﴿ وَبِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾** ، أي : القرابة في النسب، أو الدين **﴿ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ ﴾** لضعف حالهم، **﴿ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ ﴾** لقلة ما بيدهم، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم ، وأطعمه) [٤] . **﴿ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾** الذي قَرُب جواره أو نسبه ، **﴿ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾** الذي بَعُد

---

(١) سيأتي قريباً .

(٢) تفسير البحر المديد ٤/٨٦ ، ٨٨ .

(٣) تمام الآية : **﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَـٰنًا وَبِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالاً فَخُورًا ﴾** (النساء:٣٦)

(٤) مسند الإمام أحمد (٧٥٦٦) وفيه : حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ثنا ، أبو كامل ، ثنا حماد عن أبي عمران الجوني ، عن رجل عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه ، فقال له : إن أردت تليين قلبك ، فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي هريرة .

مكانـه أو نسبه ، وحدّد بعضُهم الجوار بأربعين داراً مـن كـل ناحـيـة . وقال ابن عباس : الجار ذي القربى : الجار الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الجار من قوم آخرين . اهـ . قيل يا رسول الله : ما حق الجار على الجار قال : (إن دعاك أجبتَه ، وإن أصابته فاقةٌ عُدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عُدته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإن توفى شهدت جنازته ، ولا تستعل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقُتار قدرك ـ أي : بخارها ـ إلا أن تغرف له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سرًّا ، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده) ثم قال : (الجيران ثلاثة : فجارٌ له ثلاثة حقوق : حق الجوارِ ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجِوار ، وحق الإسلام ، وجارٌ له حق واحد : وهو المشرك من أهل الكتاب) [1] . ﴿ **وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ** ﴾ ، وهو الرفيق في أمر حسن ، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صحبك بجنبك ، وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ (أنها الزوجة) ، فيتأكد في حقها الإحسان زيادة على المعاشرة بالمعروف ، قال بعضهم : أول قدم في الولاية كف الأذى وحمل الجفا ، ومعيار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد ، وقال ـ عليه الصلاة السلام ـ : (خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي) [2]﴿ **وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ ، وهو الضيف أو المسافر لغرابته ، ﴿ **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ** ﴾ ، من الإماء والعبيد ، وكان آخرُ كلام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) [3]. ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً** ﴾ أي : متكبرًا ، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، ﴿ **فَخُورًا** ﴾ يتفاخر عليهم بماله وجاهه ، وما خوله الله من نعمه ، فهو جدير أن تسلب منه .

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٣٤٩٣) .

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٠٩) قال الألباني : صحيح .

(٣) سنن أبي داود (٥١٥٦) سنن ابن ماجه (٢٦٨٨)(٢٦٨٩) قال الألباني : صحيح .

الإشارة : واعبدوا الله ، أي : بالقيام بوظائف العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وقال بعض الحكماء : العبودية : ترك الاختيار ، وملازمة الذل والافتقار . وقيل : العبودية أربعة أشياء : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود ، وعنوان ذلك صفاء التوحيد ، ولذلك قال : ﴿ **وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ أي : لا تَرَوْا معه غيره ، كما قال القائل :

مُـــذْ عرفـــتُ الإِلـــه لم أرَ غـــيرًا   وكَـــذا الغـــيرُ عِنـــدنا ممنـــوعُ .

وقال آخر : (لو كُلفت أن أرى غيره ، لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده) . فإذا حصلت العبودية في الظاهر ، وتحقق التوحيد في الباطن ، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيُحسن إلى الأقارب والأجانب ، ويجود عليهم بالحس والمعنى ، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد ، ومن شيم أهل التجريد ، كما هو معلوم من حالهم ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا في سلكهم . آمين . قال الورتجبي : (الوالدين) : مشايخ المعرفة . ثم نقل عن الجنيد ، أنه قال : أمرني أبي أمرًا ، وأمرني السرى أمرًا . فقدمت أمر السري على أمر أبي ، وكل ما وجدت فهو من بركاته . اهـ . وذوو القربى هم الأخوة في الشيخ ، (واليتامى) : من قصدهم من المتفقرة الجاهلة ، (والمساكين) : ضعفاء اليقين من العامة ، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم ، وهو أن يقرهم في طريقهم ، ويحوشهم إلى ربهم . (والجار ذي القربى) وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة ، فيستحق عليك زيادة الإحسان . (والجار الجنب) : من جاورك من العوام فتنصحه وترشده ، (والصاحب بالجنب) : من رافقك في أمر من العوام ، كسَفرٍ وغيره ، (وابن السبيل) : من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف ، فلهم حقّ الضيافة عليهم حسًّا ومعنًى ، (وما ملكت أيمانكم) : مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد ، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد . ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام . فقال : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُورًا) . والله تعالى أعلم[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٤٤/٢ ، ٤٥ .

وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[١] (الأنعام: ١٥١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم : ﴿ **تَعَالَوْاْ** ﴾ أي: هلموا ، ﴿ **أَتْلُ** ﴾ أي: أقرأ ﴿ **مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ﴾ ، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم ، ولم يُنسخ قط في ملة من الملل ، بل وصى به جميع الملل ، هو ﴿ **أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ بل توحدوه وتعبدوه وحده ، (و) أن تحسنوا ﴿ **وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾ ، ولا تُسيئوا إليهما ، لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما . ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ** ﴾ أي : من أجل الفقر الحاصل بكم ، وكانت العرب تقتل أولادها خوفًا من الفقر فنزلت فيهم ، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره ، ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ ، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم . ﴿ **وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ** ﴾ كبار الذنوب ﴿ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ للناس ﴿ **وَمَا بَطَنَ** ﴾ في خلوة ، أو : ما ظهر منها على الجوارح ، وما بطن في القلوب من العيوب ، ﴿ **وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ** ﴾ كالقود ، وقتل المرتد ، ورجم المحصن . قال ﷺ : (لا يحلّ دمُ امرئٍ مُسلم إلا بإحدى ثلاثٍ : زنًى

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣) .

بعد إحصان ، وكفر بعد إيمان ، وقتل نفسٍ بغيرِ نفس)[1] . ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ المتقدم ، ﴿ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، فتتدبرونَ فيما ينفعكم وما يضركم . ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى ﴾ بالخصلة التي ﴿ هِىَ أَحْسَنُ ﴾ كحفظه وتثميره . والنهي عن القرب : يعم وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة ، لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى ، ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ وهو البلوغ مع الرشد ، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير ، فيدفع له ، ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل والتوفية ، ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، ولمّا أمر بالقسط في الكيل والوزن ، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجرى فيه الحرج ـ أمر بالوسع في ذلك وعفا عما سواه . ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ في حكومة ونحوها ، ﴿ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ﴾ المقول له في شهادة أو حكومة ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فيجب العدل في ذلك ، ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ أي:ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع، أو ماعاهدتم مع عباده ، ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون به . ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا ﴾ أي : ما تقدم في السورة كلها ، ﴿ صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ لأن السورة بأسرها إنما هي في إثبات التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى ، فإن مقتضى الحجة واحد ، ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات ، ولذلك تَفرقت . والمراد بالطرق : اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة ، ويدخل فيه البدع والأهواء ، وفي الحديث : (أن النبي ﷺ خط خطًّا ، ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطًا عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه سُبل ، وعلى كُل سبيلٍ منها شيطانٌ يَدعو إليها)[2] . ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الاتباع ﴿ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الضلال والتفرق عن الحق . وبالله التوفيق .

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٧٨) ، صحيح مسلم (١٦٧٦) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٤١٤٢) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

الإشارة : قد وصّى الحق ـ جل جلاله ـ على التخلص من الشرك ، جليه وخفيه ، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص . وهو مطلب الصوفية ، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين ، أي : والد الأرواح ـ وهو الشيخ المربى ـ ووالد الأشباح ، ولا بد للمريد من طاعتهما ، إلا أنه يقدم طاعة الشيخ كما تقدم عن الجنيد في (سورة النساء). ووصى بعدم قتل الأولاد ، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب في الغفلة ، وعدم قرب الفواحش : الظاهرة الحسية ، والباطنية القلبية كالحسد ، والكبر ، وحب الجاه والدنيا ، وسائر العيوب ، وعدم قتل النفس بالانهماك في الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة ، وعدم قرب مالِ اليتيم ، وهو الذي ليس له شيخ ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة . . . وعلى التوفية في الأمور كلها لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء ، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال . وعلى الوفاء بالعهد ، وأعظمها عهد الشيوخ المُربين ، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين ، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة . وبالله التوفيق[(١)].

قال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ [(٢)]

(الأنعام: ١٥١-١٥٣).

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٢٤-٣٢٦ .

(٢) سنن الترمذي (٣٠٧٠) وفيه : حدثنا الفضل بن الصباح البغدادي حدثنا محمد ابن فضيل عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال : من سره أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ﴾ الآية إلى قوله ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب . قال الألباني : ضعيف الإسناد .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف[1] النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : [2] حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس؟ قال لا تبشِّرهم فيتكلوا». أخرجاه في الصحيحين[3].

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي[4] :

(وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنتُ ردف) بكسر الراء وسكون الدال المهملة ، هذه الرواية المشهورة وهي التي ضبطها معظم الرواة ، وحكى القاضي عياض أن أبا علي الطبري الفقيه الشافعي أحدُ رواة الكتاب ضبطه بفتح الراء وكسر الدال ، قال : والرديف : هو الراكبُ خلف الراكب ، يقال منه ردفته أردفه بكسر الدال في الماضي وفتحها في المضارع ، إذا ركبت خلفهُ ، قال القاضي عياض : ولا وجه لرواية الطبري إلا أن يكون فعل هذا اسم فاعل مثل عجل إن صحت رواية الطبري اهـ . (النبي ﷺ على حمار) جاء في رواية

(١) في رواية الصحيحين : كنت ردف .

(٢) في صحيح مسلم (٣٠) : قال : فإن .

(٣) صحيح البخاري (٢٨٥٦)(٥٩٦٧)(٦٢٦٧)(٦٥٠٠)(٧٣٧٣) ، صحيح مسلم (٣٠).

(٤) هو محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (٩٩٦-١٠٥٧هـ ، ١٥٨٨ - ١٦٤٧م) : مفسر ، عالم بالحديث ، من أهل مكة . له مصنفات ورسائل كثيرة ، منها (ضياء السبيل) في التفسير ، و (دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين) ثمانية أجزاء ، في شرح (رياض الصالحين) للنووي ، و (المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية) في التصوف ، و(الفتوحات الربانية على الأذكار النووية) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٦/٢٩٣) .

أخرى لمسلم (على حمار يقال له عفير) بضم المهملة وفتح الفاء وسكون التحتية . . . (فقال لي : يا مُعاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد ، وما حقُّ العبادِ على الله) قال صاحبُ التحرير : اعلم أن الحقَ كل موجودٍ متحق أو ما سيوجد لا محالة ، والله سبحانه هو الحقُّ الموجودُ الأزلي الباقي الأبدي ، والموت والجنة والنار حق ، أي إنها واقعةٌ لا محالة ، فحق الله على العباد ما يستحقُه عليهم وحقُّهم عليه معناه محقق لا محالة . اهـ. ملخصًا . وقال غيره : قول الرجل : حقك واجبٌ علي أي متأكد قيامي به ، قاله المصنف (قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حقَ الله على العبادِ) أي واجبه الثابتُ عليهم (أن يَعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا) من المعبودات (وحق العباد) بالنصب عطفًا على ما قبله ويجوز الرفع على الابتداء والواو عاطفة للجملة أو مستأنفة (على الله أن لا يعذِب من لا يُشرك به شيئًا) . أي وإدخال بعضِ عُصاةِ المؤمنينَ النار ليس من العذاب ، لأن العذاب فيما قال بعضهم الألم مع الإهانةوالإذلال ، والله تعالى إذا أدخل المؤمن النار فهو لتطهيرهِ حتى يتأهلَ لمنازلِ الأخيار (قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشرُ الناس ؟) أي أسكتُ عن نشرِ ذلك فلا أبشر الناس (قال : لا تُبشرهم فيَتكلوا) رجح ﷺ مصلحةَ تركِ التبليغ لما فيه من الحثِّ على الإكثارِ من صالح العمل على التبليغ لما قد يؤدي إليه من التعطيل[1].

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢/٢٩٢ .

٢- باب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب .

قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾(١) (الأنعام: ٨٢).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ** ﴾ أي : خاصَموه في التوحيد ، فقال لهم : ﴿ **أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ** ﴾ أي : في وحَدانيته ، أو في الإيمان به ، وقد هداني إلى توحيدهِ وأرشدنى إلى معرفتهِ ، فلا ألتفت إلى غيره ، ولا أعبأ بمن خاصمنى فيه ، والأصل : تحاجونني ، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع ، وأبقى نون الوقاية ، وقيل : العكس ، وأدغم الباقون إحدى النونين في الأخرى .

الإشارة : مخاصمةُ العمومِ لأهلِ الخُصوصية سُنّة ماضيةٌ ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً** ﴾ (الأحزاب:٦٢) لأنّ من أنكر شيئًا عاداه ، فأهل الخصوصية يَعذرون من أنكرَ عليهم لأن ذلك مبلغُهم من العلم ، والعامة لا يعذرون أهل الخصوصية لخُروجهم عن بلادهم فلا يعرفون ما هم فيه . والله تعالى أعلم .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ** ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨٢) .

يقول الحق جل جلاله: حاكيًا عن خليله إبراهيم: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي: لا أخاف معبوداتكم أن تُصيبني بشيء لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا ﴾ يصيبني بقدره وقضائه، فإنه يصيبني لا محالة، لا بسببها، ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ﴾، كأنه علّة الاستثناء، أي: لا أخافُ إلا ما سبق في مشيئةِ اللّه، لأنه أحاط بكل شيءٍ علمًا، فلا يبعد أن يكونَ في علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتُميزوا بين الصحيح والفاسد، والقادر والعاجز؟ ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ ﴾ وهو جامدٌ عاجزٌ لا يتعلق به ضررٌ ولا نفعٌ؟ ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ ﴾ وهو أحقُ أن يُخاف منه كل الخوف، لأنه القادر على الانتقام ممن أشَرك معه غيره، وسوّى بينه وبين مصنوعٍ عاجزٍ، لا يضرُ ولا ينفعُ، فأنتم أحق بالخوف لأنكم ﴿ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا ﴾ أي: لم يُنزل بإشراكه كتابًا، ولم ينصب عليه دليلاً، ﴿ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ ﴾: أهل التوحيد والإيمان، أو أهل الشرك والعصيان؟ ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ما يَحق أن يُخاف منه. ثم أجاب عن الاستفهام: الحق تعالى أو خليلهُ، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ ﴾ أي: يَخلطوا ﴿ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ أي: بشرك، بل آمنوا بالله ولم يعبُدوا معه غيره، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ ﴾ في الآخرة، ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ في الدنيا. أما الطائعُ فأمنه ظاهر، وأما العاصي فيؤمن من الخلودِ وتحريم الجنة عليه. (ولمّا نزلت الآية أشفق منها أصحابُ رسول الله ﷺ، فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عمومَ الظلم فقال رسول الله ﷺ: ليس ما تَظنون، إنما هو ما قال لقمانُ لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ (لقمان:١٣)[(١)]. وقد كان المشركون يُقرّون بالصانع ويخلطون معه التَصديق بربوبيةِ الأصنام، فقد آمنوا بوجودِ الصانع، ولكنهم لبسوا إيمانهُم بالشرك، فلا أمنَ لهم ولا هدايةَ.

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٢٩) (٣٤٢٨) (٣٣٦٠)، صحيح مسلم (١٢٤).

وبهذا يرد جهالة الزمخشري في إنكاره الحديث الصحيح ، ولو بقي الظلمُ على عمومه ـ أي : ولم يخلطوا إيمانهم بمعصية ـ لصحّ ، ويكون المراد بالأمن أمنًا خاصًّا وهدايةً خاصةً ، لكن ما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُوقف عنده .

الإشارة : العارفُ بالله ، المتحققُ بوحدانيةِ الله ، لا يسكن خوفُ الخلقِ في قلبه ، ولا يَنظر إلا إلى ما يبرُز من عند ربه ، فإن وعدَه بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرعَ والالتجاء إلى ربه ؛ لسعة علمه تعالى ، وقد يكون ذلك متوقفًا على أسبابٍ وشروط ، أخفاها الحق تعالى إظهارًا لقهريته ، ولذلك قال الخليل عليه السلام : ﴿ **وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا** ﴾ . وقال سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا** ﴾ (الأعراف:٨٩) . فالعارف لا يزول اضطرارهُ ، ولا يكون مع غير الله قراره ، وأما الأمنُ من التحويل والانقلاب ، فاختلف فيه ؛ فقال بعضهم : يحصُل للوليِّ الأمنُ ، إذا تحقَق بمقام القُرب ، وحصل له الفناءُ والبقاء ، متمسكًا بقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ** ﴾ . وقال بعضهم : لا يحصُل الأمنُ إلا للأنبياء ـ عليهم السلام ـ ؛ للعصمة . قال الورتجبي : مقامُ الأمنِ لا يحصل لأحدٍ ، مادام هو بوصفِ الحدثية ، وكيف يكون آمنًا منه وهو في رِقّ العبوديةِ ويعرف نفسه بها ، ويعرف الحقَّ بوصف القدمِ والبقاءِ وقهر الجبروت؟ وقال تعالى : ﴿ **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ** ﴾ (الأعراف:٩٩) ، فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق ، وذاق طعَم الدنو ، واتّصف بصفاتِ الحق ، بدا له أوائلُ الأمن ، لأن في صفةِ القدمِ لا يكون علة الخوف والرجاء ، لأن هناك جنةَ القُرب والوصال ، وهم فيها آمنون من طَوارق القهرِ ، وهم مُهتدون مادامو متصِفين بصفاتِهِ ، وإن كانوا في تسامح من

مناقشةِ الله بدقائق خفايا مكره . ا هـ . فظاهر كلامه ، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء ، يحصل له الأمن من الشقاء ، وكذلك قال أبو المواهب : من رجع إلى البقاء أمِنَ من الشقاء . وقال في نوادر الأصول : مَن حَظه من أهل التقريب : الجلال والجمال ، وقد أقيم في الهيبة والأنس ، قد غاب عن خوف العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهُوِى والسقوط ، لِما رُكب في نفوس بنى آدم من الشهوات ، فهن أبدًا يَهوَينَ بصاحبهن عن الله إلى الإخلاد والبُطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلَص إلى الفردانية وتعلّق بالوحدانية لتلاشِي الهوى منه والشهوة بكشف الغطاء ، ولا يذهب خوف ذلك بالكُلّية عنه ، وإن سكن لبقاء خيال ذلك فى حق غير الأنبياء . وأما هُم فلم يبق لهم ظِل الهوى ، فبُشروا بالنجاة فلم تَغُرهم البُشرى لأنهم لم يبق لهم نفوس ، فتستبدّ وتجور إذا أمِنت السقوط ، ومِن بعَدَهم بَقِي لهم في نفوسهم شىء فمُنعوا البشرى ، وأُبهم عليهم الأمر صنعًا بهم ونظرًا لهم ، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال . هذا هو الأصل فافهمه . أ هـ . وحاصل كلامه : أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوفُ التحويل ، بل يسكن خوفه فقط ، ولا يُبَشر بالأمن إلا الأنبياء ، وهو الصواب ، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية ، قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ** ﴾ (الأنعام:١٨) : ، والله تعالى أعلم(١).

عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». أخرجاه(٢)

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٢٧٦-٢٧٨ .

(٢) صحيح البخاري (٣٤٣٥) ، صحيح مسلم (٢٨) .

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(قال رسول الله ﷺ : من شَهد) أي علم (أن لا إله) أي لا معبودَ بحقٍّ في الوجودِ (إلا الله) بالرفع بدلا من محل اسم لا قبلَ دخولها ولا يجوز الإبدال من محله بعد دخولها لأنها لا تعمل في المعارف ، وفي إعرابها بسط ذكرته في باب فضل الذكر وباب التشهد من شرح الأذكار (وحده) أي منفردًا بالألوهيةِ وغيرها من أوصاف الكمال (لا شَريك له) في ذلك ولا في شيء من أوصافهِ ولا من أفعالهِ بل كل ما في الوجودِ خلق الله وحده ، والمراد من صدّق بمضمون ذلك وأذعن له بجِنانه ونطقَ به بلسانه ، فإن منع من النطق مانعٌ من خرسٍ أو معالجةِ منيةٍ فهو مؤمن ، وإلا فنقل المصنف في أول شرح مسلم الإجماعَ على كُفره . وعورضَ بأن الغزالي نقل فيه عن جمعٍ أنه مؤمنٌ عاصٍ بترك النُطق بها (و) شهد (أن محمدًا عبدهُ) هو أشرفُ أوصافهِ فلذا ذكره به في الكتاب في أشرفِ المواطن كمقامِ الإسراء وإنزال الكتاب عليه ولذا قدمه على قوله (ورسوله) وفيه إيماءٌ إلى ما جَنَحَ إليه ابن عبد السلام في تفضيلِ النُبوةِ لتَعلقها بالحقِ على الرسالةِ لتعلقها بالخلقِ ، وذلك لأنه قدم العُبودية لكونها إضافة إلى الحق له بها شرف على الخلق ، والرسالة ليست كذلك وإن كان الأصحُ عند الجمهور تفضيلُ الرسالةِ لوجود التعلق بالحق فيها كالنُبوة وزيادتها بالإبلاغ للخلق (وأن عيسى) اسم معرب يسوع كما في البيضاوي ، قال : واشتقاقه من العيس وهو بياضٌ تعلوه حُمرة تكلف لا طائل تحته (عبد الله) خصهُ بالذكر ردًّا على النصارى في إنكارهِم ذلك ، وقولهم إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك (ورسوله) إلى بني إسرائيل (وكلمته) سمي به لأنه وُجد بأمرهِ تعالى دون أبٍ فشابه البِدعيات التي هي عالم الأوامر ، قال الشيخ أكمل الدين في شرح المشارق : وسماه كلمة مبالغة لأنه تكلم في غير أوانِه ، وأضيف إلى

الله تعالى تعظيمًا (وروح منه) سماه روحًا لأنه أحيى به الأمواتَ فكان كالروح وأحيى به القلوب من موتِ الجَهالة ، أو لأنه حدث من نفخ الروح كما قال تعالى : ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ (الأنبياء:٩١) قيل كان النافخُ جبريل وإضافته إلى الله تعالى لأنه كان بأمره . وفي تفسير البيضاوي : أي ذي روحٍ صدر منه لا يتوسط ما يجري مجرى الأصل والمادة (والجنة والنار) بالنصب عطفًا على ما قبله ، أي وشَهِد أنهما (حق) أي ثابتان موجودان ، وإفراد الخبرِ مع تثنيةِ المخبر عنه إما لأنه مصدر أو لإرادةِ كلٍّ واحدةٍ منهما (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) أي على أي عملٍ كان سيئًا أوحسنًا ، وهو حال نحو رأيتُ فلانًا على أكله ، أي آكلاً وفيما نحن فيه لا يجوز أن يقدر عاملا ، لأن العمل غير حاصل وقت الدخول فيقدر مستحقًا بما يناسب عمله من الثوابِ والعقابِ ، يعني من مات على الإيمان لا تُخرجه الكبائرُ عن إيمانه فيدخل الجنة ، أما كونه ابتداءً أو بعد دخول النار فمفوضٌ إلى مشيئةِ الله تعالى . قال الطيبي في شرح المشكاة : لا يتصوّر هذا في حق العاصي الذي مات قبل التوبةِ إلا إذا دخل الجنة قبل استيفاء العقوبة . فإن قلت : ما ذكرتَ يستدعي أن لا يدخلَ أحدٌ من عصاةِ المؤمنين النارَ ، قلت : اللازم عموم العفو وهو لا يستلزمُ عدم دخولِ النار لجوازِ أن يعفو عنهم بعد دخولها قبل استيفاء العذاب ، فليس يحتم عندنا أن يعذبَ بالنار أحدٌ من الأمة بل الواجبُ العفو عن الجميع بموجبِ وعده حيث قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر:٥٣)[١] .

ولهما[٢] في حديث عِتبان : فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢/٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) صحيح البخاري (٦٤٢٣)(٦٩٣٨) ، صحيح مسلم (٢٦٣)

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(وجه الله) لإخراجِ من نافقَ بها لحقنِ دمه وحفظِ ماله فلا يكون كذلك ، والمراد من تحريمِها على المؤمنِ الحقيقي تحريمُ خلوده فيها كما تقدمَ أو تحريمِ الدخولِ في طبقةِ الكفار الخاصة بهم لا الطبقة المُعدة لعُصاة المؤمنين ، أو المراد تحريمُ دخولها بشرطِ حصول قُبول العمل الصالح والتجاوز عن السيئ والله أعلم(١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى : يا رب ، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله ؛ قال : يا ربِ كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السمواتِ السبع وعامرهُن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » . رواه ابن حبان والحاكم وصححه(٢) .

وللترمذي(٣) وحسنه عن أنس رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدمِ ، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة » .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٤/١٦٤ .

(٢) صحيح ابن حبان (٦٢١٨) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٣) سنن الترمذي (٣٥٤٠) وفيه : حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري البصري حدثنا أبو عاصم حدثنا كثير بن فائد حدثنا سعيد بن عبيد قال سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول : حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ، ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » . قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قال الألباني : صحيح .

شرح الحديث :

قال المناوي[1] :

(قال اللّه تعالى : يا ابن آدم إنكَ ما دعوتَني) أي مدة دعائكِ فهي زمانية نحو ﴿ **مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ﴾ (فاطر:٣٧) (ورجوتَني) أي أملت مني الخير (غفرتُ لك) ذنوبكَ (على ما كان منك[2]) من عظائمٍ وجرائمٍ أو ما دمت تدعوني ، وترجو مغفِرتي ، ولا تقنطُ من رحمتي ، فإني أغفرُ لك ولا تعظم عليّ مغفرتكُ ، وإن كانت ذنوبك كثيرة وذلك لأن الدعاءَ مخ العبادةِ والرجاءِ متضمن لحسنِ الظنِ بالله وهو قال أنا عند ظن عبدي بي وعند ذلك تتوجه الرحمةُ له ، وإذا توجهت لا يتعاظمُها شيء لأنها وسِعت كل شيء (ولا أبالي) بذنوبكِ إذ لا معقبَ لحكمي ولا مانع لعطائي ، كأنه من البال فإنه إذا قيل لا أبالي كأنه قال : لا يشتغلُ بالي بهذا الأمر أو نحوه قال الطيبي : في عدم مبالاته معنى قوله : ﴿ **لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢٣) (يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك) بفرض كونها أجسامًا (عنانَ) بفتح المهملة سحاب (السماء) بأن ملأت ما بين السماء والأرض كما في الرواية الأخرى أو عنانها ما عن لك منها أي ظهرَ إذا رفعتَ رأسك ثم (استغفرتَني) أي : تُبت توبةً صحيحةً (غفرتُ لك ولا أبالي) لأن الاستغفار استقالة والكريم محل إقالة

---

(١) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (٩٥٢-١٠٣١ هـ ، ١٥٤٥ - ١٦٢٢ م) : من كبار العلماء بالدين والفنون . انزوى للبحث والتصنيف ، وكان قليل الطعام كثير السهر ، فمرض وضعفت أطرافه ، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه . له نحو ثمانين مصنفا ، منها الكبير والصغير والتام والناقص . عاش في القاهرة ، وتوفي بها . من كتبه (كنوز الحقائق) في الحديث ، و (التيسير) في شرح الجامع الصغير ، مجلدان ، اختصره من شرحه الكبير (فيض القدير) و(شرح الشمائل للترمذي) و(الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٠٤/٦) .

(٢) لفظ الترمذي : ما كان فيك .

العثرات وهذا على إطلاقه ، لأن الذنب إما شركٌ يغفرُ بالاستغفارِ أي التوبة منه وهو الإيمان أو دونه فبالندم والإقلاع بشرطه المعروف . قال التوربشتي : العنان السحاب ، وإضافته على هذا المعنى إلى السماء غير فصيح ، وأرى الصواب أعنان السماء وهي صفائحها يحسها وما اعترض من أقطارِها كأنه جمع عنن فلعل الهمزة سقطت من بعض الرواة وورد أن العنان بمعنى العياء ، وأجاب الطيبي بأنه يمكن أن يجعل من باب قوله : ﴿ **فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ** ﴾ (النحل:٢٦) تصويراً لارتفاع شأنِ السحابِ وأنه بلغَ مبلغ السماء ، وقال القاضي : العنان السحاب الواحدة عنانة من عنّ إذا اعترض ، وأضيف إلى السماء لأنه معترض من دونها ، وقد يقال : أعنان السماء ، والمعنى أنه لو كثرت ذنوبكَ كثرةً ما بين السماء والأرض ، بحيث تبلغ أقطارها وتعم نواحيها ، ثم استغفرتني غفرتُ لك جميعها غير مبالٍ بكثرتِها فإن استدعاء الاستغفار للمغفرة يستوي فيه القليل والكثير والجليل والحقير (يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقرابِ الأرض) بضم القاف ويقال بكسرها والضم كما في الرياض أفصح وأشهر ، أي بقريب ملئها أو مثلها وهو أشبه إذ الكلام سيق للمبالغة ، وقال القاضي : هو مأخوذ من القرب أي ما يقاربها في المقدار ، والقراب شبه جراب يضع فيها المسافر زاده وقراب السيف غمده (خطايا) قال الطيبي : تمييز من الإضافة نحو قولكَ ملأ الإناء عسَلاً (ثم لقيتني) أي مت حال كونك (لا تشرك بي شيئًا) لاعتقادكَ لتوحيدي وتصديقَ رسلي وما جاؤوا به للمُشاكلةِ ، وإلا فمغفرتُه أبلغ وأوسع من ذلك ، فهو بيان لكثرةِ مغفرته لئلا ييأسَ المذنبونَ عنها لكثرة الخطايا ولا يجوز الاغترار بهذا وإكثار المعاصي لأن لله عقوبةً شديدةً[1] .

---

(١) فيض القدير ٤/٦٥٠ ، ٦٥١ .

٣- باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل:١٢٠) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾ أي : إمامًا قدوة ؛ قال تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ﴾ (البقرة:١٢٤) ، قال ابن مسعود : « الأُمة : معلّم الناس الخيرَ » ، أو أمة وحده ، اجتمع فيه ما افترق في غيره ، فكان وحده أمة من الأمم ؛ لكماله واستجماعه لخصال الكمال التي لا تكاد تجتمع إلا في أشخاص كثيرة ، كقول الشاعر :

ولَيْسَ عَلَى الله بِمُسْتَنْكَرٍ أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِد .

وهو رئيسُ الموحدين ، وقدوة المحققين ، جادلَ فِرق المشركين ، وأبطل مذاهِبهم الزائفة بالحججِ الدامغة . ولذلك عقَّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين . أو : لأنه كان وحده مؤمنًا وسائر الناس كفارًا . قاله البيضاوي . وكان ﴿ **قَانِتًا لِّلَّهِ** ﴾ ؛ مطيعًا قائمًا بأوامره ، ﴿ **حَنِيفًا** ﴾ ؛ مائلاً عن الباطل ، ﴿ **وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ ، وأنتم يا معشر قريش تزعمون أنكم على دينه ، وأنتم مشركون .

الإشارة : كل من تمسكَ بطاعة الله ظاهرًا ، أو مال عما سوى الله باطنًا ، وشكر الله دائمًا ، ودعا الناس إلى هذا الأمر العظيم : كان وليًّا إبراهيميًّا ، محمديًّا ، خليلاً حبيبًا ، مقربًا ، قد اجتباه الحق تعالى إلى حضرته ، وهداه إلى

صراطٍ مستقيم ، وعاش في الدنيا سعيدًا ، ومات شهيدًا ، وألحق بالصالحين . جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه[(١)].

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٩) [(٢)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي : من عذابه خائفون حذرون ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ المنصوبة والمُنزّلة ، ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ بتصديقِ مدلولها ، وبكتبِ الله كلها ، لا يُفرقون بين كتبه ، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم - وهم أهلُ الكتابِ وغيرهم ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ شركًا جليًّا ولا خفيًّا ، بخلافِ مشركي العَرب والعجم . ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ أي : يعطون ما أعطوا من الزكوات والصَدقات . وقرئ : ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾ بالقصر ، أي : يفعلونَ من الطاعات ، ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : خائفة ألا تُقبل منهم لتقصيرهم بأن لا يقعَ على الوجه اللائق ، فيُؤخذوا به ويُحرموا ثوابه لأنهم ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ فيعاتبهم ، أو من مرجعهم إليه ، وهو يعلم ما يحيق عليهم ، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر ، في حَيِّز صِلاتِهَا من الأوصاف الأربعة ، لا عن طوائف ، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة ، كأنه قيل : إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وبآيات ربهم يؤمنون . . . إلخ . وإنما كرر الموصول إيذانًا باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة

---

(١) تفسير البحر المديد ٤/٦٧ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧-٦٢) .

على حِيالها ، وتنزيلاً لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ، وخبر « إنّ » : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ ﴾ ، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت ، مع أنّ الموصول واقع على الجمع . ومعنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم في الفضل ، أي : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة يسرعون ﴿ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ أي : يرغبون في الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون إليها . أو يسارعون في نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات كما في قوله تعالى : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ (آل عمران:١٤٨) ، وقوله : ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النحل:١٢٢) ، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم ، غير أنه غيّر الأسلوب ، حيث لم يقل : أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماءً إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال . وإيثار كلمة « في » ، عن كلمة « إلى » إيذانًا بأنهم مُتقلّبون في فنون الخيرات ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (آل عمران:١٣٣) الآية . ﴿ وَهُمۡ لَهَا ﴾ أي : لأجل نيل تلك الخيرات ، ﴿ سَٰبِقُونَ ﴾ الناس إلى الطاعات ، أو : وهم إياها سابقون ، واللام زائدة لتقوية العامل ، كقوله : (هم لها عاملون) أي : ينالونها قبل الآخرة ، فتُعجل لهم فى الدنيا ، وعن ابن عباس : (هم لها سابقون) أي : سبقت لهم من الله السعادة ، فلذلك سارعوا فى الخيرات . ا هـ . فهو إشارة إلى تيسير كلّ لما خُلق له ، وأنه يَسّرهمُ القدرُ لما وصفهم به من الخير ، كما أن الكفار أُمدوا بما يدعوا للغفلة والإعجاب ، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون . قال تعالى : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ أي : طاقتها ، فهو تحريض على تحصيل ما وُصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته ، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، أي : عادتنا جارية بأن لا نكلف نفسًا من النفوس إلا ما في طاقتها ، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعة مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم . ﴿ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ ﴾ أي :

صحائف الأعمال التي يرونها عند الحساب ، حسبما يُعرب عنه قوله : ﴿ **يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (الجاثية:٢٩) أي : عندنا كتاب أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه ، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعًا ، وقوله : ﴿ **بِٱلْحَقِّ** ﴾ : يتعلق بينطق ، أي : يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ، أو يظهره للسامع ، فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها ، ويرتب عليها أجزيتها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة ، وقوله : ﴿ **وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ ، بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء ، إثر بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال ، أي : لا يظلمون في الجزاء بنقص الثواب أو بزيادة عذاب ، بل يُجزون بقدر أعمالهم التي كُلِّفوها ، ونطقت بها صحائف أعمالهم ، أو : لا يُظلمون بتكليف ما لا وسع فيه ، أو : لا ينقصون مما سبق لهم في اللوح المحفوظ شيئا ، والله تعالى أعلم .

الإشارة : ذكر في هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين ، أولها : الخوفُ والإشفاق من الطرد والإبعاد ، والثاني : الإيمان الذي لا يبقى معه شكٌّ ولا وَهم ، بما تضمنتهُ الآياتُ التنزيليةُ من الوعدِ والإيعاد ، والثالث : التوحيد الذي لا يبقى معه شركٌ جلي ولا خفي ، والرابع : السخاءُ والكرم ، مع رؤيةِ التقصير فيما يعطي . فمن جَمَعَ هذه الخِصال كان من السابقين في الخيرات ، ويُسارع لهم في تعجيل الخيرات ، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد ، مع بذل المجهود في فعلِ الخيرات . قال في الحاشية : والمسارعة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور ، وأول الشرور : حب الدنيا لأنها مزرعة الشيطان ، فمن طلبها وعمرها فهو حراثه وعبده ، وشر من الشيطان من يُعين الشيطان على عمارة داره ، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه ، لما جرى عليه في السابقة من الحكم ، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين إجلالاً لربهم ، ورجوعًا لحكمه فيهم غيبًا ، فلا يأمنون مكره بحال ، ولا يركنون إلى أعمال ،

بل عمدتهم ربهم ورحمته فى كل حال . والله أعلم . والحاصل : أنهم مع كونهم يخشون ربهم ويؤمنون بآياته ، ولا يشركون به شيئا ، ويودون طاعته ، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه ، ولقائهم له لأنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأحكامه لا تعلل ، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده . اهـ . قوله : «ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده» أي : لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه ، ليدوم خوفه واضطراره ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة لأنه شغله استغراقه في الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة ، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب ، أو الافتراق بعد الجمع ، وهذا أيضا قبل التمكين ، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع . والله تعالى أعلم[(١)].

عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيُّكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت . قال : فما صنعت؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي . قال : وما حدثكم؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحُصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط[(٢)] ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد . إذ رفع لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه[(٣)]، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة

---

(١) تفسير البحر المديد ٥/٢٣-٢٥ .

(٢) وفي لفظ : الرهيط . صحيح مسلم (٢٢٠) .

(٣) وفي لفظ : ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم . المصدر السابق .

بغير حساب ولا عـذاب . ثـم نهـض فـدخل منْزلـه ، فخـاض النـاس في أولئك[1]، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ .وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئًا . وذكروا أشـياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ[2] فأخبروه ، فقال : هم الـذين لا يسـترقون ، ولا يكتـوون ، ولا يتطـيـرون ، وعلى ربـهـم يتوكـلـون . فـقـام عكاشـة ابن محصن[3] فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : أنت منهم ، ثم قـام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عكاشة»[4].

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(عرضت) بالبناء للمفعول (عليّ) بتشديد التحتية (الأمم) وفيه كمال شرفه وعرض جميع الأمم عليه صلوات الله وسلامه عليه ، ولعـل من حكـمـة ذلك ما قيل إنه مبعوث لجميع بني آدم من آدم فمن دونه ، والأنبياء إنما هم نوّاب عنه في تبليغ الشرائع لأولئك الأمم ، وهذا العرض يحتمل أن يكون منامًا ورؤيا الأنبياء وحي أو في اليقظة ليلة الإسراء أو غيرها ، والله يكرم نبيه بما شاء (فرأيت) أبصرت إن كانت يقظة أو رؤًى حلمية إن كانت منامًا (النبي) أل فيه للماهية أي المتصف بالنبوة ، ويظهر أن المراد به الرسول (ومعه الرهيط) بضم المهملة وفتح الهاء وسكون التحتية آخره طاء مهملة أيضًا . وفي مختصر القاموس : الرهط ويحرك قوم الرجل وقبيلته ، أو من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو ما دون العشرة وما فيهم امرأة ، ولا واحد له من لفظه ، جمعه أرهط

---

(١) الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . المصدر السابق .

(٢) فقال ما الذي تخوضون فيه ؟ المصدر السابق .

(٣) الأسدي . المصدر السابق .

(٤) صحيح البخاري (٣٤١٠) (٥٧٠٥) (٥٧٥٢) (٦٤٧٢) (٧٥١٥) ، صحيح مسلم (٢٢٠) .

وأرهاط وأراهط . قلت : الرهط من الرجال ما دون العشرة ، وقيل : إلى الأربعين . ا هـ . والجملة في محل الحال لتصديرها بالواو بناء على أن رأى الحلمية لا تنصب مفعولين وأن المنصوب الثاني بعدها في محل الحال وهو الذي رجحه ابن هشام في بعض كتبه (والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي) حال كونه (ليس معه أحد) . فإن قلت : النبي هو المخبر عن الله للخلق فأين الذين أخبرهم؟ قلت : ربما أخبرَ ولم يؤمنِ به أحدٌ ولا يكون معه إلا المؤمن (إذ رفع) بالبناء المفعول (لي سواد) أي أشخاص وهو كما في مختصر القاموس : الشخص ، ومن البلدة قراها والعدد الكثير من أهلها ، ومن الناس عامتهم . اهـ . ولذا قال القرطبي : أي أشخاص كثيرة ويجمع على أسودة (عظيم) لكثرته (فظننت أنهم) أي السواد الذي هو الأشخاص وباعتباره جمع الضمير العائد إليه (أمتي فقيل لي هذا) أي : السواد العظيم (موسى وقومه) أي : أمته المؤمنون (ولكن انظر إلى الأفق) بضم الهمزة والفاء وبسكونها كما في الصحاح ، وعبارته : الآفاق النواحي الواحد أفق ، وأفق مثل عسر وعسر انتهت ، وبالقاف : الناحية . وجوز الحافظ السيوطي أن يكون الأفق واحدًا وجمعًا كالفلك ويجمع أيضًا على آفاق (فنظرتُ فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم) أي غير السواد الأول إذ النكرة إذا أعيدت كانت الثانية غير الأولى غالبا (فقيل لي هذه) أي مجموع العظيمين (أمتك) أي : المؤمنون كما تقدم نظيره (ومعهم سبعونَ ألفًا) يحتمل أن يكون معناه ومن أمتك غير هؤلاء سبعون ألفًا ، ويحتمل أن يكون معناه وفي جملة هذه الأسودة سبعون ألفًا (يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ويؤيد الاحتمال الثاني رواية البخاري في صحيحه : (هذه أُمتك ، ويَدخل الجنة من هؤلاء سَبعون ألفًا)[1] فالسبعون ألفًا من أمته بلا شك . (وعذاب) بفتح المهملة وبالذال المعجمة ، وفي نسخة عقاب بكسر المهملة وبالقـاف ، وجملة (يدخلونَ

(١) صحيح البخاري (٥٧٠٥) .

الجنة) إلخ صفة أو حال من سبعون لتخصيصهِ بالظرف قبله . فإن قلت : هل يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ وإن كانوا أصحاب معاصي ومظالم؟ قلت : الذين كانوا بهذه الأوصاف الأربعة المذكورة في الحديث لا يكونون إلا عدولاً مُطهرين من الذنوب أو ببركة هذه الصفات يغفرُ الله لهم ويعفو عنهم (ثم نهضَ) ﷺ قبل بيان السبعين المذكورين (فدخل منزله فخاض) بالخاء والضاد المعجمتين : أي تكلم (الناس) والمراد منهم الصحابة وتَناظروا (في) تعيين (أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) وفي البخاري «فأفاض الناس» وهو بمعناه يقال أفاض الناس في الحديث إذا تباحثوا فيه وناظروا عليه وتناظروا . وفي الحديث إباحةُ المناظرة في العلم والمباحثة في نصوصِ الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق (فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ) أي : السابقونَ الذين صحبوه وقاموا بنصرة الدين وهجروا الأهل والأوطان لذلك (وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا) بالبناء للمفعول (في الإسلام) أي : وإن لم يرهم ﷺ وفضلهم ما أشاروا إليه بقولهم (فلم يشركوا بالله) فيه دليل على شَرف المسلم أصالةً على من كان كافرًا ثم أسلم ، ويدل له ما ذكره الفقهاء في تقديم من دخل آباؤه في الإسلام على من تأخر آباؤه في الدخول فيه في الإمامة (وذكروا أشياء) من الاحتمالات في التعيين (فخرج عليهم رسول الله ﷺ) أي عقبَ خُضوعهم في ذلك كما تشعر به الفاء إراحة لهم من الخوض فيما لا سبيل لهم لمعرفتهِ إلا من جِهته ﷺ (فقال : ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يرقونَ ولا يسترقون) أي : يطلبون الرقية لهم من الغير . وقد اختلف العلماءُ في هذا المقام مع ورود السنة فعلاً وإذنًا بجواز الرُقية والاسترقاء . والذي رجحه المصنف والقرطبي وغيرهما من ذلك ما قاله الخطابي وغيره أن المراد ترك ذلك توكلاً ورضًا بقضاء الله تعالى وبلائه ، قال الخطابي : وهذه من أرفع درجاتِ المتحققين بالإيمان . قال : وإلى هذا ذهب جماعة سماهم . قال المصنف : وحاصله أن هؤلاء كمُل تفويضُهم إلى الله تعالى فلم يسعوا في دفع ما أوقعه

بهم ، ولا شك في رجحان هذه الحال وفضيلة صاحبها . وأما تطببه ﷺ فلبيان الجواز اهـ . وقال القرطبي : الرقى والاسترقاء ما كان منه برقيا الجاهلية أو بما لا يعرف فواجبٌ اجتنابه على سائر المسلمين واجتنابه حاصلٌ من أكثرهم ، فلا يكون اجتناب ذلك هو المراد هنا ولا اجتناب الرقى بأسماء الله تعالى ، وبالمرويّ عن رسول الله ﷺ ، لأن ذلك التجاء إلى الله تعالى ، قال : ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أن المقصود اجتنابُ رقى خارج عن القسمين كالرقيا بأسماء الملائكة والأنبياء والصالحين كما يفعله كثير ممن يتعاطى الرقيا ، فهذا ليس من قسم المحظور الذي يعم اجتنابه ، ولا من قبيل الرقيا التي فيها اللجأ إلى الله تعالى ، فهذا القسم المتوسط يلحق بما يجوز فعله ، غير أن تركه أولى من حيث إن الرقى بذلك تعظيم وفيه تشبيه للرقي به بالرقى بأسمائه تعالى وكلماته ، فينبغي اجتنابُه كاجتناب الحلفِ بغيرِ الله تعالى . اهـ . (ولا يتطيرون) أي يتَشاءمون بالطيور ونحوها مما يتشاءم به : أي لا يرجعون عما عزموا عليه عند وجود ما جرت به عادة الجاهلية من التطير به والوقوف عن الفعل معه من الجوارح والسوانح وسيأتي في هذا بسط (وعلى ربهم) لا على غيره في سائر أحوالهم (يَتوكلون) وهؤلاء هم القائمون بأعلى مقامِ التوكلِ بتركِ الأسباب وعدم مُعاطاتها رضًا بتصرف المولى فيهم ، واكتفاءً بتدبيره تعالى عن تصرّف كلّ وتدبيره (فقام عكاشة بن محصن) بكسر الميم وسكون المهملة الأولى وفتح الثانية ، ابن حرثان بضم المهملة وسكون مهملة بعدها مثلثة وبعد الألف نون ، ابن قيس بن مرة بن كثير بن غنم بن داود بن أسد بن خزيمة (الأسدي) بفتح أوّليه وبالمهملتين حليف بني عبد شمس ، وكان عكاشة من أفاضل الصحابة وخيارهم وشجعانهم ، له ببدر المقام المشهور ، وذلك أنه ضَرب بالسيف في الكفار حتى انقطع ، فأعطاه ﷺ جزل حطب ، فأخذه فهزه في يده فعاد سيفًا صارمًا ، فقاتل به حتى فَتَحَ الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى العون ، ولم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل عكاشة وهو معه ، وقتل في قتال أهل الردة في خلافة أبي بكر

الصديق رضي الله عنه ، قتله طليحة ابن خويلد الأسدي ، هـذا قـول أهـل السير . وقال سليمان التيمي : أرسله رسول الله ﷺ إلى بني أسد في سرية فقتله طليحة . قال ابن الاثير : وهو وهم ، وإنما قاله لقـرب الحادثة مـن عـهـد رسول الله ﷺ ، وكـان عكاشة يـوم تـوفـي رسول الله ﷺ ابن أربع وأربعين سنة . وكان من أجمل الرجال . ا هـ . وقال ﷺ : منا خير فارس في العرب ، قالوا : ومن هو يا رسول الله؟ قال : عكاشة بن محصن . رضي الله عنه ، ولقوةِ يقينه وشدة حرصه على الخير ورغبته فيما عند الله تعالى سَبق الصحابةَ كلهم (فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم) يحتمل كونه منهم لدعائِه ﷺ له بذلك ، ويحتمل لكونه كان موصوفًا بتلك الأوصاف الجميلة ، ويحتمل أنه أوحى إليه بأنه منهم وفي جملتهم ، والله أعلم بحقيقة الحال ، ثم رأيت الكِرماني نقل الأول قولاً عن بعضهم (ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال) له لما لم يكن عنده ما عند عكاشة من تلك الأحوال الشريفة (سَبقك بها) أي في الفضل بالدعوة إلى منزلة أصحاب هذه الأوصاف (عكاشة) وكره أن يقول له : لست من أهل هذه الطبقة لأنه لكمال فَضله لا يواجه أحدًا بما يكره ، فجاء بكلام موفٍ للغرض ، وفيه التعريض بالمراد . قال الكرماني : قيل يحتمل أن يكون سبقك عكاشة بوحي أنه يجاب فيه ولم يحصل ذلك للآخر ، وقال القرطبي : لئلا يطلب كل مثل ما طلب عكاشة ، فسد الباب بحسن ذلك الجواب . وهذا أولى مما قيل كان ذلك الرجل منافقا لوجهين :

أحدهما : أن الأصل في الصحابة الإيمان والعدالة فلا يظن بأحدٍ منهم خلافُ الأصل ولا يسمع منه ذلك إلا بالنقل الصحيح .

والثاني : أنه قل أن يصدرُ مثل هذا السؤال من منافق ، إذ لا يصدر غالبًا عن تصديقٍ صحيح ويقينٍ بما عند الله تعالى اهـ . قلت : قد صرح الخطيبُ بأن ذلك الرًجل سعد بن عًبادة كما نقله عنه الكرماني وبه يبطل ذلك القول[1] .

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/٢٢٤-٢٢٧ .

٤- باب
الخوف من الشرك .

قول الله عزوجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ** ﴾ لأنه بت الحكم على خلود عذابه ، لأن الله تعالى غيور لا أحد أغير منه كما في الحديث[٢] ، ومن عادة الملوك إذا خرج أحدٌ من رعيته ونصر غيره لا يقبل منه إلا الرجوع أو الموت . ولا شفاعة تنفع في غير الرجوع عنه . ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ** ﴾ الشرك ﴿ **لِمَن يَشَآءُ** ﴾ من الكبائر والصغائر تاب أم لا . فالعصاة إذا لم يتوبوا في مشيئة الله ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ ارتكب ما تستحقر دونه الآثام . وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب ، والله تعالى أعلم .

الإشارة : ولما رأت الصوفية أن الشرك لا يُغفر ، ولا يُسمح في شيءٍ منه ، جليًّا أو خفيًّا ، حققوا إخلاصهم ، ودققوا معاملتهم مع ربهم ، وفتشوا على قلوبهم ، هل بقي فيها شيء من محبة غير مولاهم ، أو خوفٌ من شيء دونه ، وطهروا توحيدهم من نسبة التأثير لشيء من الكائنات ، فتوجهوا إلى الله في إزالة ذلك عنهم[٣] .

---

(١) تمام الآية : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء:٤٨) .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٢٠)(٥٢٢٣) ، صحيح مسلم (٢٧٦٠)(٢٧٦١)(٢٧٦٢) .

(٣) تفسير البحر المديد ٢/٥٣ ، ٥٤ .

وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [1]

(إبراهيم: ٣٥).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ **إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ** ﴾ يعنى : مكة ، (آمِنا) لمن فيها من إغارة الناس عليها ، أو من الخسف والعذاب ، أو من الطاعون والوباء ، ﴿ **وَٱجْنُبْنِي** ﴾ أي : امنعني واعصمني ، ﴿ **وَبَنِيَّ** ﴾ من بعدي ، من ﴿ **أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ** ﴾ أي : اجعلنا منهم من جانب بعيد . قال البيضاوي : وفيه دليل على أن العصمة للأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم ، وهو بظاهره لا يتناول أحفاده وجميع ذريته ، وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم ، محتجًّا به ، وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ، ويسمونها الدوار ، ويقولون : البيت حجر ، وحيثما نصبت حجرًا فهو بمنزلته . ا هـ . قال ابن جزي : و (بَنِيَّ) يعني : من صُلبه ، وفيهم أُجيبت دعوته ، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام . ا هـ . وقد قال في الإحياء : عنى إبراهيمُ عليه السلام بالأصنام ، الذهب والفضة ، بمعنى : حبهما والاغترار بهما ، والركون إليهما . قال عليه الصلاة والسلام ـ : (تَعِسَ عبدُ الدِّينَارِ والدِّرْهَم ...) الحديث[2] ؛ لأن رتبة النبوة أجل من أن يُخْشى عليها أن تعتقد الألوهية في شيء من الحجارة . اهـ . قلت : الظاهر أن يبقى اللفظ على ظاهره ، في حقه وفي حق بنيه . أما في حقه فلسعة علمه وعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ، كما هو شأن الأكابر ، لا يزول اضطرارهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، وهذا كقوله :

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ** ﴾ (إبراهيم: ٣٥) .

(٢) صحيح البخاري (٢٨٨٦) (٢٨٨٧) (٦٤٣٥) .

﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ (الأنعام:٨٠) . وتقدم هذا المعنى مرارًا . وأما في حق بنيه فإنما قصد العموم في نسله لكن لم يجب إلا فيما كان صلبه ؛ فإن دعاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يجب أن يكون كله مجابًا ، فقد يُجابون في أشياء ، ويُمنعون من أشياء . وقد سأل نبينا ﷺ لأمته أشياء ، فأجيب في البعض ، ومُنع البعض ، كما في الحديث[(١)] .

الإشارة : ينبغي للعبد أن يكون إبراهيميًّا ، فيدعو بهذا الدعاء على طريق الإشارة ، فيقول : رب اجعل هذا القلب آمنًا من الخواطر والوساوس ، واجنبني وبَنِيَّ ، أي : بَعِّدْنِي ومن تعلق بي ، أن نعبد الأصنام ، التي هي الدنانير والدراهم ، وكل ما يعشق من دون الله[(٢)] .

وفي الحديث :« أخوف ما أخاف عليكم : الشرك الأصغر ، فسئل عنه ، فقال : الرياء »[(٣)] .

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٩٠) وفيه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير ح وحدثنا بن نمير واللفظ له حدثنا أبي حدثنا عثمان بن حكيم أخبرني عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال ﷺ : سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها .

(٢) تفسير البحر المديد ٣/٣٧٦ ، ٣٧٩ .

(٣) مسند الامام أحمد (٢٣٦٨٠) وفيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يونس ثنا ليث عن يزيد يعنى ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء . إن الله تبارك وتعالى يقول يوم يجازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن رجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع . مسند الإمام أحمد (٢٣٦٨١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري[1] :

(قالوا يا رسول الله وما الشِرك الأصغر؟) فيه دلالةٌ على أن التَعبير بالشركِ الأصغرِ وقع في هذا الحديث أولاً (قال : الرِياء) أي : جِنسُ الرياء والسُّمعة من الظهور والخَفاء . (يوم يجازي العباد) على بناء الفاعل ونصب العباد وفي نسخة على بناء المفعول ورفع العباد (بأعمالهم) أي إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر (اذهبوا) أي أيـها المُراؤون (إلى الـذيـن كنتم تُراؤون) أي فــي حُسن العِبادة أو أصلها نظرهم تراعون[2].

وعن ابن مسعود ﵁ ، أن رسول الله ﷺ قال : «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار»[3].

قال الملا علي القاري :

(ندًّا) بالكسر أي مثلاً ونظيرًا في دُعائك وعبادتك[4].

---

(١) هو علي بن (سلطان) محمد ، نور الدين الملا الهروي القاري (٠٠٠-١٠١٤ هـ ، ٠٠٠ - ١٦٠٦ م) : فقيه حنفي ، من صدور العلم في عصره . ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها . قيل : كان يكتب في كل عام مصحفًا وعليه طرر من القراآت والتفسير فيبعيه فيكفيه قوته من العام إلى العام . وصنف كتبا كثيرة ، منها (تفسير القرآن) ، و(شرح مشكاة المصابيح) و (شرح الشفاء) و (شرح الحصن الحصين) في الحديث ، و(شرح الشمائل) و (تعليق على بعض آداب المريدين ، لعبد القاهر السهروردي) و(منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر)، و(الزبدة في شرح البردة) ، و(تذكرة الموضوعات) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (١٢/٥) .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥١٧/٩ .

(٣) صحيح البخاري (٤٤٩٧) .

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٠٤/١ .

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[1] .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(من لقي الله) أي : من لقي الأجلَ الذي قدرهُ الله يعني الموت (لا يشرك به) أي والحال أنه لقيه وهو غير مشرك به (شيئًا) قال أبو البقاء : شيئًا مفعول يشرك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا** ﴾ (الكهف:١١٠) ويجوز كونه في موضع المرجع وتقديره لا يشرك به إشراكًا كقوله تعالى : ﴿ **لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا** ﴾ (آل عمران:١٢٠) أي ضررًا (دخل الجنة) أي من ماتَ مؤمنًا غير مشركٍ بالله دخل الجنةَ بفضلِ الله ابتداءً ، أو بعد عتاب ، أو عقاب ، ومن مات مشركًا دخل النار ، وخلد فيها بالدلائل الدالة عليه . فإن قيل أهل الكتاب ليسوا بمشركين ، ولا يدخلون الجنة ، فالجواب أن الشركَ هنا إن كان بمعنى الكُفر فقد اندفع السؤال وإلا كان الكفر مساويًا للشركِ في استحقاقِ الخلودِ في النار فألحق به[2] .

---

(١) صحيح البخاري (١٢٣٨)(٤٤٩٧)(٦٦٨٣) ، صحيح مسلم (١٥٢) وفيه : ومن لقيه يشرك به دخل النار .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/٢٨٦ .

٥- باب
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [١]

(يوسف:١٠٨).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد : ﴿ **هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ** ﴾ : طريقي الذي جئتُ به من عند ربي ؛ وهي الدعوة إلى التوحيد ، والتأهب ليوم المعاد . ثم فسرها بقوله : ﴿ **أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ ، أو حال كوني داعيًا إلى الله ، أي : إلى توحيده ومعرفته والأدب معه ، ﴿ **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** ﴾ : حجة واضحة ، وبينة من ربي ، لا عن تقليد أو عمى . أدعو إلى الله ﴿ **أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾ ؛ فمن كان على قدمي فهو يدعو أيضًا إلى الله على بصيرة وبينة من ربه ، ﴿ **وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ** ﴾ : وأنزهه عن الشركاء والأنداد ، ﴿ **وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ به شركًا جليًّا ولا خفيًّا ، بل مخلصًا موحدًا .

الإشارة : لا يصلح العبد أن يكون داعيا إلى الله حتى يكون على بصيرة من ربه ، بحيث لا يبقى فيه تقليد بحت ، ولا يختلجه شك ولا وهم . والدعاة إلى الله على ثلاث مراتب : فمنهم من يدعو على بصيرة الإسلام وهم الدعاة إلى معرفة أحكام الله وشرائعه ، ومنهم من يدعو علي بصيرة الإيمان ، وهم الدعاةُ إلى معرفة صفات الله تعالى وكمالاته ، ومعرفةِ ما يجبُ له تعالى وما يستحيل

---

(١) تمام الآية : ﴿ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨) .

وما يجوز على طريق البرهان الواضح . ومنهم من يدعو إلى الله على بصيرة الإحسان ، وهم الدعاة إلى معرفة الذات العلية على نعت الشهود والعيان ، من طريق الذوق والوجدان وهم العارفون بالله ، أهل النور المخرق ، بحيث كل من واجههم خرقَ النور إلى باطنه . وهذه الدعوة الحقيقية والبصيرة النافذة ، وأهل هذا المقام هم أهل التربية النَبوية ، فدعوة هؤلاء أكثر نفعًا ، وأنجح تأثيرًا فى زمنٍ يسير يهدى الله على أيديهم الجَم الغفير . قال في نوادر الأصول : الداعي إلى الله على بصيرة ـ أي معاينة ـ هو الذي قلبه عند الله ، وعلى بصيرة فى الطريق ، ومحل القلوب في تلك المراتب ناطقًا بالله ، عن الله ، فلذلك يلجُ آذان المستمعين ، مع الكسوة التي تخرق كل حجاب ، وهو نور الله ، لأنه خرجَ من قلبٍ مشحونٍ بالنور ، فخَرقَ كل حجابٍ قد تراكم على قلوب المخلطين ، فخلصها إلى نورِ التوحيد فأنارها بمنزلةِ جمرة وصلت النفخة إليها ، فالتهبت نارًا ، فأضاءت البيت . وهذا سبيل الناطق عن الله . ثم قال : وكيف يجوز الدعاء إلى الله لمن ليس عند الله ، وهو لله ، وإنما قلبه عند نفسه ولنفسه ، مشغولٌ بنهمته وشهواته وأحواله ، وإنما هذا لمن تفَرغ من نفسه ، واشتغل بالله . ا هـ[(١)].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله . وفي رواية : إلى أن يوحدوا الله[(٢)] فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله[(٣)] افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله[(٤)] افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوك لذلك

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٣١٢-٣١٣ .

(٢) وفي رواية : فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك .

(٣) وفي رواية : قد افترض عليهم .

(٤) في سنن النسائي(٢٥٢٢) : قد افترض عليهم .

فإيّاك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». أخرجاه[1].

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب) يعني به اليهودَ والنصارى لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب وأغلب ، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم ويعد الأدلة لإفحامهم لأنهم أهلُ علمٍ سابق بخلافِ المشركين وعبدةِ الأوثان (فادعهم) أي أولاً (إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، و)إلى شهادة (أني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك) أي : بالنطق بكلمتي التوحيد ، قال القرطبي : وهذا الذي أمر النبي ﷺ به معاذًا هو الدعوةُ قبل القتال التي كان يوصي بها النبي ﷺ أمراءه وقد اختلف في حكمها ، وعلى هذا ففي الحديث لمن يقول أول الواجبات التلفظ بكلمتي الشهادة مصدقًا بها . وقد اختلف في أول الواجبات على أقوال كثيرة ، والذي عليه أئمة الفتوى ومن بهم المقتدى كمالك وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من السلف أن أولَ الواجبات على كل مكلفٍ الإيمانُ التصديقي الجزمي الذي لاريب معه بالله ورسله وكتبه وما جاءت به الرسل كيفما حصل ذلك الإيمان وبأي طريق إليه يوصل . وأما النطقُ باللسانِ فمظهر لما استقر في القلب من الإيمان وسبب ظاهر ترتب عليه أحكام الإسلام ، ولا حجة في الخبر لمن قال بعدم مخاطبةِ الكفار بالفروع أخذًا من أمرهم بها بعد إطاعتهم إلى النطق بالشهادتين ، لأن ذلك يحتمل أنه إنما قدم لكون الإيمان شرطًا مصححًا للأعمال الفرعية لا للخطاب بالفروع ، إذ لا يصح فعلها إلا بتقدم وجوده ، ويصح الخطاب بالإيمان وبالفروع معًا في وقت واحد وإن كانت في الوجود متعاقبة ، قال القرطبي : وهذا الاحتمال أظهر

(١) صحيح البخاري (١٣٩٥) (١٤٥٨) (٢٤٤٨) (٤٣٤٧) ، صحيح مسلم (١٩) ، سنن النسائي (٢٥٢٢) قال الألباني : صحيح .

مما تمسكوا به ، ولو لم يكن أظهر فهو مساوٍ له ، فيكون ذلك الخطاب مجملاً بالنسبة إلى هذا الحكم ، أو أن النبي ﷺ إنما رتب هذه القواعد ليبين الأهم فالأهم ، والله أعلم . ا هـ ملخصًا . (فأعلمهُم أن الله قد افترض عليهم خمس صلواتٍ في) مجموع (كلِ يوم وليلةٍ) و« إن» هنا وفيما بعد شرطية و« هم» فاعل فعل محذوف وجوبًا دل عليه ما بعده فهو نظير : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ (التوبة:٦) ، فالجواب جملة « فأعلمهم» (فإن هم أطاعوكَ لذلك) بالإقرار بالوجوب والعزم على فعلها . (فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صدقةً) أي : زكاة كما في رواية مسلم ، وسميت صدقةً لأنها تدل على صدق إيمانِ باذلها (تؤخذ من أغنيائهم) أي : من أموالهم .

وعند مسلم « تؤخذ من أموالكم» قال المصنف : ويستدل بلفظ : « من أموالهم» على أنه إن امتنع من دفع الزكاة أخِذت من ماله بغير اختياره ، وهذا الحكم لا خلاف فيه ، ولكن هل تبرأُ ذِمته ويجزئه في الباطن؟ وجهان لأصحابنا (فترد) وعند مسلم : وترد (على فقرائهم) واستدل به مالك على أن الزكاةَ لا تَجب قسمتها على الأصناف المذكورين في الآية ، وأنه يجوز للإمام صَرفها إلى صنفٍ واحدٍ من الأصناف المذكورين في الآية إذا رآه نظرًا ومصلحة دينية ، قاله القرطبي . قال ابن دقيق العيد : وفيه بحث لاحتمال أن يكون ذكر الفقراء لكونهم الغالب في ذلك وللمطابقة بينهم وبين الأغنياء . (فإن هم أطاعوكَ لذلك فإياك وكرائم أموالهم) منصوب بفعل مضمر لا يجوز إظهاره . قال ابن قتيبة : لا يجوز حذف الواو ، والكرائم جمع كريمة أي نفيسة ، ففيه ترك أخذ خيار المال . والنكتةُ فيه أن الزكاةَ لمواساةِ الفقراء فلا يناسب ذلك الإجحاف بمالِ الأغنياء إلا إن رضوا بذلك (واتقِ دعوة المظلوم) قال الحافظ ابن حجر : أيَ : تَجنب الظُلم لئلا يدعو عليك المظلوم ، وفيه التنبيه على المنع من جميع الظلم . والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم . وقال بعضهم : « واتق»عطف على عامل « إياك» المحذوف

وجوبًا فالتقدير : اتق نفسكَ أن تتعرضَ للكرائم ، أو أشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائمِ ظلمٌ ، ولكنه فيه إشارةٌ إلى التحذير عن الظلمِ مطلقًا (فإنه) قال القرطبي : الرواية الصحيحة بضمير المذكر على أن يكون ضمير الأمر الشأن ، ويحتمل أنه يعود على مذكر الدعوة فإن الدعوة دعاء . ووقع في بعض النسخ : أي : من مسلم « فإنها » بهاء التأنيث ، وهو عائدٌ على لفظ الدعوة (ليسَ بينها وبين الله حِجاب) أي : ليس لها صارفٌ يَصرفها ولا مانع ، والمراد أنها مقبولةٌ وإن كان عاصيًا كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد[1] : (دَعوةُ المَظلوم مُستجابة ، وإن كان فاجرًا فَفجوره على نَفسه) . وإسناده حسن ، وليس المراد أن لله حجابًا يحجبه عن الناس . قال الطيبي : فقوله اتق دعوةَ المظلوم تذييل لاشتماله على الظلم الخاص من أخذ الكرائم وعلى غيره ، وقوله : فإنه تعليل للاتقاء وتمثيل للدعاء كمن يقصدُ دار السلطان مظلومًا فلا يحجب . قال ابن العربي : إلا أنه وإن كان مطلقًا فهو مقيد بالحديث الآخر (إن الداعي على ثلاث مَراتب : إما أن يُعجل له ما طلب ، وإما أن يُدخر له أفضل منه وإما أن يُدفع عنه من السوء مثله)[2] . وهذا كما قيد مطلق قوله تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** ﴾ (النمل:٦٢) ، بقوله : ﴿ **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ** ﴾ (الأنعام:٤١) . فائدة : لم يقع في الحديث ذكر الصومِ والحجِ مع أن بعث معاذٍ كان أواخر الأمر كما تقدم . قال الحافظ ابن حجر العسقلاني نقلاً عن شيخه شيخ الإسلام : يعني سراج الدين البلقيني : إذا كان الكلام في بيان الأركان لم يخل الشارع منها بشيء كحديث ابن عمر : (بُني الإسلام على خمسٍ)[3] ، أما إذا كان في الدعاء إلى الإسلام اكتفى بالأركان الثلاثة الشهادة والصلاة والزكاة ، ولو كان بعد وجوب فرض الصوم والحج كقوله تعالى :

---

(١) مسند الإمام أحمد (٨٧٨١) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) المصدر السابق (١١١٤٩) : قال شعيب الأرناؤوط : إسناده جيد .

(٣) صحيح البخاري (٨)(٤٥١٤) ، صحيح مسلم (١٦) .

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (التوبة:٥) ، في الموضعين من «براءة» مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج قطعًا وكحديث ابن عمر[١]: (أمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويُقيموا الصلاةَ ويؤتوا الزكاة) وغير ذلك من الأحاديث ، قال والحكمةُ في ذلك أن الأركان الخمسة اعتقادي وهو الشهادة ، وبدنيّ وهو الصلاة ، وماليّ وهو الزكاة ، فاقتصر في الدعاء إلى الإسلام عليها ليفرع الركنين الآخرين عليها ، فإن الصوم بدنيّ محض والحج بدني مالي ، وأيضًا فكلمة الإسلام هي الأصل وهي شاقةٌ على الكفار ، والصلوات شاقةٌ لتكررها ، والزكاة شاقةٌ لما في جبلة الإنسان من حبّ المال ، فإذا أذعن لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها اهـ[٢].

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غدًا رجلاً[٣] يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبحوا[٤] غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : أين علي بن أبي طالب؟ فقيل : هو يشتكي عينيه[٥] ، فأرسلوا إليه ، فأُتي به . فبصق[٦] في عينيه ؛ ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال : [٧] انفذ على رِسلِك . حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام . وأخبرهم

---

(١) صحيح البخاري(٢٥) ، صحيح مسلم (٢٢) .

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/٤٤٥-٤٤٧ .

(٣) وفي رواية : يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . صحيح مسلم (٢٤٠٦) .

(٤) وفي رواية : فلما أصبح الناس غدوا . المصدر السابق .

(٥) في المصدر السابق : فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا هو يا رسول الله يشتكي عينيه قال : فأرسلوا إليه .

(٦) في المصدر السابق : فبصق رسول ﷺ في عينيه ودعا له .

(٧) في المصدر السابق : فقال : يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، قال : انفذ على رسلك .

بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا ، خيرٌ لك من حمر النعم». يدوكون أي : يخوضون[1]

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر) جرت عادةُ العرب الكناية بيوم كذا عن غزوته سواء كانت في يوم أقل أو أكثر ، وهذا المقال صدر منه في بعض أيام تلك الغزوة فإنها كانت أيامًا . (لأعطينّ الراية غدًا رجلاً يَفتح الله على يديه) والتنوين في رجل للتعظيم ، وأبدل منه ما يزيد في تعظيمه قوله : (يحبُ الله ورسوله) بالنصب (ويحبهُ الله ورسوله) أي : جامعٌ للوصفين حائزٌ للشرفين المتلازمين يحبهم ويحبونه ـ رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ وتقدم أن المراد من محبةِ الله للعبد توفيقهُ لمرضاته وإنابته ، والمراد من محبة العبد لله ورسوله امتثالُ أوامرهما واجتناب مناهيهما (فبات الناس يدوكون) يَخوضون (ليلتهم) أي فيها (أيهم يعطاها) بالبناء للمفعول (فلما أصبح الناس غدوا) هو السير أول النهار ، والرواح : السير آخره هذا أصلهما ، وقد يُستعمل كل في موضع الآخر (على رسول الله ﷺ كلهم يرجو) الإفراد باعتبار لفظ «كل» قال في «مغني اللبيب» : إذا أضيفت «كل» إلى معرفة فقالوا : يجوز مراعاة لفظها ومراعاة معناه وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ** ﴾ (مريم:٩٣-٩٤) والصواب أن الضمير لا يعود إليها من خبرها إلا مفردًا مذكرًا على لفظها نحو ـ وكلهم آتيه ـ وقوله ﷺ : «كلكم راع» وأما ـ لقد أحصاهم ـ فجملة أجيب بها القسم المقدر وليست خبرًا عن «كل» وضميرها راجع لمن ومن معناه الجمع . اهـ .

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٤٢) (٣٠٠٩) (٣٧٠١) (٤٢١٠) ، صحيح مسلم (٢٤٠٥) (٢٤٠٦) (٢٤٠٧) .

(أن يعطاها) ورجاؤها ذلك لا لذاتِ الراية إنما هو لشرفِ صاحبها من كونه مُحبًّا لله تعالى ورسوله محبوبًا لهما . (فقال : أين علي بن أبي طالب؟ فقيل : يا رسول الله هو يشتكي عينيه) أي بالرمد كما جاء في رواية أخرى (قال : فأرسلوا إليه) إن كان فاعل قال ضمير يعود إلى النبي ﷺ كما يقتضيه السياق فيكون قوله : «فأرسلوا إليه» بصيغة الأمر مرفوعًا ، وإن كان فاعله يعود إلى الراوي ففي الكلام اختصار ، فقال أرسلوا إليه فأرسلوا إليه ، ولم أقف فيه على ضبط (فأتى) بالبناء للمفعول (به فبصق رسول ﷺ في عينيه ودعا له) أي : بالعافية (فبرئ) عَقِبَ ذلك حالاً معجزةً له ﷺ وكرامةً بإجابة دعوته فزال الوجع وآثاره (كأن) بتخفيف النون : أي : كأنه (لم يكن به وجعٌ) فيهما (فأعطاهُ الرايةَ فقال : يا رسول الله أقاتلهم) أي أُقاتلهُم بتقدير همزة الاستفهام قبل الفعل وحذفها دفعًا لثقل توالى همزتين (حتى يكونوا مثلنا) في الإسلام ويدخلوا في الدين (قال : انفذ) بضم الفاء وبالذال المعجمة : أي امض (على رسلك) أي على هينتك ولا تعجل وأصله السكون والثبات (حتى تَنزل بساحتهم) هي الناحية والفضاء بين دور الحي (ثم) بعد وصولك لها (ادعهم إلى الإسلام وأخبرهُم بما يجب عليهم من حق الله) الواجب (فيه) من الأعمال البَدنية كالصلاة والصيام ، والمالية كالزكاة والجامعة لهما كالحج والعمرة . وتمسك بهذا الحديث قوم فقالوا : يجب الدعاء قبل القتال . والصحيح أنه مخصوص بمن لم تبلغه الدعوة لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غادون (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا) أي : ينقذه من الكفر والضلال بدلالتك له على الإسلام والهدى (خيرٌ لك ، من حمرِ النعم) أي من أن تكون لك ، وحمر النعم : هي الإبل الحمر وهي أنفسُ أموالِ العرب ، ويضربون بها المثل في نفاسة الشيء وأنه ليس هناك أعظم منه ، وتشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ، وإلا فذرةٌ من الآخرة الباقية خيرٌ من الدنيا بأسرها وأمثالها معها لو تصورت . . . وفي الحديث بيان فضل العلم والدعاء إلى الهدى و سن السنن الحسنة[1].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/٣٨٣ ، ٣٨٤ .

٦- باب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .

قول الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ (الإسراء:٥٧) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلِ** ﴾ لهم : ﴿ **ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم** ﴾ أنهم آلهة تعبدونهم ﴿ **مِّن دُونِهِۦ** ﴾ كالملائكة والمسيح وعُزير ، أو كالأصنام والأوثان ، ﴿ **فَلَا يَمۡلِكُونَ** ﴾ لا يستطيعون ﴿ **كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ** ﴾ ، كالمرض والفقر والقحط ، ﴿ **وَلَا تَحۡوِيلًا** ﴾ لذلك عنكم إلى غيركم ، قال تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ** ﴾ أنهم آلهة ، هم في غايةِ الافتقار إلى اللّه والتوسلِ إليه ، كلهم ﴿ **يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ** ﴾ أي : التقرب بالطاعة ، ويحرصون ﴿ **أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ** ﴾ إلى اللّه من غيره ، فكيف يكونون آلهةً؟ أو : أولئك الذين يدعونهم آلهة ، يطلبونَ إلى ربهم الوسيلة بالطاعةِ ، يطلبها أيهم أقرب ، أي : الذي هو أقرب ، فكيف بغير الأقرب ؟ ﴿ **وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ** ﴾ كسائر العباد ، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا** ﴾ مخوفًا ، أي : حقيقًا بأن يحذره كل أحد ، حتى الرسل والملائكة . أعاذنا اللّه من جميعه . آمين .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا** ﴾ (الإسراء:٥٦،٥٧).

الإشارة : كل ما دخلَ عالم التكوين لزمته القهرية والعبودية ، فهو عاجزٌ عن إصلاح نفسه ، فكيف يصلح غيره؟ ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، فكيف يدفع عن غيره ؟ فارفع همتك ، أيها العبد ، إلى مولاك ، وأنزل حوائجك كلها به دون أحد سواه ، فكل ما سواه مفتقرٌ إليه ، والفقير المضطر لا ينفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ والله يتولى هداك(1).

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ (الزخرف:٢٦،٢٧) (2).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أي : واذكر وقت قوله عليه السلام **﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾** المُنكّبين على التقليد ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله : **﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾** أي : بريء **﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾** ، وتمسك بالبرهان . وذكر قصته ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، أو : ليقلدوه ، إن لم يكن لهم بُد من التقليد ؛ فإنه أشرف آبائهم . و **﴿ بَرَآءٌ ﴾** : مصدر ، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كرجل عدل ، وامرأة عدل ، وقوم عدل . و (ما) : إما مصدرية ، أو : موصولة ، أي : بريء من عبادتكم ومن معبودكم **﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾** ؛ استثناء متصل ، أو : منقطع ، على أن (ما) تعم أُولي العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام ، أو : صفة ، على أن (ما) موصوفة ، أي : إنني براء من آلهة

---

(1) تفسير البحر المديد ١٠٢/٤ .

(2) قال الله عزوجل : **﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾**

(الزخرف:٢٦-٢٨) .

تعبدونها غير الذي (فطرني) ؛ خلقني ﴿ **فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ** ﴾ ؛ يثبتني على الهداية ، أو : سيهدين إلى ما وراء الذي هداني إليه الآن . والأوجه : أن السين للتأكيد دون التسويف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار . ﴿ **وَجَعَلَهَا** ﴾ أي : وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التي تكلّم بها ، وهي قوله : ﴿ **إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ ، ﴿ **كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ** ﴾ أي : في ذريته ، حيث وصَّاهم بها ، كما نطق به قوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ** . . . ﴾ (البقرة:١٣٢) ، فلا يزال فيهم مَن يوحّد الله تعالى ، ويدعوهم إلى توحيده . ﴿ **لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ﴾ أي : جعلها باقية في ذريته رجاء أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحّد .

الإشارة : كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد ، لقوله تعالى : ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا** ﴾ (البقرة:١٢٤) ، وجعل الدعوة إليه في عقبه إلى يوم القيامة،وهو على قسمين:توحيد البرهان،وتوحيد العيان.وقد جاءت بعده الرسل بالأمرين معًا ، وقام بها خلفاؤهم بعدهم ، فقام بالأول العلماء ، وقام بالثاني خواص الأولياء ، أهل التربية الحقيقية ، ولا ينال من توحيد العيان شيئًا مَن علق قلبه بالشهوات الجسمانية ، والحظوظ الفانية ، كما قال الششتري رضي الله عنه :

تَركنا حُظوظًا من حضـيض لُحُوظنـا ... مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى.

وكل مَن تمتع بذلك ، وانهمك فيه حُرِم بركة صحبة العارفين إذ يمنعه ذلك من حط رأسه ، ودفع فلسه ، فينخرط في سلك قوله تعالى : ﴿ **بَلۡ مَتَّعۡتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ** . . . ﴾ (الزخرف:٢٩) الآية . وكلّ زمان له رسول ، خليفةٌ عن الرسول ﷺ يدعو إلى الحق ومعرفته . وباللّه التوفيق[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٧/١١-١٣ .

وقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] (التوبة: ٣١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ ، قال ابن عباس : هذه المقالة قالها أربعة منهم ، وهم : سَلامُ بن مُشكم ، ونُعمانُ أو لُقمانُ ابنُ أوفَى ، وشاسُ بن قَيس ، ومالِكُ بنُ الصّيفِ . وقيل : لم يقلها إلا فنحاص ، ونسب ذلك لجميعهم لسكوتهم عنه . قال البيضاوي : إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم ، أو ممن كانوا بالمدينة ، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة ، وهو ـ أي عزير ـ لما أحياه الله بعد مائة عام ، أملى عليهم التوراة حفظًا ، فتعجبوا من ذلك ، وقالوا : ما هذا إلا أنه ابن الله ، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب . اهـ . . . ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ ، هو أيضًا قول بعضهم ، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أبٍ ، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . . . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ من غير دَليل ولا برهان ، بل قالوا به من عندهم ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أي: يشابهون في هذه المقالة ﴿ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ﴾ ، يعنى : قدماءهم ، على معنى أن الكفر قديم فيهم . قال ابن جزى : فإن كان الضمير لليهود والنصارى ، أي : المتقدمين ، فالإشارة بقوله : (الذين كفروا من

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠-٣٣) .

قبل) للمشركين من العرب ، إذ قالوا : الملائكة بناتِ الله ، وهم أول كـافـرٍ ، أو للصابئين ، أو لأمم تقدمت ، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبى ﷺ من اليـهـود والنصارى ، فالـذيـن كـفـروا مـن قـبـل هم أسلافهم المتقدمون . اهـ . ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي : أهلَكهم ودمرهم لأن من قاتله الله هلك ، فيكـون دعاء ، أو تعجبًا من شناعة قولهم ، ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ ﴾ أي : علماءَهم ﴿ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ ؛ عُبَّادَهم ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ بأن أطاعوهُم في تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ، وفـي السُجود لـهـم ، ﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ ؛ بـأن جعلـوه ابـن الله . ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وهو الله الواحد الحق ، وأما طاعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسائر من أمرَ بطاعته ، فهو في الحقيقة طاعةٌ لله ، ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تقريرٌ للتوحيد ، ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيهًا له عن أن يكون مـعـه شريك . ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ ﴾ أي : يخمدوا ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ القرآن أو الإسلام بجملته ، ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ كقولهم فيه : سحر ، وشعر ، وغـيـر ذلك ، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا ، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ ﴾ لا يرضى ﴿ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ بإعلاء التوحيد ، وإظهار الإسلام ، وإعزاز القرآن وأهله ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ذلك ، فإن الله لا محالة يتم نوره ، ويظهر دينه . ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ محـمـدا ﷺ ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ، الضمير في « يظهره » : للـديـن الحق ، أو للرسول ﷺ ، واللام في « الدين » : للجنس ، أي : على سائر الأديان فينسخها ، أو على أهلها فيخذلهم ، وقد أنجزَ وعده ، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها ، حتى عم المشارق والمغارب ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ذلك الإظهار ، فيظهره الله رغمًا عن أنفهم . وقيل : يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السّلام ، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام ، والله تعالى أعلم .

الإشارة : من انطمس نور بصيرته نسب لله ما لا يليق بكمالاته ، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط ولم ينفذ إلى شهود الموسوط ، وقد عيَّر الله قومًا وقفوا مع الوسائط فقال : ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ ، وقال ، في شأن الواسطة العظمى ؛ غيرةً على القلوب أن تقف مع غيره : ﴿ **لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ** ﴾ (آل عمران:١٢٨)، ﴿ **إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ** ﴾ (هود:١٢) ، ودخل بعضُ العارفين على إنسان وهو يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال له : مات أستاذي ، فقال له ذلك العارف : ولم جعلت أستاذك من يموت؟ فالوسائط ؛ كالأنبياء والأولياء ، إنما هم مُوَصِّلونَ إلى الله ، دالون عليه ، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى الله فقد اتخذه ربًا عند الخواص . وقال الورتجبي على هذه الآية : عيّر الحق تعالى من بقي فى رؤية المقتدَى به دون رؤية الحق ، وإن كان وسيلة منه ، فإن في إفراد القدم من الحدوث ، النظر إلى الوسائط ، وهو شرك ، وتصديق ذلك تمام الآية ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا** ﴾ . غَيرةُ الوحدانية ما أبقت في البَين غيرًا من الشواهد والآيات وجميع الخلق . قال الله تعالى : ﴿ **قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ** ﴾ (الأنعام:٩١) . ولما رأى ﷺ غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز في المدح فقال :(لا تَطرونى كما أطرت النصارى المسيح)[١]... ثم قال الورتجبي : قال بعضهم في هذه الآية : سكنوا إلى أمثالهم ، فطلبوا الحق من غير مظانه ، وطُرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق ، وبصر سبل التحقيق ، ومن أعمِى عن ذلك كان مردودًا عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق ، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلة عرفانهم أهل الحقائق ، وركونهم إلى أهل التقليد ، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد ، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل السالوس المتزينين بزى المشايخ والعارفين المتحققين ، وتخلفَ خلفَ الجامعين للدنيا ،

---

(١) حديث صحيح وسيأتي تخريجه في باب (ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) .

الذين يقولون : نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة ، يُضحك اللهُ الدهرَ من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب ، حاشا أن من لم يذق طعم وِصال الله ، وقلبُه معلق بغير الله ، هو من أولياء الله . قال الجنيد : إذا أراد الله بالمريد خيرًا هداه إلى صحبة الصوفية ، ووقاه من صحبة القراء . ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم ، ولم يتعرضوا لأولياء الله ، ولم يقصدوا إسقاط جاههم ، لكفيهم شقاوتهم ، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين . قال الله في شأنهم : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ ، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوار شموس الصفات ، التي تبرز من جباه وجوههم ، ولآلئ خدودهم ، وأصلها ثابت في أفلاك الوحدانية وسموات القيومية ، ويزيد نورهم على نور لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته . قوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ** ﴾ : إن الله سبحانه سن سنة أزلية : ألا يجد أحدٌ سبيله إلا من يُقيض له أستاذًا عارفًا بالله ، وبسرّ دينه وربوبيته ، فيدله إلى منهاج عبوديته ، ومعارج روحه وقلبه ، إلى مشاهدة ربوبيته ، ويكون هو واسطة بينه وبين الله ، وإن كان الفضل بيد الله ، يؤتيه من يشاء بغير علة ولا سبب ، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب ، وصيره شفيعًا للجنايات ، لا شريكًا في الهدايات ، هداه نور القرآن ، وبيّنه حقيقة البيان ، مع إظهار البرهان . قيل : جعل الله الوسائط طريقًا لعباده إليه ، وبعثهم أعلامًا على الطرق ونورا يهتدى بهم ، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين ، قال الله تعالى : ﴿ **أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ** ﴾ . انتهى كلامه[١] .

قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١٦٥) [٢] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٦٩-٧٢ .

(٢) تمام الآية : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ** ﴾ (البقرة:١٦٥) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا** ﴾ أشباهًا وأمثالاً من الأصنام والرؤساء ﴿ **يُحِبُّونَهُمْ** ﴾ ، وينقادون إليهم ، كما يحبون الله تعالى ، فيُسَوون في المحبة بين الله تعالى العلي الكبير ، وبين المصنوع الذليل الحقير ، ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ** ﴾ بالله ووحَّدُوه ﴿ **أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ ؛ لأن المؤمنين لا يلتفتون عن محبوبهم في الشدة ولا في الرخاء ، بخلاف الكفار فإنهم يعبدونهم في وقت الرخاء ، فإذا نزل البلاء التجئوا إلى الله . قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾ (النحل:٥٣) الآية ، وأيضًا : المؤمنون يعبدون الله بلا واسطة ، والكفار يعبدونه بواسطة أصنامهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ** ﴾ (الزمر:٣) وأيضًا المؤمنون يعبدون ربًّا واحدًا فاتحدت محبتهم . . . ﴿ **وَلَوْ يَرَى** ﴾ يا محمد ، أو كل من يتأتى منه الرؤية ، حال (الَّذِينَ ظَلَمُوا) باتخاذهم الأنداد والأوثان ، بعد وضوح الأدلة وسُطوع البرهان ، حيث ﴿ **يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ** ﴾ محيطًا بهم ، والزبانيةُ تَغلبهم ، والنار تلتقطهم ، لرأيت أمرًا فظيعًا ، وخطبًا جسيمًا ، ولعلمت ﴿ **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ ، أو لو يرى الذين ظلموا العذاب الذي أُعِد لهم بسبب شركهم ، لرأوا أمرًا عظيمًا ، ولتيقنوا ﴿ **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ** ﴾ .

الإشارة : المحبةُ : مَيلٌ دائم بقلب هائم ، أو مراقبة الحبيب في المشهد والمغيب ، أو مواطأةُ القلب لمراد الرب ، أو خوف ترك الخدْمة مع إقامة الحُرْمة ، أو اسْتِقْلالُ الكثير من نفسك واستكثارُ القليل مِنْ حبيبك ، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة ، وقال الشبلي : (أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك) والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له غير مشيئتهِ ، وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : (المحبة أخذَةٌ من الله لقلب عبده المؤمن عن كل شيء سواه ، فترى النفسَ مائلةً لطاعته ، والعقل متحصنًا

بمعروفه ، والروح مأخوذةً في حضرته ، والسر مغموراً في مشاهدته ، والعبد يستزيد من محبته فيزداد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويَمَسّ أبكارَ الحقائق وثيبات العلوم ، فمن أجل ذلك قالوا : أولياء الله عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون . . .) إلخ كلامه . واعلم أن محبة العبد لمولاه سببُها شيئان :

أحدهُما : نظر العبد لإحسان الله إليه وضروب امتنانه عليه ، وجُبِلَت القلوبُ على حب من أحسن إليها ، وهذا هو المسمى بحب الهوى ، وهو مكتسب ، لأن الإنسان مغمور بإحسانات الله إليه ، ومتمكن من النظر فيها ، فكلما طالَع مِنة مِن مِنَن الله التي لا تقبل الحصر ولا العدّ ، كان ذلك كحَبة زُرعت في أرض قلبه الطيب الزكي ، فلا يزال يطالع مِنة بعد منة ، وكلُ منة أعظم من التي قبلها ، لأنه كلما طالع المنن تنور قلبه وازداد إيمانًا ، وكشف من دقائق المنن ما لم يكن يُكشف له قبلُ ، وظهر له خفايا المنن ، وعظمت محبته .

الثاني : كشف الحجب ، وإزالة الموانع عن ناظر القلب ، حتى يرى جمال الحق وكماله ، والجمال محبوب بالطبع ، وهذان هما اللذان قصدت رابعة العدوية ـ رضى الله عنها ـ :

أُحِبّــكَ حُــبين : حُــبّ الهَــوى ... وحُبّــا لأنــك أهــلٌ لِــذاكَ .

فأمّــا الــذي هــو حُــبّ الهَــوى ... فَشُــغلي بِــذِكرِك عمّــن سِــواكَ .

وأمّــا الــذي أنــتَ أهــل لــهُ ... فكشــفُك لِلحُجــبِ حــتى أراكَ .

فــلا الحمــدُ في ذَا ولا ذَاك لي ... ولَكِــن لــكَ الحَمــدُ في ذَا وذاكَ .

وإنما خَصصَت الحُبّ الناشئ عن شهود الجمال بالأهلية دون الأول ، وإن كان أهلاً للجميع لأن هذا منه إليه ، لا كسب للعبد فيه ، والآخر فيه كسب ، وعمل العبد معلول ، وقولها : (فشغلى بذكرك عمن سواك) من باب التعبير بالمسبب عن السبب ، والأصل : فثمرته شغلى بذكرك عمن سواك ، فهو مسبب عن المحبة لأنفسنا ، وقولها أيضًا (كشفك للحجب حتى أراك) ، من باب

التعبير بالسبب عن المسبب ، والأصل ، فبسببه كشفك للحجب حتى رأيتك بعينَي قلبى . وقولها : (فلا الحمد . . .) إلخ ، إخبار منها بأن الحُبّين معًا منه وإليه وبه في الحقيقة ، لا كسب لها في واحد منهما باعتبار الحقيقة ، بل هو الحامد والمحمود ، وإدراك التفاوت بين المقامين ، ـ أعني بين المحبة الناشئة عن شهود الإحسان ، والناشئة عن شهود الجمال ـ ضروري عند كل ذائق ، وأن الثانية أقوى . قاله في شرح الشريشية .

قال ابن جُزَي : اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين أحدهما : المحبة العامة ، التي لا يخلو منها كل مؤمن ، وهي واجبة ، والأخرى : المحبة الخاصة التي ينفرد بها العلماء الربّانيون والأولياء والأصفياء ، وهي أعلى المقامات ، وغاية المطلوبات ، فإنّ سائر مقامات الصالحين : كالخوف والرجاء والتوكل ، وغير ذلك ، مَبنيةٌ على حظوظ النفس ، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه ، والراجي إنما يرجو منفعة نفسه ، بخلاف المحبة ، فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة .

واعلم أن سببَ محبةِ الله : معرفتُه ، فتقوى المحبة على قدر المعرفة ، وتضعف على قدر ضعف المعرفة ، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعا ، ولا شك أنهما اجتمعا في حق الله تعالى على غاية الكمال فالموجب الأول : الحسن والجمال ، والآخر الإحسان والإجمال ، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع ، فإن الإنسان بالضرورة يحب كل ما يُستحسن ، ولا جمالَ مثلُ جمال الله تعالى ، في حكمته البالغة وصنائعه البديعة ، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار ، التي تَرُوق العقول وتبهج القلوب ، وإنما يُدرَك جمالُه تعالى بالبصائر لا بالأبصار . وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وإحسان الله إلى عباده متواتر ، وإنعامُه عليهم باطن وظاهر ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٤) ، ويكفيك أنه يُحسن إلى

المطيع والعاصي ، وإلى المؤمن والكافر ، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو فى الحقيقة منه وحدَه ، فهو المستحق للمحبة وحده . واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح ، من الجد فى طاعته ، والنّشَطِ لخدمته ، والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق إلى لقائه ، والأُنس بذكره ، والاستِيحَاش مِن غيره ، والفرار من الناس ، والانفراد في الخلوات ، وخروج الدنيا من القلب ، ومحبة كل ما يحبه الله ، وكل من يحب الله ، وإيثار الله على كل ما سواه . قال الحارث المحاسبي : (المحبة ميلك إلى المحبوب بِكُلّيتِكَ ، ثم إيثارك له على نفسك ورُوحك ، ثم موافقته سرًّا وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه) . قلت : ظاهره أن المحبة أعلى من المعرفة ، والتحقيق أن المعرفة أعلى من جميع المقامات لأنها لا تبقى معها بقية من الحجاب أصلاً ، بخلاف المحبة ، فإنها تكون مع بقية الحجاب ، ألا ترى أن المحب يستوحش من الخلق ، والعارف لا يستوحشُ من شيء لمعرفته في كل شيء . قال في الحِكَم : « إنما استوحشَ العُبّاد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله فى كل شيء ، ولو عرفوا الله فى كل شيء ما استوحشوا من شيء » . وأيضا : العارف أكملُ أدبًا من المحب لأن المعرفة إنما تحصُل بعد كمال التهذيب والتدريب ، وقد تحصل المحبة قبل كمال التهذيب ، مع أن المعرفة هى غاية المحبة ونهايتها ، والله تعالى أعلم[١].

وفي الصحيح[٢] عن النبي ﷺ أنه قال : «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله ، حَرُم ماله ودمه . وحسابه على الله عزوجل».

---

(١) تفسير البحر المديد ١/١٦٧-١٧٠ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣) .

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(من قال لا إله إلا الله) أي مع قَرينتها ، وهي محمدٌ رسول الله . . . (وكَفَر بما يُعبد من دون الله) أيّ : أي مَعبودٍ كان (حَرُم مالهُ ودمه) بضم راء الفعل ورفع الاسمين بعده ، وقوله (وحِسابه على الله) جملة مستأنفة مَسوقة لبيان تَعلق أحكام الشَريعة بالظاهر دون ما يُخفيه ويَسره ذو العقيدة الفاسدة أو يُخفيه ذو الأعمال القبيحة فيفوض أمر ذلك إلى المولى سبحانه(١).

وشرح هذه الترجمة : ما بعدها من الأبواب .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢/٢٤١ .

٧- باب
من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه .

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ ﴾ (الزمر:٣٨) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم** ﴾ أي : مَن يخوفونك ممن سوى الله ، وقلت لهم : ﴿ **مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ** ﴾ لوضوح الدلائل على انفراده بالاختراع . ﴿ **قُلْ** ﴾ تبكيتًا لهم :﴿ **أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ من الأصنام ، ﴿ **إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ** ﴾ أي : إذا تحققتُم أن خالق العالم العلوي والسفلي هو الله وحده ، فأخبروني عن آلهتكم ، إن أرادني اللهُ بضُر هل يقدرُ أحدٌ منهم على كشف ذلك الضر عني؟ ﴿ **أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ** ﴾ أي : بنفع ﴿ **هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ** ﴾ وصارفتها عني ؟! وقرأ البصري : « كاشفاتٌ » و « ممسكاتٌ » بالتنوين ، ونصب « ضره » و « رحمته » على المفعول . وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه ﷺ ، للرد في نحورهم ؛ حيث كانوا يُخوفونه من معرّة الأوثان ، ولما فيه من الإيذان بإمحاض النصيحة . وإنما قال : « كاشفات » و « ممسكات » على التأنيث ، بعد قوله : ﴿ **وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾ ؛ لأنهن إناث ، وهن اللات ، والعزى ، ومناة ، وفيه

---

(١) تمام الآية : ﴿ **أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ (الزمر:٣٨) .

تهكم بهم ، وبمعبودهم ؛ حيث جعلهم يعبدون الإناث . ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي : كافيني في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر . روي أنه ﷺ لما سألهم سكتوا ، فنزلت ﴿ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لا على غيره أصلاً لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهرِ ملكوته .

الإشارة : الناس على قسمين : أعداء وأحباب ، فإن نظرتَ إلى الأحباب وجَدتهم لا يقدرون أن ينفعوكَ بشيءٍ إلا ما قدّر اللهُ لك ، وإن نظرت إلى الأعداء وجدتهم لا يقدرونَ أن يَضروك بشيءٍ إلا ما قدّر الله عليك ، فارفض الجميع ، وتعلّق بالله يغنكَ عن غيره ، ويوصل إليك ما قسم لك بالعز والهناء[1] .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه : أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حَلقةٌ من صُفر فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة . فقال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا . رواه أحمد[2] بسند لا بأس به .

وله[3] عن عقبة بن عامر مرفوعًا : «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق وَدعةً فلا ودع الله له».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(ودعة) بفتح أو سكون على نحو ولده (فلا ودع الله له) أي لا جَعله في دعة وسكون وهو لفظ بني من الودعة أي لا خففَ الله عنه ما يخافهَ كذا ذكره ابن الأثير ، وهذا دعاءٌ أو خبر ، وكذا يقال في قوله (ومن علق تميمةً فلا تمم

---

(١) تفسير البحر المديد ٦/٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٠٠١٤) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٧٤٤٠) . قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن وهذا إسناد ضعيف .

الله له) قال في مسند الفردوس : الودعةُ شيءٌ يَخرج من البحرِ شبه الصدف يتقون به العين ، والتميمة خرزات تُعلق على الأولاد للعين فأبطل النبي ﷺ ذلك .

(تنبيه) قال ابن حجر كغيره : محل ما ذكر في هذا الخبر وما قبله[(١)] تعليقُ ما ليس فيه قرآن ونحوه ، أما ما فيه ذكرُ الله فلا نهي عنه فإنه إنما جُعل للتبركِ والتعوذ بأسمائه وذكره وكذا لا نهي عما يُعلق لأجل الزينةِ ما لم يبلغ الخُيلاء والسرف[(٢)].

وفي رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك[(٣)].

شرح الحديث :

قال المناوي :

(تميمة) هي ما عُلق من القلائد لرفع العين (فقد أشرك) أي : فعلَ فعل أهلِ الشرك ، وهم يريدون به دفعَ المقادير المكتوبة . قال ابن عبد البر : إذا اعتقد الذي قلدها أنها ترد العين فقد ظن أنها ترد القدر واعتقاد ذلك شرك[(٤)].

ولابن أبي حاتم عن حذيفة : أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمى ، فقطعه وتلا قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

(يوسف:١٠٦) .

---

(١) الحديث الآتي .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٧٤٥٨) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي .

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/٢٣٤ .

٨- باب
ما جاء في الرقى والتمائم .

في الصحيح[(١)] عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه : أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتـر أو قِلادة إلا قطعت .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(فأرسل رسولاً) أي مقولاً له (أن لا يبقين) بضم أوله وفتح القاف مؤكدا بالنون الثقيلة على صيغة المجهول من الإبقاء ، وفي نسخة بفتحها على صيغة المعلوم من البقاء ، والمعنى لا تتركن (في رقبةِ بعيرٍ) أي مثلاً (قلادة) بكسر القاف وهي نائب الفاعل أو الفاعل (من وتر) بفتحتين واحـد أوتار القـوس (أو قلادة) شك من الراوي ، والمراد أنه بغير قيد قوله من وتر والمعنى قلادة مطلقًا (إلا قُطعت) أي قلعت ، وإنما أمر بقطعها لأن الأجراسَ كانت متعلقةً بها وهي من مزاميرِ الشيطان ومانعة لمصاحبةِ الملائكة الرفقة التي هي فيها ، أو لئلا يتشبثَ بها العدو فيمنعُها عن الركض . قال الطيبي : قوله : لا يَبقين إما صفة لـ (رسولاً) أي أرسل رسولاً ينادي في الناس بهذا ، أو حال من فاعل أرسل أي أرسل رسولاً آمرًا له أن يُنادي بهذا ، والأول أظهر ، ومعنى الاستثناء إنما يَستقيم إذا فُسر لا يبقين بلا يتركن ، والاستثناء مفرع والمستثنى منه أعم عام الأحوال . في شرح السنة : تأول مالكٌ أمره بقطعِ القلائدِ على أنه من أجل العين ، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك الأوتار والقلائد والتمائم ، ويعلقون

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٠٥) صحيح مسلم (٢١١٥) .

عليها العوذ يظنون أنها تعصُم من الآفات ، فنهاهم النبي عنها وأعلمهم أنها لا تَرد من أمر الله شيئًا . وقال غيره : إنما أمر بقطعِها لأنهم كانوا يُعلقون فيها الأجراس . قال النووي : قال محمد بن الحسن وغيره : معناه لا تقلدوها أوتار القسي لئلا يضيق على عُنقها فيخنقها اهـ . وقد سبق أنها ربما رعت الشجرة أو حكت بها عنقها فتشبث بها[١] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد[٢] وأبو داود[٣] .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(إن الرقى) أي التي لا يُفهم معناها ، إلا التعوذ بالقرآن ونحوه ، فإنه محمودٌ ممدوح (والتمائم) جمع تميمة ، وأصلها خَرزات تُعلقها العرب على رأس الولد لدفعِ العين توسعوا فيها فسموا بها كل عوذة (والتولة) بكسر التاء وفتح الواو كعنبة ما يحبب المرأة إلى الرجل من السحر (شركٌ) أي من الشرك ، سماها شركًا لأن المتعارف منها في عهده ما كان معهودًا في الجاهلية ، وكان مشتملاً على ما يتضمنُ الشرك ، أو لأن اتخاذها يدل على اعتقادِ تأثيرها ، ويفضي إلى الشرك ذكره القاضي . وقال الطيبي رحمه الله : المراد بالشرك اعتقاد أن ذلك سبب قوي ، وله تأثير وذلك ينافي التوكل ، والانخراط في زُمرة الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، لأن العرب كانت تعتقدُ تأثيرها ، وتقصد بها دفعَ المقادير المكتوبة عليهم ، فطلبوا دفع الأذى من غير الله تعالى ، وهكذا كان اعتقاد الجاهلية . فلا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤١١/٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٣٦١٥) . قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٣) سنن أبي داود (٣٨٨٣) . قال الألباني : صحيح .

وكلامه ، ولا من علقها بذكر الله تبركًا عالمًا أنه لا كاشفَ إلا الله فلا بأس به[1].

وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعًا : «من تعلق شيئًا وُكَّل إليه». رواه أحمد[2] والترمذي[3]

شرح الحديث :

قال المناوي :

(من تعَلق شيئًا) أي تمسَك بشيءٍ مـن المُداواة ، واعتـقـد أنه فاعل للشفاء أو دافع للداء (وُكِّل إليه) أي وَكَّل الله شفاءه إلى ذلك الشيء ، فلا يحصل شفاؤه ، أو المراد من علق تميمةً من تمائم الجاهليةِ ، يظن أنـها تـدفـعُ أو تنفعُ فإن ذلك حرام ، والحرام لا دواء فيه ، وكذا لو جهل معناها وإن تَجرد عن الإعتقاد المذكور ، فإن من علق شيئًا من أسماء الله الصريحة فهو جائزٌ بل مطلوبٌ محبوب ، فإن من وُكِّل إلى أسماء الله أخذَ الله بيده . وأما قول ابن العربي : السنة في الأسماء والقرآن الذكر دون التعليق فممنوع ، أو المراد من تعلقت نفسه بمخلوقٍ غير الله وكله الله إليه ، فمن أنزل حوائجهُ بالله والتجأ إليه وفوضَ أمره كله إليه كفاه كل مؤونة ، وقرب عليه كل بعيدٍ ، ويسر له كل عسيرٍ ، ومن تعلق بغيرهن أو سكن إلى علمهِ ، وعقلهِ ، واعتمد على حولهِ وقوتهِ ، وكلهُ الله إلى ذلك وخذلهُ وحرمهُ توفيقهُ وأهملهُ ، فلم تُصحح مطالبه

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٤٣٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٨٨٠٣) . قال شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٣) سنن الترمذي (٢٠٧٢) وقال : حديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ وكان في زمن النبي ﷺ يقول كتب إلينا رسول الله ﷺ . قال الألباني : حسن .

ولم تتيسر مآربه وهذا معروفٌ على القطع من نصوصِ الشريعةِ وأنواع التجارب[1].

التمائم : شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين ، لكن إذا كان المعلَق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعلُه من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه .

والرُقى : هي التي تسمى العزائم ، وخصَ منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه رسول الله ﷺ **من العين والحمة .**

والتولة : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

وروى أحمد[2] عن رويفع قال : قال لي رسول الله ﷺ **: «يا رُويفع ، لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلد وترًا ، أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمدا بريء منه».**

وعن سعيد بن جبير قال : «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة». رواه وكيع .

وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١٣٨/٦ ، ١٣٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٠٣٦) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

٩- باب
من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما .

وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم:١٩،٢٠) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ أي : أخبروني عن هذه الأشياء التي تَعبدونها من دون الله ، هل لها من القدرة والعظمة التي وُصف بها رَبُّ العزة في الآي السابقة حتى استحقت العبادة ، أم لا؟ واللات وما بعدها : أصنام كانت لهم ، فاللات كانت لثقيف بالطائف ، وقيل : كانت نخلة تعبدها قريش ، وهي فَعْلَةٌ من : لوى ؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها . وقرأ ابن عباس ومجاهد ورُويس بتشديد التاء ، على أنه اسم فاعل ، اشتهر به رجلاً كان يُلتُّ السَّوِيق بالزيت ، ويُطعمه الحاجَ ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه . (والعُزى) كانت لغطفان ، وهي شجرة كانوا يعبدونها . . . (ومناة) صخرة على ساحل البحر لهذيل وخزاعة ، وقيل : بيت بالمشلل يعبده بنو كعب ، وسميت مناة ؛ لأن دماء النسائك تُمنى ، أي : تُراق عندها ؛ لأنهم كانوا يذبحون عندها . وقرأ ابن كثير بالهمزة بعد الألف ، مشتق من النوء ؛ لأنهم كانوا يستمطرون بالأنواء عندها ، تبرُّكًا بها ، وقيل : سَموا هذه الأصنام بأسماء الله ، وأَنـَّثوها ، كأنها بنات الله في زعمهم الفاسد ، فاللات من « الله » ، كما قالوا : عمر وعمرة ، وعباس وعباسة ، فالتاء للتأنيث . والعُزَّى : تأنيث العزيز ، ومناة : تأنيث منان ، فغُير تخفيفًا ، ويؤيد هذا قولُه

تعالى ردًّا عليهم : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ (النجم:٢١) . و (الأخرى) : صفة ذم لها ، وهي المتأخرة الوضيعة القدر ، كقوله : ﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ (الأعراف:٣٨) أي : وضعاؤهم لرؤسائهم ، وقيل : وصفها بالوصفين ؛ لأنهم كانوا يُعظمونها أكثر من اللات والعزى ، والفاء في قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ للعطف على محذوف ، وهي لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : عَقِب ما سمعتم من كمال عظمته تعالى في ملكه وملكوته ، وأحكام قدرته ، ونفوذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما ، رأيتم هذه الأصنام مع حقارتها بنات الله ، مع وأدكم البنات ، وكراهتكم لهن ؟

الإشارة : هذه الأصنام موجودة فى كلّ إنسان ، فاللات : حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية ، فمَن كان حريصًا عليها ، جامعًا لأسبابها ، فهو عابدٌ لها ، والعُزى : حب العز والجاه والرئاسة وسائر الشهوات القلبية ، فمَن طلبها فهو عبد لها ، ومناة : تمنى البقاء فى الدنيا الدنية الحقيرة ، وطول الأمل فيها ، وكراهية الموت ، فمَن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا ، كاره لقاء الله ، فيكره اللهُ لقاءه ، فتوجه لهؤلاء العتاب بقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ ﴾ حيث تحبون ما هو كمال لأنفسكم ، ﴿ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة شريكة لله في استحقاق العبادة والمحبة[1] . . .

عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ؛ فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ؛ فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر ، إنها السنن . قلتم ، والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

(١) تفسير البحر المديد ٢٣٧/٤ ، ٢٣٨ .

﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٨) . **لتركبن سنن من كان قبلكم**». **رواه الترمذي وصححه** .[(١)]

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(حنين) أي بعد فتح مكة ومعه من دخل في الإسلام حديثًا ولم يتعلم من أدلة الأحكام آيةً ولا حديثًا (مر بشجرةٍ للمشركين كانوا يُعلقون عليها أسلحتهم) أي ويَعكفون حولها (يقال لها ذات أنواط) جمع نوط وهو مصدر ناطه أي علقه (فقالوا) أي بعضهم ممن لم يكمل له مرتبةُ التوحيد ولم يطلع على حقيقة التفريد (يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) أي شجرةً نحن أيضًا نعُلق عليها أسلحتنا . وكأنهم أرادوا به الضدية والمخالفة العرفية وغفلوا عن القاعدة الشرعية (فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله) تنزيهًا

---

(١) سنن الترمذي (٢١٨٠) وفيه : حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي حدثنا سفيان عن الزهري عن سنان بن أبي سنان عن أبي واقد الليثي : عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ : سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾ (الأعراف:١٣٨) والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . قال الألباني : صحيح . المعجم الكبير للطبراني (٣٢٩١) وفيه : حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا القعنبي عن مالك عن ابن شهاب عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال : فمررنا بالسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل ﴿ ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾ (الأعراف:١٣٨) قال : إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم».

وتعجبًا (هذا) أي هذا القول منكم (كما قال قوم موسى : ﴿ **ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ** ﴾ (الأعراف:١٣٨) لكن لا يَخفى ما بينهما من التَفاوت المُستفاد من التَشبيه حيث يكون المشبه به أقوى . (والذي نفسي بيدهِ لتركبن) بضم الموحدة ، أي لتذهبن أنتم أيها الأمة (سنن من كان قبلكم) بضم السين أي طرقهم ومناهجهم وسبل أفعالهم . وفي نسخة بفتحها أي على منوالهم وطبقَ حالهم وشبه قالهم[١].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/٤٠ ، ٤١ .

١٠- باب
ما جاء في الذبح لغير الله .

قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم يا محمد : ﴿ **إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي** ﴾ أي : عبادتي كلها ، وقرباتي أو حجي ، ﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** ﴾ أي : وعملي في حياتي ، وعند موتي من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، ﴿ **لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي : هي خالصة لله لا أشُرك فيها غيره ، ﴿ **وَبِذَٰلِكَ** ﴾ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرني ربي ، ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ ؛ لأن إسلام كل نبيٍ متقدم على إسلام أمته . ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم : ﴿ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي** ﴾ فأشرك مع اللّه ، ﴿ **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ لأن كل شيء مربوب لا يَصلح للربوبية . وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم . ﴿ **وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من شركٍ أو غيره ﴿ **إِلَّا عَلَيْهَا** ﴾ وزره ، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي ، وهو ردٌّ على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ **وَلَا تَزِرُ** ﴾ أي : تحمل

---

(١) قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٤) .

نفس ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ أي : آثمة ﴿ وِزْرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ بالبعث والحساب ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ ، أي : يُخبركم ﴿ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين فيبين الرشد من الغي ، والمحق من المبطل .

الإشارة : الإخلاصُ سرٌّ من أسرارِ الله ، يُودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاصُ العبوديةِ لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رقِ الهوى وخروجهِ من سجنِ وجود نفسه ، وهذا شيء عزيز . ولذا قيل لسهل ابن عبد الله رضي الله عنه : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب . وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه : أعزُ شيءٍ في الدنيا الإخلاص ، وقد اجتهدت في إسقاط الرياءِ من قلبي ، فكأنه ينبت على لون آخر . وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه : الإخلاص عند المخلصين : إخراجُ الخلق من معاملة الخالق ، وأول الخلق : النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملاً لأجل النفس ، وألا يدخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حظِ طبع ، والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم ، أي : لا يرون مع الله غيره في الأفعال ، وترك السكون إليهم ، والاستراحة إليهم في الأحوال . أهـ . (١)

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ (الكوثر:٢) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

الفاء في قول ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها ، فإن إعطاءه تعالى إياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ذكر من العطية التي لم يُعطها

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٣٢ .

ولن يُعطها أحدٌ من العالمين ، مستوجبة للمأمورِ به أيّ استيجاب ، أي : فدُم على الصلاة لربك ، الذي أفاضَ عليك هذه النِعم الجليلة ، التي لا تُضاهيها نعمة ، خالصًا لوجهه ، خلافًا للساهين المرائين فيها ، لتقوم بحقوقِ شكرها ، فإن الصلاةَ جامعة لجميع أقسام الشكر . ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ البُدن ، التي هي خيار أموال العرب ، وتصدَق على المحاويج ، خلافًا لمَن يَدَعَهم ويمنعهم ويمنع عنهم الماعون ، وعن عطية : هي صلاة الفجر بجَمْعٍ ، والنحر بمنى ، وقيل : صلاة العيد والضَحية ، وقيل : هي جنس الصلاة ، والنحر وضْعُ اليمين على الشمال تحت نحره . وقيل : هو أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره . وعن ابن عباس : استقبل القبلة بنحرك ، أي : في الصلاة . وقاله الفراء والكلبي[1] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثًا ، لعن الله من غَيَّر منار الأرض ». رواه مسلم[2]

شرح الحديث :

قال المناوي :

(لَعن الله من ذبح) وفي رواية لمسلم بدله « من أهل » وهو بمعناه (لغيرِ الله) بأن يذبح باسم غير الله كصنمٍ أو صليب أو لموسى أو عيسى أو الكعبة فكله حرام ولا تحل ذبيحته ، بل إن قصد به تعظيم المذبوح له وعبادته كفر . قال ابن العربي : وفيه أن آكد ما في الأضحية إخلاصُ النية لله العظيم بها (لعن الله من لعن والديه) أباه وأمه وإن عليا قيل هذا من باب التسبب فإن كل من لعن أبوي إنسان فهو يلعن أيضًا أبوي اللاعن فكان البادئ بنفسه يلعن أبويه ، هكذا

---

(١) تفسير البحر المديد ٤٣٤/٨ .

(٢) صحيح مسلم (١٩٧٨) .

فسره المصطفى ﷺ في خبر سب الرجل والديه[(١)] ، ولعل وجه تفسيره بذلك استبعاده أن يسب الرجل والديه بالمباشرة ، فإن وقع سبهما يكون واقعًا بالتسبب فإذا استحق من تسبب لسبهما اللعنة فكيف حال المباشر (لعن الله من آوى) أي ضم إليه وحمى (محدثًا) بكسر الدال أي جانيًا بأن يحول بينه وبين خصمه ويمنعه القود وبفتحها وهو الأمر المبتدع ، ومعنى الإيواء التقرير عليه والرضى به ، والمراد باللعن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه (لعن الله من غَيرَ) وفي رواية لمسلم أيضًا «من زحزح» (منار الأرض) بفتح الميم علامات حدودها جمع منارة وهي العلامة التي تجعل بين حدين للجارين ، وتغييرها أن يدخلها في أرضه فيكون في معنى الغاصب ، وفي منار الحَرم وهي أعلامه التي ضربها إبراهيم على أقطاره ، وقيل لملك من ملوك اليمن ذو المنار لأنه أول من ضرب النار على الطريق ليهتدي به إذا رجع أفاده كله الزمخشري . وقال غيره : أراد به من غير أعلام الطريق ليُتعب الناس بإضلالهم ومنعهم عن الجادة ، والمنار العلم والحد بين الأرضين وأصله من الظهور . وسببه كما في «مسلم» أن رجلاً قال لعلي : ما كان المصطفى ﷺ يسر إليك فغضب وقال : ما كان يسر إلي شيئًا يكتمهُ عن الناس غير أنه حدثني بكلمات أربع قال : وما هن يا أمير المؤمنين فذكره . وفي بعض طرقه عن هانئ مولى علي أن عليًّا رضي الله تعالى عنه قال : ماذا يقول الناس قال : يدعونَ أن عندك علمًا من رسول الله ﷺ لا تُظهره فاستخرج صحيفةً من سيفه فيها هذا ما سمعته من رسول الله ﷺ فذكره[(٢)] .

---

(١) المصدر السابق (٩٠) وفيه : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن ابن الهاد ، عن سعد بن إبراهيم ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : «من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا يا رسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه».

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٥١/٥ .

وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجلٌ في ذباب ، ودخل النارَ رجل في ذباب . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزُه أحدٌ حتى يقرب له شيئًا ، فقالوا لأحدهما : قرب . قال ليس عندي شيء أقرب . قالوا له : قرب ولو ذبابًا . فقرب ذبابًا ، فخلوا سبيله . فدخل النار . وقالوا للآخر : قرب . فقال : ما كنت لأُقرب لأحدٍ شيئًا دون الله عزوجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة». رواه أحمد[١].

(١) في كتاب الزهد (85) . قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٨٢٩): موقوف .

١١- باب
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله .

قول الله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (التوبة:١٠٨) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَ ﴾ منهم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا ﴾ أي : لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذي أسروه ، وهو تعظيم أبي عامر الكافر ، ﴿ وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ﴾ جماعة ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الذين كانوا يُصلون في مسجد قباء . رُوى أن بنى عمرو بن عوف لَما بَنَوا مسجد قُباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلى فيه ، فأتاهُم فصلى فيه ، فَحَسَدتهُم إخوانُهم بَنُو غُنم بن عوفٍ ، فبنوا مسجدًا على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب ، إذا قدم من الشام ، فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنا قد بنينا مسجدًا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، فصل لنا فيه حتى نَتخذَهُ مصلًى ، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك ، فقال لهم : إنى عَلى جَناح سَفرٍ ، وإذا قَدِمنا ، إن شاءَ اللهُ ، صلينا فيه . فلما قدم أتوه ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم ، فنزلت الآية ، فدعا مالك بن الدخشُم ، ومَعن بن عدى ، وعامر بن السكَن ، فقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه ففعلوا ، واتخذوا مكانه كناسة .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة:١٠٧، ١٠٨) .

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد ، فقال : ﴿ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي : واتخذوه انتظارًا ليؤمهم فيه من حارب الله ورسوله ، يعنى : أبا عامر الراهب ، فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد : لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فانهزم مع هوازن ، ثم هرب إلى الشام ليأتى من قيصر بجنودٍ يحارب بهم رسول الله ﷺ ، فمات بِقِنّسرينَ طريدًا وحيدًا . وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة : الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق . وقوله : ﴿ مِن قَبۡلُ ﴾ : متعلق بحارب ، أي : حارب من قبل هذا الوقت ، أو باتخذوا ، أي : اتخذوا مسجدًا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف لأنه قبيل غزوة تبوك . ﴿ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ أي : ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى ، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين . ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فى حلفهم . ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال : ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ للصلاة إسعافًا لهم ، ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ ﴾ من أيام وجوده ، ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ أي : أولى بأن تصلى فيه ، وهو مسجد قباء ، أسسه رسول الله ﷺ فى أيام مُقامه بقباء ، حين هاجر من مكة ، من الاثنين إلى الجمعة ، وهذا أوفق للقصة . وقيل : مسجد الرسول ﷺ لقول أبى سعيد : (سألت رسول الله ﷺ عنه؟ فقال : مَسجدكم هذا مسجُد المدينة) [1].

﴿ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ، كانوا يستنجون بالماء ، ويجمعون بين الماء والحجر ، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة ، طلبًا لمرضاة الله تعالى ، أو من الجنابة ، فلا ينامون عليها ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾ يرضى عنهم ، ويُدنيهم من جنابه إدناء المحب لحبيبه .

الإشارة : من أراد أن يؤسسَ بنيان أعمالهِ وأحوالهِ على التقوى والرضوان ، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة ، ومتابعة السنة المحمدية ، فإنها لا تنهدم أبدًا ، ومن أراد أن يؤسسها على شفا جرفٍ هارٍ فليؤسسها على الرياء

---

(١) صحيح مسلم (١٣٩٨) .

والسمعة ، وقصد الكرامات وطلب الأعواض ، فإنها تنهدم سريعًا ولا تدوم ، فما كان لله دامَ واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل . وبالله التوفيق[1].

عن ثابت بن الضحاك ﵁ قال : نذر رجـل أن ينحر إبلاً ببُوانة ، فسأل النبي ﷺ فقال : «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا : لا . قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : أوف بِنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم». رواه أبو داود[2]. وإسناده على شرطهما .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(أن ينحرَ إبلاً ببوانة) بضم الموحدة الثانية وتخفيف الواو اسم موضع في أسفل مكة دون يَلملم ، وقد جاء بحذف التاء أيضا قال الجوهري بوانة بالضم اسم موضع وأما الذي ببلاد فارس وهو شعب بوان فبالفتح والتشديد ... (فقال : هل كان فيها)أي بوانة (وثن) بفتحتين أي صنم (من أوثان الجاهلية يُعبد ؟) أي بالألوهية (فقالوا : لا ، قال : فهل كان فيها عيد؟) أي إظهارُ سرور (من أعيادهم) وهذا كله احتراز زمن التشبيه بالكفار في أفعالهم (قالوا : لا ، فقال رسول الله :) أي ملتفتًا إلى الرجل (أوف بنذرك) قال الطيبي رحمه الله : وفيه أن من نذر نذرًا أن يضحي في مكان أو يتصدق على أهل بلد لزمهُ الوفاء به (فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله) تعليل لتفصيل ما تحقق وهو حديث مفرد مستقل (ولا) أي ولًا نذر صحيح أو منعقد (فيما لا يملك ابن آدم) أي فيما لا يملك عند النذر حتى لو ملكه بعده لم يلزمه الوفاءُ به ولا الكفارة عليه[3].

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/١١٨-١٢٠ .

(٢) سنن أبي داود (٣٣١٣) . قال الألباني : صحيح .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٦/٥٥١ ، ٥٥٢ .

١٢- باب
من الشرك : النذر لغير الله .

قول الله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾ (الإنسان:٧) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾ بما أَوجبوا على أنفسهم من الطاعات ، وهو استئناف مسوق لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذكر من النعيم ، كأنه قيل : ماذا كانوا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقال : يُوفون بما أوجبوا على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه اللهُ عليهم ؟ ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ ؛ شدائدهُ أو عذابه (مُسْتَطِيرًا) ؛ منتشرًا فاشيًا في أقطار الأرض غاية الانتشار ، من : استطار الفجر : انتشر[٢].

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ ﴾ [٣] (البقرة:٢٧٠).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : النذر : هو إلزامُ المكلف نفسه ما لم يَجب ، كقوله : للّه عليّ أن أتصدق بكذا ، أو أصلى كذا ، أو أن أصوم كذا ، أو إن شفى الله مريضي فعليّ

---

(١) تمام الآية : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾ (الإنسان:٧) .

(٢) تفسير البحر المديد ١٩٦/٨ .

(٣) تمام الآية : ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾ (البقرة:٢٧٠) .

كذا ، فمن نطق بشيء من ذلك لزمه ، ومن علق بشيء وحصل ذلك لزمه ما نطق به ... يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ** ﴾ قليلة أو كثيرة ، سرًّا أو علانية ، في حق أو باطل ، ﴿ **أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ** ﴾ بشرطٍ أو بغير شرط ، في طاعة أو معصية ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ** ﴾ ، فيجازيكم عليه ، فمن أنفق في طاعة أو نذر قربة كان من المُحسنين ، ومن أنفق في معصية أو نذر معصية كان من الظالمين . ﴿ **وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ يَنصرونهم من عذاب اللّه .

الإشارة : معاملةُ العبد مع مولاه : إما أن تكون لطلب الأجور ، وإما لرفع الستور ، فالأول يُعطى أجره من وراء الباب ، والثاني يدخل مع الأحباب . وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه ﴿ **وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ ، وفي بعض الآثار : طالبُ الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير . ثم الناس فى معاملةِ الحق على أقسامٍ ثلاثة : قِسم يليق بهم الإخفاء والإسرار ، وهم طالبو الإخلاص من المُريدين السائرين . وقسم يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين . وقسم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء ، بل مع ما يبرز في الوقت، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: (من أحبّ الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أم أخفاه) [(١)].

وفي الصحيح[(٢)] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن رسول الله ﷺ قال : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ؛ ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٢٧٠ ، ٢٧١.

(٢) صحيح البخاري (٦٦٩٦) (٦٧٠٠) .

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(من نذَر أن يطيع الله) بأن نذر صومًا أو صلاة أو غيرها من أعمال البر تقربًا إلى الله تعالى (فليطعه) حتمًا لالتزامه بالنذر فهو كالواجب بالتزام الشرع في تحتم الإتيانِ به وإن اختلفَ الفُقهاء فـي أنه يسلك به مسلك واجب الشرع أو جائزه (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) ولا ينعقد النذرُ لأنه التزم قربة تقربًا إلى الله تعالى[1].

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٥٨٣/٤ .

١٣- باب
من الشرك : الاستعاذة بغير الله .

قول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن:٦) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

كان الرجلُ من العرب إذا نزل بوادٍ قفرٍ وخافَ على نفسه ، يقول : أعوذ بسيدِ هذا الوادي من سُفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سُدنا الإنس والجنّ ، وذلك قوله تعالى : **﴿ فَزَادُوهُمْ ﴾** ؛ زاد الإنسُ الجنّ باستعاذتهم بهم **﴿ رَهَقًا ﴾** : طغيانًا وسفهًا وتكبُّرًا وعتوًّا ، أو : فزاد الجنُّ الإنسَ رهقًا : إثمًا وغيًّا ؛ بأن أضلوهم ، حتى استعاذوا بهم[١] .

وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامّات ، من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل[٢] من منزله ذلك». رواه مسلم[٣] .

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(من نَزل منزلاً) أي منزل كان فالتنوين للتنكير والشيوع (ثم قال) ظاهرهُ

---

(١) تفسير البحر المديد ١٥٣/٨ ، ١٥٤ .

(٢) في صحيح مسلم : يرتحل .

(٣) المصدر السابق (٢٧٠٨) .

وإن لم يقل عقب النزول (أعوذُ بكلماتِ الله) أي بصفته الأزلية القائمة به ، وهي لا تَعَدد فيها وجمعت باعتبار تعددِ المتعلق (التامات) أي المنزَّهات من تطرق نقص بشيء من الحوادثِ إليها (من شر ما خلق) أي مما هو ذو شرٍّ ، وإلا فالملائكة والأنبياء لا شر فيهم ألبتة فـ« ما » عام مخصوص (لم يضره) بضم الراء على الأفصح . . . لما اتصل به الضمير (شيء) دخل فيه سائرُ المضرات من الداخل ، وهو النفس والهوى ، ومن الخارج وهو الشيطان وغيره من المُؤذيات (حتى يرتحلَ من منزلهِ ذلك) [1]

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٣/٤٠٩ .

١٤- باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره .

قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ (يونس:١٠٦،١٠٧) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقـول الحق جـل جـلالـه : ﴿ **قُلۡ** ﴾ يا محمد لأهلِ مكة أو لجميع الناس : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي** ﴾ بأن شككتم في صحته حتى عبدتُم غير الله ، ﴿ **فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ** ﴾ فهذا خلاصةُ ديني اعتقادًا وعملاً ، فاعرضوها على العقل السليم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها ، وهو أني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم ، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم . وإنما خص التوفي بالذكر لأنه أليق بالتهديد ، انظر البيضاوي . ﴿ **وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ بالله وحده ، الذي دل عليه العقل ونَطق به الوحى . ﴿ **وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا** ﴾ مائلاً عن الأديانِ الفاسدة ، أي : أمرت بالاستقامةِ بذاتي كلها في الدين والتوغل فيه ، بأداء الفرائضِ والانتهاء عن القبـائـح ، أو : أن أقيـم وجـهـي فـي الصـلاة باستقبالِ القبـلـة . وقـيـل لـي : ﴿ **وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ بالله فـي شـيء ، ﴿ **وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** ﴾ بنفسه ولا بدَعوَته ، ﴿ **فَإِن فَعَلۡتَ** ﴾ ودعوتهُ ﴿ **فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ ، وهو تنفيرٌ وتحذيرٌ للغير من الميل إليه . ثم بيّن من يستحق

العبادةَ والدعاءَ ، وهـو الله تعـالـى فـقـال : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ ﴾ أي : يصيبُك ﴿ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾ : لا رافع له ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : الله ، ﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ ﴾ : لا دافع ﴿ لِفَضۡلِهِۦ ﴾ الذي أرادك به . قال البيضاوي : ولعله ذكر الإرادة مع الخير ، والمس مع الضر ، مع تلازمُ الأمرين للتنبيه على أن الخير مرادٌ بالذات ، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول ، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالةِ على أنه متفضلٌ بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاقٍ لهم عليه ، ولم يستثنِ لأن مراد الله لا يمكن رده . اهـ . ﴿ يُصِيبُ بِهِۦ ﴾ بذلك الخير ﴿ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، فتعرضوا لخيرهِ بالتضُرع والسؤال ، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتم من العصيان والزلل ، فإنه غفور رحيم .

الإشارة : ينبغي لمن تمسكَ بطريق الخصوص ، وانقطع بكليته إلى مولاه ، أن يقول لمن خالفه في ذلك : إن كُنتم في شكٍ من ديني ـ من طريقي ـ فلا أعبدُ ما تعبدونَ من دون الله ، من متابعةِ الهوى والحرص على الدنيا ، ولكن أعبدُ الله الذي يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وأن أقيم وجهي للدينِ حنيفًا مائلاً عن دينكم ودنياكم ، كما قال القائل :

تَركــــتُ للنـــاسِ دُنيـــاهُم ودِيـــنَهُم ... شُغلاً بِذِكرِكَ يــا دِيـــنى ودُنيـــائي .

تَرَكتُ لِلنّاسِ مَــا تَهــوَى نُفُوسُـــهم ... مِن حُب دُنيا ومِن عِز ومِـــن جَـــاهِ .

كَذَاكَ تَـــركُ المَقَامـــاتِ هُنـــا وهُنـــا ... والقَصدُ غيبَتُنـــا عَمـــا سِـــوَى اللهِ .

﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ، وهو ما سوى الله ، فليس بيد أحدٍ ضرٌّ ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، قال في الحكم : « لا ترفعن إلى غيره حاجة هو مُوردها عليك ، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعًا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعًا؟! » . قال بعضهم : من اعتمدَ على غير الله فهو في غرور لأن الغرور ما لا يدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم ، لم يزل ولا يزال ،

وعطاؤه وفضلهُ دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضلُ والعطاء، في كل نفسٍ وحين وأوان وزمان. اهـ[1].

وقوله: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ (العنكبوت:١٧) [2].

التفسير:

قال ابن عجيبة:

يقول الحق جل جلاله: **﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾** أي: وأرسلنا إبراهيم **﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾** أي: أرسلناهُ حين كمل عقله وتم نظره، وبلغ من السن والعلم مبلغًا صَلَح فيه لأن يعظ قَومه، ويَأمُرهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبو حنيفة: بالرفع. أي: ومن المرسلين إبراهيم، قال في وعظه: **﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾** مما أنتم عليه من الكفر، **﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾** إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. **﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا ﴾** أصنامًا **﴿ وَتَخْلُقُونَ ﴾**: تخلقون وتكذبون، أو تصنعون أصنامًا بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسّلمى: «وتُخَلقون» بالكسر والشد. من خَلّق للمبالغة. **﴿ إِفْكًا ﴾**: وقرئ «أَفِكا» بفتح الهمزة، وهو مصدر، نحو كذب ولعب. واختلاقهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله. **﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾**: لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق، **﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾** كُله فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غَيرُهُ. **﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾** أي: متوسلين إلى مطالبكم

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/١٩٠، ١٩١.

(٢) قال الله عزوجل: **﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾** (العنكبوت:١٦-١٨).

بعبادته ، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره ، ﴿ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ، ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ أي : تكذبوني ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ﴾ رُسُلَهم ، ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الذي يزول معه الشك . والمعنى : وإن تكذبوني فلا تَضرونني بتكذيبكم فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم ، وما ضروهم ، وإنما ضروا أنفَسهم ، حيث حلّ بهم العذاب . وأما الرسول فقد أدى ما عليه حين بلغ البلاغَ المبين ، الذي لم يبق معه شك ، حيث اقترن بآيات الله ومعجزاته . أو : وإن كنت مُكَذّبا فيما بينكم ، فلي في سائر الأنبياء أسوة ، حيث كُذِّبُوا ، وعلى الرسول أَن يُبَلّغَ ، وما عليه أن يصدّق ولا يكذّب . وهذه الآية من قوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ : يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السّلام لقومه ، والمراد بالأمم قبله : قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وأن تكون من كلام الله في شأن رسول الله ﷺ ، وشأن قريش ، مُعترِضَةً بين أول قصة إبراهيم وآخرها . فإن قلت : الجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ، فلا تقول : مكة ، وزيد قائم ، خير بلاد الله؟ قلت : قد وقع الاتصال ، وبيانه : أن إيراد قصة إبراهيم عليه السّلام إنما هو تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأن أباهُ إبراهيم كان مبتلي بنحو ما ابتلي به من شرك قومه ، وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ يا معشرَ قريش محمداً ، فقد كذب إبراهيمَ قومُه ، وكل أمةٍ كذبت نبيها لأن قوله : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراضٌ متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقةً بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشركِ ، وتوهين قواعده ، وصفة قدرة الله وسلطانه ، ووضوح صحته وبرهانه . قاله النسفي . قال ابن جزى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ ﴾ يحتمل أن يكون وعيداً للكفار وتهديداً لهم ، أو يراد به تسلية النبي عن تكذيب قومه ، بالتأسي بغيره من الأنبياء الذين كذّبهم قومُهم . اهـ .

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ **فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ** ﴾ : قال سهل رضي الله عنه : معناه : اطلبوا الرزق في التوكل ، لا في الكسب ، فإن طلبه بالكسب سبيل العوام . وقال ابن عطاء الله : اطلبوا الرزق في الطاعة والإقبال على العبادة . وقال القشيري : وقدّم ابتغاء الرزق لتوقف القيام بالعبادةِ عليه ، ثم أمر بالشكر على الكفاية . اهـ[1]

وقوله : ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (الأحقاف:٥) [2].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلۡ** ﴾ يا محمد ، توبيخًا وتبكيتًا لهم : ﴿ **أَرَءَيۡتُم** ﴾ أخبروني ﴿ **مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ ، ما تعبدونَ من الأصنام من دون الله ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ أي شيء خَلقوا في الأرض إن كانوا آلهة ؟ ﴿ **أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ** ﴾ أي : أم لهم شركة مع الله في خلق السموات ، حتى يُتوهم أن تكون لهم شائبة **استحقاق للعبادة** ؟ فإنّ مَن لا مدخل له في شيء من الأشياء ، بوجه من الوجوه ، بمعزلٍ من ذلك الاستحقاق بأسره ، وإن كان من الأحياء العقلاء ، فما ظنك بالجماد ؟ ﴿ **ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ** ﴾ أي : من قبل القرآن ، يعنى : أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، وما من كتاب أنزل مِن قَبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد مُنزل مِن قبله ، شاهد بصحة ما أنتم عليه من

---

(١) تفسير البحر المديد ٥/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ** ﴾ (الأحقاف:٤،٥) .

عبادة غير الله ، ﴿ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ ﴾ أو بقيةٍ من علم بقيت عندكم من علوم الأقدمين ، شاهدة باستحقاق الأصنام للعبادة ، ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ في أن الله أمركم بعبادة الأوثان ، فإن الدعوى لا تصح ما لم يقم عليها برهانٌ عقلي ، ولا سلطان نقلي ، وحيث لم يقم عليها شيء ، بل قامت على خلافها أدلةُ العقل والنّقل تبين بطلانها . ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ ﴾ أي : لا أحد أشدُ ضلالاً ﴿ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ، غاية لنفي الإجابة ، ﴿ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ ، لأنهم جمادات لا يسمعون .

الإشارة : يقال لأهل الغفلة : أرأيتم ما تركنون إليه من الخلق ، هل لهم قوة على نفعكم أو ضركم؟ ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (الأحقاف:٤). فلا أحد أضل ممن يرجو الضعيفَ مثله ، الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهو غافل عن إجابته في الحال والمآل ، وإذا أحبه على هوى الدنيا صارت يوم القيامة عدواةً ومقتًا[1].

وقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل:٦٢) [2].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ، وهو من نزلت به شدةٌ من شدائد الزمان ، ألجأته إلى الدُعاء والتضرعِ ، كمرضٍ ، أو فقرٍ ، أو نازلةٍ من نوازلِ الدهر ونوائبه ، أو : المذنب إذا استغفر مبتهلاً ، أو المظلومُ إذا دعا ، أو : من رفع يديه ، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد ، وهو منه على خطر ، فهذه أنواع المضطر . وإجابة دعوته مقيدة بالحديث :

---

(١) تفسير البحر المديد ٨٢/٧ ، ٨٣ .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل:٦٢).

(الدّاعى على ثلاث مراتب ، إما أن يعجل له ما طلب ، وإما أن يدخر له أفضل منه ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله) [١] . وأيضا : إذا حصل الاضطرار الحقيقي حصلت الإجابةُ قطعًا ، إما بعين المطلوب ، أو بما هو أتم منه ، وهو الرضا والتأييد . ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ وهو الذي يعتري الإنسان مما يسوؤه ، كضررٍ أو جَور ، ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أي : خلفاء فيها ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، بالسكنى وغيره ، ووراثة عمن كان قبلكم من الأمم ، قرنًا بعد قرن . أو : أراد بالخلافة : الملك والتسلط . ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ الذي يفيض على الخلق هذه النعم الجسام ، يمكن أن يعطيكم مثلها؟ ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تذكرًا قليلاً ، أو : زمانًا قليلاً تتذكرون فيه . و« ما » : مزيدة ، لتأكيد معنى القلة ، التي أريد بها العدم ، أو : ما يجرى مجراه في الحقارة وعدم الجدوى . وتذييل الكلام بنفي عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركوز في ذهن كل ذكى ، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره . والله تعالى أعلم .

الإشارة : الاضطرار الحقيقي الذي لا تتخلف الإجابةُ عنه في الغالب : هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق في البحر وحده ، لا يرى لغياثه غير سيده . وقال ذو النون : هو الذي قطع العلائق عما دون الله . وقال سهل بن عبد الله : هو الذي رفع يديه إلى الله تعالى داعيًا ، ولم تكن له وسيلةٌ من طاعة قدّمها . اهـ . بل يقدم إساءته بين يديه ، ليكون دعاؤه بلا شيء يستحق عليه الإجابة ، إلا من محض الكرم . قال القشيري : يقال للجناية : سراية ، فَمَن كان في الجناية مختارًا ، فليس يسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جرمه الذي سلف ، وهو في ذلك مختار ، فأكثر الناس أنهم مُضطرون ، وذلك الاضطرار سراية ما بَرَزَ منهم في حال اختيارهم ، ومادام العبدُ يتوهم من نفسه شيئًا من الحَولِ والحِيل ، ويرى لنفسه شيئًا من الأسباب يعتمد عليه ، ويستند إليه ، فليس

---

(١) تقدم تخريجه في باب (الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) صـ ١١٤ .

بمضطر ، إلا أن يرى نفسه كالغريق في البحر ، والضّال في المتاهة . والمضطر يرى غِياثه بيد سَيِدِه ، وزِمامَه في قبضته ، كالميت فى يد غاسِلِهِ ، ولا يرى لنفسه استحقاقًا فـي أن يجاب ، بـل اعتـقـاده في نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه فى ديوان السعادة ، ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحدٍ في أن يدعـو له لأن الله وعَدَ الإجابة له لا من يـدعـو لـه . اهـ . . . قـولـه تعـالــى : ﴿ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ أي : ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه ، من أكدار وأغيار ، وقوله : ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : تتصرفون فى الوجود بأسره ، بهمتكم ، إن زال غم الحجاب عنكم ، وشاهدتم ربكم بعين بصيرتكم وبصركم لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر ، بعد فتح البصيرة ، غطى نوره ، فلا يرى البصر إلا ما تراه ُالبصيرة من أسرار الذات الأزلية القديمة . فمن بلغ هــذا المقام كـان خليفةَ الله فـي أرضـه ، يُملِكه الـوجـود بأســره ، وما ذلك على الله بعزيز[1] .

وروى الطبراني[2] بإسناده : أنه كان في زمن الـنبي ﷺ منـافــق يـؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله »[3] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢٢٨/٥ ، ٢٢٩ .

(٢) لم يروه الطبراني .

(٣) ورد في مسند الإمام أحمد(٢٢٧٥٨) : حدثنا عبد الله حدثني أبـي حدثـنـا مـوسـى ابن داود حدثنا ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن علي بن رباح أن رجلا سمع عبـادة ابن الصامت يقول : - خرج علينا رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله تعـالى عنـه : قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ : « لا يقام لـي إنمـا يقام لله تبارك وتعالى ». قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

١٥- باب

قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ (الأعراف: ١٩١،١٩٢) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ** ﴾ مع الله أصنامًا جامدةً ، ﴿ **لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ ، فهي مخلوقة غير خالقة . والله تعالى خالق غير مخلوق ، ﴿ **وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا** ﴾ أي : لا يقدرون أن ينصروا من عبدهم ، ﴿ **وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ** ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها ، فهي في غاية العجز والذلة ، فكيف تكون آلهة ؟ ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ** ﴾ أي : وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم ، فلا تهتدى إلى ما دعيت إليه لأنها جمادات ، أو : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم ، ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ** ﴾ عن دعائهم ، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء ، وإنما لم يقل : أم صمتم ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم لأن الجملة الاسمية تقتضي الاستمرار . ثم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن**

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ** ﴾ (الأعراف: ١٩١-١٩٥).

﴿ دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ، هم ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ من حيث إنها مسخرة مملوكة ، فكيف يعبد العبد مع ربه ، ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في أنها تستحق أن تُعبد ، والأمر للتعجيز لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد . ثم عاد عليهم بالنقض فقال : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ، ومعناه : أن الأصنام جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة ، ومن كان كذلك لا يكون إلهًا ، فإنّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة . وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام لأن المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي ، ولا تبطش ، ولا تبصر ، ولا تسمع ، فلزمتهم الحجة ، والهمزة في قوله : ﴿ أَلَهُمْ ﴾ : للاستفهام مع التوبيخ ، و﴿ أَمْ ﴾ ، في المواضع الثلاثة : تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل ، وليست عاطفة . قاله ابن جزى . ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ استعينوا بهم في عداوتي ، ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي : لا تؤخرون ، فإنكم وأصنامكم لا تقدرون على مضرتي وكيدى ، ومفهوم الآية : الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة .

الإشارة : كل ما سوى الله قد عمهُ العجز والتقصير ، فليس بيده نفع ولا ضر ، وفي الحديث : « لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوكَ بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كَتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يَضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدره الله عليك »(١) أو كما قال ﷺ ، فالخلق كلهم في قبضة القهر ، مصروفون بقدرة الواحد القهار ، ليس لهم أرجل يمشون بها ، ولا أيدٍ يبطشون بها ، ولا أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، وإنما هم مجبورون في قوالب المختارين ، فلا تركن إليهم أيها العبد في شيء ، إذ ليس

(١) سنن الترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

بيدهم شيء ، ولا تخف منهم في شيء ، إذ لا يقدرون على شيء . قال ابن جزى : وفيها ـ أي : في الآية ـ إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده ، وأن غيره لا يقدر على شيء[1].

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ [2]

(فاطر:١٣).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾** أي : يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر ، حتى يصير الزائدُ منهما خمس عشرة ساعة ، والناقص تسعًا . **﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾** ذللها لِمَا يـراد منهـمـا ، **﴿ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾** أي : يوم القيامة ، فينقطع جريهما ، **﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾** ، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء ، وهي : مبتدأ ، و« الله » وما بعده : أخبار ، **﴿ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ ﴾** له التصرف التام . **﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾** من الأصنام ، أي : تعبدونهم ، **﴿ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾** وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، كما أن النقير النقطة فى ظهره . وهما كنايتان عن حقارة الشيء وتصغيره . **﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ ﴾** أي : الأصنام **﴿ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾** لأنهم جماد ، **﴿ وَلَوۡ سَمِعُواْ ﴾** على سبيـل الفرض **﴿ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ ﴾** لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الألوهية ، بل يتبرؤون منها . **﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ**

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٢) قال الله عزوجل : **﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾** (فاطر:١٣،١٤).

يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ بإشراككم لهم ، وعبادتكم إياهم . ويقولون : ﴿ **مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ** ﴾ (يونس:٢٨). ﴿ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ** ﴾ أي : ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به ، وهو الله تعالى فإنه خبير به على الحقيقة ، دون سائر المخبرين . والمراد : تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفي ما يدعون لها . أو : ولا يخبركُ أيها المفتون بأسباب الغرور ، كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها ، أي : لا يخبرك بالأمور مخبر هو خبير عالم به ، يريد أنّ الخبير بالأمور وحده هو الذي يُخبرك بالحقيقة ، دون سائر المخبرين . والمعنى : أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنه خبيرٌ بما أخبرتُ به . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : يُولج الليل في النهار ، ويولج النهارَ في الليل . يُولج المعصية في الطاعة ، ويُولج الطاعة في المعصية . يعمل العبد الطاعة فيُعجب بها ، ويعتمد عليها ، يستصغر مَن لم يفعلها ، ويطلب من الله العوض عليها ، فهذه حسنات أحاطت بها سيئات . ويُذنب العبدُ الذنبَ ، فيلتجئ إلى الله فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويُعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات ، فأيتهما الطاعة ، وأيتهما المعصية؟ اهـ . أو : يولج ليلَ القبض في نهار البسط ، وبالعكس ، أو : يولج ليلَ الحجبة في نهار الكشف ، ونهارَ الكشف في ليل القطيعة ، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان ، فلا غروب لها ، كما قال الشاعر :

طلعت شمس من أُحب بليلٍ واستنارت فما تلاها غروب .
إن شمس النهار تَغربُ بالليل وشموس القلوب ليست تغيب .

قال القشيري : يُولج الليل فى النهار ، تغلب النفسُ مرةً على القلب ، وبالعكس ، وكذلك القبضُ والبسط ، فقد يستويان ، وقد يغلب أحدُهما ، وكذلك الصحو والسُّكر ، والفناء والبقاء ، وآثار شموس التوحيد ، وأقمار

المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب . اهـ . فهذه كلها يولج أحدها في الآخر . ولا يعرف هذا إلا مَن تحقق بفقره إلى الله تعالى[1].

وفي الصحيح[2] عن أنسٍ قال : شُج النبي ﷺ يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، فقال : «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنَزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾» (آل عمران:١٢٨)

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(كُسرت رباعيته) بفتح الراء وتخفيف التحتية على وزن الثمانية ، السن الذي بين الثنية والناب . وكانت الرباعية المكسورة هي السفلى من الجانب الأيمن (يوم أحدٍ وشج) بضم شين وتشديد جيم ، أي جرح رأسه فقوله : (في رأسه) إما من باب التجريد أو نوع من التأكيد . قال الطيبي : وهو من قبيل قوله يجرح في عراقيبها نصلى ، بولغ في الشج حيث أوقع الرأس ظرفا للشج . يعني فكأنه قال : وأوقع الشج في رأسه تضمينا (فجعل يسلت) بضم اللام أي يزيل (الدمَ عنه ويقول :) أي استعظامًا واستعجابًا (كيف يفلح قومٌ شجوا نبيهم وكسروا رباعيته) عن الزهري : أنه ضُرب وجه رسول الله يوم أحد بالسيف سبعين ضربةً وقاه الله شرها كلها ، ذكره السيوطي في حاشية البخاري . ولعل وجهه حصول المشاركة له مع السبعين من الشهداء إلا أن الله عصمه لقوله : **﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾** (المائدة:٦٧). وإنما حصل له بعض الأثر من الشج لتحقيق الثواب والأجر ولإظهار مقتضى الأوصاف البشرية من العجز

---

(١) تفسير البحر المديد ١١١/٦،١١٠ .

(٢) صحيح مسلم (١٧٩١) وفيه : حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله **﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾** (آل عمران:١٢٨).

والضعف والتأثير المناسبة للعبودية ، وموجب نعت الكبرياء والعظمة والاستغناء والقوة والقدرة الملائمة للربوبية[(١)].

وفيه : عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : «اللهم العن فلانًا وفلانًا[(٢)] ، بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ « (آل عمران:١٢٨) . **وفي رواية : «يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث ابن هشام فنَزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾** »الآية[(٣)].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(اللهم العن فلانًا وفلانًا لأحياء) أي لقبائلَ جمع حي بمعنى القبيلة (من العرب) أي أبعدهُم واطردهم عن رحمتك ، وهذا يستلزمُ الدعاء بالإماتة على الكفر . وفي شرح ابن حجر فإن قلت : قوله فلانًا يقتَضي أنه ذكرهم بأعلامهم ، وقوله لأحياء من العرب يقتضي أنه ذكرهم بذكر قبائلهم ، ويؤيد هذا الثاني قوله في الرواية . . . (على أحَياء بني سليم على رِعل) [(٤)] إلخ ، قلت : لا مانع من أنه ذكر أعلامًا خاصة ثم قبائلهم العامة أو أنه أراد بفلانٍ وفلان القبائل نفسَها بدليل قوله : لأحياء المتعلق بمحذوف ، أي قال ذلك لأحياء أي عنهم . اهـ . والصواب أنه متعلق بقول سواء أريد بهم الخاص أو العام (حتى أنزلَ الله) كما في نسخة وقول ابن حجر ثم استمر ذلك منه حتى أنزلَ الله

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٢٥/١٠ .

(٢) في صحيح البخاري (٤٥٥٩)(٤٥٦٠) : لأحياء من العرب حتى أنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ (آل عمران:١٢٨).

(٣) صحيح البخاري (٤٠٦٩) (٤٠٧٠) (٤٥٥٩) (٤٥٦٠) ، صحيح مسلم (٦٧٥).

(٤) صحيح البخاري (٤٠٩١) ، صحيح مسلم (٦٧٧) .

مستغني عنه لصحة تعلق حتى بقوله وكان يقول الدال على الإستمرار ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران:١٢٨) ، أي شيء من أمر هداية الخلق بمعنى توفيقهم ومن إهلاك الأعداء ، وإماتتهم على الكفر إنما أمرهم إلى الله وحده بتوفيقهم للإسلام أو يعذبهم بإماتتهم على الكفر وتسليطك عليهم . الآية بتثليثها وتمامها ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٨)، أو بمعنى إلى أن : أي ، اصبر على ما يصيبك إلى أن يتوبَ عليهم ، أو يُعذبهم وليكن رضاك موافقًا لأمر الله وتقديره ، ولا تقل ولا تفعل شيئًا باختيارك كذا في المفاتيح[1].

وفيه[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) فقال : يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس ابن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا . يا صفية[3] عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئًا . ويا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت[4]، لا أغني عنك من الله شيئًا .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(يا معشرَ قريش اشتروا أنفسكم) أي : أعتقوها وخلصوها من النار بالإيمان وترك الكُفران وبالطاعة لما جئت به والانقياد لما منعت منه (لا أغني عنكم من الله شيئا) أي : لا أبعد منكم ولا أدفع عنكم شيئًا من عذاب الله (يا عباس

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣/٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) صحيح البخاري (٢٧٥٣)(٤٧٧١) ، صحيح مسلم (٢٠٥)(٢٠٦) .

(٣) وفي لفظ : و يا صفية .

(٤) وفي لفظ : سليني ما شئت من مالي .

ابن عبد المطلب) بالنصب فيهما ، وفي نسخة برفع عباس . (لا أغُني عنك من الله شيئًا ، ويا صفية) بالواو العاطفة بخلاف ما قبله من ألفاظ النداء فإنها كانت على سبيل التعداد . وصفية مرفوعة . وقوله (عمة رسول الله) منصوبة (لا أغُني عنك من الله شيئا) وكذا قوله (ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي) كذا في نسخ من موصولة . قال التوربشتي رحمه الله تعالى : أرى أنه ليس من المال المعروف في شيء وإنما عبر به عما يملكه من الأمر وينفذ تصرفه فيه ولم يثبت عندنا أنه كان ذا مال لا سيما بمكة . ويحتمل أن الكلمتين أعني من ما وقع الفصل فيهما من بعض من لم يحققه من الرواة فكتبهما منفصلتين انتهى . وفيه أنه يرده قوله تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ عَآيِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ (الضحى:٨) ، أي بمالِ خديجة رضي الله عنها على ما قاله المفسرون ، وأيضًا لم يلزم من عدم وجودِ المال الحاضر للجواد أن لا يدخل في يده شيءٌ من المال في الاستقبال فيحمل الوعد المذكور على تلك الحال . ومهما أمكن الجمع لتصحيح الدراية تعين عدم التخطئة في الرواية والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٦٠/٩ .

١٦- باب

قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ (سبأ:٢٣) [(١)]

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلِ** ﴾ لهم ﴿ **ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ أي : زعمتموهم آلهة ، فعبدتموهم من دون اللّه ، من الأصنام والملائكة ، وسميتموهم باسمِهِ ، فالتجئوا إليهم فيما يَعْرُوكم ، كما تلتجئون إليه في اقتحام الشدائد الكبرى وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته . وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها . ويُروى أنها نزلت عند الجوع الذي أصاب قريشًا . ثم ذكر عجزهم فقال : ﴿ **لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ** ﴾ من خير أو شر ، ونفع أو ضر ﴿ **فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ** ﴾ أي : وما لهم فى هذين العالَمين العلوي والسفلى ، من شرك في الخلق ، ولا في المُلك ، ﴿ **وَمَا لَهُۥ** ﴾ تعالى ﴿ **مِنۡهُم** ﴾ من آلهتهم ﴿ **مِّن ظَهِيرٖ** ﴾ معين يعينه على تدبير خلقه . يريد أنه على هذه الصفة من العجز ، فكيف يصحُ أن يُدعَو كما يدعى تعالى ، أو يُرجَو كما يُرجى سبحانه ؟ ثم أبطل قولهم : ﴿ **هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ (يونس:١٨) بقوله : ﴿ **وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ**

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ **قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ** ﴾ (سبأ:٢٢،٢٣).

عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ تعالى في الشفاعة ، ممن له جاه عنده ، كالأنبياء ، والملائكة ، والأولياء ، والعلماء الأتقياء وغيرهم ممن له مزية عند اللّه . وقرأ أبو عمرو والأخوان بالبناء للمفعول ، أي : إلا مَن وقع الإذن للشفيع لأجله .

ثم ردّ على مَن زعم من الكفار أن الملائكة تشفع ، قطعًا لمكانها من اللّه ، فقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ ، فحتى : غاية لمحذوف ، أي : وكيف تشفع قبل الإذن ، وهي في غاية الخوف والهيبة من اللّه ، إذا سمعوا الوحي صعقوا ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي : كشف الفزع عن قلوبهم ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ ﴾ من الوحي؟ ﴿ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ ﴾ ، فمَن كان هذا وصفه لا يجترئ على الشفاعة إلا بإذن خاص . قال الكواشي : إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام الله لجبريل بالوحى ، قال ﷺ : « إذا أرادَ الله تعالى أن يوحي بالأمَر لأهل السَماء أخَذت السموات منه رَجفةٌ ـ أو قال : رعدةٌ شديدةٌ ـ خوفًا من ذلك ، فإذا سَمع أهل السموات صُعقُوا ، وخروا سجدًا ، فيكون أول مَن يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه من وحيِه بما أراد ، ثم يَمُر على سماءٍ سماء ، إلى أن ينزل بالوحى ، فإذا مَر على الملائكة سألوه ، ثم قالوا : ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل : قال الحق »[١] نصب المفعول بقالوا ، وجمع الضمير تعظيمًا لله تعالى . ثم قال : وفي الحديث[٢] : « إذا تَكلم الله بالوحي سَمع أهل السَماء صلصلة ، كجَر السلسلة على الصفا ، فيُصعقون ، حتى يَأتيهم جبريل ، فيفزغ عن قلوبهم » ، ـ أي : يكشف ـ ويخبرهم الخبر ، ثم قال : وقيل المعنى : أنه لا يشفع أحد إلا بعد الإذن ، ولا يشعر به إلا المقربون لِما غشي عليهم من هول ذلك اليوم ، فإذا ذهب الفَزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ قالوا الحق ، أي : أذن فيها . اهـ . ومثل هذا لابن عطية ،

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) سيأتي تخريجه قريباً .

وتبعه ابن جزى ، قال : الضمير في «قلوبهم» ، وفي «قالوا» للملائكة . فإن قيل : كيف ذلك ، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب : أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين ، فعاد الضمير على الشُفعاء ، الذين دل عليهم ذكر الشفاعة . اهـ . وقرأ يعقوب وابن عامر «فَزع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل . والتضعيف للسلب والإزالة ، أي : سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم ، مِثل : قردت البعير : إذا أزلت قراده ، ومَن بناه للمفعول فالجار نائب . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي : المتعالي عن سمة الحدوث ، وإدراك العقول ، الكبير الشأن ، فلا يقدر أحد على شفاعة بلا إذنه .

الإشارة : كل مَن آثر شيئا أو أحبه سوى الله ، أو خافه ، يقال له : ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم ، من دون الله ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية . وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهي محبة الله ، لأنهم يُوصلون إليه ، فلم يحبهم أحد إلا لأجل الله ، فتنفع شفاعتهم بإذن الله[(١)].

في الصحيح[(٢)] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا قضى الله الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانٍ ينفذهُم ذلك ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (سبأ:٢٣) فيسمعها مسترق السمع ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وصفه سفيان بكفه ، فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من

(١) تفسير البحر المديد ٦/٧٩-٨١ .

(٢) صحيح البخاري (٧٤٨١) (٤٧٠١) (٤٨٠٠) .

تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه[1] الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كِذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا؟ فيُصدقُ بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(إذا قَضى الله الأمر) أي قدرهُ أو حكم به والمعنى أظهر قضاءه في السماء (ضَربت الملائكةُ بأجنحتها) أي مثنى وثلاث ورباع (خضعانًا) بضم أوله وبكسر أي تواضعًا وتخاشعًا (لقوله) ، وانقيادًا لحكمه ، ففي النهاية : الخضعان مصدر خضع يخضع خضوعًا وخضعانًا وهو الانقياد والمطاوعة كالغفران والكفران ، ويروى بالكسر كالوجدان ، ويجوز أن يكون جمع خاضع . قال الطيبي : إذا كان جمعًا كان حالاً وإذا كان مصدرًا يجوز أن يكون مفعولاً مطلقًا لما في ضرب الأجنحةِ من معنى الخضوع أو مفعولاً له ، قلت : وهو الأظهر ، قال: وذلك لأن الطائر إذا استشعر خوفًا أرخى جناحيه مرتعدًا ، قلت: الله أعلم بكيفية ضرب جناحهم وسببه من الخوف أو غيره (كأنه) أي قوله سبحانه (سلسلة) بكسر السينين المهملتين (على صَفوان) بفتح أوله أي حجر أملس ، والجملة حال ، ونظيره في المعنى قوله ﷺ في صفة الوحي النازل عليه أحيانًا : «يَأتيني في مثل صَلصلة الجَرس وهو أشُد عليَّ فيفصم عني ، وقد وعيت ما قال»[2]، (فإذا فزع) بضم الفاء وتشديد الزاي أي أزيل الفزع وكشف (عن قلوبهم) وقرأ ابن عامر في قوله تعالى ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ** ﴾ (سبأ:٢٣) ، على بناء الفاعل وهو الله تعالى . قال الطيبي : وزوال الفزع عنهم

(١) في المصدر السابق : أدرك .

(٢) صحيح البخاري (٢) (٣٢١٥) ، صحيح مسلم (٢٣٣٣) .

هنا بعد سماعهم القول كالفصم عن رسول الله بعد سماع الوحي . اهـ ، ولعله نظيره ، وإلا فالفرق ظاهرٌ بينهما ، فإنه يفصم عنه ﷺ وقد وعى ما قال ، وهم يكشف الفزع عنهم ولم يدروا ما قال الله تعالى بقرينة السؤال ، أو يقال يحصل العلم لبعضهم من أرباب الكمال ، فقوله (قالوا) أي بعضهم ممن لم يدر إما لغلبة الفزع عليه أو لقلة الكشف له (ماذا قال ربكم : قالوا) وهم المقربونَ للسائلين ، وهم سائر الملائكة للذي قال أي سبحانه وتعالى (الحق) بالنصب أي قالوا الحق لأجل ما قاله تعالى أي عبروا عن قوله تعالى وما قضاه وقدره بلفظ الحق ، فالحق منصوب على أنه صفة مصدر محذوف أي القول الحق ، وفي نسخة بالرفع ، فالتقدير قوله الحق ، والمراد بالحق إما كلمة كن أو ما يقابل الباطل ، فالمراد بكن ما هو سببها من الحوادث اليومية بأن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ويضعَ آخرين ، ويولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويشفي سقيمًا ويسقم صحيحًا ، ويبتلي معافى ويعافي مبتلي ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزًا ، ويفقر غنيًا ويغني فقيرًا ، فسبحان الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له كن ، فيكون ، وإنما كانت الكلمة حقًّا لا باطلاً لقوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً** ﴾ (آل عمران:١٩١) ، أي عبثًا ، بل هو صوابٌ وحكمة ، ويجوز أن يراد به القول المسطور في اللوح المحفوظ ، والحق بمعنى الثابت أي قضى وقدر وحكم في الكائنات بما كان مقررًا في الأزل ثابتًا في اللوح المحفوظ (وهو) أي الله سبحانه (العلي) أي الرفيع شأنه (الكبير) أي العظيم برهانه . قال الطيبي : ويؤيد الأول تأنيث الكناية في قوله : (فيسمعها) أي الكلمة الحقة (مسترقو السمع) وإنما عدلوا عن صريح القول وهو التفصيل والتصريح بالمقضي من الشئون والأمور إلى هذا القول المجمل الموجز ؛ لأن قصدهم في ذلك إزالةَ الفزعِ عن قلوبهم بالكلية يعني لا تفزَعوا وتبقوا على قلوبكم ، فإن هذا القول هو ما عهدتموه كل يوم من قضاء الشئون لا ما تظنونهُ من قيام الساعة . هذا

ومما يدل على أن المجيبين الملائكة المقربون كجبريل وميكائيل وغيرهما، ما روى أبو داود[1] عن ابن مسعود قال: (إذا تَكلم الله عز وجل بالوحي تسمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيُصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاء جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربكم، فيقول: الحق، فيقولون الحق). (ومسترقو السمع) مبتدأ خبره (هكذا) وهو إشارة إلى ما صنعه من التحريف والتنديد وركوب بعضها على بعض، وقوله: (بعضه فوق بعض) توضيح أو بدل وفيه معنى التشبيه أي مسترقو السمع بعضه راكب بعض مردفين كركوب أصابعي هذه بعضها فوق بعض، وإفراد الضمير في بعضه والمرجوع إليه جمع لإرادة المذكور، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ (النساء:٤)، الضمير في منه جارٍ مجرى اسم الإشارة كأنه قيل: عن شيء من ذلك كذا حققه الطيبي، (ووصف سُفيان) أي ابن عيينة راوي الحديث (بكفه) أي بأصابعها (فحرفها) بتشديد الراء أي ففرج كفه (وبدد) بتشديد الدال الأولى أي وفرق (بين أصابعه) قال الطيبي: أي بين كيفيةَ ركوب بعضها فوق بعض بأصابعه كقوله تعالى: ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ (النحل:١١٦)، وقولكم وجهه يصف الجمال، (فيسمع) أي أحدهم أو المسترق (الكلمة). قال الطيبي: هو عطف على قوله ومسترقو السمع، وكلام الراوي معترض بينهما وهو الأظهر عندي، إن هذا إعادة لقوله: فسمعها مسترقو السمع لطول الفصل بقول الصحابي (ومسترقو السمع) إلخ، وبيان لتفسير التابعي بقوله: (ووصف) إلخ، وإنما عدل عن الماضي إلى المضارع لأن المعنى عليه أو استحضاراً للحال المشار إليه (فيلقيها) أي يرميها ويقذفها (إلى من تحته) أي من الجن (ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسانِ الساحر)، وإنما عدل من إلى

(١) سنن أبي داود (٤٧٣٨). قال الألباني: صحيح.

إلى على للإشارة إلى انتهاء الأمر واستقلال ظهور المقصود ، قال الطيبي : والساحر المنجم كما جاء في الحديث المنجم ساحر لأن الساحر لا يخبر عن الغيب . اهـ ، فأو في قوله (أو الكاهن) للتنويع ، . . . أو للشك (فربما أدرك الشهاب) بالرفع ، وفي نسخة بالنصب (قبل أن يلقيها) ، قال الطيبي : يحتمل أن يكون منصوبًا ومرفوعًا يعني الجني قد يسترق السمع قبل أن يلقيه إلى وليه أدرك الشهاب ، أو أدركه الشهاب قلت : الثاني هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ (الصافات: ١٠)، أي لحقهُ وأدركه ، والشهاب ما يرى كأنه كوكبًا انقض . ذكره البيضاوي . (وربما ألقاها قبل أن يدركه) وظاهره أن الإدراك واقعٌ لا محالة ، قال القاضي : واختلفوا في أن المرجوم هل يتأذى به فيرجع أو يحترق ، لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ، ولذلك لا يرتدعون عنه رأسًا ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق . لأنه ليس في النار الصرف ، كما أن الإنسان ليس لأنه من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها ، (فيكذب) أي (الكاهن معها) أي مع تلك الكلمة المسموعة الصادقة الوقوع (مائة كذبة) أي ويُخبر الناس بتلك الكلمة في أثناء الكلمات الكذبة ، فإذا أكذبه أحد ببعض كذبانه (فيقال) أي : فيقول : الناس ، وفي نسخة فقال أي من يصدق الكاهن (أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا) أي من الشهر والسنة (كذا وكذا) أي من الخبر المطابق للواقع ، (فيصدق) بصيغة المجهول مشددة الدال أي الكاهن في جميع كلماته وكذباته (بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) أي بسببها ، وهذا من أغرب الغرائب وأعجب العجائب أن الكاذب في مائة كلمة يعد صادقًا بكلمةٍ واحدة واقعة ، ومع هذا ما يصدقون من لم يسمع منه في جميع عمره إلا الصدق فالتصديق في التحقيق من التوفيق[1] .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/٤١٤-٤١٦ .

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منـه رجفـة ، ـ أو قال رِعدة ـ شديدة خوفًا من الله عزوجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا ، وخروا لله سجدًا . فيكونُ أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتـهـا : ماذا قـال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عزوجل»[1].

(١) كتاب السنة لابن أبي عاصم (٥١٥) . قال الألباني : ضعيف .

١٧- باب الشفاعة .

وقول الله عزوجل : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ (الأنعام: ٥١) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ وَأَنذِرْ ﴾** أي : خوّف بما أوحى إليك ، المؤمنين المقصرين في العمل **﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾** بالبعث للحساب ، حال كونهم في ذلك الوقت **﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ ﴾** ينصرهم من عذابه ، **﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾** يرده عنهم بشفاعته ، **﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾** أي : كي يصيروا بإنذارك متقين ، وإنّما خص الإنذار هنا بالذين يخافون لأنّه تقدم في الكلام ما يقتضى اليأس من إيمان غيرهم ، فكأنه يقول : أنذر الخائفين لأنه ينفعهم الإنذار ، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون ، أو : أنذر من يتوقع البعثَ والحساب ، أو يتردد فيه مؤمنًا أو كافرًا . قاله البيضاوي .

الإشارة : لا ينفعُ الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق ، وأما من سَودت قلبَه الخطايا ، وانطبعت في مرآته صور الأشياء ، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم ، والعياذ بالله[٢].

---

(١) تمام الآية : **﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾** (الأنعام: ٥١) .

(٢) تفسير البحرالمديد ٢/ ٢٦٠ .

وقوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر:٤٤)[١] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ ﴾** أي : قريش **﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾**، فيزعمون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله ، أي : إنهم اتخذوا ـ على زعمهم ـ من دون الله شفعاء بحكمهم ، لا بتعريف من قِبل الله وإخبار ، فإن الله لا يقبل الشفاعة من أحد إلا بإذن منه ، وإن الذين يقولون ذلك افتراء على الله . **﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾** ، الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ، والتوبيخ عليه ، أي : قل : أتتخذونَهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئًا من الأشياء ولا يعقلون شيئًا ، فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى . **﴿ قُلْ ﴾** تبكيتًا وتجهيلاً لهم : **﴿ لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾** أي : هو مالكها ، ولا يقدر أحد أن يتصدى لها ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضًى ، والشفيع مأذونًا ، وكلاهما مفقود في أصنامهم .

الإشارة : الشفاعة إنما تكون لأهل الجاه عند الله ، والجاه يعظم بحسب التوجه ، والتوجه يعظم على قدر المحبة ، والمحبة على حسب العناية السابقة ، **﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾** (المائدة:٥٤) ، فبقدرِ أنوار التوجه تعظم أنوار المواجهة ، وبقدر أنوار المواجهة تتسعُ المعرفة ، وبحسب المعرفة يكون الجاه ، وبقدر الجاه تتسع الشفاعة ، حتى إن الواحد من الأولياء يشفع في وجود بأسره من أهل زمانه ، إما عند موته ، أو عند الحساب . والله تعالى أعلم[٢] .

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾** (الزمر:٤٣،٤٤) .

(٢) تفسير البحر المديد ٦/٢٦٧ .

قوله : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٥٥) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ٱللَّهُ ﴾ الواجبُ الوجود لا يستحق العبادةَ غيره ، فمن عبد غيره فقد أتى بظلمٍ عظيم ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ أي : الدائم بلا أول ، الباقي بلا زوال الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ، ﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ أي : دائم القيام بتدبير خلقهِ في إيصال المنافعِ ودفع المضار ، وجلبِ الأرزاق وأنواع الارتقاء ، ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ السنة : ما يتقدم النوم من الفتور ، والنوم : حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة ، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسًا . وتقديم السنّة عليه ، على ترتيب الوجود ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ ﴾ (التوبة:١٢١) ، وجمع بينهما لأنه لو اقتصر على نفي السّنَة عنه لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد ، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها . والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية ، وتأكيد كونه حيًّا قيومًا ، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف[٢] الحياة ، قاصرًا في الحفظ والتدبير . ولذلك ترك العطف فيه وفي الجمل التي بعدَه لأنها كلها مقررة له ، أي : للحيّ للقيّوم . وقد ورد أنه اسم الله الأعظم ، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ : « ما منعك أن تَسمعي ما أُوصيك به تَقولين إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ يا حي يا قيوم ،

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

(٢) قال محققه عمر أحمد الراوي : يقال : آف الطعام أوفاً وآفة : فسد . وآفت البلاد : أصابتها آفة من قحط أو مرض أو غيرهما .

برحمتكَ أستغيث أصلح لي شأني كلّه ، ولا تَكلني إلى نَفسي طَرفة عين» رواه النسائي[١] . وأخرج مسلم[٢] عن أبي موسى رضي الله عنه قال : «قامَ فينا رسول الله ﷺ بخمسِ كلمات قال : إن الله عز وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفضُ القِسط ويرفعهُ . يرفعُ إليه عمل الليلِ قبل عمل النهار وعملِ النهار قبل عمل الليل ، حِجابهُ النورُ ـ وفي رواية النارُ ـ لَو كشفهُ لأحرقت سُبُحاتُ وجهـــهِ ما أدركه بصرُه من خلقهِ» . ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذا تقريرٌ لقيوميته تعالى ، واحتجاج على تَفرده في الألوهية . والمراد بما فيهما : ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما ، المتمكنة فيهما ، من العقلاء وغيرهم ، فهو أبلغ من له السموات والأرض وما فيهن ، يعنى : أن الله يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع ، وعبر بـ (ما) تغليبًا للغالب . ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ هذا بيان لكبرياء شأنه ، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة ، فضلاً عن أن يعـاوقه عنادًا أو مناصبة . والاستفهام إنكارى ، أي : لا أحد يشفع عنده لمن أراد تعالى عقوبته ، إلا بإذنه ، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفعُ لهم ، فأخبر تعالى أنه لا شفاعة عنده إلا بإذنه ، يريد بذلك شفاعة النبي ﷺ وبعض الأنبياء والأولياء والملائكـة ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي : ما قبلهم وما بعدهم ، أو بالعكس ، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضي وقيـــل : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من الآخرة ، وقيل : عكسه ، لأنهم يقدمون ويُخَلفُون الدنيا وراءهم ، وقيل : يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر ، وما خلفهم وما هم فاعلوه ، أو عكسه . والمراد أنه سبحانه أحاط بالأشياء كلها ، فلا يخفى عليه شيء ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أي : لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء

(١) سنن النسائي الكبرى (١٠٣٣٠) . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٢٧).
(٢) صحيح مسلم (١٧٩) .

أن يُطلعهم عليه ، وعطفه على ما قبله لأن مجموعه يدل على تفرده تعالى بالعلم الذاتي التام ، الدال على وحدانيته تعالى في ذاته وصفاته . ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ** ﴾ يقال : فلان يسَعُ الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيامُ به . ويقال : وسع الشيءُ الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل في جانبه ، وهذا المعنى هو اللائق هنا . وأصل الكرسي في اللغة : من تَركّب الشيء بعضه على بعض ، ومنه الكراسة ، لتركب أوراقها بعضها على بعض ، وفي العرف : اسم لما يُقعد عليه ، سُمّي به لتركب خشباته . واختلف فيه فقيل : العرش ، وقيل : غيره . والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش ، فوق السموات السبع دون العرش . يقال : إن السموات والأرض في جانب الكرسي كحلقة في فلاة . والكرسي فى جانب العرش كحلقة في فلاة . وعن ابن عباس : (أن السموات في الكرسي كدراهم سبعة في تُرسٍ) وقيل : كرسيه : علمه . قال البيضاوي : هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد ، كقوله ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾(الزمر:٦٧) ولا كرسي في الحقيقة ولا قاعد . وقيل : كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه ، مأخوذ من كرسى العلم والملك ، وقيل : جسم بين يدى العرش محيط بالسماوات السبع لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « ما السموات السَبع والأرضون السَبع في الكُرسي إلا كحلقة في فلاة ، وفضل العَرش على الكُرسي كفضل تلك الفَلاة على تلك الحَلقة »[(١)] ولعله الفلك المشهور بفلك البروج . اهـ . قلت : وقد اعترض السيوطي في حاشيته عليه . فالله تعالى أعلم . ﴿ **وَلَا يَـُٔودُهُۥ** ﴾ أي : لا يُثقله ولا يُشق عليه ﴿ **حِفْظُهُمَا** ﴾ أي : حفظ السموات والأرض . وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مُستَتبع

---

(١) حديث موضوع وسيأتي تخريجه في باب قول الله تعالى ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ (الزمر:٦٧).

لحفظه ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ﴾ أي : المتعالي عن الأشباه والأنداد ، ﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي : عظيم الشأن ، جليل القدر ، الذي يُستحقرُ كل شيء دون عظمته .

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية ، فإنها دالة على أنه تعالى موجودٌ واحدٌ في الألوهية ، متصف بالحياة الذاتية ، واجبُ الوجود لذاته ، موجدٌ لغيره إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره ، منزه عن التحيُز والحُلول ، مُبرأ عن التغير والفتور ، لا يناسب الأشباح ، ولا يعتريه ما يعترى الأرواح ، مالك الملك والملكوت ، مبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد ، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له . عالم بالأشياء كلها : جَليها وخَفيها ، كُليها وجِزئيها . واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه ، لا يشق عليه شاق ، ولا يشغَله شأن عن شأن ، مُتَعالٍ عن تناول الأوهام ، عظيمٌ لا تحيط به الأفهام ، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة ، قال ﷺ : « أعظمُ آية في القرآن آية الكُرسي »[(١)] وقال عليه الصلاة والسلام : « من قَرأ آية الكُرسى دبر كل صلاةٍ مكتوبةٍ لم يمنعهُ من دخول الجنة إلا الموت »[(٢)] ـ وفي رواية ـ « كانَ الذي يتولى قبضَ روحه ذُو الجَلال والإكرَام ـ ولا يواظبُ عليها إلا صِديقٌ أو عابد »[(٣)]، « ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمن على نفسِه وجارهِ وجار جاره ، والأبيات حوله »[(٤)]. وقال عليه الصلاة والسلام : ما قرئت هذه الآية في بيت إلا هجرتهُ الشياطين ثلاثين يوماً ، ولا يدخله

---

(١) صحيح مسلم (٨١٠) وفيه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الأعلى ابن عبد الأعلى عن الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي ابن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، قال : فضرب في صدري ، وقال : والله ليهنك العلم أبا المنذر ».

(٢) عمل اليوم والليلة للنسائي (١٠٠) . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٩٧٢).

(٣) موضوع . سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٦١٧٥) .

(٤) موضوع . المرجع السابق (٦١٧٤) .

ساحرٌ ولا ساحرةٌ أربعين يومًا ، يا علي علمها ولدك وأهلك وجيرانك ، فما نَزلت آيةٌ أعظم منها» قاله البيضاوي وأبو السعود ، وتكلم السيوطي في بعض هذه الأحاديث . والفضائل يُعمل فيها بالضعيف . والله تعالى أعلم(١) .

وقوله : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٦).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾** أي : كثير من الملائكة **﴿ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ ﴾** عند الله تعالى **﴿ شَيۡـًٔا ﴾** من الإغناء في وقتٍ من الأوقات ، **﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ﴾** لهم في الشفاعة **﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾** أن يشفعوا له ، **﴿ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾** ويراه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، وأما مَن عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم عن إذن اللّه بمعزلٍ ، وعن الشفاعة بألفِ معزلٍ ، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر ، فما ظنهم بحال الأصنام؟!(٢)

وقوله : **﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾** (سبأ:٢٢) .

تقدم تفسير الآية الكريمة في الباب السابق .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عونًا لله . ولم يبق إلا الشفاعة . فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال : ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:٢٨) ، **فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية**

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٢٥١-٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ٧/٢٤٠ .

يوم القيامة ، كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ : أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده (لا يبدأ بالشفاعة أولاً) . ثم يقال له : ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعط ، واشفع تُشفَّع . وقال له أبو هريرة رضي الله عنه : من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه . فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص ، بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله . وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع . وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . اهـ كلامه .

١٨- باب

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص:٥٦) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ ، أي : لا تقدُر أن تُدخل في الإسلام كل من أحببتَ أن يدخل من قومك وغيرهم ، يعنى : أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية ، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق ، ولو كان أكمل الخلق . ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ** ﴾ يخلقُ الهداية في قلب من يشاء ، ﴿ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ بمن يختار هدايته ويقبلها . قال الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بني هاشم صدقوا محمدًا تُفلحوا ، فقال ﷺ : «يا عَم تأمرهُم بالنصيحة لأنفُسهم ، وتَدعها لنفسك! فقال : ما تُريد يا ابن أخي؟ فقال : أُريد منك أن تقول : لا إله إلا الله ، أشهدُ لك بها عند الله . فقال : يا ابن أخي أنا قد علمتُ أنك صادق ، ولكن أكره أن يقال جَزع عند الموت». اهـ . وفي رواية قال : «لولا أن تُعيرنى نساء قريش ، ويقلن : إنه حملنى على ذلك الجزع ، لأقررتُ بها عينك»[(٢)] وفي لفظ آخر عند البخاري : «قال له : يا عم ، قُل : لا إله إلا الله ، أُحاج لك بها عند الله . فَقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب ، أتَرغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال : بَل على ملة عبد المطلب ، فنزلت الآية»[(٣)] وفيها دليل على المعتزلة لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، وقد هدى

---

(١) تمام الآية : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ (القصص:٥٦).

(٢) سيأتي تخريجه قريباً .

(٣) سيأتي تخريجه قريباً .

الله الناس أجمع ، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم ، فدلت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء ، وإعطاء التوفيق والقـدرة على الاهتداء . وبالله التوفيق .

الإشارة : الآية ليست خاصةً بالنبي ﷺ ، بل هي عامة لكل من يريد الهداية لأحدٍ من خاصته ، كتب شيخ أشياخنا ، سيدى أحمد بن عبد الله ، إلى شيخه ، سيدى أحمد بن سعيد الهبرى يشكو له ابنه حيث لم يرَ منه ما تقر به عينه ، فكتب إليه : أخبرنى : ما الذي بَنَيتَ فيه؟ دع الدار لبانيها ، إن شاء هدمها وإن شاء بناها . اهـ . وفي اللباب ـ بعد كلام ـ : قد رضي الله على أقوام فى الأزل ، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب ، وسَخِطَ على أقوام في الأزل ، فاستعملهم فى أسباب السخَطِ بلا سبب . ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ** ﴾ (الأنعام:١٢٥) ، وهذه الآية تخاطب رسول الله ﷺ بقولها : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ** ﴾ ، والحكم عام فى كل أحد ، وقد خص رسول الله ﷺ بأتم الفضائل وأعلى الوسائل ، حتى لم يُسبَق لفضيلة ، ولم يَحتَج لوسيلة ، وليس له في ذلك نظر ، بل سابقة السعادة أيدته ، والخصوصية قرّبته ، ولو كان له في التقدير نظر ما مُنع من الشفاعة في عمه أبى طالب ، ومن الاستغفار لأبيه . ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل ، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان ، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آزر ، أو بيد محمد ﷺ لأنقذَ عمه أبا طالب ، جذبت العنايةُ سلمان من فارس ، وصاحت على بلال من الحبشة ، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول . سبحانَ من أعطى ومن ومنع ، وضر ونفع . اهـ .[١]

وفي الصحيح[٢] عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل . فقال له :

---

(١) تفسير البحر المديد ١٧٥/٥ ، ٢٧٦ .

(٢) صحيح البخاري (١٣٦٠)(٣٨٨٤)(٤٦٧٥)(٦٦٨١)(٤٧٧٢) ، صحيح مسلم (٢٤)(٢٥) .

«يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا . فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك». فأنزل الله عزوجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ (التوبة:١١٣). وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (القصص:٥٦) .

انظر تفسير قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ (القصص:٥٦).

١٩- باب
ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين .

قول الله عزوجل : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ (١)

(النساء: ١٧١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

أصل الغلو : مجاوزةُ الحد في كل شيء ، يقال : غلا بالجارية لحمها وعظمها ، إذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها أي : أقرانها ، تغلو غلواً .

يقول الحق جل جلاله : في عِتاب النصارى ـ بدليلِ ما بعده : **﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾** الإنجيل **﴿ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾** فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم في عيسى أنه الله ، أو ابن الله ، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا ، **﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾** ، وهو تنزيهه عن الصاحبة والولد . ثم بين الحق فيه فقال : **﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾** ، لا كما قالت اليهود : ليس برسول ، ولا كما قالت النصارى : إنه الله ، أو ابن الله ، وإنما هو عبد الله

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ (النساء: ١٧١،١٧٢) .

ورسوله ، ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي : أوصلها إليها وحصلها فيها ، وهي كلمة : كن . فَتَكَوَّن بها في رحم أمه فسمى بها ، ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وهو نفخ جبريل في جيبها فحملت بذلك النفخ ، وسمى النفخ روحًا لأنه ريح يخرج عن الروح ، فكانت روحه صادرة من روح القدس ، كما قال في آدم : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (الحجر:٢٩)، وقد قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ (آل عمران:٥٩)، فنفخَ جبريل في الحقيقة لما كان بأمرِ الله صار هو نفخ الحق لأن الواسطة محذوفة عند المحققين ، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم عليه السلام . وقال الوارتجبي : وروح منه : العلم بأسره صورة ، وروح تلك الصورة هم الأنبياء والأولياء بهم يمطر ، وبهم ينبت ، وبهم يدفع البلايا وقال أيضًا : كان عيسى عليه السلام رسول الله الى عبادِ الله بأمانة الله وهي نور جلالهِ الذي برزَ من وجه لهم . ألا ترى كيف توجهوا إليه وصاروا عاشقين له ، كما عشقت ملائكة الله لوجه آدم وذلك من تجلي كلماته الأزلية التي ظهرَ نورها في مريم . وكان في ظاهره وباطنه نور صدر من زند نعوت الأزل حين انقدحت لظهوره من العدم . ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي : وحدوا الله في ألوهيته ، ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾ أي : الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، ﴿ ٱنتَهُواْ ﴾ عن التثليث يكنُ ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ، ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ أي : تنزيهًا له أن يكونَ له ولدٌ ، لأنه لا يجانس ولا يتطرقه الفناء ، ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، ملكًا وخلقًا وعبيدًا ، والعبودية تنافي البُنوة ، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ فلا يحتاج إلى ولدٍ لأن الولد يكون وكيلاً عن أبيه وخليفته ، والله تعالى قائمٌ بحفظِ الأشياء كاف لها ، مستغنٍ عمن يُعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه . واعلم أن النصارى انقسموا على أربع فرق : نسطورية ، ويعقوبية ، وملكانية ، ومرقوسية ، ومنهم نصارى نجران ، فالنسطورية ، قالوا في عيسى هو ابن الله ، واليعقوبية والملكانية ، قالوا هو الله ، والمرقوسية قالوا : هو ثالث ثلاثة ، وكلهم ضالون .

الإشارة : الغلو كله مَذموم ، وخير الأمور أوساطها ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله»[1] ، ويُرخص للفقير أن يتغالى فى مدح شيخه ، ما لم يُخرجه عن طوره ، أو ينتقص غيره بمدحه ، وفي الإشارة حثٌّ على حفظ مقام التوحيد ، وتنزيهه تعالى عن الأضداد والأنداد . وفي ذلك يقول الشاعر :

أربّ وعبدٌ ونفيُ ضدٍ قلتُ له : ليسَ ذاك عندي .
فقالَ ما عندَكم؟ فقُلنا : وجودُ فقدٍ وفقدُ وجدٍ .

فإثبات العبودية مستقلة تضاد الربوبية ، ولذلك أنكرها الشاعر ، أي : أثبت ربًّا وعبدًا ، وأنت تقول بنفي الضد عنه وفي الحكم : الأكوان ثابتةٌ بإثباته ممحوةٌ بأحدية ذاته . ﴿ **لَّن يَسۡتَنكِفَ** ﴾ أي : لن يأنفْ ﴿ **ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ** ﴾ فإن عبوديتهُ لله شرفٌ يتباهى بها ، وإنما المذلةُ والاستنكافُ في عبوديته لغيره ، ﴿ **وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ** ﴾ لا يستنكفون أيضًا أن يكونوا عبيدًا لله ، بل ما كانوا مكرمين إلا بعبوديتهم لله ، واحتج بالآية مَن فَضل الملائكة على الأنبياء ، لأن المعطوف يقتضي أن يكون أرفع درجة من المعطوف عليه ، حتى يكون عدم استنكاف الملائكة كالدليل على عدم استنكاف المسيح . والجواب : أن عطف الملائكة إنما أريد به التكثير والمبالغة ، كقولهم : أصبح الأمير اليوم لا يخالفه رئيس ولا مرءوس ، والرئيس أفضل من المرءوس ، والتحقيق في المسألة أن الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة كالمقربين ، وخواص الملائكة ـ وهم المقربون ـ أفضل من خواص البشر كالأولياء ، وخواص البشر أفضل من عوام الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر ، ولذلك قيل : من غلبَ عقله على هواه ، كان كالملائكة أو أفضل ، ومن غلب هواهُ على عقله ، كان كالبهائم أو أضل . والله تعالى أعلم .

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

الإشارة : العُبودية أشرفُ الحالات وأرفع المقامات ، بها شرف من شرف ، وارتفع من ارتفع ، عند الله ، وما خاطب الله أحباءه إلا بالعبودية ، فقال تعالى : ﴿ **سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا** ﴾ (الإسراء:١)،وقال:﴿ **وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ (ص:٤٥)، ﴿ **وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ** ﴾ (ص:١٧) ، ﴿ **وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ** ﴾ (ص:٤١) ، ﴿ **نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ** ﴾ (ص:٤٤) ... إلى غير ذلك . وأوصاف العبودية أربعة : الذل ، والفقر ، والضعف والجهل . ومقابلها من أوصاف الربوبية أربعة : العز ، والغنى والقوة والعلم ، فبقدر ما يُظهر العبد من أوصاف العُبودية يمده الحق من أوصاف الربوبية ، فبقدر ما يظهر العبد من الذل يمده من العز ، وبقدر ما يظهر من الفقر يمده بالغنى ، وبقدر ما يظهر من الضعف يمده من القوة ، وبقدر ما يظهر من الجهل يمده من العلم ، تحقق بوصفكَ يمدك بوصفهِ ، ولا يتحقق ظُهور هذه الأوصاف إلا بين عباده لتمتحق بذلك أوصاف النفس[(١)].

وفي الصحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح:٢٣). **قال : هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم . . . تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت . وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .**

وعن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد[(٢)] ، فقولوا : عبد الله ورسوله». أخرجاه[(٣)].

---

(١) تفسير البحر المديد ١٣٣/٢-١٣٦ .

(٢) وفي رواية : فإنما أنا عبده .

(٣) صحيح البخاري (٢٤٦٢)(٣٤٤٥) ، ولم يخرجه مسلم .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لا تطروني) بضم أوله وأصله لا تطريون من الإطراء وهو المُبالغة في المدحِ والغلو في الثناء (كما أطرتِ النصارى ابن مريم) أي مثل إطرائهم أياه ، مفهومهُ إن إطراءه من غير جنس إطرائهم جائزٌ ولله در صاحب البُردة حيث قال :

دع ما ادعتهُ النصارى في نبيهم   واحكم بما شئتَ مدحًا فيه واحتكم .

وفي شرح السنة ، وذلك أن النصارى أفرَطوا في مدح عيسى عليه السلام وإطرائه بالباطل وجعلوه ولد الله تعالى ، فمنعهم النبي أن يطروه بالباطل . قال الطيبي : وفي العدول عن عيسى والمسيح إلى ابن مريم تبعيدًا له ، عن الألوهية يعني بالغوا في المدح والإطراء والكذب بأن جعلوا من جنس النساء الطوامث إلاهًا أو ابن إله ، ولكون اليهود بالغوا في قدح المسيح والنصارى في مدحه . قال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ** ﴾ (المائدة:٧٧) ، فالحق هو الوسط العدل كما بينه سبحانه بقوله : ﴿ **إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ** ﴾ (النساء:١٧١) ، والمعنى أنه عبد الله ورسوله لأن كونه ابن مريم يدل على أنه عبدهُ وابن أَمَتِه كما أشار إليه بقوله : ﴿ **كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ** ﴾ (المائدة:٧٥) ، أي يبولان ويغوطان ويحتاجان إلى الأكل والشرب ، فلا يصلحان للألوهية ولا مناسبة لهما بالربوبية ، وإنما شأنهما العبودية (فإنما أنا عبده) أي الخاص في مقام الاختصاص ، وهو في الحقيقة أفضل مدح عند الفاضل الكامل كما قال القائل :

لا تدعني إلا بيا عبدَها   فإنهُ أفضلُ أسمائيا .

ولذا ذكره الله سبحانه في مواضعَ من كتابه بهذا الوصف المنيع والفضل البديع ، منها في مقام الإسراء : الفرقان : ١ ، و﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَـٰبَ** ﴾ (الكهف:١) ، وفيه إشارة لطيفة وبشارة شريفة أن العناية

الربوبية باعتبار غاية العبودية (فقولوا : عبدُ الله ورسوله) أي ليتميزَ به عن بقية عبيده ، وفي ذكرهما أيضًا إيماءٌ إلى مبدأ حالته ومنتهى غايته[(١)].

وقال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »[(٢)].

شرح الحديث :

قال المناوي : (إياكُم والغلو في الدين) أي : التشديد فيه ، ومجاوزة الحد والبحث عن غوامضِ الأشياء ، والكشفِ عن عللها وغوامضِ متعبداتها (فإنما هلكَ من كان قبلكم) من الأمم (بالغلو في الدين) والسعيدُ من اتعظ بغيره . وهذا قاله غداة العقبةِ وأمرهم بمثل حصى الخذف . قال ابن تيمية : قوله : إياكم والغلو في الدين عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات ، والأعمال ، والغلو مجاوزة الحد بأن يزاد في مدح الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك ، والنصارى أكثر غلوًّا في الاعتقاد والعمل من سائر الطوائف وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن بقوله تعالى : ﴿ **لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ** ﴾ (المائدة:٧٧) ، وسبب هذا الأمر العام رميُ الجمار وهو داخل فيه مثل الرمي بالحجارة الكبار على أنه أبلغ من الصغار ، ثم علله بقوله بما يقتضي أن مُجانبة هديهم مطلقًا أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا ، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه الهلاك[(٣)].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) سنن النسائي (٣٠٥٧) قال الألباني : صحيح . سنن ابن ماجه (٣٠٢٠) قال الألباني : صحيح . كتاب السنة لابن أبي عاصم (٩٨) وفيه : « إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين ». قال الألباني : صحيح .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/١٦٢ .

ولمسلم[1] عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : «هلك المتنطعون ـ قالها ثلاثًا».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(هَلَكَ المُتَنطعون) أي : المتَعمقون المُتقعرون في الكلام الذين يرومون بجودة سبكه سبي قلوب الناس يقال : تنطع الرجل في علمه إذا تنطس فيه ، قال أوس : وحَشو جَفير من فُروع غرائبٍ تَنطع فيها صانعٌ وتَأملا . ذكره الزمخشري قال : وأراد النهي عن التماري والتلاحي في القراءات المختلفة وأن مرجعها إلى وجه واحد من الحسن والصواب اهـ . وقال النووي : فيه كراهةُ التقعُر في الكلام ، بالتشَدق ، وتكلفِ الفصاحة ، واستعمالِ وحشي اللغة ، ودقائقِ الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم اهـ . وقال غيره : المراد بالحديث الغالون في خَوضهم فيما لا يَعنيهم ، وقيل : المُتعنتون في السؤال عن عويص المسائل الذي يندر وقوعها ، وقيل : الغالون في عبادتهم بحيث تَخرجُ عن قوانين الشريعة ، ويَسترسل مع الشيطان في الوَسوسة .

(تنبيه) قال ابن حجر : قال بعض الأئمة : التحقيق أن البحث عما لا يوجد فيه نصٌّ قسمان : أحدهما : أن يبحثَ عن دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوهها فهذا مطلوبٌ لا مكروه ، بل ربما كان فرضًا على من تَعين عليه .

الثاني : أن يُدقق النظَر في وجوه الفُروق فيفرق بين متماثلين بفرق لا أثرَ له في الشرع مع وجود وصف الجمع أو بالعكس ، بأن يَجمعَ بين مُفترقين بوصفٍ طردي مثلاً فهذا الذي ذمه السلف وعليه ينطبق خبر : هلك المتنطعون ، فرأوا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحتهُ ، ومثله الإكثار من التفريع على مسألة لا أصلَ لها في كتابٍ ولا سنةٍ ولا إجماعٍ وهي نادرةُ الوقوع ، فيصرف

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٧٠) .

فيها زمنًا كان يَصرفه في غيرها أولى . سيما إن لزم منه إغفالُ التوسعِ في بيانِ ما يكثرُ وقوعه ، وأشد منه البحث عن أمورٍ معينةٍ ورد الشرعُ بالإيمان بها مع تركِ كيفيتها ، ومنها ما لا يكون له شاهدٌ في عالمِ الحس ، كالسؤالِ عن الساعةِ ، والروحِ ، ومدةِ هذه الأمة إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الصرف ، وأكثر ذلك لم يَثبت فيه شيءٌ فيجب الإيمانُ به بغير بحث . وقال بعضهم : مثال التنطع : إكثارُ السؤال حتى يفضي بالمسؤول إلى الجوابِ بالمنع بعد أن يفتي بالإذن ، كأن يسألَ عن السلع التي في الأسواق ، هل يكره شراؤها ممن بيده قبل البحث عن مصيرها إليه ، فيجاب بالجوازِ فإن عاد فقال : أخشى أن يكون من نهبٍ أو غصبٍ ويكون ذلك الزمن وقع فيه شيءٌ من ذلك في الجملة ، فيجاب بأنه إن ثبتَ شيءٌ من ذلك حرم ، وإن تردد كره أو كان خلاف الأولى ولو سكت السائل عن هذا التنطع لم يزد المفتي على جوابه بالجواز ، قال ابن حجر : فمن سد باب المسائل حتى فاته معرفة كثيرٍ من الأحكام التي يكثر وقوعُها قل فهمه ، وعلمه . ومن توسَع في تفريعِ المسائل وتوليدها سيما فيما يقل وقوعها أو يندر فإنه يذم فعله[1].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤٥٩/٦ .

٢٠- باب
ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟

في الصحيح عن عائشة : أن أُم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : «أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجدًا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله»[(١)].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(فقالَ : أولئك) بكسر الكاف خطابًا لإحداهما أو لإحدى النساء أو لعائشة وفي نسخة بفتح الكاف على خطابِ العام أو تنزيلاً لهُن منزلةَ الرجال ، والمعنى أولئك من أهل الكتاب أو من جماعة اليهود والنصارى (إذا مات فيهم الرجلُ الصالح) أي : من نبيٍّ أو وليٍّ (بنوا على قَبره مسجدًا) أي : مُتعبدًا ويسموه كنيسة (صوروا فيه تلك الصور) أي : صور الصُلحاء تذكيرًا بهم وترغيبًا في العبادةِ لأجلهم ، ثم جاء من بعدهم فزينَ لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لهم : سلفكُم يعبُدونَ هذه الصور فوقعوا في عبادة الأصنام (أولئكَ) أي : البانونَ والمُصورون (شرار خلق الله)[(٢)] لأنهم ضلوا وأضلوا عباد الله[(٣)].

فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٧) ، صحيح مسلم (٥٢٨) .

(٢) لفظ الصحيحين : أولئك شرار الخلق عند الله .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٨/٨ .

ولهما عنها ، قالت : لما نزل برسول الله ﷺ ، طَفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها فقال : ـ وهو كذلك ـ لعنة[1] الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خَشي أن يتخذ مسجدًا». أخرجاه[2].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

قال الطيبي : كأنه عليه السلام عَرف أنه مرتحلٌ وخاف من الناس أن يُعظموا قبرهُ كما فعل اليهود والنصارى فعَّرض بلعنهم كي لا يعملوا معه ذلك فقال : (لَعن الله اليهود والنصارى) وقوله :(اتخذوا قُبور أنبيائِهم مساجد) سببُ لعنهم ، إما لأنهم كانوا يسجدونَ لقبور أنبيائهم تعظيمًا لهم وذلك هو الشركُ الجلي ، وإما لأنهم كانوا يتخذونَ الصلاة لله تعالى في مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم والتوجه إلى قبورهم حالة الصلاة ، نظرًا منهم بذلك إلى عبادةِ الله والمبالغةِ في تَعظيم الأنبياء وذلك هو الشرك الخفي ، لتضمُنه ما يرجعُ إلى تعظيمِ مخلوقٍ فيما لم يؤذنَ له . فنهى النبي ﷺ أمتهُ عن ذلك إما لمشابهةِ ذلك الفعل سُنة اليهود ، أو لتضمنه الشرك الخفي كذا قاله بعض الشراح من أئمتنا . ويؤيده ما جاء في رواية[3] : يحذر ما صنعوا . وقال القاضي : كانت اليهود والنصارى يَسجدون لقبورِ أنبيائهم ويجعلونها قبلةً ويتوجهونَ في الصلاة نحوها فقد اتخذوها أوثانًا فلذلك لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك . أما من اتخذ مسجدًا في جوارٍ صالح أو صلى في مقبرةٍ وقصدَ الاستظهار بروحه

---

(١) وفي رواية : لعن الله اليهود والنصارى . صحيح البخاري(٤٣٧) ، صحيح مسلم (٥٣٠) .

(٢) صحيح البخاري (٤٣٥) (٤٣٦) (٣٤٥٣) (٣٤٥٤) (٨٥١٥) (٥٨١٦) ، صحيح مسلم (٥٢٩) (٥٣٠) (٥٣١) .

(٣) صحيح مسلم (٥٣٠) .

أو وصولِ أثرٍ ما من أثرِ عبادتهِ إليه لا للتعظيم له والتوجه نحوه فلا حرجَ عليه ، ألا ترى أن مرقد إسماعيل عليه السلام في المسجد الحرام عند الحطيم . ثم إن ذلك المسجد أفضل مكانٍ يتحرى المصلي لصلاتهِ ، والنهيُ عن الصلاة في المقابر مختصٌّ بالقبور المنبوشَة لما فيها من النجاسة كذا ذكره الطيبي . وذكر غيره أن صورة قبر إسماعيل عليه السلام في الحجر تحت الميزاب ، وإن في الحطيم بين الحجر الأسود وزمزم قبر سبعين نبيًّا . وفيه أن صورة قبر إسماعيل عليه السلام وغيره مندرسة ، فلا يصلح الاستدلال به . وقال ابن حجر : أشار الشارح إلى استشكالِ الصلاة عند قبر إسماعيل بأنها تُكره في المقبرة ، وأجاب بأن محلها في مقبرةٍ منبوشةٍ لنجاستها . وكله غفلة عن قولهم يُستثنى مقابر الأنبياء فلا يُكره الصلاة فيها مُطلقًا لأنهم أحياءٌ في قبورهم ، وعلى التنزل فجوابه غير صحيح لتصريحهم بكراهةِ الصلاة في مقبرة غير الأنبياء ، وإن لم تُنبش لأنه محاذٍ للنجاسة ومحاذاتها في الصلاة مكروهةٌ سواء كانت فوقه أو خلفه أو تحت ما هو واقفٌ عليه ، وفي شرح السنة : اختلف في الصلاة في المقبرة[(١)] ، فكرهها جماعةٌ وإن كانت التربةُ طاهرة والمكان طيبًا . واحتجوا بهذا الحديث والذي بعده . وقيل بجوازهِا فيها . وتأويل الحديث ، أن الغالبَ من حال المقبرةِ اختلاطُ تربتها بصديدِ الموتى ولحومها ، والنهي لنجاسةِ المكان . فإن كان المكانُ طاهرًا فلا بأس . وكذلك المزبلةُ والمجزرةُ وقارعةِ الطريق[(٢)]. وفي القارعة معنى آخر ، وهو أن اختلاف المارة يُشغله عن الصلاة . قال ابن حجر : وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام : نَهى عن الصلاة بالمقبرة واختلفوا في هذا النهي ، هل هو للتنزيه أو للتحريم ، ومذهبُنا الأول ومذهب

(١،٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن : في المزبلة ، و المجزرة ، والمقبرة ، وقارعة الطريق ، وفي الحمام ، وفي معاطن الإبل ، وفوق ظهر بيت الله ». سنن الترمذي(٣٤٦) قال الألباني : ضعيف . سنن ابن ماجه (٧٣٨) (٧٣٩) قال الألباني : ضعيف .

أحمد التحريم ، بل وعدم انعقاد الصلاة لأن النهي عنده في الأمكنة ، يفيد التحريم والبطلان كالأزمنة[1].

ولمسلم[2] عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً . ولو كنت متخذًا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم[3] مساجد ؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك ».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(ألا) للتنبيه (وإن) بالكسر على تقدير أنبهكم وأقول أن . وروي بالفتح فالتقدير ، تنبهوا واعلموا أن (من كان قبلكم) أي اليهود والنصارى أو أعم منهما (كانوا يتخذون قُبور أنبيائهم وصالحيهم) من مشايخهم وعلمائهم (مساجد) أي بالمعنى السابق (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد) كرر التنبيه بإقحام أداته بين السبب والمسبب مبالغةً ، وكرر النهي أيضا كما كرر التنبيه بقوله (إني أنهاكم عن ذلك)[4].

فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ مَن فعله .

والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد ، وهو معنى قولها : خَشي أن يُتخذ مسجدًا ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا ، وكل

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(٢) صحيح مسلم (٥٣٢) .

(٣) في المصدر السابق : وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك .

(٤) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح ٢/٣٩٠ .

موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا ، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجدًا ، كما قال ﷺ : «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورًا»[1].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا) في شرح السنة : أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاةُ إلا في بيعهم وكنائسهم . وأباحَ الله عز وجل لهذه الأمةِ الصلاة حيث كانوا تخفيفًا عليهم وتيسيرًا ، ثم خصَ من جميع المواضع الحمامَ والمقبرة والمكان النجس ، وقوله (طهورًا) أراد به التيمم اهـ . وفي الحمام والمقبرة تفصيلٌ قدمناه ، وقيل : معناه أنهم كانوا لا يصلون إلا فيما تيقنوا طهارته من الأرض . وخُصصنا بجوازِ الصلاة في جميع الأرض إلا فيما تيقنا نجاسته ، ثم صرح بعموم هذا الحكم وفرع على ما قبله بقوله : (فأيما رجلٍ) أي شخصٍ (من أمتي أدركتهُ الصلاة) أي وجبت عليه ودخل وقتها في أي موضعٍ . (فليصل) أي في ذلك الموضع بشروطه المعتبرةِ في صحة الصلاة[2]...

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : «إن من شِرار الناس من تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد». ورواه أبو حاتم في صحيحه[3].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٥)(٤٣٨) وفيه : «فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»...، صحيح مسلم (٥٢١) .

(٢) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح ٤٢٦/١٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد (٣٨٤٤) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن . صحيح ابن حبان (٦٨٤٧) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

شرح الحديث :

قال المناوي :

ويوافقه خبر «لا تقومُ الساعة على أحدٍ يقول لا إله إلا الله»[1] لأن هؤلاء همُ الشرار ولا ينافيه خبر (لا يزال طائفة . .) الحديث[2] فحمل الغاية فيه على وقتِ هبوب الريح الطيبة التي تقبضُ روحَ كل مؤمنٍ فلا يبقى إلا الشرار فتفجؤُهم الساعة[3]. وذلك إنما يقعُ بعد طلوعِ الشمس من مغربِها ، وخروجِ الدابة ، وسائر الآيات العظام . وقد أورد مسلم في حديث آخر : «أن الله يَبعث ريحًا طَيبة فتوفي كل من في قلبهِ مثقال حَبةٍ من خردلٍ من إيمان ، فيَبقى من لا خَير فيه فيَرجعون إلى دين آبائهم»[4]. وفي حديثٍ[5] له آخر : «يُرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام ، فلا تبقي على وجهِ الأرضِ أحدًا في قلبهِ مثقال ذرةٍ من خيرٍ إلا قبضته ، وفيه فيبقى شِرار الناس في خفة الطير ، وأحَـلام السِباع لا يعرفون معَروفًا ، ولا يُنكرون مُنكرًا ، فيَتمثل لهم الشَيطان فيَأمرهم بعِبادة الأوثان ثم يُنفخ في الصور»[6].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٣٨٦٠) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٢) قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». صحيح البخاري (٣٦٤٠) (٧٣١١) (٧٤٥٩) ، صحيح مسلم (١٩٢٠)(١٩٢١)(١٩٢٣) .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٠/٦ .

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠٧) .

(٥) المصدر السابق (٢٩٤٠) .

(٦) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٤١/٦ .

٢١- باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله .

روى مالك في الموطأ[١] : أن رسول الله ﷺ قال : «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ (النجم:١٩) **، قال : كان يلُت لهم السويق فمات ، فعكفوا على قبره . وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السويق للحاج .**

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال :«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أهل السنن[٢].

---

(١) موطأ الإمام مالك (٧٧٠) قال مخرج أحاديثه حسان عبد المنان : حديث مرسل .

(٢) سنن أبي داود (٣٢٣٦) قال الألباني : ضعيف . سنن الترمذي(٣٢٠) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : ضعيف . سنن النسائي(٢٠٤٣) قال الألباني : ضعيف .

٢٢- باب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك .

قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (التوبة:١٢٨) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : مخاطبًا العرب ، أو قريش ، أو جميع بني آدم : **﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾** محمدٌ ﷺ ، أي : من قبيلتكم ، بحيث تعرفونَ حسبه وصدقه وأمانته ، وتفهمون خطابه ، أو من جنسكم من البشر . وقرأ ابن نشيط : بفتح الفاء ، أي من أشرافكم . قال ﷺ : « إِن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا مِنْ كنانةَ ، واصطفى بني هاشم من قريشٍ ، واصطفاني مـن بني هاشم ، فأنا مصطفى من مُصطَفين » [٢] **﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾** ، أي : شديدٌ شاق عليه **﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾** أي : عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودُنياكم . **﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾** أي : على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم ، **﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾** منكم ومـن غيركم **﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾** أي : شفيق بهم ، قدّم الأبلغَ منهما لأن الرأفة شدة الرحمة للفاصلة . وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى . **﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾** عن الإِيمان بك ،

---

(١) قال الله عز وجل : **﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾** (التوبة:١٢٨-١٢٩).

(٢) صحيح مسلم (٢٢٧٦) .

بعد هذه الحالة المشهورة ، التي منّ الله عليهم بها ، ﴿ **فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ** ﴾ أي : كافيني أمركم ، فإن قلت ذلك فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم ، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه ، فإنه كافيك ، ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ فلا يُتوكل إلا عليه ،﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ، ﴿ **وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ ، أي : المُلك العظيم ، أو الجسم الأعظم المحيط ، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير .

الإشارة : ينبغي لورثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ الداعين إلى الله ، أن يتَخلقوا بأخلاقه ﷺ ، فيشق عليهم ما ينزلُ بالمؤمنين من المشاق والمكاره ، وييسرون ولا يعسرون عليهم ، ويحرصون على الخير للناس كافةً ، ويبذلون جهدهم في إيصاله إليهم ، ويَرحمونهم ويُشفقون عليهم ، فإن أدبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه ، وفوضوا أمرهم إليه ، من غير أسف ولا حزن . وقال الورتجبي : قوله تعالى : ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ﴾ ، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق ، ومتابعتنا هوانا واحتجابنا عن الحق . قال بعضهم : شقَّ عليه ركوبكم مراكب الخلاف . قال سهل : شديدٌ عليه غفلتكم عن الله ولو طرفة عين . ثم قال في قوله تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ** . . . ﴾ الآية : سَلى قلبه بإعراضهم عن متابعته ، مع كونه حريصًا على هدايتهم ، أي : ففي الله كفاية عن كل غير وسِوَى . قال القشيري : أمَره أن يَدعُو الخَلقَ إلى التوحيد ، ثم قال له : فإن أعرضوا عن الإجابة فكُن بنا ، بنعت التجريد . ويقال : قال له : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ** ﴾ (الأنفال:٦٤) ، ثم أمره أن يقول : حسبي الله . قوله تعالى : ﴿ **حَسْبُكَ** ﴾ : عين الجمع ، وقوله : ﴿ **حَسْبِيَ ٱللَّهُ** ﴾ فَرق ، بل هو جمع الجمع ، أي : قُل ، ولكن بنا تقول ، فنحن المتولون عنك وأنت مُستَهلَكٌ في عين التوحيد فأنت بنا ، ومَحوٌ عن غيرنا . اهـ[١] .

---

(١) تفسير البحر المديد ١٣٥/٣ ، ١٣٦ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم». رواه أبو داود[(١)] بإسناد حسن ، رواته ثقات .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لا تَجعلوا بيوتكم) بكسر الباء وضمها (قبورًا) أي كالقبور الخاليةِ عن ذكر الله وطاعته بل اجعلوا لها نصيبًا من العبادة النافلة لحصول البَركة النازلة ، وقيل معناه لا تدفنوا موتاكم في بيوتكم ورد الخطابي بأنه عليه السلام دُفن في بيتهِ الذي كان يسكنه مردود بأن ذلك من الخصائص لحديث : «ما قُبض نبيٌّ إلا ودفن حيث يقبض»[(٢)] ويمكن أن يكون المعنى لا تجعلوا القبورَ مساكنكم لئلا تَزول الرقةُ والموعظةُ والرحمة ، بل زوروها وارجعوا إلى بيوتكم ، أو لئلا تحصل لكم الجذبة الكاملة ، وينقطع عنكم نظام الدنيا العاجلة ، ولذا قيل : لولا الحمقى لخربت الدنيا ، ولهذا المعنى نُهيت النساء[(٣)] عن كثرة زيارة القبور وقيل : المعنى اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً لأن العبدَ إذا مات وصار في قبره لم يصل . وقيل لا تجعلوا بيوتكم وطنًا للنومِ فقط لا تصلون فيها ، فإن النوم أخو الموت والميت لا يصلي . وقال التوربشتي : ويحتمل أن يكون المراد أن من لم يصل في بيته جعل نفسه كالميت وبيته

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٤٢) . قال الألباني : صحيح .

(٢) موطأ الإمام مالك (٩٧٩) قال مخرج أحاديثه حسان عبد المنان : بلاغٌ .

(٣) سنن الترمذي (١٠٥٦) وفيه : حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء ، وقال بعضهم إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن . قال الألباني : صحيح .

كالقبر اهـ . وقد ورد ما يؤيد هذا ففي صحيح مسلم[1] : «مثلُ البيتِ الذي يُذكر الله فيه والبيتِ الذي لا يذكرُ الله فيه كمثلِ الحَي والميتِ» فالمعنى لا تكونوا كالموتى الذين لا يصلون في بيوتهم وهي القبور ، أو لا تَتَركوا الصلاة فيها حتى تَصيروا كالموتى وتصير هي كالقُبور . ومما يؤيد أن هذا المعنى هو المراد من حديث الرواية الأخرى : «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا»[2].

وقال بعض أربابِ اللطائف : يحتملُ أن يكون معناه لا تجعلوا بُيوتكم كالقبور خاليةً عن الأكل والشرب للزائرين . (ولا تجعلوا قبري عيدًا) هو واحد الأعياد أي لا تجعلوا زيارة قبري عيدًا ، أو لا تجعلوا قبري مظهر عيدٍ ، فإنهُ يومُ لهوٍ وسرور ، وحال الزيارة خلافُ ذلك . وقيل يحتمل أن يكون المراد الحث على كثرةِ زيارته ، ولا يجعل كالعيد الذي لا يأتي في العام إلا مرتين . قال الطيبي : نهاهم عن الاجتماع لها اجتماعهم للعيد نزهة وزينة ، وكانت اليهود والنصارى تفعلُ ذلك بقبور أنبيائهم فأورثهم الغفلةَ والقسوة ، ومن عادة عبدة الأوثان أنهم لا يزالونَ يُعظمون أمواتهم حتى اتخذوها أصنامًا ، وإلى هذا أشار بقوله : «اللهم لا تَجعل قبري وثنًا يُعبد»[3] فيكون المقصودُ من النهي كراهةَ أن يتجاوزوا في قبره غاية التجاوز ، ولهذا ورد «اشتدَ غضبُ الله على قومٍ اتخذوا قُبور أنبيائهم مساجِد»[4] وقيل العيد اسم من الاعتياد يقال عادة واعتاده وتعوده أي صارَ عادةً له ، والعيد ما اعتادكَ من هم أو غيره أي لا تجعلوا قبري محل اعتياد فإنه يؤدي إلى سوء الأدب وارتفاع الحشمة ، ولئلا يظن أن دُعاء الغائب لا يصل إليَّ ولذا عقبه بقوله : (وصلوا عليَّ فإن صلاتكُم

---

(١) صحيح مسلم (٧٧٩) .

(٢) صحيح البخاري (٤٣٢) ، صحيح مسلم (٧٧٧) .

(٣،٤) تقدم تخريجه في باب (ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله) . صـ ٢٠٣ .

تبلغني) أي لا تَتكلفوا المعاودة إلى قبري فقد استغنيتُم عنها بالصلاة عليَّ (حيث كنتم) . قال القاضي : وذلك أن النفوسَ الزكيةَ القُدسية إذا تجردت عن العلائق البَدنية عرجت واتصلت بالملأ الأعلى ، ولم يبق لها حجابٌ فترى الكل كالمشاهد بنفسها أو بإخبار الملك لها ، وفيه سرٌّ يطلعُ عليه من تيسر له اهـ . فيكون نهيه عليه السلام لدفع المشقَة عن أمته رحمة عليهم(١) .

وعن عليّ بن الحسين : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثًا سمعتُه من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : «لا تتخذوا قبري عيدًا ، ولا بيوتكم قبورًا ، وصلوا عليَّ ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم». رواه في المختارة(٢) .

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣/١٠ ، ١١ .

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٤٢٨) . قال محققه عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش : في إسناده لين .

٢٣- باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (النساء: ٥١) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : الجبت فى الأصل : اسم صنم ، فاستعمل في كل ما عُبد من دون الله ، والطاغوت : كل باطلٍ من معبود أو غيره ، أو الجبت : السحر ، والطاغوت : الساحر ، وبالجملة : هو كل ما عُبد أو أطيعَ من دون الله ، وقال الجوهري : الجبت : اسم لكل صنمٍ ولكل عاصٍ ولكل ساحرٍ وكل مُضِل ، والطاغوت : الشيطان ، وأصله : طغيوت ، فعلوت ، من الطغيان ، ثم قلب فصار طيَغوت ، ثم قلبت الياء ألفًا .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ** ﴾ علم ﴿ **ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ ، وهم أحبار اليهود ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ** ﴾ يقرون بصحة عبادتهما ، ﴿ **وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ** ﴾ الكفرة ﴿ **أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ طريقًا ، نزلت في اليهود ـ لعنهم الله ـ : كانوا يقولون : إن عبادةَ الأصنام أرضى عند الله مما يدعو إليه محمدٌ ﷺ ، وقيل : في حُيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ، خرجا في سبعين راكبًا إلى مكة يُحالفون قريشًا على

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا** ﴾ (النساء: ٥١، ٥٢) .

محاربة رسول الله ﷺ بعد وقعة أُحد ، وينقضون العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فنزل كَعب على أبي سفيان ، فأحسن مثواه ، ونزلت اليهود في دور قريش . فقال أهل مكة : أنتم أهل كتاب ، ومحمدٌ صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكيدة منكم ، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين ، وآمنوا بهما ، ففعلوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ** ﴾ . ثم قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميـون لا نعلم ، فأُينا أهـدى سبيلاً وأقرب إلى الحق ، نحن أو محمد؟ قال كعب : اعرضوا عليّ دينَكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكومَاءَ ـ أي : العظيمة ـ من النوق ـ ونسقي الماء ، ونَقرى الضيف ، ونفك العاني ، ونصلُ الرحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهـل الحرم ، ومحمدٌ فارقَ دينَ آبائه ، وقطع الرحم وفارق الحرم ، فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلا . اهـ . ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ** ﴾ وأبعدهم وأسحقهم ، ﴿ **وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا** ﴾ ينصره من عذاب الله . فقد قُتل هؤلاء كلهم شر قتلة ، وذهبوا إلى الهاوية . عائذًا بالله .

الإشارة : قال الورتجبي : وبّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسةَ ، وأنكروا على أهل الولاية ، وآثروا صُحبة المخالفين ، يقبلون هواجس نفُوسهم التي هي الجبت ، ويَحظُون على آثار الطاغوت ، التي هي إبليس . اهـ . قلت : وينسحب التوبيخ على من فضّل أهل الظاهرِ على أهل الباطن ، وفضّل العلماء على الأولياء ، ويقولون : هم أهدى منهم سبيلا . هيهات ! بينهم من البَون ما بين السماء والأرض . والكلام إنما هو في التفضيل بين العارفين بالله ، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء ، وبين العلماء والأتقياء . وأما العُبّاد والزُهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضلُ منهم ، وإليهم أشار ﷺ بقوله : « فضلُ العالمِ على العابِد كفضلي على أدناكُم »[1] .

---

(١) سنن الترمذي (٢٦٨٥) وقال : حديث غريب . قال الألباني : صحيح .

وكذلك الأحاديث التي وردت في تفضيل العلماء . وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء ، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفًا وذوقًا ، وعلماء الظاهرِ علمهم متعلقٌ بأحكام الله . مفرقُون عن الله ، بل هم أشُد حجابًا من غيرهم عن الله . قال بعض الأولياء: أشدُّ الناس حجابًا عن الله: العلماء ثم العباد ثم الزهاد . اهـ . لأن حَلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه . . . والله تعالى أعلم(١) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (المائدة: ٦٠) (٢) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم : ﴿ **هَلْ** ﴾ أخبِركم بأقبحِ من ذلك الدين الذي قُلتم ما رأيتم شرًّا منه ، هو دين ﴿ **مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ** ﴾ ، أو نفس من لعنه الله ، أي : أبعده من رحمته ﴿ **وَغَضِبَ عَلَيْهِ** ﴾ بكفره وعِصيانه ، وهم اليهود ، ﴿ **وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ** ﴾ أي : مسخ بعضهم قردة وخنازير ، وهم أصحاب السبت ، مسخ شبابهم قردةً ، وشيوخهم خنازير ، ﴿ **وَ** ﴾ جعلَ منهم أيضًا من (عَبَدَ الطَّاغُوتَ) ، وهم عُباد العجل ، أو الكهنة ، أو كل من أطاعوه في معصية الله ، (أُولئِكَ شَرٌّ مَكانًا) أي : أقبح مكانًا ، أي : أقبح مرتبةً وأخس حالاً ، جعل مكانَهم شرًّا ، ليكون أبلغ في الدلالة على شريتهم ، ﴿ **وَ** ﴾ هم أيضًا ﴿ **وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ أي : عن وسط الطريق ، بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط ، حيث تركوا طريق الإسلام ، الذي هو الصراط المستقيم .

الإشارة : من كان ظاهرهُ متلطخًا بالمعاصي والذنوب ، وباطنه محشو بالمساوئ والعيوب كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراضِ القلوب ، ثم

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٥٥ ، ٥٦ .

(٢) تمام الآية : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ (المائدة: ٦٠)

جعل يطعن في طريق الخصوص ، يقال له : هل أنبئك بشرٍّ من ذلك ، هو من أبعدهُ الله بسبب المعاصي ، والذنوب ، وغضبَ عليه بسببِ أمراضِ القلوب ، ومسخَ قلبه عن مطالعةِ أنوارِ الغيوب ، فهذا أقبحُ مكانًا وأضل سبيلاً ، فكل من أُولع بالطعن على الذاكرين ، يمسخ قلبُه بالغفلة والقسوة ، حتى يفضي إلى سوء الخاتمة . والعياذ بالله[1].

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ (الكهف: ٢١)[2].

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/١٩٤ .

(٢) قصة أهل الكهف : قال الله عزوجل : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ۝١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ۝١٢ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۝١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝١٥ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ۝١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ۝١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ۝١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ۝٢٠ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ** ﴾ أي : ظننتَ يا محمد ، والمراد : حسبان أمته ﴿ **أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ** ﴾ ، وهو الغارُ الواسع في الجبل . واختُلف في موضعه فقيل : بقرب فلسطين ، وقيل : بالأندلس بمقربة من لوشة في جهة غرناطة . وذكر ابن عطية أنه دخل كهفهم ، وفيه موتى ، ومعهم كلبهم ، وعليهم مسجد ، وقريب منه بناء يقال له الرّقِيم ، قد بقي موضع جدرانه ، وفي تلك الجهة آثار يقال لها : مدينة « دقيوس » ، والله أعلم .

وقال ابن جزى : ومما يُبعد ذلك ما رُوي أن معاوية مرّ عليهم ، وأراد الدخول إليهم ولم يدخل ، هيبةً ، ومعاوية لم يدخل الأندلس قط ، وأيضًا : فإن الموتى في لَوشة يراهم الناس ، ولا يدرك أحد الرُّعب الذي ذكر الله في أهل الكهف . اهـ . والمشهور : أن الرقيم هو اللوحُ المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم ، وكان جُعِل ذلك الكتاب في خزانة الملك ، وهو لوح من رصاصٍ أو حجر ، أمر بكتب أسمائهم فيه لما شكا قومُهم فقدَهم . وقيل : اسم كلبهم . أي : أظننت أنهم ﴿ **كَانُواْ** ﴾ في قصتهم ﴿ **مِنْ** ﴾ بين ﴿ **ءَايَٰتِنَا عَجَبًا** ﴾ أي : كانوا

ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

(الكهف: ٩-٢٦) .

عجبًا دون باقي آياتنا ، ليس الأمر كذلك . والمعنى : أن قصتهم ، وإن كانت خارقة للعادة ، ليست بعجيبة ، بالنسبة إلى سائر الآيات التي من تعاجيبها ما ذكر من خلق الله تعالى على الأرض ، من الأجناس والأنواع الفائتة الحصر من مادة واحدة ، بل هي عندها كالنزر الحقير . وقال القشيري : أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم ، بما أضاف إلى نفسه بقوله : ﴿ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ ، وقَلْبُ العادةِ مِن قِبَلِ اللهِ غيرُ مُستَنكَرٍ ولا مُبتَدَعٍ . هـ . ثم ذكر أول قصتهم ، فقال : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ ﴾ : جمع فتى ، وهو الشاب الكامل ، أي : اذكر حين التجأ الفتيةُ إلى الكهف ، هاربين بدينهم ، خائفين على إيمانهم من كفار قومهم ، ورأسهم « دقيانوس »، على ما يأتي في قصتهم . ﴿ فَقَالُواْ ﴾ حين دخلوا الغار : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ من مستبطن أمورك وخزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن أعين العادات ، ﴿ رَحْمَةً ﴾ خاصة تستوجب الرفق والأمن من الأعداء ، ﴿ وَهَيِّئْ ﴾ : أصلح ﴿ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ومهاجرتهم ، ﴿ رَشَدًا ﴾ : هداية نصير بها راشدين مهتدين ، أو : اجعل أمرنا كله رشدًا وصوابًا ، كقولك : لقيت منك أسدًا ، فتكون من باب التجريد ، أو : إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب ، وأصل التهيئة : إحداث هيئة الشيء . ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي : أَنَمناهُم ، شبه الإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجب عن الشعور عند النوم لأنها تحتاج إلى الحجب أكثر ، إذ هي الطريقة للتيقظ غالبًا . والفاء في ﴿ فَضَرَبْنَا ﴾ : مثلها في قوله : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ (الأنبياء:٩٠) ، بعد قوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ ﴾ ، فإن الضرب المذكور ، وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال ، والبعث ، وغير ذلك ، إيتاءُ رحمةٍ لَدُنيةٍ خفيةٍ عن أبصار المستمسكين بالأسباب العادية استجابة لدعوتهم ، أي : فاستجبنا لهم وأَنَمناهم ، ﴿ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي : ذوات عدد ، أو تُعَد عددًا ، أو معدودة ، ووصف السنين بذلك : إما للتكثير ، وهو الأنسب بكمالِ القدرة ، أو التقليل ، وهو الأليق بمقام إنكار

كون القصة عجبًا من سائر الآيات العجيبة فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده تعالى . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ، ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة ، أي : ليتعلق علمنا تعلقًا حـالـيًا كتعلـقـه أولاً تعلقًا استقباليًّا ، ﴿ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ : الفريقين المختلفين في مدة لبثهم المذكور في قوله : ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا . . . ﴾ إلخ ، ﴿ أَحْصَىٰ ﴾ أي : أضبط ﴿ لِمَا لَبِثُوٓاْ ﴾ : للبثهم ، (أَمَدًا) أي : غاية ، فيظهر بذلك عجزُهم ، ويُفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، من حفظ أبدانهم وأديانهم ، فيزدادوا يقينًا بكمال قدرتهِ وعلمه ، وليتيقنوا به أمر البعث ، ويكون ذلك لطفًا بمؤمني زمانهم ، وآية بينةً لكفارهم ، وعبرةً لمن يأتى بعدهم ، فهذه حِكَمُ إيقاظهم بعد نومهم ، والله عليم حكيم .

الإشارة : عادتهُ تعالى فيمن انقطع إليه بكليته ، وآوى إلى كهف رعايته ، وأيس من رفق مخلوقاته ، أن يكلأه بعين عنايته ، ويرعاه بحفظِ رعايته ، ويُغيّبَ سمع قلبه عن صوت الأكدار ، ويصون عين بصيرته عن رؤية الأغيار ، حين انحاشوا إلى حِمى رحمته المانع ، وتظللوا تحت ظل رشده الواسع . وبالله التوفيق .

ثم تمم قصتهم . . . ، فقال : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم ﴾ ، والنبأ : الخبر الذي له شأنٌ وخطر ، قصصًا ملتبسًا ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ : بالصدق الذي لا يطرقه كذبٌ ولا ريبة . وخبرهم ، حسبما ذكر محمد بن إسحاق : أنه قد مرج أهل الإنجيل ، وظهرت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطواغيت ، وكان مَن بَالغَ في ذلك وعتا عتوًّا كبيراً : « دقيانوس » فإنه غلا فيه غلوًّا كبيرًا ، فجاسَ خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد ، وقتل من خالفهُ ممن تمسك بدين المسيح ، وكان يتتبع الناس فيُخيرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية : تبعه وصنع ما يصنع ، ومن آثر عليها الحياة الأبدية : قتله وقطع آرابه ، وعلّقها بسور المدينة وأبوابها . فلما رأى الفتيةُ

ذلك ، وكانوا عظماء مدينتهم ، وكانوا بني الملوك ، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى ، واشتغلوا بالصلاة والدعاء ، فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار ، فأحضروهم بين يديه ، فقال لهم ما قال ، فخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان ، فقالوا : إن لنا إلها ملأ السماواتِ والأرض عظمةً وجبروتًا ، لن ندعو من دونه أحدًا ، ولن نُقر بما تدعونا إليه أبدًا ، فاقض ما أنت قاض ، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة ، وأخرجهم من عنده . زاد في رواية : وضمنهم أهلهم ، وخرج إلى مدينة (نينوى) لبعض شأنه ، وأمهلهم إلى رجوعه ليتأملوا في أمرهم ، وإلا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين . فأجمعت الفتيةُ على الفرار والالتجاء إلى الكهف الحصين ، فأخذ كلّ منهم من بيت أبيه شيئًا ، فتصدقوا ببعضه ، وتزودوا بالباقي ، فأَوَوا إلى الكهف . وفي رواية : أنهم مروا بكلب فتبعهم ، على ما يأتي في شأنه ، فجعلوا يُصَلون في ذلك الكهف آناء الليل وأطراف النهار ، ويبتهلون إلى الله ـ سبحانه ـ بالأنين والجُؤَار ، ففوضوا أمر نفقتهم إلى «يمليخا» ، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ، ويلبس ثياب المساكين ، ويدخل المدينة ويشترى ما يهمهم ، ويتحسس ما فيها من الأخبار ، ويعود إلى أصحابه ، فلبثوا على ذلك إلى أن قَدِم الجبارُ المدينةَ فطلبهم ، وأحضر آباءهم ، فاعتذروا بأنهم عَصوهم ونهبوا أموالهم ، وبذروها فى الأسواق ، وفروا إلى الجبل . فلما رأى «يمليخا» ما رأى من الشر رجع إلى أصحابه وهو يبكى ، ومعه قليل من الزاد ، فأخبرهم بما شهد من الهول ، ففزعوا إلى الله ـ عز وجل ـ وخروا له سجدًا ، ثم رفعوا رؤوسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم ، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم فناموا ، ونفقتُهم عند رؤوسهم . فخرج « دقيانوس » في طلبهم بخيله ورَجله ، فوجدهم قد دخلوا الكهف ، فأمر بإخراجهم فلم يُطق أحدٌ منهم أن يدخله ، فلما ضاق بهم ذرعًا ، قال قائل منهم : أليس لو كنتَ قدرت عليهم قتلتهم؟ قال : بلى قال : فابنِ عليهم باب الكهف وَدَعهم يموتوا جوعًا وعطشًا ، ففعل فكان شأنهم

ما قص الله تعالى ، إذ قال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ ، استئناف بيانى ، كأن سائلاً سأل عن حالهم ، فقال : إنهم فتية شبان كاملون فى الفتوة ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ ، فيه التفات إلى ذكر الربوبية التي اقتضت تربيتهم وحفظهم ، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه ، وأظهرنا لهم من مكنونات محاسننا ما آثروا به الفناء على البقاء . وفيه التفات إلى التكلم لزيادة الاعتناء بشأنهم ، ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : قويناهم ، حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهلِ والأوطان ، والنعيم والإخوان ، واجترءوا على الصدع بالحق من غير خوفٍ ولا حذر ، والرد على دقيانوس الجبار ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ أي : انتصبوا لإظهار شعار الدين ، قال مجاهد : خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد . فقال أكبرهم : إنى لأجد في نفسي شيئا ، إن ربي هو رب السموات والأرض ، فقالوا : نحن أيضًا كذلك ، فقاموا جميعًا ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وعزموا على التصميم بذلك . وقيل : قاموا بين يدى الجبار من غير مبالاة به ، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ، فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى : (هؤُلاءِ . . .) إلخ : منقطعًا صادرًا عنهم ، بعد خروجهم من عنده . ثم قالوا : ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ ، لا استقلالاً ولا اشتراكًا ، ولم يقولوا : ربًّا للتصميم على الرد على المخالفين ، حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة ، وللإشعار بأن مدار العبودية على وصف الألوهية . ﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ : قولاً ذا شطط ، وهو الجور والتعدي ، أي : لقد جرنا وأفرطنا في الكفر ، وقلنا قولاً خارجًا عن حد المعقول ، إن دعونا إلها غير الله جزمًا . ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ، فيه معنى الإنكار ، ﴿ لَّوْلَا ﴾ : هلا ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم ﴾ : على ألوهيتهم ﴿ بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ : بحجةٍ ظاهرةٍ ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحدَ أظلم ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه فإنه أظلم من كل ظالم . ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي : فارقتموهم ﴿ وَ ﴾ فارقتم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ : فالتجئوا إليه ، والمعنى : وإذ اعتزلتموهم اعتزالاً

اعتقاديًّا فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيًّا ، ﴿ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم ﴾ : يبسط لكم ويوسع عليكم ﴿ مِّن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ في الدارين ، ﴿ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ، ﴿ مِّرۡفَقًا ﴾ : ما ترتفقون به ، أي : تنتفعون ، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم ، وقوةِ وثوقهم بفضلِ الله . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قد وصف الله ـ تعالى ـ أهل الكهف بخمسة أوصافٍ هي من شعار الصوفية الإيمان ، الذي هو الأساس ، وزيادة الاهتداء بتربية الإيقان إلى الوصول الى صريح العرفان ، وربط القلب في حضرة الرب ، والقيام فى إظهار الحق أو لداعي الوجد ، والصدع بالحق من غير مبالاةٍ بأحدٍ من الخلق . وقال الورتجبي في قوله تعالى : ﴿ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدًى ﴾ : أي : زدناهم نورًا من جمالي ، فاهتدوا به طرق معارف ذاتي وصفاتي ، وذلك النور لهم على مزيدِ الوضوح إلى الأبد لأن نوري لا نهاية له . وقال عند قوله : (إِذْ قامُوا) : قد استدل بهذه الآية بعضُ المشايخ على حركة الواجدين فــى وقت السماع والذكر لأن القلوبَ إذا كانت مربوطةً بالملكوتِ ومحل القدس حرّكها أنواعُ الأذكار وما يَرِد عليها من فنون السماع . والأصل قوله : ﴿ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ ﴾ ، نعم هذا المعنى إذا كان القيام قيامًا بالصورة ، أي : الحسية في القيام الحسى ، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية ، والربط من جهةِ النقل من محل التلوين إلى محل التمكين ، فالاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن ، إذا كان الربط بمعنى التسكين والقيام بمعنى الاستقامة . اهـ . قلت : الحاصل : أنَّا إذا حملنا القيام على الحسي ففيه دليلٌ لأهل البداية على القيام في الذكرِ والسماعِ . وإذا حملناه على القيام المعنوي ، وهو النهوضُ في الشيء ، أو الاستقامة عليه كان فيه دلالة لأهل النهاية على السكون وعدم التحرك ، وكأنه يشير إلى قضية الجنيد فى بدايته ونهايته . والله تعالى أعلم . وقال ابن لب (: قد اشتهر الخلاف بين العلماء في القيام لذكر الله ـ تعالى ـ وقد أباحتهُ الصوفية ، وفعلته ودامت عليه،واستفادوه من كتاب الله تعالى من قوله ـ عز وجل ـ في أصحاب الكهف:

﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وإن كانتِ الآيـة لـها محاملُ أخر سوى هذا . اهـ . قلت : وقوله تعـالـى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا ﴾ (آل عمران:١٩١) صريحٌ في الجواز . وقال في القوت : وقد روينا (أنه ﷺ مر برجلٍ يُظهر التأوه والوجد ، فقال من كان معه : أتراه يا رسول الله مُرائيا ؟ فقال : لاً ، بل أواهٌ مُنيبٌ ، وقال لآخر : أظهر صوته بالآية : أسمع الله عز وجل ولا تسمع)[1]، فأنكرَ عليه بما شهد فيه ، ولم ينكر على أبي موسي قوله : (لو علمتُ أنك تَسمع لحبرته لك تَحبيرا)[2] لأنه ذو نية في الخير وحسن قصد به ، ولذا كل من كان له حسن قصدٍ ، ونية خيرٍ ، في إظهار عملٍ ، فليس من السمعة والرياء في شيء لتجرده من الآفة الدنيوية ، وهي الطمع والمدح . اهـ .

ثم ذكر حالهم في الكهف ، . . . ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ ﴾ أي : تنتحي وتميل ﴿ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ الـذي أووا إلـيـه ، والخطاب للـرســول ﷺ ، أو لكل أحدٍ ممن يصلح للخطاب. وليس المراد الإخبار بوقوعِ الرؤية تحقيقًا ، بل الإنباء بكونِ الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تميلُ عن كهفهم ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي : جهةَ ذات يمين الكهف ، عند الداخل إلى قعره ، ﴿ وَإِذَا غَرَبَت ﴾ أي : وتراهـا إذا غربت ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ أي : تقطعهـم وتتعـدى عنـهـم ﴿ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أي : جهته وجانبه الذي يلي المشرق . وكان ذلك بتصريف الله تعالى على منهاج خرق العادة كرامة لهم . وقيل : كان باب الكهف شماليًّا يستقبل بنات نعش ، ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ : في موضع واسع منه ، وذلك موقع لإصابة الشمس ، ومع ذلك ينحيها الله عنهم . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي : ما صنع الله بهم من ميل الشمس عنهم عند طلوعها وغروبها ، من آيات

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٠٠٢) قال شعيب الأرنـاؤوط : إسـناده صـحيح رجالـه ثقـات رجال الشيخين .

(٢) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (١٦٥٠) قـال محـقـقـه عبد الملك بـن عبـد الله ابن دهيش : إسناده صحيح .

الله العجيبة الدالة على كمال علمه وقُدرته ، وفضيلة التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه . قال بعضهم : هذا قبل سد دقيانوس باب الكهف ، قلت : كان قبل السد وبعد هدم السد لأنه هُدم بعدُ ، فما قام أهل الكهف حتى وجدوه مهدومًا . وظاهر الآية يرجح من قال : إنه من باب خرق العادة . ﴿ **مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ** ﴾ الذي أصاب الفلاح . والمراد : إما الثناء عليهم ، والشهادة بإصابة المطلوب ، والإخبار بتحقيق ما أملُوه مـن نشر الرحمـة وتهيئة المـرافـق ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ، ولكن المنتفع بها هو مَن وفقه الله وهداه للاستبصار بها ، ﴿ **وَمَن يُضْلِلْ** ﴾ أي : يخلق فيه الضلال بصرفِ اختياره إليه ، ﴿ **فَلَن تَجِدَ لَهُۥ** ﴾ ، ولو بالغت في التتبع والاستقصاء ، ﴿ **وَلِيًّا** ﴾ : ناصرًا ﴿ **مُّرْشِدًا** ﴾ ، يهديه إلى ما ذكر من الفلاح . والجملة معترضة بين أجزاء القصة . ثم قال : ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ** ﴾ بالفتح والكسر ، أي : تظنهم ﴿ **أَيْقَاظًا** ﴾ ، لانفتاح أعينهم ، أو لكثرة تقلبهم ، وهو جمع « يقظ » بضـم القاف وكسرها ، ﴿ **وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ أي : نيام ، ﴿ **وَنُقَلِّبُهُمْ** ﴾ في رقودهم ﴿ **ذَاتَ ٱلْيَمِينِ** ﴾ أي : جهة تلي أيمانهم ، ﴿ **وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ** ﴾ أي : جهة تلي شمائلهم لكي لا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم . قال ابن عباس رضي الله عنه : لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض . قيل : كانوا يتقلبون مرتين في السنة . وقيل : مرة يوم عاشوراء . وقيل : في تسع سنين . ﴿ **وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ** ﴾ ، حكاية حال ماضية أي : يبسط ذراعيه ، وهو من المرفق إلى رأس الأصابع . ﴿ **بِٱلْوَصِيدِ** ﴾ أي : بموضع من الكهف ، وقيل : بالفِناء من الكهف ، وقيل : العتبة . وهذا الكلب ، قيل : هو كلبٌ مروا به فتبعهم ، فطردوه مرارًا ، فلم يرجع ، فأنطقهُ الله ، فقال : يا أولياء الله لا تخشوا إصابتى فإني أُحب أحباء الله ، فناموا حتى أحرسكم . وقيل : هو كلب راعٍ مروا به فتبعهم على دينهم ، ومر معه كلبه ، ويؤيده قراءة : (وكالِبُهُم) أي : وصاحب كلبهم ، وقيل : هـو كلب صيدٍ لـهـم أو زرع ، واختلف في لونه قيل أحمر ، وقيل : أصفر ، وقيل : أصهب . ﴿ **لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : لو عاينتهم وشاهدتهم . والاطلاع : الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ، ﴿ **لَوَلَّيْتَ**

﴿ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا ﴾ : هربًا بما شاهدت منهم ، ﴿ وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ ، أي : خوفًا يملأ الصدور برُعبه ، لِما ألبسهم الله من الرهبة ، أو لعظم أجرامهم وانفتاح أعينهم ، وكانت منفتحةً كالمستيقظِ الذي يريد أن يتكلم . وعن معاوية : أنه غزا الروم فمرّ بالكهف ، فقال : لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس رضي الله عنه : ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَن هو خيرٌ منك ، حيث قال : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الآية ، فلم يسمع ، وقال : ما أنتهي حتى أعلَم علمهم ، فبعث ناسًا ، وقال : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا بعث الله ريحًا فأحرقتهم[1]. اهـ.

الإشارة : للصوفية ـ رضى الله عنهم ـ تشبه قوي بأهل الكهف ، في الانقطاعِ إلى الله ، والتجرد عن كل ما سواه ، والانحياش إلى الله ، والفرار من كل ما يُشغل عن الله ، والتماس الرحمة الخاصة من الله ، وطلب التهيئة لكل رشد وصواب ، ولهذا المعنى ختم الشيخ القطب ابن مشيش تصليته المشهورة بما دَعَوا به ، حين أووا إلى كهف الإيواء تَشَبهًا بهم في مطلق الانقطاع والفرار من مواطن الحس . ولذلك لما تشبهوا بهم حفظهم الله ـ أي :

الصوفية ـ ممن رام أذاهم ، وغيبهم عن حس أنفسهم ، وأشهدهم عجائب لطفه وقدرته ، ومن تمام التشبه بهم : أنك قلّ أن تجد فرقة تُسافر منهم إلا ويتبعهم كلب يكون معهم ، حتى شهدتُ ذلك في جُل أسفارنا مع الفقراء تحقيقًا لكمال التشبيه . والله تعالى أعلم . ثم ذكر بعثهم من نومهم ، فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي : وكما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلاء والتحلل ، وكان ذلك آيةً دالةً على كمال قُدرتنا ، ﴿ بَعَثۡنَٰهُمۡ ﴾ من النوم ﴿ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡ ﴾ أي : ليسأل بعضُهم بعضًا ، فيترتب عليه ما . فصّل من الحِكَم البالغة ، أو : ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيزدادوا يقينًا على كمال قدرةِ الله ، ويستبصروا أمر البعث ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم . ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ هو رئيسهم ، واسمه : «مكسليمنيا» : ﴿ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ ﴾ في منامكم؟ لعله قال

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف : إسناده صحيح.

ذلك لما رأى من مخالفة حالهم ، لِما هو المعتاد في الجملة ، ﴿ **قَالُواْ** ﴾ أي : بعضهم : ﴿ **لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ ، قيل : إنما قالوا ذلك لأنهم دخلوا الكهف غُدوة ، وكان انتباههم آخر النهار ، فقالوا : ﴿ **لَبِثْنَا يَوْمًا** ﴾ ، فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعدُ قالوا : ﴿ **أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ ، وكان ذلك إخبارًا عن ظن غالبٍ ، فلم يُعزوا إلى الكذب . ﴿ **قَالُواْ** ﴾ أي : بعضٌ آخر منهم ، بما سنح له من الأدلة ، ولِما رأى من طول أظافرهم وشعورهم : ﴿ **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ** ﴾ أي : أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، وإنما يعلمها الله ـ سبحانه ـ ، وهذا رد منهم على الأولين بأجمل ما يكون من حسن الأدب ، ﴿ **فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ** ﴾ ، أعرضوا عن البحث عن المدة ، وأقبلوا على ما يهم في الوقت ، والورق : الفضة ، مضروبة أو غير مضروبة ، ووصفُها باسم الإشارة يقتضي أنها كانت معينة ليشترى بها قوت ذلك اليوم ، وحملها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل ، وقد كان نبينا ﷺ يتزود لغارِ حراء ليتعبد فيه . ثم قالوا : ﴿ **فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ** ﴾ أي : أي أهلها ﴿ **أَزْكَىٰ طَعَامًا** ﴾ أي : أحل وأطيب ، أو أكثر وأرخص ، ﴿ **فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ** ﴾ أي : من ذلك الأزكى طعامًا ، ﴿ **وَلْيَتَلَطَّفْ** ﴾ : وليتكلف اللطفَ في دخول المدينة وشراء الطعام ، لئلا يعرف ، ﴿ **وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** ﴾ ولا يخبر بكم ولا بمكانكم أحدًا من أهل المدينة ، أو : لا يفعل ما يؤدى إلى ذلك . ثم علل النهي بقوله : ﴿ **إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ** ﴾ : يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم ، والضمير : للأهل المقدر في « أيها » أي : إن أهل المدينة إن يظفروا بكم ﴿ **يَرْجُمُوكُمْ** ﴾ إن ثبتم على ما أنتم عليه ، ﴿ **أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ** ﴾ أي : يصيروكم إليها ويدخلوكم فيها كرها ، كقوله تعالى : ﴿ **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ﴾ (إبراهيم:١٣) ، وقيل : كانوا على ملتهم ثم خالفوهم للحق . ﴿ **وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا** ﴾ إن دخلتم فيها ، ولو بالكره والجبر ، ﴿ **أَبَدًا** ﴾ ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وفيه من التشديد والتحذير ما لا يخفى .

الإشارة : وكذلك بعثنا من توجه إلينا من نومِ الغفلة والجهالة ليتساءلوا بينهم ليتعَرفوا ما أنعم الله به عليهم من اليقظة والنجاة من البطالة ، فإذا انتبهوا من نوم الغفلة ، استصغروا أيام البطالة لأن أيام الغفلة قليلة أمدادها ، وإن كثرت آمادها ، وفي الحكم : « رب عمرٍ اتسعت آماده ، وقلت أمداده » ، بخلاف زمان اليقظة ، فإنه كثيرة أمداده ، وإن قلت آماده ، فهو طويل معنًى ، وإن قل حسًّا ، ولذلك قال في الحكم أيضا : « ورب عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده ». وقال أيضا : « من بورك له في عمره : أدرك في يسيرٍ من الزمان من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة » . فإن توقفوا على قوت أشباحهم التمسوا أطيبه وأزكاه وأحله ، فإن أكل الحلال يُنور القلوب وينشط الأعضاء للطاعة ، وتلطفوا في أخذه من غير مزاحمة ولا حرص ولا تعب ، فإن أطلعهم الله على سره المكنون من أسرار ذاته بالغوا في إخفائه ، حتى لا يُشعروا به أحدًا من خلقه ، غير من هو أهلٌ له لأنهم ، إن أظهروه لغيرهم ، رجَموهم أو أعادوهم إلى ملتهم ، بأن يقهروهم إلى الرجوع عن طريق القوم ، ولن يفلحوا إذًا أبدًا . وبالله التوفيق .

ثم ذكر اطّلاع قوم أهل الكهف عليهم ، . . . فقال : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ** ﴾ أي : وكما أنمناهُم وبعثناهم لازدياد يقينهم ﴿ **أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ : أطلعنا الناس عليهم ﴿ **لِيَعْلَمُوٓاْ** ﴾ أي : ليعلم القوم الذين كانوا في ذلك الوقت ﴿ **أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ** ﴾ أي : وعده بالبعث والثواب والعقاب ﴿ **حَقٌّ** ﴾ صادق لا خُلف فيه ، أو : ثابت لا مرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يُبعث ، ﴿ **وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ** ﴾ أي : القيامة ، التي هي عبارة عن وقتِ بعث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء ، ﴿ **لَا رَيْبَ فِيهَآ** ﴾: لا شك في قيامها ، فإن مَن شاهد أنه جل وعلا تَوفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر ، حافظًا لأبدانها من التحلل والفساد ، ثم أرسلها كما كانت ، لا يبقى معه ريبٌ ، ولا يختلجه شكٌّ ، في أن وعده تعالى حق ، وأنه يبعث مَن في القبور ، ويجازيهم بأعمالهم . وكان ذلك الإعثار ﴿ **إِذْ**

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ ﴾ حين كانوا يتنازعون ﴿ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ ﴾ ، في أمر البعث مختلفين فيه ففرقة أقرت ، وفرقة جَحَدت ، وقائل يقول : تُبعث الأرواح فقط ، وآخر يقول : تُبعث جميعُ الأجسام بالأرواح ، قيل : كان ملك المدينة حينئذ رجلاً صالحًا ، ملكها ثمانيًا وعشرين سنة ، ثم اختلف أهل مملكته في البعث كما تقدم ، فدخل الملكُ بيته وغلق الباب ، ولبس مسحًا وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يظهرَ الحق ، فألقى الله ـ عز وجل ـ في نفس رجلٍ من ذلك البلد الذي فيه الكهف ، أن يهدمَ بنيان فم الكهف ، فهدم ما سد به «دقيانوس» باب الكهف ليتخذهُ حظيرةً لغنمه ، فعند ذلك بعثهم الله ـ تعالى ـ فجرى بينهم من التقاول ما جرى . رُويَ أن المبعوث لمّا دخل المدينة ليشترى الطعام ، أخرج دراهمه ، وكانت على ضرب (دقيانوس) ، فاتهموه أنه وجد كنزًا ، فذهبوا به إلى الملك ، فقص عليه القصة ، فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتيةً فروا بدينهم من (دقيانوس) ، فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر ، فدخلوا عليهم وكلموهم ، ثم قالت الفتية للملك : نُودعك الله ونعيذك به من الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم ، فماتوا ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وجعل لكل منهم تابوتًا من ذهبٍ ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدًا . وقيل : لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى : مكانكم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا ، فدخل ، فعُمي عليهم المدخل ، فبنوا ثَمة مسجدًا . وقيل : المتنازَع فيه : أمر الفتية قبل بعثهم ، أي : أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم ، وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الأحوال والأهوال ، ويتلقون ذلك من الأساطير وأفواه الرجال . وعلى التقديرين : فالفاء في قوله : ﴿ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ ﴾ فصيحة ، أي : أعثرنا عليهم فرأوا ما رأوا ، ثم ماتوا ، فقال بعضهم : ﴿ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم ﴾ : على باب كهفهم ﴿ بُنۡيَٰنًا ﴾ لئلا يتَطرق إليهم الناس ، ففعلوا ذلك ضنًّا بمقامهم ومحافظة عليهم . ثم قالوا : ﴿ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ ﴾ ، كأنهم لما عجزوا عن إدراك حقيقة حالهم من حيث

النسبة ، ومن حيث العدد ، ومن حيث بعد اللبث في الكهف ، قالوا ذلك تفويضًا إلى علام الغيوب . أو : يكون من كلامه سبحانه ردًّا لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ، ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ** ﴾ ، وهو الملك والمسلمون ، وكانوا غالبين في ذلك الوقت : ﴿ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا** ﴾ ، فذكر في القصة أنه جعل على باب الكهف مسجدًا يصلى فيه .

ثم وقع الخوض في عهد نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين نصارى نجران حين قدموا المدينة ، فجرى بينهم ذكر أهل الكهف وبين المسلمين في عددهم ، كما قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ** ﴾ ، وهو قول اليعقوبية من النصارى ، وكبيرهم السيد ، وقيل : قالته اليهود ، ﴿ **وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ** ﴾ ، هو قول النسطورية منهم ، وكبيرهم العاقب ، ﴿ **رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ** ﴾ : رميًا بالخبر من غير اطلاع على حقيقةِ الأمر ، أو ظنًّا بالغيب من غير تحقيق ، ﴿ **وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ** ﴾ ، وهو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي ، وعدم نظمه في سلك الرجم بالغيب ، وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادةِ تأكيد النسبة فيما بين طرفيها ، يَقضى بصحته . قال تعالى : ﴿ **قُل** ﴾ يا محمد تحقيقًا للحق ، وردًّا على الأولين : ﴿ **رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم** ﴾ أي : ربى أقوى علمًا بعدتهم ، ﴿ **مَّا يَعۡلَمُهُمۡ** ﴾ أي : ما يعلم عددهم ﴿ **إِلَّا قَلِيلٞ** ﴾ من الناس ، قد وفقهم الله تعالى للاطلاع عليهم بالدلائل أو بالإلهام . قال ابن عباس رضي الله عنه : أنا من ذلك القليل ، قال : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، وأيضا حين سكت عنه تعالى ولم يقل : رجمًا بالغيب ، علم أنه حق . وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ : أنهم سبعة ، أسماؤهم : يمليخا ، وهو الذي ذهب بورقهم ، ومكسيلمينيا ، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم ، ومشلينا ، وفي رواية الطبري : ومجسَيسيا بدله ، وهؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ودبرنوش وجشاذنوس ، وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره ،

والسابع : الراعي الذي تبعهم حين هربوا من دقيانوس ، واسمه : كفشططيوش . وذكر ابن عطية عن الطبري غير هؤلاء ، وكلهم عجميون ، قال : والسندُ في معرفتهم واه . والله تعالى أعلم .

الإشارة : عادةُ الحق تعالى في أوليائه أن يُخفيهم أولاً عن أعين الناس ، رحمةً بهم إذ لو أظهرهم في البدايات لفتنوهم وردوهم إلى ما كانوا عليه ، حتى إذا تخلصوا من البقايا ، وتمكنوا من معرفة الحق وشهوده ، أعثر عليهم من أراد سعادته ووصوله إلى حضرته ليعلموا أن وعد الله بإبقاء العدد الذين يحفظُ الله بهم نظام العالم في كل زمان حقٌّ ، وأن خراب العالم بانقراضهم ، وقيام الساعة لا ريب فيه . وفي الآية تنبيه على ذم الخوض بما لا علم للعبد به ، ومدح من رد العلم إلى الله في كل شيء . والله تعالى أعلم .

ثم نهى نبيه عن المجادلة بعد وضوح الحق ، فقال : ﴿ **فَلَا تُمَارِ** ﴾ أي : لا تجادل ﴿ **فِيهِمْ** ﴾ في شأن أهل الكهف ﴿ **إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا** ﴾ قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم ، من غير زيادةٍ عليه ، مع تفويض العلم إلى الله ، فلا تُصرح بجهلهم ، ولا تفضح خطأهم ، فإنه يُخل بمكارم الأخلاق ، ﴿ **وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم** ﴾ : في شأنهم ﴿ **مِّنْهُمْ** ﴾ من الخائضين ﴿ **أَحَدًا** ﴾ فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن ذلك ، مع أنهم لا علم لهم بذلك . ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ** ﴾ أي : لأجل شيء تعزم عليه : ﴿ **إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ** ﴾ الشيء ﴿ **غَدًا** ﴾ : فيما يستقبل من الزمان مُطلقًا ، فيصدق بالغد وما بعده لأنه نزل حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين . فسألوه ﷺ فقال : غدًا أخبركم ، ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحي ، حتى شق عليه ، وكذبته قريشٌ ، ثم نزلت السورة بعد أربعة عشر يومًا ، أو قريبًا منها ، على ما ذكره أهل السيَر[1] ، أي : لا تَقل إني فاعلٌ شيئًا في حال من الأحوال إلا متلبسًا بمشيئته على الوجه المعتاد ، وهو أن تقول : إن شاء الله ، أو في

---

(١) تفسير الطبري (١٧/٥٩٣) .

وقتٍ من الأوقات ، إن شاء الله أن تقوله ، بمعنى : أن يأذن لك فيه ، فإن النسيان بمشيئته تعالى . ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ ﴾ بقولك : إلا أن يشاء الله مستدركًا له ، ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ : إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته . وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه : ولو بعد سنة ما لم يحنث . ولذلك جوز تأخير الاستثناء . وعامة الفقهاء على خلافه ، إذ لو صح ذلك لما تقرر طلاقٌ ولا عتاق ، ولم يعلم صدق ولا كذب ، وقال القرطبي : هذا في تدارك الترك والتخلص من الإثم ، وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً به ، ويجوز أن يكون المعنى : واذكر ربك بالتسبيحِ والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغةً في الحث عليه ، أو : اذكر ربك إذا اعتراك نسيانٌ لتستدرك ما فات ، وحُمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها . وسيأتي في الإشارة بقية الكلام عليها . ﴿ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي ﴾ : يوفقني ﴿ لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا ﴾ أي : لنبأ أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف ، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ، ﴿ رَشَدٗا ﴾ أي : إرشادًا للناس ودلالة على ذلك . وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظمُ وأبين لقصص الأنبياء ، المتباعدة أيامُهم ، والإخبار بالغيوبِ والحوادثِ النازلة في الأعمار المستقبلة إلى قيام الساعة . أو : لأقرب رشدًا وأدنى خيرًا من المَنسى ، أي : عسى أن يدلني على ما هو أصلح لي من الذي نسيته إذ يجوز أن يكون نسيانُه خيرًا له من ذكره إذ فيه إظهارُ قهريتِه تعالى ، وغناه عن خلقه ، وعدم مبالاته بإدبار من أدبرَ وإقبال من أقبل ، أو : الطريق الأقرب من هذا الذي هدى إليه أهل الكهف رشدًا وصوابًا ، وقد فعل ذلك حيث هداه إلى الدين القيم الذي أظهره على الأديان كلها ، ولو كره المشركون . ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ﴾ أحياءً ، مضروبًا على آذانهم ، ﴿ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ ، رُوي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : عند أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية ، والله تعالى ذكر السنة القمرية ، والتفاوت بينهما فى كل مائة ثلاثُ سنين ، فيكون ثلاث مائة سنة وتسع سنين . اهـ . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أي : الزمان الذي لبثوا فيه . ﴿ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي : ما غاب فيهما ،

وخفي من أحوال أهلها ، ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ ﴾ أي : ما أسمعه وما أبصره . دل بصيغة التعجب على أن سمعه تعالى وبصره خارج عما عليه إدراك المدركين لأنه تعالى لا يحجبه شيء ، ولا يحول دونه حائل ، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف ، والصغير والكبير ، والخفي والجلى .

والتعجب في حقه تعالى مجاز لأنه إنما يكون مما خُفي سببه ، ولأنه دهشة وروعة تلحق المتعجب عند معاينة ما لم يعتَده ، وهو تعالى منزهٌ عن ذلك ، فيؤول بأنه مبالغة في إحاطة سمعه وبصره بكل شيء ، كما تقدم . ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ ﴾ أي : ما لأهل السمواتِ والأرض من دونه تعالى من وليٍ يتولى أمورهم وينصرهم إلا هو سبحانه ، ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ ﴾ : في قضائه في علم الغيب ﴿ أَحَدٗا ﴾ منهم ، ولا يجعل له فيه مدخلاً ، وقرئ بالخطاب لكل أحد ، أي : ولا تشرك أيها السامع في حكمه وتدبيره أحدًا من خلقه ، فإنه لا فعل له ولا تدبير . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قد تضمنت إشارة الآية خمسَ خصالٍ من خصال الصوفية : الأولى : تركُ المراء والجدال ، إلا ما كان على وجه المذاكرةِ والمناظرةِ في استخراج الحق أو تحقيقه ، من غير ملاججة ولا مخاصمةٍ ، في سهولة وليونة وسلامة القلوب .

الثانية : استفتاء القُلوب فيما يعرض من الأمور قال ﷺ : « استفت قَلبك ، وإن أفتاكَ المفتون وأفتوكَ ، فالبر ما اطمأن القَلب وسَكن إليه ، والإثمُ ما حاك في الصدر وتردد »[1]، والمراد بالقلوبِ التي تُستفتى . القلوب الصافية المُنورة بذكر الله ، الزاهدة فيما سوى الله ، فإنها إذا كانت بهذه الصفة لا يتجلى فيها إلا الحق ، ولا تسكن إلا إلى الحق،بخلافِ القُلوب المخوضة بحب الدنيا والهوى، فلا تفتي إلا بما يوافق هواها .

(١) مسند الإمام أحمد (١٧٧٧٧) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

الثالثة : التَفويض إلى مشيئة الله وتدبيره ، والرضا بما يبرز به القضاء ، بحيث لا يعقد على شيء ، ولا يجزم بفعل شيء ، إلا ملتبسًا بمشيئةِ الله ، فينظر ما يفعل الله ، فالعاقل إذا أصبح نظرَ ما يفعل الله به ، والجاهل إذا أصبحَ نظر ما يفعل بنفسه ، كما قال صاحب الحِكَم .

الرابعة : الاشتغالُ بالذكر والفكر ، حتى يغيب عما سوى المذكور قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي : إذا نسيت ما سواه ، حينئذ تكون ذاكرًا حقيقةً ، فالذكر الحقيقي : هو الذي يغيب صاحبه عن شُهود نفسه ورسمه وحسه ، حتى يكون الحق تعالى هو المتكلم على لسانه لشدة غيبته فيه ، وهذا أمر مشاهدٌ لمن عثر على شيخ التربية والتزم صحبته .

الخامسة : التماسُ الترقي والزيادة فى الاهتداء واليقين ، فكل مقامٍ يُدركه ينبغي أن يطلبَ مقامًا أعلى منه ، ولا نهاية لعلمه تعالى ولا لعظمته ، ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾ ، وبالله التوفيق[1] .

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟». أخرجاه[2]

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لتتبعُن) بتشديد التاء الثانية وضم العين ، أي لتوافقن بالتبعية . (سنن من كان قبلكم) بضم السين جمع سنة ، وهي لغةً الطريقة حسنة كانت أو سيئة . والمراد هنا طريقةُ أهل الأهواء والبدع التي ابتدعوها من تلقاء أنفسهم بعد

(١) تفسير البحر المديد ٤/١٤١-١٥٥ .

(٢) ورد بلفظ : «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن». صحيح البخاري(٣٤٥٦)(٧٣٢٠) ، صحيح مسلم (٢٦٦٩) .

أنبيائهم من تغُير دينهم وتحريف كتابهم ، كما أتى على بني إسرائيل حذو : النعلِ بالنعل وفي بعض النسخ بفتح السين . ففي المقدمة : أي طريقهم . (شبراً بشبر) حال مثل يداً بيد وكذا قوله : ذراعًا بذراع أي ستفعلونَ مثل فِعلهم سواءً بسواء (حتى لو دخلوا) أي من قبلكم من بني إسرائيل (جُحر ضب) وهو من أضيقِ أنواع الجحر وأخبثها (تبعتموهم) ولعل الحكمة في ذلك أنه ﷺ لما بُعث لإتمام مكارم الأخلاق في آخر الأمم فيقتضي أن يكون أهلُ الكمال منهم ، موصوفين بجميع الخصال الحميدة في الأديان المتقدمة ، ومن لوازم ذلك أن يكون أهل النُقصان منهم في كمال مرتبة القصور منعوتين بجميع الخلال الذميمة الكائنة في الأمم السابقة . ونظيره أن بعض المشايخ ذكر أنه ارتاض بجميعِ ما سمعَ من رياضات أربابِ الولايات فأعطي له جميع أصنافِ الكرامات وخوارقِ العادات ، ويناسبه ما ذكره بعضُ المحققين من أن التوقف لا يوجد في حق الإنسان فإن لم يكن في الزيادة فهو في النقصان . وأيضا نوعُ بني آدم معجونٌ مركبٌ من الطبعِ الملكي الروحاني العلواني ، ومن الطبع الحيواني النفساني السفلاني ، فإن كان يميلُ إلى العلو فَيصير إلى المرتبةِ الأولى من المَلأ الأعلى وإن كان يميلُ إلى أسفلِ فيسير في طريقته من مراتب البهائم أدنى ، كما أشار إليه سبحانه بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف:١٧٩) . وهنا ينفتحُ باب القضاء والإخلاص إلى القضاء إلا بقوله : ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣) فتأمل . (قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى) بالنصب ، أي أتَعني بِمن نتبِعُهم أو بمن قَبلنا سُنة اليهود والنصارى (قال :)أي النبي (فمن؟) أي إن لم أُردهم فمنَ سواهم والمعنى أنهمُ الغالبون المَشهورون من أهل الكتاب وغيرهم مندرسون ، فإذا أطلقَ من قبلكم فهم المرادُ وكأنَ غيرهم غير موجودين في الاعتبار عند الإطلاق . وقال شارح : فمن استفهام ، أي فمنَ يكون غيرهم يعني المتبوعين لكم هم لا غيرهم . وقال ابن الملك روى اليهود بالجر ، أي هل نتبع سنن اليهود ، وبالرفع على أنه خبر

المبتدأ على تقدير حرف الاستفهام يعني من قبلنا هم اليهود . انتهى . وقيل التقدير أي المتبوعون هم اليهود والنصارى أم غيرهم[1].

ولمسلم[2] ، عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :« إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . وإنـي سألت ربي لأمـتـي أن لا يهلكها بسنة بعامة[3] ، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال : يا محـمـد ، إنـي إذا قضيت قضاء فـإنـه لا يـرد ، وإنـي أعطيتك لأمـتـك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ، ويسبي بعضهم بعضًا ».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(إن الله زوى لي الأرض) أي جَمعها لأجلي . قال التوربشتي : زويت الشيء جمعتهُ وقبضتهُ يريد به تقريبَ البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب منها . وحاصلهُ أنه طوى له الأرضَ وجعلها مجموعةً كهيئة كف في مرآة نظره ، ولقد قال (فرأيتُ مشارقها ومغاربها) أي جميعها (وإن أمـتـي سيبلغُ ملكـها ما زوي لي منها) قال الخطابي : توهَم بعضُ الناس أن من في منها للتبعيض وليس ذلك كما توهـمـه ، بل هـي للتفصيل للجملة المتقـدمـة ، والتفصـيـل لا يناقض الجملة . ومعناه : أن الأرضَ زويت لي جملتها مرةً واحدة فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، ثم هي تفتح لأمتي جزءًا فجزءًا حتى يصل مُلك أمتي إلى كل أجزائها . أقول ولعل وجه من قال بالتبعيض هو أن ملك هذه الأمة ما بلغَ

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٥٤٤ ، ٥٤٥ .

(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٩) .

(٣) وفي لفظ : عامة .

جميع الأرض ، فالمراد بالأرض أرض الإسلام وإن ضمير منها راجع إليها على سبيل الاستخدام والله أعلم بالمرام . (وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض) بدلان مما قبلهما ، أي كنز الذهبِ والفضة . قال التوربشتي : يريد بالأحمر والأبيض خزائنَ كسرى وقيصر ، وذلك أن الغالب على نقودِ ممالك كسرى الدنانير ، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم . (وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسنة عامة) أي بقحطٍ شائع لجميع بلاد المسلمين . قال الطيبي : السنة القحط والجدب وهي من الأسماء الغالبة . (وأن لا يُسلط عليهم عدوًّا) وهم الكفار . وقوله (من سوى أنفُسهم) صفة عدوًّا ، أي كائنًا من سوى أنفسهم . وإنما قيده بهذا القيد لما سأل أولاً ذلك فمنع ، (فيستبيحُ) أي العدو وهو مما يستوي فيه الجمع والمفرد . (بيضتهم) قال ابن الملك : أي يجعلها مباحة . وقال شارح : أي يستأصلُ مجتمعهم . وقال الطيبي : أراد بالبيضة أي مجتمعهم موضعَ سلطانهم ومستقرَ دعوتهم ، وبيضة الدار وسطها ومعظمها . أراد عدوًّا يستأصلهم ويهلكهم جميعهم . وقيل : أراد إذا هلكَ أصل البيضة كان هلاك كلها فيه من طعم أو فرخ ، وإذا لم يهلك أصل البيضة بما سلم بعض فراخها . والنفي منصب على السبب والمسبب معًا ، فيفهمُ منه أنه قد يُسلط عليهم عدو لكن لا يستأصل شأفتهم . (وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيتُ قضاءً) أي حكمت حكمًا مبرمًا (فإنه لا يرد) أي بشيء بخلاف الحكم المعلق بشرط وجود شيء أو عدمه ، . . . (وإني أعطيتك) أي عهدي وميثاقي . (لأمتك) أي لأجل أمة إجابتك (أن لا أهلكهم بسنة عامة) أي بحيث يعمهم القحط ويهلكهم بالكلية . قال الطيبي : اللام في لأمتك هي التي في قوله سابقًا : سألتُ ربي لأمتي ، أي أعطيت سؤالك لدعائك لأمتك . والكاف هو المفعول الأول ، وقوله : أن لا أهلكَهم ، المفعول الثاني كما هو في قوله : سألتُ ربي أن لا يهلكها ، هو المفعول الثاني . (وأن لا أسلطَ عليهم عدوًّا من سوى أنفُسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من) أي الذين هم . (بأقطارِها) أي بأطرافها جمع قطر ، وهو الجانب والناحية . والمعنى : فلا يستبيح عدو من الكفار

بيضتهم ولو اجتمع على محاربتهم من أطراف بيضتهم . وجواب لو ما يدل عليه قوله وأن لا أسلط (حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي) كيرمي بالرفع عطف على يهلك أي ويأسر (بعضهم) بوضع الظاهر موضع المضمر (بعضًا) أي بعضًا آخر وفي نسخة بالنصب على أن يكون عطفًا على يكون . قال الطيبي : حتى بمعنى كي أي لكي يكونَ بعضُ أمتك يهلك بعضًا . فقوله إني إذا قضيتُ قضاءً فلا يرد توطئةً لهذا المعنى(١).

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد : «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المُضلين . وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد فِئام من أمتي الأوثان . وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي . ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ، تبارك وتعالى»(٢).

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٢٤٤٨) وفيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال : « إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وضع في أمتي السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل». قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . سنن أبي داود (٤٢٥٢) وفيه حدثنا سليمان بن حرب ومحمد بن عيسى قالا : ثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه : « إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله». قال الألباني : صحيح.

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(إذا وُضع السيفُ في أمتي) أي من بعضهم لبعض (لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة) وقد ابتُدئ في زمن معاوية وهلم جرًّا لا يخلو عنهُ طائفة من الأمة فصدق في إخباره إمام الأئمة . ثم الحديث مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ (الأنعام:٦٥)، وتحقيقه في الأحاديث المنثورة في تفسير الدر المنثور . (ولا تقوم الساعةُ حتى يلحقَ قبائلٌ من أمتي بالمشركين) منها ما وقع بعد وفاته في خلافة الصديق رضي الله عنه . (وحتى تعبد قبائلٌ من أمتي الأوثان) أي الأصنام حقيقةً ولعله يكون فيما سيأتي ، أو معنًى ومنه : «تَعس عبدُ الدينار وعبدُ الدرهم»[(١)] (وأنه) أي الشأن (سيكون في أمتي كذابون) أي في دعوتهم النُبوة (ثلاثون) أي هم أو عددهم ثلاثون (كلهم يَزعم) أفرد للفظ كل (أنه نبي الله وأنا خاتمُ النبيين) بكسر التاء وفتحها والجملة حالية . وقوله (لا نبي بعدي) تفسيرٌ لما قبله (ولا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق) خبر لقوله : لا تزال ، أي ثابتين على الحق علمًا وعملاً أي غالبين على أهل الباطل ولو حجة . قال الطيبي رحمه الله : يجوز أن يكون خبر بعد خبر وأن يكون حالاً من ضمير الفاعل في ثابتين . أي ثابتين على الحق في حالة كونهم غالبين على العدو . (لا يَضرهم من خذلهم) أي لثباتهم على دينهم (حتى يأتي أمرُ الله) متعلقٌ بقوله لا تزال[(٢)].

---

(١) تقدم تخريجه في باب(الخوف من الشرك) صـ ١٠٦ .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/٣٨ .

٢٤- باب
ما جاء في السحر .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ (البقرة:١٠٢) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود : ولما جاءهم كتاب من عند الله نبذوه ﴿ **وَٱتَّبَعُواْ** ﴾ ما تقرأ ﴿ **ٱلشَّيَٰطِينُ** ﴾ على الناس من السحر ﴿ **عَلَىٰ** ﴾ عهد ﴿ **مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ** ﴾ ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيبَ ، ويلقونها إلى الكهنة ، وهم يُدونونها ويعلمونها الناس ، وفَشا ذلك في عهد سليمان حتى قيل : إن الجن يعلمون الغيبَ ، وإن مُلك سليمان إنما قام بهذا ، وأنه به سخر الجن والإنس والريح ، فجمع سليمان ما دُون منه ودفنه ، فاستخرجتهُ الشياطين بعد موته ، فردّ الله تعالى قولهم بقوله : ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ** ﴾ باستعمال السحر لأنه تعظيمُ غير الله بالتقرب للشيطان ، والنبي معصوم ، ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ** ﴾ هم الذين ﴿ **كَفَرُواْ** ﴾ باستعماله ﴿ **يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ** ﴾ إغواءً وإضلالاً ، ويعلمون ﴿ **وَمَآ أُنزِلَ عَلَى**

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:١٠٢) .

ﱡﭐ ﭐﲫﲬﱠ في بلدٍ بابل من سواد الكوفة ، وهما ﱡﭐ ﭐﲭﲮﱠ كانا ملكين من أعبد الملائكة ، ولما رأت الملائكةُ ما يصعد إلى السماء من أعمالِ بنـى آدم الخبيثة فـي زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك ، وقالوا : يا ربنا هؤلاء الذين جعلتهم خليفة فى الأرض يعصونكَ ؟ فقال الله تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض ، وركبتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا ، قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك . فقال الله تعـالـى : فاختاروا ملكـيـن من خِيارِكم أُهبطهما إلى الأرض . فاختـاروا هـاروت وماروت ، وكانا مـن أعبد الملائكة ، فركب الله تعالى فيهما الشهوة ، وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق ، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا وشرب الخمر ، فكانا يقضيان بين الناس يومهما ، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء ، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة : وكانت من أجمل النساء من أهل فارس ، فأخذت بقلبيهما ، فراوداها عن نفسها ، فأبت ، ثم عاودت في اليوم الثاني ، ففعـلا مـثـل ذلكَ فأبت ، وقالت : إلا أن تعـبـدا ما أعبدُ ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا النفسَ وتشربا الخمر ، فأبيا هذه الأشياء ، وقالا : إن الله نهانا عنها ، فانصرفت ، ثم عادت في اليوم الثالث ، فراوداها ، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس ، فقالا : الصلاة لغير الله ذنبٌ عظيم ، وأهونُ الثلاثة شرب الخمر ، فشربا ، وانتشيا ، ووقعا بالمرأة ، فلما فرغا رآهما إنسان فخافا أن يظهر عليهما فقتلاه . وفي رواية عن سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : (قالت لهما : لن تدركاني حتى تُخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء ، فقالا : باسم الله الأعظم ، فعلماها ذلك ، فتكلمت به ، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبًا) . ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى سهيلاً قال : (لَعن الله سهيلاً كان عشاراً باليمن ، ولَعن الله الزهرة ، وقال : إنها فتنت ملكين)[1]. قلت : قصةُ هاروت وماروت ذكرها المنذرى في شرب الخمر ، وقال في حديثها :

---

(١) موضوع . سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٩١٣) .

رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه من طريق زهير بن محمد ، وقد قيل : إن الصحيح وقفه على كعب . اهـ . وقال ابن حجر : قصة هاروت وماروت جاءت بسندٍ حسن ، خلافًا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه . وتمام قصتهما : أنهما لما قارفا الذنبَ وجاء المساء همّا بالصعود ، فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حلّ بهما ، فقصـدا إدريس عليه السلام ، فأخبراهُ ، وسألاه الشفاعةَ إلى الله تعالى فشفع فيهما ، فخيّرهما اللّه تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لانقطاعه ، فهما يعذبان في بئرٍ ببابل ، منكسان معلقان بالسلاسل من أرجلهما ، مزرقة أعينهما ، ليس بينهما وبين الماء إلا قدر أربعة أصابع ، وهما يعذبان بالعطش . اهـ . فإن قلت : الملائكة معصومون فكيف يصح هذا من هاروت وماروت؟ قلنا : لما ركب الله فيهما الشهوة انسلخا من حكم المَلَكية إلى حكم البشرية ابتلاءً من الله تعالى لهما ، فلم يبق لهما حكم الملائكة من العصمة . ﴿ **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ** ﴾ السحر حتى ينصحاه ويقولا : ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ** ﴾ لكم ، واختبار من الله تعالى لعباده ، ليظهر من يصبر عنه ومن لا يصبر ، وكان تعلمه فى ذلك الوقت كفراً . فيقولان له ﴿ **فَلَا تَكْفُرْ** ﴾ بتعلّمه ، فكانوا يتعلمون ﴿ **مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ وقدرته ، فلا تأثيرَ لشىء إلا بإذن اللّه ، ويتعلمونَ منهما ﴿ **مَا يَضُرُّهُمْ** ﴾ يوم القيامة ﴿ **وَلَا يَنفَعُهُمْ** ﴾ ، ولقد علم بنو إسرائيل أن من اشتراه واستبدلهُ بكتاب اللّه والعمل بما فيه ﴿ **مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ** ﴾ نصيب ﴿ **وَلَبِئْسَ** ﴾ ما باعوا به حظ أنفسهم من النعيم ﴿ **لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ** ﴾ ، لكن لما لم يعملوا بعلمهم كانوا كمن لا علم عنده .

الإشارة : كل من أكَب على دُنياه وتتبع حظوظه وهواه ، وترك العمل بما جاء من عند الله ، يصدق عليه أنه نبذ كتاب الله ، واشتغل بما سواه من حب الدنيا والرئاسة والجاه ، فالدنيا سحارة غرارة ، تسحرُ القلوب وتُغيبها عن حضرة علام الغيوب وفي الحديث : «اتقوا الدّنيا فإنها أَسَحر من هاروت

وماروت»[1]، ولا شك أنها تُفرق بين الأحباب وبين العشائر والأصحاب . ولقد علمَ من أخذ الدنيا ونعيمها ، وأكب عليها ما له في الآخرةِ من نصيب ، فبقدرِ ما يأخذ من نعيم الدنيا وشهواتها ينقص له من نعيم الآخرة . ولبئس ما شروا به أنفسهم ـ حيث آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ـ لو كانوا يَعلمون . ولو أنهم آمنوا بالله ، واتقوا كل ما يُشغل عن الله لكانوا من أولياءِ الله ، وتلك المثوبة ـ التي صاروا إليها ـ خيرٌ لو كانوا يعلمون . قال عبد الواحد ابن زيد : سمعت أن جاريةً مجنونةً في خراب الأُبُلة تنطق بالحِكَم ، فطلبتها حتى وجدتها ، وهي محلوقة الرأس ، وعليها جبة صوف ، فلما رأتنى قالت : مَرحبا بك يا عبد الواحد ، ثم قالت : يا عبد الواحد ما جاء بك؟ فقلت : تعظيننى ، فقالت : واعجبًا لواعظ ، يوعظ ، يا عبد الواحد . . . اعلم أن العبدَ إذا كان في كفايةٍ ، ومال إلى شيء من الدنيا ، سلبه الله حلاوةَ الزهد ، وظل حيرانًا وَلِهًا ، فإن كان له عند الله نصيبٌ عاتبه وحيًا في سره ، فيقول له : عبدي أردتُ رفع قدرك عند ملائكتي ، وأجعلك دليلاً لأوليائي ، ومرشدًا لأهل طاعتي ، فملت إلى عرض الدنيا وتركتني ، فأورثك ذلك الوِحشة بعد الأنس ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، ارجع إلى ما كنت عليه أُرجع إليك ما كنت تعرفهُ من نفسك . ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبى . اهـ[2].

وقوله ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (النساء: ٥١).

تقدم تفسير الآية الكريمة في الباب السابق .

قال عمر : الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان .

وقال جابر : الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد .

---

(١) باطل . سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٣٤) .

(٢) تفسير البحر المديد ١/١٢٠-١٢٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(١).

شرح الحديث:

قال الملا علي القاري:

(اجتنِبوا السبع) أي احذروا فعلها (الموبِقات) أي المُهلكات، أجملَ بها ثم فصلها ليكون أوقعَ في النفس، قال ابن عمر: الكبائر سبع وقال ابن عباس: هي أقربُ إلى السبعين، وقال الشيخ أبو طالب المكي صاحبُ قوتِ القلوب الذي هو أصلُ إحياء العلوم للغزالي: قد جمعتُ جميع الأحاديث الواردة في هذا الباب فوجدت سبعة عشر، أربعة في القلب: الشرك ونية الإصرار على المعصية واليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله، وأربعة في اللسان: شهادةُ الزور وقذف المحصن واليمين الغَموس والسحر، وثلاثة في البطن: شُرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل مال الربا واثنان في الفرج: الزنا واللواط، واثنان في اليد: القتلُ بغير الحق والسرقة، وواحد في الرجل: وهو الفرار من الكفار يوم الزحف، وواحد يشمل البدن: وهو عقوقُ الوالدين (قالوا) يعني بعض الصحابة وفي نسخة (قال) أي رجلٌ، أو أبو هريرة (يا رسول الله وما هُن؟) أي تلك السبع (قال: الشرك بالله) أي الكفر به (والسحر) قال في المدارك: إن كان في قول الساحر أو فعله رد ما لزم في شرط الإيمان فهو كفرٌ وإلا فلا. وقال ابن حجر: وهو يَقع كما قاله القرافي على حقائق مختلفة، السيمياء، والهيمياء،

---

(١) صحيح البخاري(٢٧٦٦)(٥٧٦٤)(٦٨٥٧)، صحيح مسلم (٨٩).

وخواص الحقائق من الحيوانات وغيرها ، والطلسمات والأوفاق ، والرقـي الـتي تُحدث ضرراً ، والعزائم والاستخدامات . ثم بين هذه الأنواع بما ذكرته عنـه في كتابي الآتي ذكره ، ثم قال : وقد يقعُ للسحرةِ أنهم يجَمعون عقاقير ويجعلونهـا في نهرٍ أو بئرٍ أو قبرٍ أو بابٍ يفُتح للشرق فيحدث عنها آثـار بخـواصِ نفوسـهم التي طبعها الله على الربط بينها وبين تلك الآثار عند صـدق العـزم ، وقـد يـأتي الساحر بفعلٍ أو قول يضُر بحالِ المسحور فيمرض ويموت منـه ، إمـا بواصـلٍ إلى بـدنـه مـن دخـانٍ أو غـيره أو بدونـهٍ . وقـال الحنابلـة : السـاحر بفعـل مـن يركب مكنسةً فتسير به في الهواء أو نحوه ، وكذا معزم على الجن ومن يجمعها بزعمه وأنـه يأمرها فتطيعهُ ، وكاهنٍ وعـرافٍ ومـنجمٍ ومشـعبذٍ ، وقائـل بزجـر الطير وضاربٍ عصا وشعير وقداح ،ومن يسحر بدواء أو تدخين أو سقي مضر. قال بعض أئمتهم : ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس لقول جمـع من السلف : يفُسد النمام والكـذاب في سـاعة مـا لا يفسـده السـاحر في سـنة . وأعلـم أن للسـحر حقيقـة عنـد عامـة العلمـاء خلافًـا للمعتزلـة وأبـي جعفـر الأستراَبادي . ثم ظاهر عطف السحر على الشـرك أنـه لـيس بكفـر ، وقـد كثـر اختلاف العلماء في ذلك وحاصـل مذهبنا أن فعلهُ فسق . وفي الحديث : « لَيس منا من سَحر أو سُحر لـه »[1] ويَحـرم تعلمـه خلافًـا للغزالـي لخـوف الافتتـان والإضرار ، ولا كفر في فعله وتعلمه وتعليمه إلا إن اشتمل على عبادةِ مخلـوقٍ أو تعظيمهُ كما يُعظم الله سبحانه ، أو اعتقـاد أن لـه تـأثيرًا بذاتـه ، أو أنـه مبـاح بجميع أنواعه . وأطلق مالك وجماعة أن الساحر كافر ، وأن السحر كفـر ، وأن تَعلمه وتعليمه كفر ، وأن الساحر يقتل ولا يستتاب سواء سحرَ مسلمًا أم ذميًّـا .

---

(١) حديث صحيح وسيأتي تخريجه في باب (ما جاء في الكهان ونحوهم) .

وقالت الحنفية : إن اعتقد أن الشيطان يفعل له ما يشاء فهو كافر ، وإن اعتقد أن السحر مجرد تخييل وتمويه لم يكفر . واختلف الحنابلة في كفره ، وفي التنقيح من كتبهم ولا تقبل توبة ساحر يكفر بسحره ، ويقتل ساحر مسلم يركب المكنسة فتسير به في الهواء ونحوه ، ويكفر هو ومن يعتقد حله ، وفي الفروع لهم أيضا : أن من أوهم قومًا بطريقته أنه يعلم الغيب فللإمام قتلُه لسعيه بالفساد . وبقي لهذا المبحث متممات بسطتها مع ذكر فروق بين المعُجزة والسحر في كتابي الإعلام بقواطع الإسلام . (وقتل النفس التي حرم الله) بوجهٍ من الوجوه (إلا بالحق) وهو أن يُجوز قتلها شرعًا بالقصاص وغيره (وأكل الربا) وتفصيله في كتب الفقه (وأكل مالِ اليتيم) إلا بالمعروف ، وهو صغير لا أب له . والتعبير فيهما بالأكل والمراد به سائرُ وجوه الاستعمال لأنه أغلبها المقصود منها (والتولي) بكسر اللام ، أي الإدبار للفرار (يوم الزحف) وهو الجماعة التي يَزحفون إلى العدو ، أي يمشونَ إليهم بمشقة من زحف الصبي إذا دبَّ على إسته ، وقيل : سمي به لأنه لكثرته وثقل حركته كأنه يَزحف ، وسموا بالمصدر مبالغةً وإذا كان بإزاء كل مسلمٍ أكثر من كافرين جاز التولي (وقذف المُحصنات) أي العَفائف ، يعني رميُهن بالزنا ، وهي بفتح الصاد وتكسر ، أي أحصَنها الله وحفظها . أو التي حفظتِ فرجها من الزنا (المؤُمنات) احتراز عن قذف الكافرات ، فإن قَذفهن ليس من الكبائر فإن كانت ذميةً فقذفهُا من الصغائر ولا يوجبُ الحد . وفي قذفِ الأمة المسلمة التعزيرُ دون الحد ، ويتعلق باجتهاد الإمام . وإذا كان المقذوفُ رجلاً يكون القذف أيضا من الكبائر ، ويجب الحد أيضا فتخصيصهُن لمراعاة الآية والعادة (الغافِلات) عن الاهتمام بالفاحشةِ كنايةٌ عن البريات ، فإن البريء غافل عما

بهت به ، والغافلات مؤخر عن المؤمنات في الحديث عكس الآية على ما في النسخ المصححة ، ووقع في شرح ابن حجر بالعكس وفق الآية[1].

وعن جندب مرفوعًا : «حد الساحر ضربه بالسيف». رواه الترمذي ، وقال : الصحيح أنه موقوف[2].

وفي **صحيح البخاري عن بجالة بن عَبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر .**

وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت .

وكذلك صح عن جندب .

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) سنن الترمذي (١٤٦٠) وقال : هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع : هو ثقة ويروى عن الحسن أيضًا والصحيح عن جندب موقوف والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم وهو قول مالك ابن أنس وقال الشافعي : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل فتي سحره ما يبلغ به الكفر فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً . قال الألباني : ضعيف .

٢٥- باب
بيان شيء من أنواع السحر .

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، عن حيان بن العلاء ، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه : أنه سمع النبي ﷺ قال : «إن العيافة والطَّرق والطيرةِ من الجبتِ». قال عوف : العيافة : زجر الطير . والطرق : الخط يخط بالأرض . والجبت : قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد . ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتبس شعبة[٢] من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد». رواه أبو داود[٣] ، وإسناده صحيح .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(من اقتبسَ) أي أخذَ وحصل وتعلم (علمًا من النجوم) أي علمًا من عُلومها أو مسألةً من علمها (اقتبسَ شُعبةً) أي قطعةً (من السحر زاد) أي المقتبس من السحر (ما زاد) أي مدة زيادته من النجوم ، فما بمعنى ما دام ويؤيدُه ما ذكر شارح حيث قال : أي زاد النبي ﷺ على ما رواه ابن عباس منه في حقِّ علم

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٦٢٣) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف . صحيح ابن حبان (٦١٣١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف . سنن أبي داود (٣٩٠٧) قال الألباني : ضعيف .

(٢) لفظ أبي داود : من اقتبس علماً .

(٣) سنن أبي داود (٣٩٠٥) . قال الألباني : حسن .

النجوم كذا في الشرح ، والظاهر أن معناه زاد اقتباس شعبة السحر ما زاد اقتباس علم النجوم ، وقال الطيبي رحمه الله : نكر علمًا للتقليل ومن ثَمَّ ذكر الاقتباس لأن فيه معنى القلة ، ومن النجوم صفة علمًا وفيه مبالغة وفاعل زاد الشعبة ذكرها باعتبارِ السحر وزاد ما زاد جملة مستأنفة على سبيلِ التقرير والتأنيث أي يزيد السحر ما يزيد الاقتباس ، فوضع الماضي موضع المضارع للتحقيق . وفي شرح السنة المنهي من علم النُجوم ما يدعيه أهلها من معرفةِ الحوادث التي لم تقع ، وربما تقع في مستقبل الزمان مثل إخبارهم بوقتِ هُبوب الرياح ، ومجيء ماء المطر ، ووقوع الثلج وظُهور الحر والبرد ، وتغيير الأسعار ونحوها ، ويزعُمون أنهم يَستدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ، وهذا علمٌ استأثر الله به لا يعلمه أحدٌ غيره كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ** ﴾ (لقمان:٣٤) فأما ما يُدرك من طريق المشاهدةِ من علم النجوم الذي يعُرف به الزوال وجهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه . قال الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ** ﴾ (الأنعام:٩٧) وقال تعالى : ﴿ **وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ** ﴾ (النحل:١٦) فأخبرَ الله تعالى أن النجومَ طرق لمعرفة الأوقات والمسالك لولاها لم يَهتد الناسُ إلـى استقبال الكعبة . روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق ثم أمسكوا[(١)].

وللنسائي[(٢)] من **حديث أبي هريرة** رضي الله عنه **: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك . ومن تعلق شيئًا وُكِّل إليه».**

وعن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : «ألا هل أنبئكم ما العَضة ؟ هي النميمة : القالة بين الناس». رواه مسلم[(٣)]

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤١٢/٨ ، ٤١٣ .

(٢) سنن النسائي(٤٠٧٩) . قال الألباني : ضعيف .

(٣) صحيح مسلم (٢٦٠٦) .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(العضه) بفتح العين وسكون الضاد المعجمة على الأشهر هي (النميمة القالة بين الناس) أي : كثرةُ القول وإيقاعِ الخُصومة بينهم فيما يحكى للبعض عن البعض . وقيل القالة : بمعنى المقولة وزعم بعضُهم أن القالة هنا جمع وهم الذين يَنقلون الكلام ويوقِعون الخُصومة بين الناس ، ومن ثَمَّ قيل اجعل كلام الواشي ريحًا تستَريح وتريح ، قال أبو تمام :

ومــنَ يــأذن إلى الواشــين يســلق مســامعه بألســنة حــداد .

وقال المتنبي :

لقــد أباحــكَ غشــا في معاملــةٍ من كنتَ معهُ بغيرِ الصــدقِ تَنتفــع .

وقال العارف الشعراني ﷺ : قال لي الشيخ عبد الحق السنباطي رضي الله تعالى عنه : إذا قلَ عملُ عبد ونقصت درجاتُه وأراد الله رفعَهما أوقع العلماءَ العاملين في الغيبة فيه ، فتنقلبُ أعمالهم التي تعبوا فيها طولَ عُمرهم في صحائفه ، فيأخذُ منها بقدر مظلمته فيُصبح أعلى مقامًا منهم من حيث لا يشعر ولا يشعرون[١].

ولهما[٢] عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحراً ».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(إن من البيانِ لسحرًا) أي : إن منه لنوعًا يحلُّ من العُقول والقُلوب في التمويه محل السحر ، فإن الساحرَ بسحره يُزين الباطل في عين المسحور حتى

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١٧١/٣ ، ١٧٢ .

(٢) صحيح البخاري (٥١٤٦) (٥٧٦٧) ، صحيح مسلم (٨٦٩) .

يراه حقًّا ، فكذا المُتكلم بمهارتِه في البيان وتفنُنه في البلاغة وترصيف النظم يسلبُ عقل السامع ، ويشغلهُ عن التفكر فيه ، والتَدبر له حتى يُخيل إليه الباطلُ حقًّا والحق باطلاً . وهذا معنى قول ابن قتيبة : إن منه ما يُقرب البعيد ويبعد القريب ، ويزين الباطلَ القبيح ويعظمُ الصغير ، فكأنه سحرٌ وما ضارعه فهو مكروهٌ كما أن السحر محرمٌ ، وهذا قاله حين قدِم وفد تميم وفيه الزبرقان وعمرو بن الأهيم فخطبا ببلاغةٍ وفصاحةٍ ثم فخر الزبرقان فقال : يا رسول الله : أنا سيدُ بني تميم ، والمطاعُ فيهم ، والمجاب لديهم أمنعهُم من الظلم ، وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك فقال عمرو : إنه لشديد العارضة مانعٌ لجانبه مطاع في أذنيه ، فقال الزبرقان : والله لقد علم مني أكثر ما قال ما منعه أن يتكلمَ إلا الحسد ، فقال عمرو : أنا أحسدكَ والله إنك للئيمُ الخال ، حديث المال ، ضيقُ العطن ، أحمقُ الولد ، والله يا رسول الله : لقد صدقتُ فيما قلتُ أولاً ، وما كذبتُ فيما قلت ، لكني رجلٌ إذا رضيتُ قلت أحسن ما علمتُ ، وإذا غضبتُ قلت أقبحَ ما وجدتُ ولقد صدقتُ في الأولى والأخرى جميعًا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن ... إلخ . قال الميداني : هذا المثال في استحسانِ النُطق وإيراد الحُجة البالغة . قال التوربشتي : وحقه أن يقال إن بعضَ البيانَ كالسحر لكنه جعل الخبر مبتدأ مبالغةً في جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً[١] .

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٦٦٤ ، ٦٦٥ .

٢٦- باب
ما جاء في الكهان ونحوهم.

روى مسلم[(١)] في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

شرح الحديث:

قال المناوي:

(من أتى عرّافًا) بالتشديد وهو من يخبرُ بالأمور الماضيةِ أو بما أخفي، وزعم أنه هو الكاهن يردّه جمعه بينهما في الخبر الآتي. قال النووي: والفرق بين الكاهن والعراف أن الكاهن إنما يَتعاطى الأخبار عن الكوائن المُستقبلة، ويزعُم معرفةَ الأسرار، والعراف يَتعاطى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. ومن الكهنة من يزعُم أن جنيًّا يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من يدعي إدراك الغيب بفهمٍ أُعطيه وأماراتٍ يستدلّ بها عليه. وقال ابن حجر: الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الأمور المُغيبة وكانوا في الجاهلية كثيرًا فمُعظمهم كان يعتمُد على من تابَعه من الجن، وبعضهم كان يدعي معرفةَ ذلك بمقدماتِ أسبابٍ يستدل على مواقعها من كلام من يسألهُ وهذا الأخير يسمى العراف بمهملتين اهـ. (فسَألهُ عن شيء) أي من المُغيبات ونحوها (لم تُقبل له صلاة أربعينَ ليلة) خص العددَ بالأربعين على عادةِ العربِ في ذكر

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٣٠) وفيه: حدثنا محمد بن المثنى العنزي حدثنا يحيى يعني ابن سعيد عن عبيد الله عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

الأربعين والسبعين ونحوهما للتكثير ، أو لأنها المُدة التي ينتهي إليها تأثيرُ تلك المعصيةِ في قلب فاعلها وجوارحه ، وعند انتهائها ينتهي ذلك التأثير ، ذكره القرطبي . وخص الليلةَ لأن من عاداتهم ابتداء الحساب بالليالي ، وخص الصلاة لكونها عماد الدين فصومه كذلك ، كذا قيل . ثم اعلم أن ذا وما أشبهه كمن شربَ الخمر يلزمُه الصلاة وإن لم تُقبل . إذ معنى عدم القبول عدم الثواب لاستحقاقِ العقاب ، فالصلاة مع القَبول لفاعلها الثوابُ بلا عقاب ومع نفيه لا ثواب ولا عقاب ، هذا ما عليه النووي . لكن اعتُرض بأنه سبحانه لا يُضيع أجرَ المحسنين فكيف يُسقط ثواب صلاةٍ صحيحةٍ بمعصيةٍ لاحقةٍ ؟ فالوجه أن يُقال : المراد من عدم القبول عدم تضعيف الأجر ، لكنه إذا فعَلها بشُروطها برئت ذمته من المطالبةِ بها ويفوته قبول الرضا عنه وإكرامه ، ويتضح باعتبار ملوك الأرض ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل:٦٠) ، وذلك أن المُهدى إما مردودٌ عليه أو مقبولٌ منه ، والمقبول إما مقرب مكرم وإما ليس كذلك ، فالأول : البعيدُ المطرود ، والثاني المقبولُ التام الكامل ، والثالثُ لا يصدُق عليه أنه كالأول فإنه لم يَرد هديته ، بل التفت إليه وقبل منه ، لكن لما لم يثب صار كأنهُ غير مقبول منه فصدق عليه أنه لم يقبل منه[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :« من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ». رواه أبو داود[(٢)] . وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، عن أبي هريرة : « من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[(٣)] .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٩/٦ ، ٣٠ .

(٢) سنن أبي داود (٣٩٠٤) وفيه : حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد ح وثنا مسدد ثنا يحيى عن حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبي تميمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من أتى كاهناً ـ قال موسى في حديثه ــ فصدقه بما يقول ثم اتفقا أو أتى امرأة ـ قال مسدد ـ امرأته حائضاً أو أتى امرأة ـ قال مسدد ــ امرأته في دبرها فقد برئ مما أنزل الله على محمد ». قال الألباني : صحيح .

(٣) المستدرك على الصحيحين (١٥) قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرطهما .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(مَن أتى عرافًا أو كاهنًا) وهو من يُخبر عما يحدث أو عن شيء غائبٍ أو عن طالع أحد بسعدٍ أو نحسٍ أو دولةٍ أو محنةٍ أو منحةٍ (فصدقهُ بما يقول فقد كَفر بما أنزل الله على محمد) من الكِتاب والسُّنة وصرح بالعلم تجريدًا ، وأفاد بقوله : فصدقهُ أن الغرض إن سألهُ معتقدًا صدقهُ فلو فعله استهزاءً معتقدًا كذبَه فلا يلحقهُ الوعيد ، ثم إنه لا تَعارض بين ذا الخبر وما قبله ؛ لأن المراد إن مصدق الكاهن إن اعتقد أنه يعلمُ الغيبَ كفر ، وإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعتهُ من الملائكة وأنه بإلهامٍ فصدقه من هذه الجهة لا يكفر . قال الراغب : العرافة مختصةٌ بالأمورِ الماضية والكهانة بالحادثةِ ، وكان ذلك في العرب كثيراً وآخر من روى عنه الأخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب[١] .

ولأبي يعلى[٢] بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا .

وعن عمران بن حصين ﵁ مرفوعًا : «ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له ، أو سحر أو سُحر له ؛ ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». رواه البزار[٣] بإسناد جيد . ورواه الطبراني في الأوسط[٤] بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : «ومن أتى» إلى آخره .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/٣٠ .

(٢) مسند أبي يعلى (٥٤٠٨) .

(٣) مسند البزار (٣٥٧٨) . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني(٢١٩٥) .

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (٤٨٤٤) .

شرح الحديث :

قال المناوي :

لأن ذلك فعلُ الجاهلية[1] .

قال البغوي : العَرافُ : الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكانِ الضالة ، ونحو ذلك . وقيل : هو الكاهن .

والكاهن : هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العرّاف : اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم : (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق) .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/٤٩٠ .

٢٧- باب
ما جاء في النشرة .

عن جابر : **أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال : «هي من عمل الشيطان». رواه أحمد**[(١)] **بسند جيد ، وأبو داود**[(٢)] **، وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .**

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(النشرة) بضم النون وسكون شين معجمة فراء ، قال التوربشتي : ضربٌ من الرُّقية ، والعلاج يعالج بها من كان يَظن به مسُّ الجِن ، وسميت نشرةً لأنهم كانوا يَرون أنه ينشر بها الجن عن المَمسوس ما خامرهُ من الداء،وفي الحديث: فلعل طبًّا أصابه يعني سحرًا ثم نشره بـ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس:١) ، أي رقاه ونشره أيضا إذا كتب له النُشرة وهي كالتعويذ والرقية ، والمراد بالضمير البارزِ في قوله (فقال) : أي النبي ﷺ (هو من عملِ الشيطان) النوعُ الذي كان أهلُ الجاهليةِ يُعالجون به ويَعتقدون فيه ، وأما ما كان من الآياتِ القُرآنية ، والأسماء والصفاتِ الربانية ، والدعواتِ المأثورةِ النَبوية فلا بأسَ بل يُستحب سواءً كان تعويذًا أو رقيةً أو نشرةً ، وأما على لغة العَبرانية ونحوها فيمتنعُ لاحتمال الشرك فيها[(٣)].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٤١٦٧) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

(٢) سنن أبي داود (٣٨٦٨) وفيه : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا عبد الرزاق ثنا عقيل ابن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يحدث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال : «هو من عمل الشيطان». قال الألباني : صحيح .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٧٣/٨ .

وفي البخاري عن قتادة : (قلت لابن المسيب : رجل به طِب أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه أو ينشر ؟ قال : لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه) اهـ .

وروى عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر .

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان : أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان . وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور .

والثاني : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز .

٢٨- باب
ما جاء في التطير .

قول الله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(١)

(الأعراف: ١٣١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ** ﴾ أي : بالجدبِ والقحطِ لقلة الأمطار والمياه ﴿ **وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ** ﴾ بكثرةِ العاهات ، ﴿ **لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ أي : لكي ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم ، ويتعظوا ، وترق قلوبهم بالشدائد ، فيفزَعوا إلى الله ، ويرغبوا فيما عنده . ﴿ **فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ** ﴾ من الخصبِ والسعةِ والرخاءِ ، ﴿ **قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ** ﴾ أي : قالوا : هذه لنا ولسعودنا ، ونحن مستحقون له . ﴿ **وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ** ﴾ : جدب وبلاء ﴿ **يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ** ﴾ أي : يتشاءموا بهم ، ويقولون : ما أصابتنا إلا بشُؤمهم ، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة فإن الشدائد ترقق القلوب ، وتذلل العرائك أي : الطبائع ، وتزيل التماسك ، سيما بعد مشاهدةِ الآيات ، وهي لم تؤثر فيهم ، بل زادوا عندها عتوًّا وانهماكًا في الغي . ﴿ **أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ أي : سبب طائرهم وشرهم عنده ، وهو حكمه ومشيئته ، أو سبب شؤمهم عند الله ، وهو أعمالهم المكتوبة عنده ، فإنها التي

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾(الأعراف: ١٣٠، ١٣١).

ساقت إليهم ما يسوؤهم . قال ابن جزي : أي : حظهم ونصيبهم الذي قدر لهُم من الخيرِ والشر عند الله ، وهو مأخوذٌ من زجر الطير ، ثم سمى به ما يُصيب الإنسان ، ومقصود الآية : الردُّ عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم . ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن ما يُصيبهم من الله تعالى بلا واسطة ، أو من شؤم أعمالهم .

الإشارة : هذه الخصلة جارية أيضًا في هذه الأمة ، أعني التطاير ، ترى العوام إذا نزل بهم بلاءٌ أو شدةٌ قالوا : بظهورِ هؤلاء وقع بنا ما وقع ، ولقد سمعتُ ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقتَ ابتداء ظهورِ الفقراء ، وذلك أنهم آذوهم أذى شديدًا ، فأرسل الله عليهم كثرةَ الأمطار كادت أَن تكون طوفانًا ، فقالوا : ما أصابنا هذا إلا من شُؤم هذه المُرقعات التي ظهرت ، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذايتهم أهل الله . والله تعالى أعلم[1] .

وقوله : ﴿ **قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ** ﴾ (يس:١٩) [2] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ** ﴾ تشاءمنا بكم . وذلك أنهم كَرهوا دينهم ، ونَفَرت منه نُفوسهم . وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكلِ شيء مالوا إليه ، وقَبِلته طباعُهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه ، وكرهوه ، فإن أصابهُم بلاءٌ ، أو نعمةٌ ، قالوا : بشؤم هذا ، وبركة ذلك . وقيل : حُبس عنهم المطر ، فقالوا ذلك . وقيل : ظَهر فيهم الجذام ، وقيل : اختلفت كلماتهم . ثم قالوا لهم : ﴿ **لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ** ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿ **لَنَرْجُمَنَّكُمْ** ﴾ لنقتلنكم بالحجارة ، أو : لنطردنّكم ، أو : لنشتمنكم ، ﴿ **وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ وليصيبنّكم منا

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ **قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾ (يس:١٨-١٩).

عذاب الحريق ، وهو أشدُ العذاب . ﴿ قَالُواْ ﴾ أي : الرسل ﴿ طَٰٓئِرُكُم ﴾ سببُ شؤمكم ﴿ مَّعَكُمۡ ﴾ وهو الكفر ، ﴿ أَئِن ذُكِّرۡتُم ﴾ أي : وعظتم ، ودُعيتم إلى الإسلام تطيرتم ، وقلتم ما قلتم ، ﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ مجاوزون الحد في العصيان ، فمن ثَمّ أتاكم الشؤم ، لا من قِبل الرسل . أو : بل أنتم قومٌ مسرفون في ضلالكم وغيكم ، حيث تَتشاءمون بمن يجبُ التبرّك به من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا عَدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه[2]. زاد مسلم : «ولا نوء ولا غول»[3].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لا عدوى) بفتح فسكون ففتح ، وفي القاموس أنه الفساد ، وقال التوربشتي : العدوى هنا مُجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره . يقال أعدى فلانٌ فلانًا من خلقه أو من غرته ، وذلك على ما يذهب إليه المتطببة في علل سبع الجذام والجرب والجدري والحصبة والبُخور والرمد والأمراض الوبائية ، وقد اختلف العلماء في التأويل ، فمنهم من يقول : المراد منه نفي ذلك وإبطاله على ما يدل عليه ظاهر الحديث والقرائن المنسوقة على العدوى وهم الأكثرون ، ومنهم من يرى أنه لم يرد إبطالها ، فقد قال ﷺ :« فر من المَجذوم فرارك من الأسَد »[4]، وقال : « لا يوردن ذو عاهةٍ على مصح »[5]، وإنما أراد بذلك نفي ما كان يعتقده أصحابُ الطبيعة ، فإنهم كانوا يرون العللَ المُعدية مؤثرة لا محالة ، فأعلمهم بقوله هذا إن ليس الأمر على ما يتَوهمون ، بل هو متعلقٌ بالمشيئة

---

(١) تفسير البحر المديد ١٤٢/٦ .

(٢) في صحيح البخاري (٥٧٠٧) : وفر من المجذوم كما تفر من الأسد .

(٣،٤) صحيح البخاري (٥٧١٧)(٥٧٧٠)(٥٧٧٣) ، صحيح مسلم (٢٢٢٠)(٢٢٢٢).

(٥) صحيح البخاري (٥٧٧١)(٥٧٧٥) ، صحيح مسلم (٢٢٢١) .

(إن شاء كان ، وإن لم يشأ لم يكن) . ويشير إلى هذا المعنى قوله : (فمن أعدى الأول)[1] أي إن كنتم تَرون أن السبب في ذلك العدوى لا غير ، فمن أعدى الأول ، وبين بقوله : (فر من المجذوم) وبقوله : (لا يوردن ذو عاهةٍ على مصح)[2]. إن مداناة ذلك من أسباب العلة ، فليتقه اتقاءه من الجدارِ المائل والسفينة المَعيوبة . وقد رد الفرقة الأولى على الثانية على استدلالِهم بالحديثين أن النهي فيهما إنما جاء مشفقًا على مباشرةِ أحدِ الأمرين فتصيبُه علةٌ في نفسه أو عاهةٌ في إبله ، فيعتقد أن العدوى حق . قلت : وقد اختاره العسقلاني في شرح النخبة ، وبسطنا الكلام معه في شرح الحديث ، ومجمله أنه يرد عليه اجتنابه عليه السلام عن المجذوم عند إرادة المُبايعة مع أن منصب النُبوة بعيدٌ من أن يوردَ لحسمِ مادة ظن العدوى ، كلامًا يكون مادة لظنها أيضًا ، فإن الأمر بالتجنبِ أظهرُ من فتح مادة ظن أن العدوى لها تأثير بالطبع ، وعلى كل تقدير فلا دلالةَ أصلاً على نفي العدوى مبينا والله أعلم . قال الشيخ التوربشتي : وأرى القول الثاني أولى التأويلين لما فيه من التوفيق بين الأحاديث الواردة فيه ، ثم لأن القول الأول يُفضي إلى تعطيل الأصول الطبية. ولم يرد الشرع بتعطيلها، بل ورد بإثباتها ، والعبرة بها على الوجه الذي ذكرناه ، وأما استدلالهم بالقرائن المنسوقة عليها ، فأَنَّا قد وجدنا الشارعَ يجمع في النهي بين ما هو حرام وبين ما هو مكروه ، وبين ما ينهى عنه لمعنى وبين ما ينهى عنه لمعانٍ كثيرة ، ويدل على صحة ما ذكرنا قوله ﷺ للمجذوم المبايع : « قد بايَعناك فارجع »[3]، في حديث الشريد بن سويد الثقفي ، وهو مذكور بعد . وقوله ﷺ للمجذوم الذي أخذ بيده فوضعها معه في القصعة « كل ثقةً بالله وتوكلاً عليه »[4] ولا سبيل إلى التوفيق بين هذين الحديثين إلا من هذا الوجه بين بالأول التوقي من أسباب

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٧٠) ، صحيح مسلم (٢٢٢٠) .
(٢) تقدم تخريجه ص ٢٥٥ .
(٣) سنن النسائي الكبرى (٧٣١٤). سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١٩٦٨).
(٤) سنن ابن ماجه (٣٥٣٢) قال الألباني : ضعيف .

التلف ، وبالثاني التوكل على الله ـ جل جلاله ولا إله غيره ـ في متاركةِ الأسباب وهـو حالـه . اهـ . وهـو جمعٌ حسنٌ فـي غايـة التحقيق والله ولـي التوفيق .
(ولا طيرة) نفى معناه النهي كقوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢) على وجه
(ولا هامة) بتخفيفِ الميم في الأصول المُعتمدة والنسخ المصححة ، وهي اسم طيرٍ يتشاءم به الناس ، وهي الصدى ، وهو طيرٌ كبيرٌ يضعفُ بَصره بالنهار ويطير بالليل ، ويصوت ويسكن الخراب ، ويقال : (له بوم) ، وقيل : كوف ، وكانت العرب تزعُم أن عِظام الميتِ إذا بليت وعدمت تصير هامةً وتخرجُ من القبرِ وتَتَردد وتـأتـي بأخبارِ أهله ، وقـيـل : كانت تزعُم أن روحَ القتيل الـذي لا يُدرك بثأرِه تصيرُ هامةً فتقول : (اسقوني اسقوني) فإذا أدركَ بثأرِه طارت ، فأبطل ﷺ هذا الاعتقاد . قال أبو داود في سننه قال بقية : سألت محمد بن راشد عن قوله : (لا هامة) فقال : كان أهل الجاهلية يقولون : (ليس أحد يموت فيُدفن إلا خرج من قبره هامة) وقال النووي: هي بتخفيف الميم على المشهور، وقيل بتشديدها وفيها تأويلان أحدهما أن العرب كانت تَتشاءم بها ، وهي من طير الليل ، وقيل : هي البومة . قالوا : (كانت إذا سقطت على دار أحدهِم يراها ناعيةً له نفسهُ أو بعض أهله) وهو تفسير مالك بن أنس ، وثانيهما كانت العرب تزعم أن عظام الميت ، وقيل : (روحه تنقلب هامة تطير) ، وهذا تفسير أكثر العلماء وهو المشهور ، ويجوز أن يكون المراد النوعين معًا ، فإنهما باطلان .
(ولا صفر) قال شارح : كانت العرب يزعمون : (إنه حية في البطن ، واللدغ الذي يجده الإنسان عند جوعه من عضه) قال أبو داود في سننه قال بقية : سألت محمد بن راشد عنه ، قال : (كانوا يتشاءمون بدخول صفر) ، فـقــال النبي ﷺ : (لا صفر) . قال : وسمعت من يقول : هو وجعٌ يأخذُ في البطن يزعُمون أنه يعدي ، قال أبو داود وقال مالك : (كان أهل الجاهلية يحلون صفرًا عامًا ويحرُمونه عامًا) فقال ﷺ : (لا صفر) . قال النووي : قيل كانت العرب تعتقدُ أن في البطن دابةً تهيجُ عند الجوع وربما قتلت صاحبها ، وكانت

العرب تراها أعدى من الجرب ، وهذا التفسير هو الصحيح ، وبه قال مطرفٌ وابن عبيد وغيرهم ، وقد ذكرهُ مسلمٌ عن جابر بن عبد الله راوي الحديث ، فتعين اعتماده . قلت : الأظهر الجمع بين المعاني ، فإنها كلها باطلة كما سبق نظيره . قال القاضي : ويحتمل أن يكون نفيًا لما يتوهم أن شهر صفرٍ تكثُر فيه الدواهي والفتن ، (وفر) بكسر الفاء وتشديد الراء المفتوحة ، ويجوز كسرها أي اشرد ، وبالغ في الاجتناب والاحتراز (من المجذوم) أي الذي به جذام بضم أوله ، وهو تشققُ الجلد وتقطُع اللحم وتساقطه ، والفعل منه جذم على بناء المفعول (كما تفر من الأسد) ، وقد تقدم أن هذا رخصة للضعفاء ، وتركه جائزٌ للأقوياء بناءً على أن الجذام من الأمراض المعدية فيعدي بإذن الله ، فيحصل منه ضرر ، ومعنى لا عدوى نفي ما كانوا عليه من أن المرض يعدي بطبعه لا بفعله سبحانه ، ولعل تخصيص المجذوم لأنه أشد تأثيرًا من العلل المُعدية ، ويؤيده ما رواه ابن عدي عن ابن عمر مرفوعًا : « إن كان شيء من الداءِ يُعدي فهو هذا يعني الجذام »[1]. (ولا نوء) بفتح فسكون أي طلوعِ نجمٍ وغروبِ ما يقابلهُ ، أحدهُما في المشرق والآخر بالمغرب ، وكانوا يعتقدونَ أنه لا بد عنده من مطرٍ أو ريحٍ ينسُبونه إلى الطالعِ أو الغالبِ ، فنفى ﷺ صحة ذلك ، وقال شارح : النوء سقوط نجمٍ من منازلِ القمر مع طلوع الصبح ، وهي ثمانية وعشرون نجمًا يسقط في كل ثلاث عشرة ليلة نجم منها في المغرب مع طلوعِ الفجر ، ويطلع آخر مقابله في المشرق من ساعته . في النهاية : الأنواء منازلُ القمر ، وكانت العرب تزعم أن عند كل نوءٍ مطرًا وينسبونه إليه ، فيقولون : (مطرنا بنوء كذا) ، وإنما سُمي نوءٌ لأنه إذا سقط الساقطُ منها بالمغربِ ، فالطالع بالمشرق ينوء نوءًا أي ينهض ويطلع ، وقيل : أراد بالنوء الغروب وهو من الأضداد . قال أبو عبيد : لم يسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع ، وإنما غلظ النبي ﷺ في أمر الأنواء لأن العرب كانت تنسُب

---

(١) ضعيف . سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١١٤٠) .

المطر إليها ، فأما من جعل المطر من فعل الله : وأراد بقوله : (مطرنا بنوء كذا) أي في وقت كذا ، وهو هذا النوء الفُلاني ، فإن ذلك جائزٌ أي أن الله تعالى قد أجرى العادة أن يأتي المطرُ في هذه الأوقات . ذكره الطيبي . والأظهر أن النهي على إطلاقه حسمًا لمادة فساد الاعتقاد ، ولأنه لم يَرد ما يدلُ على جوازهِ ، وحاصل المعنى لا تقولوا : (مطرنا بنوء كذا ، بل قولوا : مطرنا بفضل الله تعالى . . .) .

(ولا غول) بالضم . قال شارح : الغول بالفتح المصدر ، ومعناه البعد والإهلاك ، وبضم الغين الاسم منه ، وهو من السعالى . وفي النهاية : إن الغول أحد الغيلان ، وهي جنسٌ من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس أي فتتغول تغولاً أي تتلون في صورٍ شتى ، وتغولهم أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبي ﷺ وقيل قوله : لا غول ليس نفيًا لعين الغول ووجودهِ ، وإنما فيه إبطال زعم العرب في تلونه بالصور المختلفة واغتياله ، فيكون المعنى بقوله : (لا غول) إنها لا تستطيع أن تضلِ أحدًا ، ويشهد له الحديث الآخر (لا غول) ، ولكن السعالى ، والسعالى سحرةُ الجن أي ولكن في الجنة سحرة لهم تلبيس وتخييل ، ومنه الحديث : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان »(١) أي ادفعوا شرها بذكرِ الله تعالى ، وهذا يدل على ثبوتها لا عدمها ، ومنه حديث أبي أيوب (كان لي ثمرة في سهوةٍ ، فكانت

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٤٣١٦) وفيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا محمد بن سلمة عن هشام عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « إذا سرتم في الخصب فأمكنوا الركاب أسنانها ولا تجاوزوا المنازل ، وإذا سرتم في الجدب فاستجدوا وعليكم بالدلج ، فإن الأرض تطوى بالليل ، وإذا تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان ، وإياكم والصلاة على جواد الطريق والنزول عليها ، فإنها مأوى الحيات والسباع وقضاء الحاجة فإنها الملاعن ». قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره دون قوله : « وإذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » ورجاله ثقات رجال الصحيح لكن الحسن البصري لم يسمع من جابر .

الغول تجيء فتأخذه) ، وفي شرح التوربشتي قال الطحاوي : يحتمل أن الغول قد كان ، ثم رفعهُ الله تعالى عن عباده ، وعن بعضهم هذا ليس ببعيدٍ لأنه يحتمل أنه من خصائص بعثةِ نبينا ﷺ ونظيره منعُ الشياطين من استراق السمع بالشهاب الثاقب ، قلت : ثبت العرش ثم انقش ، فإن الأمر لا يثبت بالقياس ولا بالاحتمال والله أعلم بالحال . قال الطيبي : إن لا التي لنفي الجنس دخلت على المذكورات ونفث ذواتها وهي غيره منفية ، فتوجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي هي مخالفة للشرعِ ، فإن العدوى وصفر والهامة والنوء موجودة ، والمنفي هو ما زعمت الجاهليةُ إثباتها ، فإن نفي الذات لإرادة نفي الصفات أبلغ لأنه من باب الكناية ، وقريب منه قوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة:١٣٢) فنهاهم عن الموت ، وهو ليس بمقدورهم ، فالمنهي هو حالة إذا أدركهم الموت لم يجدهم عليه ، وهي أن يكونوا على غيرِ ملة الإسلام ، فالوجه ما ذهبَ إليه صاحبُ النهاية من الوجه الثاني واختاره الشيخ التوربشتي[(١)] .

ولهما[(٢)] عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة» .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(الفأل) بالهمز وأكثر استعماله بالإبدال ، وفي النهاية : الفأل مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استُعملت فيما يسر . وفي القاموس : الفأل ضد الطيرة ، كأن يسمع مريض يا سالم أو طالب يا واجد ، ويستعمل في الخير والشر ، والطيرة

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/٣٩٣-٣٩٦ .

(٢) صحيح البخاري (٥٧٥٦)(٥٧٧٦) ، صحيح مسلم (٢٢٢٤) .

ما يتشاءم به من الفأل الرديء قلت : المُستفاد من القاموس أن الفأل مختصٌّ بالخيرِ وقد يُستعمل في الشر ، والطيرة لا تستعمل إلا في الشر ، فهما ضدان في أصل الوضع ، والمفهوم من النهاية أن الفأل أعم من الطيرة في أصل الوضع ومترادفان في بعض الاستعمال ، والمفهوم من الأحاديث أن الطيرةَ أعم من الفأل منها ظاهر قوله ﷺ كما سيأتي : «لاطيرة وخيرها الفأل»[1] ، ومما يدل على أنها أعم أيضًا مأخذ اشتقاقه من أن الطيرة مصدر تطير ، يقال تطير طيرةً وتخير خيرةً ، ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما ، وأصله فيما يقال : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدُهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشرعُ وأبطله ونهاهم عنه وأخبر أنه ليس له تأثيرٌ في جلب نفع أو دفع ضر ، كذا ذكره في النهاية . وقال شارح : لا يجوزُ العملُ بالطيرةِ وهي التفاؤل بالطير ، والتشاؤم بها . كانوا يجعلون العبرةَ في ذلك تارة بالأسماء ، وتارة بالأصوات ، وتارة بالسنوح والبروح ، وكانوا يُهيجونها من أماكنها لذلك ، ثم البارح هو الصيد الذي يمر على ميامنك إلى مياسرك ، والسانح عكس ذلك ، وهذا ما ظهر لي في هذا المقام من التحقيق والله ولي التوفيق . وقال الطيبي :

الفرق بين الفأل والطيرة يفهم مما روى أنس مرفوعًا أنه قال : «لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : كلمةٌ طيبه»، قلت وما أحسن هذا المقال حيث نفى الطيرة بعمومها ، واختار فردًا خاصًّا من أحد نوعيها وهي (الكلمة الطيبة)[2].

ولأبي داود[3] بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : «أحسنها الفأل ، ولا تَرد مسلمًا ؛ فإذا رأى

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/٣٩٢-٣٩٣ .

(٣) سنن أبي داود (٣٩١٩) . قال الألباني : ضعيف .

أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعن ابن مسعود مرفوعًا : «الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، وما منّا إلا ، ولكن الله يُذهبه بالتوكل». رواه أبو داود[1] والترمذي[2] وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(الطيرة شرك) أي لاعتقادهم أن الطيرة تجلب لهم نفعًا أو تدفعُ عنهم ضرًّا ، فإذا عملوا بموجبها فكأنهم أشركوا بالله في ذلك ، ويسمى شركًا خفيًّا ، وقال شارح : يعني من اعتقدَ أن شيئًا سوى الله ينفع أو يضر بالاستقلال فقد أشرك أي شركًا جليًّا ، وقال القاضي : إنما سماها شركًا لأنهم كانوا يرون ما يتشاءمون به سببًا مؤثرًا في حصول المكروه ، وملاحظة الأسباب في الجملة شركٌ خفي ، فكيف إذا انضمَ إليها جهالة وسوء اعتقاد (ثلاثًا) مبالغةً في الزجر

---

(١) سنن أبي داود (٣٩١٠) وفيه : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عيسى بن عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : «الطيرة شرك ثلاثاً وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل». قال الألباني : صحيح

(٢) سنن الترمذي (١٦١٤) وفيه : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عيسى بن عاصم عن زر عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الطيرة من الشرك وما منا ولكن الله يذهبه بالتوكل». قال : وهذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة ابن كهيل وروى شعبة أيضاً عن سلمة هذا الحديث قال : سمعت محمد بن إسماعيل يقول : كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث : وما منا ولكن الله يذهبه بالتوكل قال سليمان : هذا عندي قول عبد الله بن مسعود وما منا . قال الألباني : صحيح .

عنها ، (وما منا) أي أحد (إلا) أي إلا من يخطر له من جهة الطيرة شيء ما لتعود النفوس بها ، فحذف المستثنى كراهة أن يتفوه به . قال التوربشتي : أي إلا من يعرض له الوهم من قبل الطيرة ، وكره أن يتم كلامه ذلك لما يتضمنهُ من الحالة المكروهة ، وهذا نوعٌ من أدبِ الكلام يكتفي دون المكروه منه بالإشارة فلا يضرب لنفسه مثل السوء ، (ولكن الله) الرواية بتشديد النون ونصب الجلالة ، ويجوز تخفيفه ورفعها (يذهبه) بضم الياء من الإذهاب على ما في الأصول المعتمدة ، والنسخ المصححة أي يزيل ذلك الوهم المكروه (بالتوكل) أي بسبب الاعتماد عليه ، والاستناد إليه سبحانه . وحاصله أن الخطرة ليس بها عبرة ، فإن وقعت غفلة لا بد من رجعةٍ وأوبةٍ من حوبة ، كما ورد عنه من حديث عبد الله بن عمرو برواية أحمد والطبراني وفيه : «مَن ردته الطيرة من حاجة فقد أشَرك وكفارة ذلك أن يقول اللهم لا خَير إلا خيرك ولا طَير إلا طيرك ولا إله غَيرك»[1]، وأغرب الطيبي في اشتغاله بالمبنى وغفلتهِ عن المعنى فقال : في قوله يذهبه بالتوكل جاء بفتح الياء وضمها ، وعلى الثاني اجتمع فيه حرفا التعدية للتأكيد ، والمراد بالإذهاب ما يخطر في قلبِ المؤمن من لمة الملك المذهبة للمة الشيطان . اهـ . وفيه أبحاث ثلاثة أما الأول فقوله : بفتح الياء غير صحيح لأنه يصير فعلاً لازمًا ، وقد اجتمعت النسخ على وجود الضمير البارز ، وعلى تقدير عدمه يختل المعنى إذ يصير التقدير ولكن الله يذهب ، وفساده لا يخفى ، وأما الثاني فقوله : بضم الياء أي مع كسر الهاء صحيح لكن قوله : اجتمع فيه حرفا التعدية للتأكيد غلط صريح ، فإن الباء للسببية لا للتعدية ، وإلا لفسد المعنى لأنه يصير مآل الكلام ، لكن الله يُزيل التوكل ، وفساده ظاهر لا سيما مع الاستدراك ، فإنه وهم باهر وأما الثالث فقوله : والمراد بالإذهاب ما يخطر في قلب المؤمن من لمة الملك المذهبة للمة الشيطان ، فإنه مع عدم صحة الحمل ، وكونه مناقضًا لكلامه السابق

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

المفهوم منه « إن التوكل هو المذهب» بسبب الهمزة ، وباء التعـديـة مقلــوب ، المعنى هنا لأن الصواب أن يقال : المراد بالضمير البارز أو بالمذهب ما يخطـر في قلب المؤمن من لمة الشيطان المذهبة للمة الملك لأنهما لا يجتمعـان . والله أعلم بالصواب[1].

ولأحمد[2] من حديث ابن عمرو : «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(من ردتهُ الطيرة عن حاجته فقد أشرك) بالله تعالى ، لاعتقاده أن لله شريكًا في تقدير الخير والشر ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ وهذا وارد على منهج الزجر والتهويل . . . فينبغي لمن طرقته الطيرة أن يسألَ الله تعالى الخير ويستعيذ به من الشر ويمضي في حاجته متوكلاً عليه[3].

ولـه مـن حديث الفضـل بـن عباس رضي الله عنه : «إنـمـا الطيرة ما أمضاك أو ردك»[4].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/٣٩٨-٣٩٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد(٧٠٤٥) . قال شعيب الأرناؤوط : حسن .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦/١٧٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد(١٨٢٤) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

٢٩- باب
ما جاء في التنجيم .

قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يهتدي بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . انتهى .

وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما .

ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم». رواه أحمد[١] وابن حبان[٢] في صحيحه .

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٩٥٨٧) . قال شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٢) صحيح ابن حبان(٦١٣٧) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

٣٠- باب
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء .

قول الله تعالى : ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة:٨٢) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾** بمساقطها ومغاربها . وقرأ الأخَوان[(٢)] « بموقع » على الإفراد ، وتخصيصها بالقَسَم لِمَا في غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، أو : لأنّ ذلك وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه تعالى ، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليها ، واستعظم ذلك بقوله : **﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾** وهو اعتراض في اعتراض ، لأنه اعتراض بين القسم والمقسَم عليه بقوله : **﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴾** أي : حسن مرضيّ ، أو نفّاع جمّ المنافع ؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد ، أو : كريم على الله تعالى ، واعترض بين الموصوف وصفته بـ **﴿ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ ﴾** وجواب **﴿ لَّوۡ ﴾** متروك ، أريد به نفي علمهم ، أو : محذوف ، ثقةً ، والتقدير : وإنه لقسم لو تعلمون ذلك ، لكن لا تعلمون كُنه ذلك ، أو : لو تعلمون ذلك لعظمتموه ، أو : لعملتم بموجبه ،

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾** (الواقعة:٧٥-٨٢) .

(٢) قال محققه : هما حمزة والكسائي .

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ مَصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه مَن سواهم ، وهو اللوح المحفوظ . ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أي : الملائكة المنزّهون عن الكدرات الجسمانية ، وأوضار الذنوب . هذا إن جعلته صفة لكتاب مكنون ، وهو اللوح ، وإن جعلته صفة للقرآن ؛ فالمعنى : لا ينبغي أن يمسّه إلاَّ مَن هو على الطهارة مِن الناس ، والمراد : المكتوب منه . قال ابن جزي : فإن قلنا إنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة ، فالمطهَّرون يُراد به الملائكة ؛ لأنهم مُطهَّرون من الذنوب والعيوب ، وإن قلنا إنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس ؛ فيحتمل أن يريد بالمطهرين : المسلمين ؛ لأنهم مُطَهرون من الكفر ، أو يريد : المطهرين من الحدث الأكبر ، وهو الجنابة والحيض ، فالطهارة على هذا : الاغتسال . أو : المطهرين من الحدث الأصغر ، فالطهارة على هذا : الوضوء ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ خبرًا أو نهيًا ، على أنه قد أنكر بعضهم أن يكون نهيًا ، وقال : لو كان نهيًا لكان بفتح السين . والتحقيق : أن النهي يصح مع ضم السين ؛ لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزومًا واتصل به ضمير المفرد المذكر ضُم عند التقاء الساكنين ، اتباعًا لحركة الضمير ، وإذا جعلته خبر ؛ فيحتمل أن يُراد به مجرد الإخبار ، أو : يكون خبرًا بمعنى النهي ، وإذا كان لمجرد الإخبار ، فالمعنى : لا ينبغي أن يمسه إلاَّ المطهرون ، أي : هذا حقه ، وإن وقع خلاف ذلك . واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مَسّ المصحف على حسب الاحتمالات في الآية ، فأجمعوا على أنه لا يمسه كافر ، واختلفوا فيما سواه على أقوال ؛ فقال بعضهم : لا يجوز أن يمسه الجُنب ولا الحائض ولا المحدِث الحدثَ الأصغر ، وهذا قول مالك وأصحابه ، ومَنعوا أيضًا أن يحمله بعلاقة أو وسادة ، وحجتهم : الآية ، على أن يُراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر ، وقد احتج مالك في الموطأ بالآية ، ومن حجتهم أيضًا : كتاب رسول الله ﷺ

إلى عَمرو بن حزم ألاَّ يمسّ القرآن إلا طاهرٌ . القول الثاني : أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدِث حدثًا أصغر ، وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية ، وحملوا «المطهرين» على أنهم المسلمون أو الملائكة . والقول الثالث : أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر ، وحمل صاحب هذا القول «المطهرين» على أن يُراد من الحدث : الأكبر ، ورخّص مالك في مسِّه على غير وضوء لمُعلِّم الصبيان ؛ لأجل المشقة . واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن ، فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقًا ، وأجازه الظاهرية مطلقًا ، وأجاز مالك قراءة الآيات اليسيرة ، أي : لتعوُّذ ونحوه . واختلفوا في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظاهر قلب ، فعن مالك روايتان ، وفرّق بعضهم بين الكثير واليسير اهـ . قلت : المشهور في الحائض والنفساء جواز القراءة مطلقًا . وقال الكواشي عن ابن عطاء : لا يفهم إشارات القراءة إلاَّ مَن طَهّر سره من الأكوان . اهـ . وفي آخر البخاري ؛ «لا يمسه» : لا يجد طعمه ونَفْعَه إلاَّ مَن آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلاَّ المؤمنُ لقوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ (الجمعة:٥) . اهـ ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ : صفة رابعة للقرآن ، أي : نزل من رب العالمين ، وُصف بالمصدر ؛ لأنه نزل منجّمًا من بين سائر الكتب ، فكأنه في نفسه تنزيل ، ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ ﴾ أي : القرآن ﴿ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴾ متهاونون به ، كمَن يُدهن في بعض الأمر ، أي : يلين جانبه ، فلا يتصلّب فيه تهاونًا به . قال ابن عطية : قال ابن عباس : المداهنة هي المهاودة فيما لا يحل ، والمداراة : المهادوة فيما يحل . اهـ . ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أي : وضعتم التكذيب موضع الشكر . وفي قراءة علي رضي الله عنه ، وهي مروية عن رسول الله ﷺ : (وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون) أي : وتجعلون شكركم لنعمة القرآن التكذيب . وقيل : نزلت في الأنواء ونسبة الأمطار إليها ، أي : وتجعلون شكر ما رزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون كونه من الله ، حيث

تنسبونه إلى النجوم ، وتقولون : مُطرنا بنوء كذا ، والمنهي إنما هو اعتقاد التأثير للنجوم ، لا من باب العلامة وقيل : مطلقًا ، سدًّا للذريعة ، وهو مقتضى كلام ابن رشد ، وعزاه لسحنون . والمسألة خلافية ، وقد قال ﷺ : « إذا ذُكرت النجوم فأمْسِكوا »[1] ، ومنهم مَن فصّل في المسألة ، فقال : يجوز إضافة الأفعال السيئة إليها لقوله ﷺ : « تعوّذوا بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب ، وأشار إلى القمر »[2] ، وأم الحسنة فالشكر يقتضي إضافتها إلى الله ، وكذا الأدب . والله تعالى أعلم .

الإشارة : مواقع النجوم هي أسرار العارفين ؛ لأنه يغرق في بحارها كل ما سوى الله ، وتغيب فيها نجوم العلم العقلي والنقلي ، وأقمار التوحيد البرهاني ؛ لأنه إذا أشرقت في قلوبهم شمس العرفان ، لم يبقَ لنور النجوم والقمر أثر ، وقد قلت في قصيدتي العينية :

تبدّت لنا شمسُ النهار وأشرقتْ ... فلم يَبق ضوءُ النجمِ والشمس طالعُ .

قال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن الفاسي : كنتُ أعرف أربعة عشر علمًا ، فلما تعلمتُ علم الحقيقة شرطت ذلك كله . اهـ . يعني : وقع الاستغناء عنها ، فالكنز الذي ظفر به من العلم بالله ، على نعت العيان ، فلم يبقَ للروح التفات إلى شيء قط . « ماذا فقد من وجدك » ؟ وليس المراد أنها ذهبت معرفتها عنه ، بل لو رجع إليها لوجدها تشحرت واتسعت أمدادها ، ولكن ظفر بعلم يُعد الاشتغال بغيره بطالة ، كما قال الغزالي لابن العربي المعافري : كنتَ الصاحِبَ في زمن البطالة ، يعني : قبل ملاقاته بالشيخ . وإنما كان القسم

---

(١) معجم الطبراني الكبير(١٤٢٧) وفيه : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الدمشقي ، ثنا إسحاق بن إبراهيم ، ثنا يزيد بن ربيعة ، ثنا أبو الأشعث عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، و إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، و إذا ذكر القدر فأمسكوا . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣٤) .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٦٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

به عظيمًا ؛ لأنه ليس عند الله أعظم من قلوب الواصلين وأسرار العارفين ، لأنها وسعت الرب تعالى علمًا وتجليًا ، «لم يسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1]. فالقَسم عظيم ، والمُقسَم به أعظم ، والمُقسَم عليه أعظم ، وهو القرآن الكريم ، ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال الجنيد : لا يمسّه إلاّ العارفون بالله ، المطهرون سرهم عما سوى الله . اهـ . أي : لا يمس أبكار حقائقه ودقائق إشارته إلاّ القلوب المطهَّرة من الأكدار والأغيار ، وهي قلوب العارفين : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على سيد المرسلين ، ثم غرفت أسرارَه قلوبُ خلفائه العارفين . أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . قال القشيري : أي : أنتم تتهاونون في قبول مثل هذا الكلام الحق ، وتعجبون من مثل هذه الحقيقيات والتدقيقات . اهـ . والعتاب لمَن يتهاون بعلم الإشارة ويُنكرها . ويتنكّب مطالعتها . وتجعلون شكر رزقكم إياها ـ حيث استخرجها بواسطة قلوب العارفين ـ التكذيب بها والإنكار على أربابها[2].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب[3]، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة». وقال : «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب». رواه مسلم[4].

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥١٠٣) : لا أصل له . . . ويغني عن حديث الترجمة ـ في معناه الذي فسره به ابن تيمية ـ قوله ﷺ : « إن لله تعالى آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها » . أخرجه الطبراني وغيره بسند حسن ؛ كما بينته في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٩١) .

(٢) تفسير البحر المديد ٧/٣٠٠-٣٠٣ .

(٣) لفظ مسلم : الفخر في الأحساب .

(٤) صحيح مسلم (٩٣٤) .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(أربعٌ في أمتي من أمرِ الجاهلية) أي من أفعال أهلها : يعني أنها معاصي يأتونها مع اعتقاد حُرمتها . والجاهلية : ما قبل البعثة . سموا به لفرطِ جهلهم (لا يتركونهُن) أي لا تترك أمتي شيئًا من تلك الخِصال الأربع . قال الطيبي : قوله في أمتي : خبر لأربع : أي خصال أربع كائنة في أمتي ومن أمر الجاهلية ، ولا يتركونهن : حالان من الضمير المتحول إلى الجار والمجرور . وهذا خرج مخرج الذم والتعييب لها ، فأولها (الفخر في الأحساب) أي الشرف بالآباء والتعاظُم بعدّ مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم ، وذلك جهلٌ ، فلا فخر إلا بالطاعة ، ولا عز لأحدٍ إلا بالله . والأحساب جمع حسب وهو ما يعدهُ المرء من الخصال له أو لآبائه من نحو شجاعة ، وفصاحة ، والثاني (الطعنُ في الأنساب) أي الوقوع فيها بنحو ذم وعيب: بأن يقدحَ في نسب أحدٍ من الناس، فيقول ليس هو من ذريةِ فلان ، وذلك يحرمُ ، لأنه هجوم على الغيب ، ودخول فيما لا يعني ، والأنساب لا تعرف إلا من أهلها . قال ابن عربي : وهذا أمر ينشأ من النفاسة في أنه لا يريد أن يرى أحدًا كاملاً ، وذلك لنقصانهِ في نفسه ، ولا يزالُ الناس يتطاعنون في الأنساب ويتلاعنون في الأديان ويتباينون في الأخلاق قسمة العليم الخلاق ، قال : ولا أعلم نسبًا سلم من الطعن إلا نسب المصطفى ﷺ ، والثالث (الاستسقاء بالنجوم) أي اعتقاد أن نزول المطر بظهور كذا . وهو حرام ، لأنه إشراك ظاهر ، إذ لا فاعل إلا الله ، بل متى اعتقد أن للنجم تأثيرًا كفر ، قال الحراني : فالمتعلق خوفهم ورجاؤهم بالآثار الفلكية هم صابئة هذه الأمة كما أن المتعلق خوفهم ورجاؤهم بأنفسهم وغيرهم من الخلق مجوس هذه الأمة (و) الرابع (النياحة) أي رفعُ الصوت بالندبِ على الميت ، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه . قال ابن العربي : هذه من أخبارِ الغيب التي لا يعلمُها إلا الأنبياء فإنهم أخبر بما يكون قبل كونه ، فظهر

حقًّا ، فالأربع محرمات ومع حرمتها لا يتركونها هذه الأمة ـ أي أكثرهم ـ مع العلم بحرمتها[1].

ولهما[2] عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأمّا من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال : مطرنا بنوءٍ كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(صلى لنا) أي إمامًا (رسول الله صلاة الصبح بالحديبية) بالتخفيف ويشدد (على إثر سماءٍ) أي عقب مطرٍ وهو بفتح الهمزة والمثلثة ، وفي نسخة بكسر فسكون ، قال النووي : هو بكسر الهمزة وإسكان الثاء وفتحهما جميعًا لغتان مشهورتان ، والسماء المطر . اهـ . وفي القاموس خرج في أثره ، وأثره بعده ، وقال السماء معلوم ، والسحاب المطر أو المطرة الجيدة (كانت) أي كان المطر ، وتأنيثه باعتباره معنى الرحمة أو لفظ السماء ، والجملة صفة سماء وقوله : (من الليل) ظرف لها أي في بعض أجزائه وأوقاته (فلما انصرف) أي عن الصلاة (أقبل على الناس فقال : هل تَدرون ماذا) أي : أي شيء (قال ربكم) أي في هذا الوقت (قالوا : الله ورسوله أعلم قال :) أي النبي ﷺ (قال :) أي سبحانه وتعالى (أصبح) أي الشأن (من عبادي) أي بعضهم (مؤمنٌ بي) ، فمن للتبعيض وهو مبتدأ وما بعده خبره ، (وكافر) أي بي كما في نسخة يعني وبعضهم كافرٌ بي ، أو التقدير بعضهم مؤمن بي وكافر بغيري ، وبعضهم كافر بي ومؤمن بغيري ،

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/٥٩١، ٥٩٢ .

(٢) صحيح البخاري(٨٤٦) (١٠٣٨) (٤١٤٧) ، صحيح مسلم (٧١) .

وترك اكتفاء بتفصيل المجمل وهو قوله : (فأما من قال : مُطرنا بفضلِ الله ورحمته ، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا) أي بسقوطِ نجمٍ وطلوعٍ نظيرهِ على ما سبق ، (فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب) قال الطيبي : هذا تفصيلٌ للمجمل وهو قوله : مؤمن بي وكافر ، ولا بد من تقدير فيه ليطابقه المفصل ، فالتقدير مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وكافر بي ومؤمن بالكوكب ، فهو من باب الجمع مع التقسيم ، وفي الكشاف قيل نزل قوله تعالى : ﴿ **وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (الواقعة:٨٢) أي وتجعلون شكر ما رزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون كونه من الله حيث تنسِبونه إلى النجوم ، قال النووي : واختلفوا في كفر من قال :

(مطرنا بنوء كذا) على قولين : أحدهُما : هو كفر بالله سبحانه سالب لأصل الإيمان وفيه وجهان :

أحدهما : أنه من قاله معتقدًا بأن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر كزعم أهل الجاهلية فلا شك في كفره ، وهو قول الشافعي والجماهير .

وثانيهما : أنه من قال معتقدًا بأنه من الله تعالى بفضله ، وأن النوء علامةٌ له ومظنة بنزول الغيث ، فهذا لا يكفر لأنه بقوله : هذا ، كأنه قال : مطرنا في وقت كذا ، والأظهر أنه مكروهٌ كراهة تنزيه لأنه كلمة موهمة مترددة بين الكفر والإيمان فيساء الظن بصاحبها ، ولأنها شعار أهل الجاهلية .

والقول الثاني : كفرانٌ لنعمة الله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب ، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخرى : «أصبحَ من الناس شاكرا أو كافرا»[(١)] ، وفي أخرى[(٢)] : «ما أنعمتُ على عبادي من نعمةٍ إلا أصبح فريقٌ بها كافرين»[(٣)] .

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) صحيح مسلم (٧٢) .

(٣) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح ٤١١/٨ .

ولهما[1] من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة:٧٥-٨٢) .

انظر ما تقدم .

(١) لم يروه البخاري والحديث في صحيح مسلم (٧٣) وفيه : حدثني عباس بن عبد العظيم العنبري حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة وهو بن عمار حدثنا أبو زميل قال : حدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ** ﴾ حتى بلغ ﴿ **وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (الواقعة:٧٥-٨٢) .

٣١- باب

قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١٦٥) .

تقدم تفسير الآية الكريمة في باب (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله).

وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [(١)]

(التوبة:٢٤).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ ﴾** الذين بقوا على كفرهم **﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾** تـوالونهم بالمحبةِ والطاعة ، **﴿ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ ﴾** واختاروه على الإيمان . نزلت في شأنِ المهاجرين فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وبقينا ضائعين . وقيل : نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة ، فنهى الله عن موالاتهم . **﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾** بوضعهم الموالاة

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾** (التوبة:٢٣،٢٤).

في غير موضعها . ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أي : أصحابكم ، أو أقرباؤكم ، ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها ، ﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي : فوات وقت إنفاقها ، ﴿ وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾ لحُسنها وسعتها ، فإن كان ذلك ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي : من الإيمانِ بالله وصحبةِ رسوله ، ﴿ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ ، فآثرتم ذلك ، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة ، ﴿ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي : بعقوبةٍ عاجلةٍ أو آجلةٍ ، أو بنصرٍ وفتحٍ على المؤمنين ، كفتحِ مكة وغيرها ، والمراد بالمحبة : الاختيارية دون الطبيعة فإنها لا تدخل تحت التكليف ، والتحفظ عنها لأن حب الأوطان والعشائر طبيعي ، والحب المكلف به اختياري ، بحيث يجاهد نفسه في إبدال الطبيعي بالاختياري . ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ لا يُرشدهم ولا يوفقهم . وفي الآية تهديد عظيم ، وقلّ من تحفظ عنه . قاله البيضاوي .

الإشارة : الهجرةُ من أوطان الغفلةِ واجبةٌ ، ومفارقة الأصحاب والعشائر الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة ، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه ، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه ، كائنة ما كانت ، وما رأينا وليًّا قط أنتج في أي بلده ، إلا القليل ، فلما هاجر ﷺ من وطنه إلى المدينة . وحينئذ نُصر الدين ، بقيت سنةً في الأولياء ، لا تجد وليًّا يعمر سوقُه إلا في غير بلده ، ويجب عليه أيضًا أن يعتزلَ من يُشغله عن الله من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر ، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغلُ قلبه عن الله ، بعد أن يقيم في أولاده حقوق الشريعة ، فاللبيب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة ، فلا يضيعُ من يعول ، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها ، ويذكر الله مع ذلك ، فيخالطهُم بحسه ، ويفارقهم بقلبه ، فإن لم يستطع وأراد دواء قلبه فليخير الزوجة ، ويوكل من ينوب عنه في القيامِ

بحقوقِ العيال ، حتى يقوى قلبه ويتمكنٍ مع ربه ، ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ** ﴾ (الطلاق:٢،٣) ولإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه :

هَجرتُ الخلق طرًا في رضاكا وأيتمتُ البنينَ لكي أراكا .
فلو قَطعتني إربًا فإربًا لما حنّ الفُؤاد إلى سواكا .

وبالله التوفيق[1].

عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». أخرجاه[2].

شرح الحديث :

قال المناوي :

(لا يُؤمن أحدكم) لفظ رواية ابن ماجه : «أحد» أي إيمانًا كاملاً ، ونفي اسم الشيء بمعنى الكمال عنه مستفيضٌ في كلامهم ، وخُصوا بالخطاب ؛ لأنهم الموجودون إذ ذاك والحكم عام (حتى أكونَ أحبَ إليه) غاية لنفي كمالِ الإيمان ، ومن كمل إيمانُه علم أن حقيقةَ الإيمان لا تتم إلا بترجيح حبه على حب كلٍّ (من ولده ووالده) أي أصله وفرعه وإن علا أو نزل ، والمراد من له ولادة ، وقدم الولد على الوالدِ لمزيد الشفقة . وفي رواية للبخاري تقديمُ الوالد ، ووجهه أن كل أحدٍ له والد ولا عكس ، وذكر الولد والوالد أدخل في المعنى ؛ لأنهما أعز على العاقلِ من الأهلِ والمال ، بل عند البعض من نفسه ولذلك لم يذكر النفس وشمل لفظ الوالد الأم إن أريد من له ولادة أو ذات ولد ، ويحتمل أنه اكتفى بذكر أحدهما كما يكتفى من أحد الضدين بالآخر وعطف عليه من

(١) تفسير البحر المديد ٦٣/٣ ، ٦٤ .
(٢) صحيح البخاري (١٥) ، صحيح مسلم (٤٤) .

عطف العام على الخاص . قوله (والناسِ أجمعين) حبًّا اختياريًّا إيثارًا له عليه الصلاة والسلام على ما يقتضي العقلُ رجحانه من حبه احترامًا ، وإكرامًا ، وإجلالاً ، وإن كان حب غيره لنفسه وولده مركوزًا في غريزته فسقط استشكاله بأن المحبة أمر طبيعي غريزي لا يدخل الاختيار فكيف تكلف به ، إذ المراد حب الاختيار المستند إلى الإيمان كما تقرر فمعناه : لا يؤمنُ أحدكم حتى يُؤثر رضاي على هوى والديه وأولاده ، قال الكرماني : ومحبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إرادةُ طاعته وترك مخالفته ، وهو من واجبات الإسلام . والحديث من جوامعِ الكلم ، لأنه جمع فيه أصنافَ المحبة الثلاث : محبةُ الإجلال وهي محبة الأصل ، ومحبة الشفقة وهي محبة الوالد ، ومحبة المجانسة وهي محبة الناس أجمعين وشاهد صدق ذلك بذل النفس في رضا المحبوب وإيثاره على كل مصحوب . قال الإمام النووي : وفي الحديثِ تلميحٌ إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة ، فمن رجحَ جانب المُطمئنة كان حبه لنبيه راجحًا ، ومن رجح الأمّارة كان بالعكس . (تنبيه) قال الكرماني : أحب أفعل تفضيل بمعنى مفعول وهو مع كثرته على خلاف القياس ، إذ القياس أن يكون بمعنى فاعل وفصل بينه وبين معموله بقوله إليه لأن الممتنع الفصل بأجنبي مع أن الظرف يتوسع فيه[1].

ولهما[2] عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». وفي رواية : «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى . . .» إلى آخره .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥٧١/٦ ، ٥٧٢ .

(٢) صحيح البخاري (١٦)(٢١)(٦٠٤١)(٦٩٤١) ، صحيح مسلم (٤٣) .

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(ثلاثٌ) أي من خصال أو ثلاث خصالٍ أو خصالٌ ثلاث (من كنّ) أي وجدن فهي تامة ، و(فيه) ظرف لغو متعلقٌ به كذا أعربه الحافظ في الفتح ، ويجوز أن تكون كان ناقصة والظرف الخبر (وجد) من الوجدان بكسر الواو في المصدر (بهن حلاوةَ الإيمان) قال المصنف : المراد من حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين وإيثار ذلك عن أغراض الدنيا ، ومحبة العبد تحصل بفعلِ طاعته وتركِ معصيته وكذا الرسول اهـ . وقال الحافظ : فيه استعارة تخيلية ، رغبةُ المؤمن في الإيمان بشيء حلو وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه . وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : إنما عبر بالحلاوةِ لأن الله تعالى شبه الإيمان بالشجرة في قوله : ﴿ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** ﴾ (إبراهيم:٢٤) فالكلمة هي كلمة الإخلاص ، والشجرة أصل الإيمان ، وأغصانها اتباع الأوامر واجتناب النواهي ، وزهرها ما يَهم به المؤمنُ من الخير ، وثمرها عملُ الطاعات ، وحلاوة الثمر جني الشجرة وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها (أن يكون الله ورسوله أحبّ) بالنصب خبر يكون (إليه مما سواهما) قال البيضاوي : المراد بالحب هنا الحبُ العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقلُ السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس ، كالمريض يعافُ الدواء بطبعهِ فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله ، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاحٌ عاجلٌ أو خلاصٌ آجل ، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك تمرن على الائتمار بأمره حيث يصير هواه تبعًا له ويلتذ بذلك التذاذًا عقليًا ، إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمالٌ وخير من حيث هو كذلك ، وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة ، وشاهد هذا الحديث من القرآن قوله تعالى : ﴿ **قُلْ**

إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ (التوبة:٢٤) إلى أن قال : ﴿ **أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾ ثم هدد على ذلك وتوعد بقوله : ﴿ **فَتَرَبَّصُواْ** ﴾ (التوبة:٢٤). قال المصنف : إنما قال مما سواهُما ولم يقل ممن ليعم من يعقل ومن لا يعقل ، وفيه دليل على أنه لا بأس بهذهِ التثنيةِ ، وأما قوله للذي خطب فقال :(ومن يعصِهما ، فقال : بئسَ خطيبُ القومِ أنت)[(١)] فليس من هذا ، لأن المراد في الخطب الإيضاح ، وأما هنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ ، وثَمَّ أجوبة أخرى قال الحافظ في الفتح : من محاسنها أن تثنيةَ الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر المجموع المركب من الجهتين لا كل واحدةٍ منهما فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى ، وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كلاًّ من العصيان مستقل باستلزام الغواية ، إذ العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم ، ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ **أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ** ﴾ (النساء:٥٩) ، فأعاد أطيعوا في الرسول دون أولي الأمر لأنهم لا استقلال في الطاعات كاستقلال الرسول . اهـ . ملخصًا من كلام البيضاوي والطيبي . (وأن يحبَ المرءَ لا يحبهُ إلا لله) قال يحيى بن معاذ : حقيقةُ الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء (وأن يكرهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقذهُ الله منه) الإنقاذ أعم من العصمة منه ابتداءً بأن يولد على الفطرة ويستمر ، أو بالإخراج من ظُلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة ، وعلى الأول فيحمل قوله « يعود » على معنى الصيرورة بخلافِ الثاني فإن العود فيه على ظاهره ، وعدى العود بفي دون إلى لتضمنه معنى الاستقرار كأنه قيل ويستقر فيه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ** ﴾ (الأعراف:٨٩) (كما يَكره أن يُقذف في النار) الكاف في محل المفعول المطلق واستدل به على فضل من أكره على الكفر فصبرَ وترك التقية حتى قُتل.

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٠) .

قال الحافظ : وأخرجه البخاري[1] في الأدب في فضلِ الحب في الله بلفظ : (وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجعَ إلى الكُفر بعد أن أنقذه الله تعالى منه). وهو أبلغُ من لفظ حديث الباب ، لأنه سوى فيه بين الأمرين ، وهنا جعل الوقوعَ في نارِ الدنيا أولى من الكفر الذي أنقذهُ الله بالخروج منه من نارِ الآخرة . . . قال المصنف : هو[2] حديث عظيم من أصول الدين[3].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك . ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا . رواه ابن جرير .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ (البقرة:١٦٦) . **قال : «المودة» .**

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٤١) .

(٢) والذي قبله .

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢/٢١٧ ، ٢١٨.

٣٢- باب

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٧٥) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ** ﴾ وهم ركبُ عبد قيس حيث قالوا للمسلمين : ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ** ﴾ يعنى أبا سفيان ومن معه ، ﴿ **قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ** ﴾ ليرجعوا ليستأصلوكم ﴿ **فَٱخْشَوْهُمْ** ﴾ وارجعوا إلى دياركُم ﴿ **فَزَادَهُمْ** ﴾ ذلك ﴿ **إِيمَٰنًا** ﴾ ويقينًا وتثبيتًا في الدين ، وهذا يدلُ على أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيدُ بحسب التوجُه إلى الله والتفرغِ مما سواه ، وينقصُ بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها ، ويزيد أيضًا بالطاعة والنظر والاعتبار ، وينقص بالمعصية والغفلة والاغترار . ولما قال لهم الركب ذلك ليخوفهم ، ﴿ **وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ** ﴾ أي : كافينا الله وحده ، فلا نخاف غيره ، ﴿ **وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ أي : نعم من يتوكل عليه العبد ، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره ، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقي في النار . ﴿ **فَٱنقَلَبُواْ** ﴾ راجعين من حمراء الأسد ، متلبسين ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾ وهي العافية والسلامة ، ﴿ **وَفَضْلٍ** ﴾ وهي زيادة الإيمان وشدة الإيقان ، ﴿ **لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ** ﴾ من جراحة وكيد عدو ،

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران:١٧٣-١٧٥) .

﴿ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول ﷺ الذي هو موجب الرضوان . ثم حذّرهم الحق تعالى ممن ثبّطهم عن اللحوق بالكفار ، وهو ركب عبد القيس ، تشبيهًا لهم بالشيطان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ يخوف أولياءه من المشركين ، أو ﴿ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ ﴾ القاعدين من المنافقين ، ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ ﴾ فإن أمرهم بيدي ، ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله على خوف الناس . . .

الإشارة : أهل القوةِ من المرُيدين إذا قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم ، زادهم ذلك إيمانًا وإيقانًا ، وتحققوا أنهم على الجادة ، لسلوكهم على منهاجِ من قبلهم ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ (العنكبوت:٢) ، واكتفوا بعلم الله ونظرهِ وبرعايتهِ ونصرهِ ، فانقلبوا بنعمةِ الشُهود ، وفضل الترقي في عظمة الملك الودود ، لم يمسسهم في باطنهم سوء ولا نقصان ، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان ، وإنما ذلكمُ شيطانٌ يردهم عن مقامِ الشهود والعيان ، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان ، الذي تُبذل في طلبه الأرواح والأبدان . وبالله التوفيق[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (التوبة:١٨) [2] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (التوبة:١٧،١٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ أي : ما صح لهم ﴿ **أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ** ﴾ أي : شيئًا من المساجد ، فضلاً عن المسجدِ الحرام ، وقيل : هو المراد ، وإنما جمع لأنه قبلةُ المساجد ِوإمامها ، فأمره كأمرها ، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد ، أي : ليس لهم ذلك ، وإن كانوا قد عمروه تغلبًا وظلمًا ، حال كونهم ﴿ **شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ** ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول ، أي : ما استقام لهم أن يجمَعوا بين أمرين متباينين : عمارة بُيت الله ، وعبادة غير الله ، ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ** ﴾ في الدنيا والآخرة لما قارنها من الشرك والافتخار بها ، ﴿ **وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ** ﴾ لأجل كفرهم .

﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ ، أي : إنما تستقيمُ عمارتها بهؤلاءِ الجامعين للكمالات العلمية والعملية ، ومن عمارتها : تزيينُها بالفرش ، وتنويرُها بالسرج ، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها ، وصيانتُها مما لم تبنَ له كحديث الدنيا . وعن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى : « إنّ بُيوتي في أرضي المَساجد ، وإنّ زُوّارى فيها عُمّارُها ، فَطوبى لعبدٍ تَطهر في بَيته ، ثُم زارني في بَيتي ، فَحقّ على المَزور أن يُكرم زائِره »[(١)]. ووقف عبد الله بن مسعود على جماعةٍ في المسجد يتَذاكرون العلمَ فقال : بأبي وأمي العلماء ، بروحِ الله ائتلفتم ، وكتاب الله تلوتم ، ومسجد الله عمرتم ، ورحمة الله انتظرتم ، أحبكم اللّه وأحب من أحبكم . اهـ . وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما علمَ أن الإيمان بالله قرينُه وتمامه الإيمانُ به ، ولدلالة قوله : ﴿ **وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ** ﴾ عليه . قاله البيضاوي . ﴿ **وَلَمْ يَخْشَ** ﴾ في أمورِه كلها ﴿ **إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾ ، فهذا الذي يصلحُ لعمارة ِبيت الله ، ﴿ **فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ ، وعبّر

(١) المعجم الكبير للطبراني (٦١٣٩). سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١١٦٩).

بعسى ، قطعًا لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم ، وتوبيخًا لهم على القطع بأنهم مهتدون فإن كان اهتداء هؤلاء ، مع كمالهم ، دائرًا بين عسى ولعل ، فما ظنك بأضدادهم؟ ، ومنعًا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها . وفي الحديث عنه ﷺ : «من رأيتُموه يَتَعاهَدُ المسجد فاشهدوا له بالإيمان»[١]، ثم تلا الآية .

الإشـارة : مساجدُ الحضرةِ محرمةٌ على أهـل الشركِ الخـفـي والجـلـي ، لا يدخل الحضرةَ إلا قلب مفرد ، فيه توحيد مجرد ، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلبٌ مطمئنٌ بالله ، غائبٌ عما سواه ، قد رفضَ الركون إلى الأسباب ، وأفرد الوجهةَ لمسببِ الأسباب ، قَطَعَ الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوارُ الحقائق . إنما يعمرُ مساجد حضرة القدوس من آمن باللّه واليوم الآخر ، وأقام صلاة القلوب ، وآتى زكاةَ النفوس ، ولم يراقب أحدًا من المخلوقين ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين[٢].

وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ (العنكبوت: ١٠) [٣].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ** ﴾ ، فيدخل في جملةِ المسلمين ، ﴿ **فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ** ﴾ أي : مسّه أذًى من الكفرة بأن عذبوه على الإيمان ، ﴿ **جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ** ﴾ أي : جزَعَ من ذلك كما يجزِع من عذاب الله ، فيُصرَف عن الإيمان . ﴿ **وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ** ﴾ فتح

(١) سنن الترمذي (٣٠٩٣) . قال الألباني : ضعيف .

(٢) تفسير البحر المديد ٣/٦٠ ، ٦١ .

(٣) تمام الآية : ﴿ **وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ (العنكبوت: ١٠)

أو غنيمة ، ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي : متابعينَ لكم في دينكم ، ثابتين عليه بثباتكُم ، فأعطونا نصيبًا من المغنم . والمراد بهم : المنافقون ، أو : قوم ضعُف إيمانهم فارتدوا . قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : هو أعلم بما في صدور العالمين . ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق ، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص .

الإشارة : منافقُ أهل الإيمان هو الذي يُظهر الإيمانَ في الرخاء ويرجعُ عنه في الشدة ، ومنافقُ الصوفية هو الذي يُظهر الانتساب في السعة والجمال ، فإذا وقع البلاءُ والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم ، فإذا أُوذي في الله جَعَلَ فتنةَ الناسِ كعذابِ الله بالقطيعةِ والحجاب ، ولئن جاء لأهل النسبة نصرٌ وعز ، ليقولن : إنا كنا معكم . وقد رأينا كثيرًا من هذا النوع ، دخلوا في طريق القوم ، فلما قابلتهم نيرانُ التعرف والامتحان رجعوا القهقرى ، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان ، وعند الحَملةِ يتميزُ الجبان من الشجاع .

قال القشيري : المحن تُظهِر جواهرَ الرجال ، وتَدُلّ على قيمتهم وأقدارهم . ثم من كانت محنته من فوات الدنيا ، أو نقص نصيبه فيها ، أو بموت قريب أو فَقد حبيب ، فحقيرٌ قدره ، وكثيرٌ في الناس مثله . ومن كانت محنته في الله ولله ، فعظيمٌ قدره ، وقليل مثله ، في العدد قليل ، ولكن في القدر والخطر جليل . قلت : معنى كلامه : أن العامةَ يمتحنهُم الله ويختبرُهم بذهابِ حُظوظهم وأحبابهم ، فإن جزعوا فقدرهم حقير ، وإن صبروا فأجرهم كبير ، وأما الخاصة فيمتحنهم الله بسبب نسبتهم إلى الله ، وإقبالهم عليه ، أو الأمر بمعروف أو نهي عن منكر ، فَيُؤذونَ في جانب الله ، فمنهم من يُسجن ، ومنهم من يُضرب ، ومنهم من يُجلى من بلده ، فهؤلاء قدرهم عند الله كبير . ثم قال : والمؤمن مَن يكفّ الأذى ، والولي من يتحمل من الناس الأذى ، من غيرِ شكوى ، ولا إظهارِ دعوى[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٥/٣٠٠ .

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا : « إن من ضَعف اليقين : أن تُرضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يـؤتـك الله . إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره»[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن رسول الله ﷺ قال : «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس». رواه ابن حبان في صحيحه[2].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(من التمس رضا الله بسخطِ الناس) أي : من طلبَ رضاهُ في شيءٍ يسخِط الناس عليه بسببه وهذا وصية جامعة لجميع الناس . . . قال المظهر : يعني إذا عرضَ له أمر في فعله رضا الله وغضب الناس أو عكسه فإن فعل الأول رضي الله عنه ودفعَ عنه شر الناس ، وإن فعل الثاني وكله إلى الناس يعني سلط الناس عليه حتى يؤُذوه ، ويظلموا عليه ، ولم يدفع عنه شرهم[3].

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة(١٤٨٢) : موضوع .

(٢) صحيح ابن حبان (٢٧٦) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣١٨/٩ .

٣٣- باب

قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٣) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله حاكيًا عن موسى ـ عليه السّلام ـ : ﴿ **يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ** ﴾ أرض بيتِ المقدس ، قدسها الله ، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين . وفي مدحها أحاديث كثيرة . وقيل : الطور وما حوله ، أو دمشق وفلسطين ، أو الشام ، ﴿ **ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ** ﴾ أي : التي كتب الله في اللوح المحفوظ ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتُم وأطعتم نبيكم ، ﴿ **وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ** ﴾ أي : لا ترجعوا مدبرينَ هاربين خوفًا من الجبابرة ، أو : لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان ، وعدم الوثوقِ بالله ، ﴿ **فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ** ﴾ الدنيا والآخرة . رُوي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا ، وقالوا : ليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل علينا رأسًا ينصرف بنا إلى مصر ، ثم ﴿ **قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ** ﴾ أقوياءَ متغالبين ، لا طاقة لنا بمقاومتهم ، وهم قومٌ من العمالقة ، من بقية قومِ عاد ، ﴿ **وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا** ﴾ بأمر سماوي ، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا ، ﴿ **فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا**

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ (المائدة: ٢١-٢٣) .

﴿ دَٰخِلُونَ ﴾ فيها . ﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ كالب بن يوقنّا ، ويوشع بن نون ـ ابن أخت موسى وخادمه ـ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ ﴾ ، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، وعليه قراءة «يُخافان» بضم الياء ، ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإسلام والتثبت ، قالا : ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي : باب المدينة ، أي : باغِتوهم بالقتال ، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ أي : ظاهرونَ عليهم ، فإنهم أجسامٌ لا قلوب فيها . يحتملُ أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى ، أو من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، أو من عادته سبحانه في نصرِ رسله وأوليائه ، وما عهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه . ثم قال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ به ، ومصدقين لوعده[(١)].

وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [(٢)]

(الأنفال: ٢).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ الكاملونَ في الإيمان : ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ خافت واقشعرت لذكرهِ استعظامًا له وهيبةً من جلاله ، وقيل : هو الرجلُ يهم بالمعصيةِ فيقال له : اتق الله ، فينزع عنها خوفًا من عقابه ، ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ** ﴾ القرآنية ﴿ **زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا** ﴾ أي : يقينًا وطمأنينة بتظاهرِ الأدلة التي اشتملت عليها ، أو بالعمل بموجبها . وهو دليل على أن الإيمان يزيدُ بالطاعة وينقصُ بالمعصية ، بناء على أن العمل داخل فيه ، والتحقيق : أن العمل خارج عنه ، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية ... ومن

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/١٦٣ .

(٢) تمام الآية : ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (الأنفال: ٢).

أوصاف أهل الإيمان : التوكل على الله والاعتماد عليه ، كما قال : ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [1] .

وقوله : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ** ﴾ (الأنفال:٦٤) [2].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ** ﴾ أي : كافيكَ الله ، فلا تلتفت إلى شيءٍ سواه ، أي : لمّا مَنَنتُ عليك بائتلافِ قلوبِ المؤمنين في نصرتك ، فلا تلتفت إليهم في محل التوحيد ، فإني حسبك وحدي بغير معاونة الخلق ، فينبغى أن تفرد القدم عن الحدوث في سيرك منى إليّ ، وأنا حسبُ المؤمنين عن كل ما دوني ، وإن كان مَلَكًا مقربًا أو نبيًّا مرسلاً ، ولا ينبغي في حقيقةِ التوحيد النظر إلى غيري ، وإنما أيدتُك بواسطةِ المؤمنين ، وذَكرتُهم معي تشريفًا لأمتك ، وسترًا لقدرتي ، وإظهارًا لكمال حكمتي ، وإلا فقدرتي لا يفوتها شيء ، ولا تتوقف على شيء « جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل » . قال البيضاوي : نزلت الآية تأييدًا في غزوة بدر ، وقيل : أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ، ثم أسلم عمر رضي الله عنه ، فنزلت . ولذلك قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : نزلت فى إسلامه .

الإشارة : ما خوطبَ به النبي ﷺ يُخاطب به ورثته الكرام ، من الاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه ، وتصحيحِ عقد التوحيد ، والاعتماد على الكريم المجيد . والله تعالى أعلم[3].

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٤ .

(٢) تمام الآية : ﴿ **وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال:٦٤) .

(٣) تفسير البحر المديد ٣/٤٣ .

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق:٣) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ** ﴾ بأن طلّق للسُنّة ، ولم يُضار بالمعتدّة ، ولم يُخرجها من مسكنها ، واحتاط في الإشهاد ، وغير ذلك ، ﴿ **يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا** ﴾ مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق ، ويُفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب . رُوي عن ابن عباس أنه قال لمَن طَلّق ثلاثًا : إنك لم تتق الله ، فبانت منك امرأتك . والمختار : أنّ الآية عامة ، أي : ومَن يتق الله في أقواله وأفعاله وأحواله يجعل له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة . وعن النبي ﷺ أنه قرأها ، فقال : مخرجًا من شُبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، قال ابن جزي : وهذا ـ أي العموم ـ أرجح من خمسة أوجه ، الأول : حمل اللفظ على عمومه ، فيدخل فيه الطلاق وغيره . والثاني : رُوي : أنها نزلت في عوف ابن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أُسر ولده ، وضُيِّق عليه رزقه ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمره بالتقوى ، وقال له : أَكْثِرْ من : لاحَول ولا قوة إلاّ بالله . فلم يلبث إلاّ يسيرًا ، وانطلق ولده ، ووسع عليه رزقه . والثالث : أنه رُوي عنه ﷺ أنه قال : « إني لأَعْلمُ آية لو أخذ الناسُ بها لكفتهمُ ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا** ﴾ [٢] فما زال يكررها »، انظر بقيته . ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ أي : من وجوه لاتخطر بباله ولا بحسبه ، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ أي : يكل أمرَه إليه من غير تعلُّق بغير ، ولا تدبير نفس ، ﴿ **فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ ؛ كافيه في جميع أموره ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ** ﴾ ،

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** ﴾ (الطلاق:٢،٣).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٢١٠) قال الألباني : ضعيف .

بالإضافة في قراءة حفص ، أي : منفذًا أمره ، وبالتنوين والنصب عند غيره ، أي : مبلغ ما يريد ، لا يفوته مُراد ، ولا يعجزه مطلوب . ﴿ **قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا** ﴾ ؛ تقديرًا ، أو توقيتًا ، أو مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا ، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، وهذا حث على التوكل وترغيب فيه ، لأنّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الأمور كلها بيد الله ، من الرزق وغيره وأنّ لها وقتًا محدودًا لا يُجاوزه ، توكل عليه ، وانجمع بكليته عليه ، ولم يبقَ له إلاّ التسليم للقدَر السابق . قال ابن عطية : في الآية حض على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى ، توكلتَ أيها المرء أم لم تتوكل ، فإنْ توكلتَ على الله كفاك ، وتعجّلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وَكَلَك إلى جحدك وتسخُّطك ، وأمره نافذ في الوجهين . اهـ .

الإشارة : ومَن يتق الله التقوى الكاملة ، يجعل له من كل مُشْكل وشُبهة ومتشابه مَخرجًا ، فيَنحلّ له كل ما أشكل على الناس في أمر الدين والدنيا ، ويرزقه من العلوم والأسرار والمعارف ، ما لا يخطر على بال ، من حيث لا يحتسب ، من غير تعلُّم ولا مدارسة ، وقال القشيري : إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من أشغاله ، كالشعرة من العجين ، لا يتعلق بها شيء ، يضرب على المتقِي سرادقات عنايته ، ويُدخله في كنف الإيواء ويصرف الأشغال ، عن قلبه ، ويُخرجه عن تدبيره ، ويُجرده عن كل شغل ، ويكفيه كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره . اهـ . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في هذه التقوى : أن تكون ظاهرة وباطنة ، ظاهرة من المعاصي ، وباطنة من المساوئ والدعاوى ، أمّا مَن طهَّر ظاهره من المعاصي ، وسَدّ الأُفق بالدعاوى وإضافة التدبير والاختيار لنفسه ، فلا يقوم خيره بِشَرّه ، أي : فلا يدخل في الآية . ثم قال : إلاّ مَن وَطَّن نفسه على الأرياح إلى أيِّ وجهة تقلب ، أي : دار مع رياح الأقدار حيث دارت ، ولم يسكن إلى شيء ،وكان ممن قال اللهُ فيه:﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ** ﴾(السجدة:١٦)، أتراه منع جنوبَهم من مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مضجعة وساكنة لغيره ، بل رفع قلوبهم عن كل شيء ،

ولا يضاجِعُون أسرارهم شيئًا ، فافهم هذا المعنى ، تتجافى جُنوبهم عن مضاجعة الاختيار ومنازعة الأقدار ، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ، فالخوف قَطَعَهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه ، ومما رزقناهنم ينفقون . اهـ . مختصرًا . وقوله تعالى : ﴿ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ قال في الحاشية الفاسية : أي : يرزقه المقدَّر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه ، فيأكل ويلبس من غير انتظار ، ولا استشراف نفس ، ولا تعب ، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه عن السؤال ، ومَن عَرَفَ اللهَ عَرَفَه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة ، فيلقي زمام الاختيار إليه ، فيكفيه كل مؤنة في الدنيا والآخرة ، وهو السميع العليم ، وقد قال سهل : التقوى : التبري من الحول والقوة . اهـ . ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ الآية قال القشيري : فالله حاسبه ، أي : كافيه . ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ** ﴾ ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير ، فلا محالةَ يكون ، وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكنّ المتوكل تكون ثقته بقلبه ، غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهذا من أجَلِّ النعم . ثم قال في موضع آخر : التوكل : شهود نَفْسِك خارجًا من المِنّة ، جاريًا عليك أحكام التقدير من غير تدبيرٍ منك ولا اطلاع لك على حُكمه ، فسبيلُ العبد : الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر . وفي الخبر : (أعوذ بالله من علم لا ينفع)[1] ومن جملته : أن يكون قد وقع لك شُغْلٌ ، واستقبلك مُهمٌّ ، وقد اشتبه عليك وجهُ التدبير فيه ، وتكون مُطالبًا بالسُكون ، فيطلبك العلم ، وتتمنى أن تعرف متى يصلح هذا الأمر ، وبأي سببٍ ؟ وعلى أي وجهٍ ؟ وعلى يد مَن ؟ فهذا كله تخليطٌ ، وغير مُسلَّم شيءٌ من ذلك للأكابر ، وهو مِن العلم الذي يجب التعوُّذ منه ، فيجب عليك السكون والرضا ، فإذا جاء وقتُ الكَشْف ، فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينظر العبدُ في هذه الحالة تعريفًا في المنام ، أو ينظر في فال من الجامع ـ أي : ككتاب وشَبهه ـ أو يرجو بيان حاله ، بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ،

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢) .

كـلُّ هـذا تـركٌ للأدب ، واللهُ لا يَرْضى بذلك مـن أوليائـه ، بل الواجبُ السكون . اهـ . وقال في القوت : والحسب إلى الحسيب يجعلُه ما شاء كيف شاء ، فقد قيل : ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي : التوكل حَسْبُه من سائر المقامات . ثم قال معربًا باللطافة ، مسليًا للجمـاعـة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي : منفذ حكمه فيمن توكل ، ومَن لا يتوكل ، إلاَّ أنّ مَن توكّل عليه يكون الله ـ عزّ وجل ـ حَسبه ، أي : يكفيه أيضًا مُهِم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسْمه ، كما لا ينقص عليه ذرة من رزقه ، لكن يزيد مَن توكل عليه هُدًى إلى هداه ، ويرفعه مقامًا في اليقين قدر تقواه ، ويُعزّه بعزّه ، وينقص مَن لم يتوكل عليه من اليقين ، ويزيده من التعب والهم ، ويُشتت قلبَه ، ويشغل فكرَه ، فالمتوكل عليه يُوجب له تكفير السيئات ، ويُلقي عليه رضاه ومحبته في المقامات ، أمّا الكفاية فقد ضَمِنها تعالى لِمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمَن أحسن تفويضه إليه ، إلاّ أنّ الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء ، من أمور الدنيا وأمور الآخرة ، من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأنّ العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلى الرحمة واللطف في المكانين . اهـ[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالـوا لــه : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣) . **رواه البخاري[2] والنسائي[3]**.

---

(١) تفسير البحر المديد ٦٨/٨-٧٠ .

(٢،٣) موقوف . صحيح البخاري (٤٥٦٣)(٤٥٦٤) ، سنن النسائي الكبرى (١١٠١٥) .

٣٤- باب

قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٩)[1].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ ﴾** أي : رسول **﴿ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾** أي : بالبؤس والضر ، كالقحط والأمراض ، **﴿ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾** أي : يتَضرعون ويتذللون ، **﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ﴾** الحالة **﴿ ٱلسَّيِّئَةِ ﴾** الحالة **﴿ ٱلۡحَسَنَةَ ﴾** أي : أعطيناهُم ، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة ، السلامة والسعة ، **﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾** : كثروا عَددا وعُددا ، يقال : عفا النبات : إذا كثر ، ومنه : «اعفوا اللّحى»[2]. **﴿ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾** كُفرًا لنعمة اللّه عليهم ، ونسيانًا لذكره ، واعتقادًا بأنه من عادة الدهر يتعاقب في الناس بين السراء والضراء ، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا ، **﴿ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ ﴾** : فجأة **﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾** بنزول العذاب . **﴿ وَلَوۡ أَنَّ**

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٤-٩٩)

(٢) صحيح البخاري (٥٨٩٢)(٥٨٩٣) ، صحيح مسلم (٢٥٩) .

﴿ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ المتقدمة في قوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ وقيل : مكة وما حولها . وقيل : مطلقًا ، ﴿ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم ، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لوَسّعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب . وقيل : المراد : المطر والنبات . ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ ﴾ بالرسل ، وكفروا النعم ، ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ وهو أن يستدرجَهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة ؟ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الذين خسِروا أنفسهم ، بترك النظر والاعتبار ، حتى هلكوا ، فلم ينفعهم حينئذٍ الندم .

الإشارة : إظهار المِحن والمِنن وتعاقبهما على الإنسان ، حكمتها : الرجوع إلى الله ، وتضرع العبد إلى مولاه ، فمن فعل ذلك كان معتمدًا عليه في الحالتين ، مغترفًا من بحر المنة بكلتا اليدين ، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن ، فلم يرجع إلى مولاه ، ولا شكره على ما خوله من نعماه ، بل قال : هذه عادة الزمان يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان ، فهذا عبد منهمك في غفلته ، قد اتسعت دائرة حسه ، وانطمست بصيرة قدسه ، يصدق عليه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩) . وقال القشيري في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ . . . ﴾ الآية : أي : لو آمنوا بالله واتّقُوا الشرك ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بأسباب العطاء ، فإن سَبَقَ بخلافه القضاء فأبواب الرضا ، والرضا أتم من العطاء . ويقال : ليس العبرة بالنعمة العِبرة بالبركة في النعمة . اهـ . قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ ﴾ أي : شكّوا في هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب ، والشاك في الصادق المصدوق مكذب . وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه : للناس أسباب ، وسببنا الإيمان والتقوى ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ... ﴾

الآية ، وقد تقدم[1] عند قوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ (الأنعام:٨٢) ما يتعلق بالأمن من مكر الله[2].

وقوله : ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾(الحجر:٥٦)[3].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وَنَبِّئۡهُمۡ** ﴾ أي: وأخبر عبادي ﴿ **عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ** ﴾ حين بشروه بالولد ، وأعلموه بعذاب قوم لوط ، لعلهم يعتبرون فيرجون رحمته ويخافون عذابه . أو : ونبئهم أن من اعتمد منهم على كفره وغوايته ، فالعذاب لاحق به في الدنيا ، كحال قوم لوط . ثم ذكر قصتهم من أولها فقال : ﴿ **وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ** ﴾ ، وذلك حين ﴿ **دَخَلُواْ عَلَيۡهِ** ﴾ ، وهم أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ﴿ **فَقَالُواْ سَلَٰمٗا** ﴾ أي : نُسلمُ عليكم سلامًا ، قال : سلام ، ثم أتاهم بعجل حنيذ ، فلما قربه إليهم ، قالوا : إنا لا نأكل طعامًا إلا بثمن ، فقال إبراهيم : إن له ثمنًا ، قالوا : وما ثمنه؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ، فلما رأى أنهم لا يأكلون فزع منهم . ومن طريق آخر : أن جبريل مسحَ بجناحهِ العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه في الدار . اهـ . هكذا ذكر القصة المحشي الفاسي عن ابن حجر . فلما أحسَّ إبراهيم عليه السّلام بالخوف منهم ﴿ **قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ** ﴾ : خائفون إما لامتناعهم من

---

(١) في باب (فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) صـ ٨٦ .

(٢) تفسير البحر المديد ٢/٣٧٦-٣٧٨ .

(٣) قال الله عزوجل : ﴿ **وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ (الحجر:٥١-٥٦) .

أكل طعامه ، أو لأنهم دخلوا بغير إذن ، أو في غير وقت الدخول . والوجل : اضطراب النفس لتوقع مكروه . ﴿ **قَالُواْ لَا تَوْجَلْ** ﴾ لا تخف ، ثم عللوا نهيه عن الخوف فقالوا : ﴿ **إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ** ﴾ وهو إسحاق ، لقوله : ﴿ **فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ** ﴾ (هود:٧١)، (عَلِيمٍ) إذا بلغ أوان العلم . ﴿ **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ** ﴾ أي : أبشرتموني بالولد مع أني قد كبر سني ، وكان حينئذٍ من مائة سنة وأكثر ، ﴿ **فَبِمَ تُبَشِّرُونَ** ﴾؟ أي : فبأي أعجوبةٍ تبشرون؟ أو فبأي شيءٍ تبشرون؟ فإن البشارةَ بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء . قال ذلك على وجه التعجب من ولادته في كِبَرِهِ . ﴿ **قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ** ﴾ : باليقين الثابت الذي لا محالة في وقوعه ، فلا تستبعده ، ولا تشك فيه ، ﴿ **فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ** ﴾ : من الآيسين ، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرًا من غير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوزٍ عاقر . وكان استعجاب إبراهيم باعتبار العادة دون القدرة ولذلك : ﴿ **قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ** ﴾ أي : لا ييأس من رحمة ربه ﴿ **إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ : المخطئون طريقَ المعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ، وكمال قدرته . قال القشيري : أي : مَن الذي يقنط من رحمة الله إلا من كان ضالاً فكيف أخطأ ظنكم بي ، فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي؟ . اهـ . وفيه دليل على تحريم القنوط قال تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (يوسف:٨٧).

الإشارة : لا يلزمُ من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، فالوجل والخوف والفرح والحزن والتعجب والاستعظام للأشياء الغريبة ، كل ذلك من وصف البشر ، يقع من الخصوص وغيرهم ، لكن فرق بين خاطر وساكن فالخصوص تهجم عليهم ولا تثبت ، بخلاف العموم . ويؤخذ من الآية[1] : أن صحبة الخُصوص لا تنفع إلا مع الاعتقاد والتعظيم ، فإنّ امرأة نبى الله لوط

(١) قول الله تعالى : ﴿ **إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ** ﴾ (الحجر:٥٩،٦٠) .

كانت متصلةً به حسًّا ، ومصاحبة له ، ولم ينفعها ذلك ، حيث لم يكن لها فيه اعتقاد ولا تعظيم . وكذلك صحبةُ الأولياء : لا تنفع إلا مع الصدق والتعظيم . وقول ابن عطاء الله : « سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه . ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه »: مقيد بوصول التعظيم والاعتقاد ، والاستماع والاتباع . والله تعالى أعلم(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله »(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله . رواه عبد الرزاق .

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٤٠٣-٤٠٥ .

(٢) موقوف . المعجم الكبير للطبراني (١٣٠٢٣) .

٣٥- باب
من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١) [١] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ** ﴾ دنيوية أو أخروية ﴿ **إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ أي : بتقديره وإرادته ، كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان ، متوقفة على إذنه تعالى ، ﴿ **وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ** ﴾ أي : يُصدِّق بأنّ المقادير كلها بيد الله ﴿ **يَهْدِ قَلْبَهُۥ** ﴾ للرضا والتسليم ، أو الاسترجاع ، فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أو : يَهْدِ قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن لِيُصيبه ، وعن مجاهد : إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، وإن ظُلم غفر . ونقل ابن عطية عن المفسرين : أنّ المراد : مَن اعترف بالقدر هانت عليه المصيبة ، وسلَّم لأمر الله تعالى . ﴿ **وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ فيعلم ما في القلوب من برد الرضا أو حرارة التدبير . ﴿ **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ** ﴾ فيما أمركم به ، ومن جملته : الرضا بقضائه عن المصائب ، ﴿ **وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ** ﴾ فيما سنّ لكم من الأخلاق الطيبة ، وكرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية ، ﴿ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ عن طاعتهما ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ** ﴾ ، وهو

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (التغابن: ١١-١٣) .

تعليل للجواب المحذوف ، أي : فإن تُعرضوا فلا بأس عليه ؛ إذ ما عليه إلاّ البلاغ ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه . وإظهار الرسول مضافًا إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه ﷺ والإشعار بأنّ مدار الحكم ، الذي هو وظيفته عليه السلام هو محض التبليغ ، ولتشنيع التولِّي عنه . ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ لا يستحق العبادة غيره ، فـ « الله » : مبتدأ ، و « لا إله إلا هو » : خبره ، ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ** ﴾ دون غيره ﴿ **فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ ، حَثّ رسولَه ﷺ على التوكُّل عليه حتى ينصره الله ، وهي عامة لغيره ، وإظهار الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعليّة التوكُّل والأمر به ، فإنّ الألوهية مقتضية للتبتُل إليه تعالى بالكلية ، وقطع التوكُّل عما سواه بالمرة .

الإشارة : ما من نَفَس تُبديه ، إلاَّ وله قَدَر فيك يُمضيه . ما أصاب من مصيبة قلبية أو نفسية ، ظاهرة أو باطنة ، إلاّ بإذن الله وقَدَرِه ، وكذلك ما أصاب من مسرةٍ أو زيادة إلاّ بإذنه تعالى . قال القشيري : أي : أيّ خصلة حَصَلَت فمن قِبَله ، خَلْقًا ، وبعلمه وإرادته حُكمًا ، ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه ، حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء في الدنيا ، وفي الآخرة يهديه إلى الجنة ، وقيل : يهديه للأخلاق السنية ، وقيل : لاتباع السنّة ، واجتنابِ البدعة . اهـ . وقال أبو بكر الورّاق : ومَن يؤمن بالله عند النعمة والرخاء فيعلم أنها من فضل الله يهدِ قلبه للشكر ، ومَن يؤمن بالله عند الشدة والبلاء ، فيعلم أنها من الله يَهْد قلبه للصبر والرضا . اهـ . قال في الحاشية الفاسية : والظاهر والمتبادر : أنّ قوله : ﴿ **مَآ أَصَابَ** . . . ﴾ الآية جمعٌ على الله ، ورَدٌّ من الأسباب ، والوقوف معها ، إلى الوقوف مع قضائه ، وإنما يجد ذلك المؤمن بالله ، وأمّا غيره فصَدْره ضَيق حرج عن قبول المعرفة ، ولذلك قال : ﴿ **وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ** ﴾ لمعرفته والاطمئنان به ، أي : ومَن لم يؤمن يَصْلى نار القطيعة والبُعد ، وحرارة التدبير ، ففيه ترغيب في الإيمان وتحذير من الكفر ، وأنّ الإيمان تعقبه جنة الرضا والتسليم ، عاجلاً ، والكفر بضد ذلك ، فبَعد أن ذكر الجزاء

في الآخرة أشار إلى الجزاء المعجّل من اليقين والرضا للمؤمن، وضده للكافر. والله أعلم. اهـ. وأطيعوا اللهَ في الفرائض، والرسول في السنن، وقد بقي بعد الرسول خلفاؤه، يسنون السننَ الخاصة، فمَن أعرض عنهم، يقال له: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ... ﴾ الآية، ... وبالله التوفيق[1].

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

وفي صحيح مسلم[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

شرح الحديث:

قال المناوي:

(اثنَتان) (في) بعض (الناس) أي خصلتانِ من خصالهم (هما بهم كفر) يعني هم بهما كفرٌ فهو من باب القلب أو الاتساعَ كما في شرح الأحكام، والمراد أنهما من أعمال الكفار لا من خصال الأبرار، أو المراد كفر النعمة، أو سمي ذلك كفرًا تغليظًا وزجرًا كما قرره القاضي، وعلى الأول اقتصر ابن تيمية مع بسطٍ وتوضيحٍ فقال: قوله هما بهم كفر أي: هاتان الخصلَتان هما كفرٌ قائمٌ بالناس فنفس الخصلتين كفر؛ حيث كانتا من عمل الكفار فهما قائمتان بالناس، لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفار كافرًا الكفر المطلق الذي تقومُ به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبةٌ من شعب الإيمان يصيرُ مؤمنًا حتى يقوم به أصل الإيمان، وفرق بين الكفر المعروف باللام وبين كفرٍ منكر في الإثبات وإحدى الخصلتين هي (الطعنُ في الأنساب[3]) أي: الوقوعُ

---

(١) تفسير البحر المديد ٨/٦٠، ٦١.

(٢) صحيح مسلم (٦٧).

(٣) في المصدر السابق: النسب.

في أعراضِ الناس بنحو القدح في نسب ثبت في ظاهر الشرع (و) الثانية (النياحة على الميت) ولـو بغـيـر بـكـاءٍ ولا شق جيبٍ خلافًا لعياض وهي رفعُ الصوت بالندب بتعديد شمائله . وذلك لأن من طعنَ في نسب غيره فقد كفر نعمة سلامة نسبه من الطعن ، ومن ناح فقد كفر نعمةَ الله حيث لم يرض بقضائه وهو المحيي المميت ، وفيه أن هاتين كبيرتان وبه صـــرح الـذهـبي وابن القيم ، والوعيد شاملٌ للمادح والمؤرخ ما خرج عن ذلك إلا ما وقع لأم عطية فإنها استثنت في المبايعة حين نهى المصطفى ﷺ النساء عـن النياحة قالت : إلا آل فلان فإنهم أسعَدوني في الجاهلية ، فقال : إلا آل فلان وللشارع أن يخص من العموم ما شاء[1].

ولهما[2] عن ابن مسعود مرفوعًا : «ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(ليس منا) أي من أهل سُنتنا ، والنهي للتغليظ أو مختصٌّ بمعتقد حل مايجيء (من لطمَ الخدود) عند المصيبة كبقيةِ البدن ، وإنما خصها لأنها التي تلطم غالبًا وجَمعها كالجيوب وإن لم يكن للإنسان إلا خدان وجيب واحد ، باعتبار إرادة الجمعِ للتغليظ فيكون مقابلة الجمع بالجمع أو على حدّ قـولـه : ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ (طه:١٣٠) (وشق الجُيوب) جمع جيب من جابه قطعه قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴾ (الفجر:٩) ، وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس للبسه والمراد بشقه إكمال فتحه وهو علامة على التسخط (ودعا بدعوى الجاهلية) وهي زمنُ الفترة قبل الإسلام أي نادى بمثل ندائهم الغير الجائز شرعًا ، كأن يقول واكهفاه واجبلاه ، وتفسيره بأن عادتهم أنّ

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/١٩٥ .

(٢) صحيح البخاري (١٢٩٤)(١٢٩٧)(١٢٩٨)(٣٥١٩) ، صحيح مسلم (١٠٣) .

الرجل إذا غلب في الخصام نادى بأعلى صوته يا آل فلان لقومه فيبادرون لنصره ظالمًا أو مظلومًا : لا يليق بالسياق والنفي الذي حاصله التبري يقع بكل واحد من الثلاثة ولا يشترط وقوعها كلها معًا . وأصل البراءة الانفصال من الشيء ، فكأنه توعده بأنه لا يدخله في شفاعته مثلاً وهو يدل على عدم الرضى وسببه ما تضمنه من عدم الرضى بالقضاء(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة». وقال ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم ؛ فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط». حسنه الترمذي(٢).

شرح الحديث :

قال المناوي :

(إذا أراد الله بعبدِهِ الخير عجل) بالتشديد أسرعَ (له العُقوبة) بصب البلاء والمصائب عليه (في الدنيا) جزاءً لما فرط منه من الذنوب فيخرج منها وليس عليه ذنبٌ يوافى به يوم القيامة كما يعلم من مقابلة الآتي ، ومن فعل ذلك معه فقد أعظم اللطف به ؛ لأن من حوسبَ بعمله عاجلاً في الدنيا خف جزاؤه عليه حتى يكفر عنه بالشوكةِ يشاكُها حتى بالقلم الذي يسقط من الكاتب فيكفر عن المؤمن بكلِ ما يلحقه في دُنياه حتى يموت على طهارةٍ من دنسه ، وفراغٍ من جنايته ، كالذي يتَعاهد ثوبه وبدنه بالتنظيف قاله الحراني . (وإذا أرادَ بعبدهِ الشر) وفي رواية شرًّا (أمسكَ عنه بذنبه) أي أمسكَ عنه ما يستحقُه بسبب ذنبه من العُقوبة في الدنيا (حتى يوافى به يوم القيامة) إن لم يدركهُ العفو

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/٤٩٣ .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٩٦) وقال : حسن غريب . قال الألباني : حسن صحيح .

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (طه:١٢٧) ، والله تعالى لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبةِ أعدائه كما لم يرضَها أهلاً لمثابةِ أحبابه ، ومن هذا التقرير عرف أن الضمير المرفوع في يوافى راجع إلى الله والمنصوب إلى العبد ، قال الطيبي : ويجوز عكسه ، والمعنى لا يجازيه بذنبِه حتى يجيء في الآخرة مستوفى الذُنوب وافيها فيستوفي حقه من العذاب ، قال الغزالي : والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى من قول أو فعل[1]. (إن عظم الجزاء) أي : كثرتُه (مع عظم البلاء) بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء ، فمن بلاؤهُ أعظم فجزاؤه أعظم (وإن الله تعالى إذا أحبَ قومًا ابتلاهُم) أي اختبرهم بالمحن والرزايا وهو أعلم بحالهم ، قال لقمان لابنـه : يا بني الذهب والفضة يُختبران بالنار والمؤمن يختبر بالبلاء (فمن رضي) قضاءً بما ابتلي به (فله الرضى) من الله تعالى وجزيل الثواب (ومن سخِط) أي كره قضاء ربه ولم يرضه (فله السخط) منه تعالى وأليم العذاب ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١٢٣) : وقوله ومن رضي فله الرضى شرط وجزاء ، فهم منه أن رضى الله تعالى مسبوق برضى العبد ، ومحال أن يرضى العبد عن الله إلا بعد رضي الله عنه كما قال : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ (المائدة:١١٩) : ومحال أن يحصل رضى الله ولا يحصل رضى العبد في الآخرة ، فعن الله الرضى أزلاً وأبدًا . وفيه جنوح إلى كراهةِ اختيار الصحة على البلاء والعافية على السقم ، ولا ينافيه ما مر ويجيء من الأمر بسؤال العافية وأنها أفضل الدُعاء ، لأنه إنما كرهه لأجلِ الجرائم واقتراف العظائم ، كيلا يلقوا ربهم غير مطهرين من دنسِ الذنوب ، فالأصلح لمن كثُرت خطاياه السكوت والرضى ليخف والتطهير بقدر التمحيص والأجر بقدر الصبر ذكره ابن جرير[2].

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/٣٣٢ .
(٢) المرجع السابق . ٢/٥٨٣ .

٣٦- باب
ما جاء في الرياء .

وقول الله تعـالـى : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ (الكهف: ١١٠) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ بآيات ربهم ولقائه ، ﴿ **وَعَمِلُواْ** ﴾ الأعمال ﴿ **ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ** ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده ، ﴿ **جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ** ﴾ ، وهي أعلى الجنان . وعن كعب : أنه ليس في الجنة أعلى من جنة الفردوس ، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أي : أهل الوعظ والتذكير من العارفين . وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « في الجَنَّة مائةُ درجةٍ ، ما بين كُل دَرجتين كما بين السَّماء والأرض ، أعلاها الفِردوس ، ومنها تَفجَّر أنهار الجنَّةِ ، فوقَها عرشُ الرحمن ، فإذا سأَلتُم الله فسلوه الِفردوس » [٢] وقال أيضًا ﷺ : « جنان الفردوس أربع : جنتان من فِضَّةٍ ، أبنيتهما وآنيتهُما ، وجنَّتان من ذهب ، أبنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا** ﴾ (الكهف:١٠٧-١١٠) .

(٢) صحيح البخاري (٢٧٩٧) .

ينظُروا إلى ربهم إلا رِداء الكبرياءِ على وجهِه»[1]، وقال قتادة : الفردوس : ربوة الجنة . وقال أبو أمامة : هي سرة الجنة . وقال مجاهد : الفردوس : البستان بالرومية . وقال الضحاك : هي الجنة الملتفة الأشجار . كانت لهم ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أي : مقدمة لهم عند وُرودهم عليه ، على حذف مضاف ، أي : كانت لهم ثمار جنة الفردوس نُزلاً ، أو جعلنا نفس الجنة نُزلاً ، مبالغةً في الإكرام ، وفيه إيذان بأن ما أعدَّ الله لهم على ما نطق به الوحي على لسان النبوة بقوله : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطر على قلب بشر»[2] هو بمنزلة النُزُل بالنسبة إلى الضيافة وما بعدها ، وإن جُعل النُزل بمعنى المنزل فظاهر . ﴿ **خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلاً** ﴾ أي : لا يطلبون تحولاً عنها ؛ إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم ، وأرفع منها ، حتى تنزع إليه أنفسهم ، أو تطمح نحوه أبصارهم . ونعيمهم مجدد بتجدد أنفاسهم ، لا نفادَ له ولا نهاية ؛ لأنه مكون بكلمة «كن» ، وهي لا تتناهى . قال تعالى : ﴿ **قُلۡ** ﴾ لهم : ﴿ **إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ** ﴾ يتناهى كلامي ، وينقضى أجلي ، وإنما خُصصت عنكم بالوحي والرسالــة ﴿ **يُوحَىٰٓ إِلَيَّ** ﴾ من تلك الكلمات : ﴿ **أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ** ﴾ لا شريك له في الخلق ، ولا فى سائر أحكام الألوهية ، ﴿ **فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ** ﴾ : يتوقعه وينتظره ، أو يخافه ، فالرجاء : توقع وصول الخير فى المستقبل ، فمن جعل الرجاء على بابه ، فالمعنى : يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول . ومن حمله على معنى الخوف ، فالمعنى : يخاف سوء لقائه . قال القشيري : حَملُه على ظاهره أَولى لأن المؤمنين قاطبةً يرجون لقاء الله ، فالعارفون بالله يرجون لقاءه والنظر إليه ، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم . اهـ . بالمعنى . والتعبير بالمضارع في ﴿ **يَرۡجُواْ** ﴾ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين : الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ،

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٧٨) (٤٨٨٠) (٧٤٤٤) ، صحيح مسلم (١٨٠) .
(٢) صحيح البخاري (٣٢٤٤) (٤٧٧٩) ، صحيح مسلم (٢٨٢٤) .

أي : فمن استمر على رجاء لقاء كرامة اللّه ورضوانه ﴿ **فَلۡيَعۡمَلۡ** ﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿ **عَمَلاً صَٰلِحًا** ﴾ ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله ، ومدارها على الإتقان ظاهراً ، والإخلاص باطنًا . وقال سهل : العمل الصالح : المقيد بالسُنّة ، وقيل : هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها . ﴿ **وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا** ﴾ إشراكًا جليًّا ، كما فعل الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه ، أو إشراكًا خفيًّا ، كما يفعله أهل الرياء ، ومن يطلب به عوضًا أو ثناءً حسنًا . قال شهر بن حَوشب : جاء رجل إلى عبادة ابن الصامت ، فقال : أرأيت رجلاً يُصلى يبتغى وجه الله ، ويحب أن يُحمد عليه ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد عليه ، ويحج كذلك؟ قال عبادة : ليس له شيء ، إن الله تعالى يقول : « أنا خيرُ شريك ، فمن كان له شريك فهو له »[(١)]. وروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ : إنّى لأعمل العمل لله تعالى ، فإذا اطّلع عليه سرّنى ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « لك أجران : أجر السّرّ ، وأجر العلانية »[(٢)] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به ، وكان مُخلصًا في عمله . وعنه ﷺ أنه قال : « اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء »[(٣)]. وقال ﷺ ـ لما نزلت هذه الآية ـ : « إن أخوفَ ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، وإياكم وشرك السرائر ، فإنّ الشرك أخفى القوم ، فقال النبي ﷺ : ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره ؟ قالوا : بلى ، قال : قولوا : اللهم إنى أعوذ بك أن أشركَ بك وأنا أعلم ، وأستغفرك من كل ما لا أعلم »[(٤)]. وعنه ﷺ أنه قال :« من قرأ آخر سورة الكهف ـ يعنى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ... ﴾ إلى آخره ـ كانت له نوراً من قَرنه إلى قدمه ، ومن

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٧٦٤) .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٤) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف .

(٣) تقدم تخريجه في باب (الخوف من الشرك) صـ١٠٥ .

(٤) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٦٢) قال محققه عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش : إسناده ضعيف .

قرأها كلّها كانت له نورًا من الأرض إلى السّماء»[1]. وعنه ﷺ : «من قرأ عند مضجعه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ﴾ إلخ ، كان له من مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكّة ، حشو ذلك النّور ملائكة يصلّون حتّى يقوم ، وإن كان بمكة كان له نورًا إلى البيت المعمور». قلت : ومما جرّب أن من قرأ هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . . ﴾ إلخ ، ونوى أن يقومَ في أي ساعة شاء ، فإن الله تعالى يوقظه بقدرته . وانظر الثعلبي .

الإشارة : إن الذين آمنوا إيمانَ الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص ، وهو العمل الذي يقرب إلى الحضرة ، وهو كل ما يُثقل على النفس كانت لهم جنة المعارف نُزلاً ، خالدين فيها لا يبغونَ عنها حولاً ؛ لأنَّ من تمكن من المعرفة لا يُعزل عنها ، بفضل الله وكرمه ، كما قال القائل :

مُذ تَجمَّعــتُ مــا خشــيتُ افتِراقًــا فأَنَــا اليَــوم واصـــلٌ مَجمــوعُ .

ثم يترقون في معاريج التوحيد ، وأسرار التفريد ، أبدًا سرمدًا ، لا نهاية ؛ لأن ترقيتهم بكلمة القدرة الأزلية ، وهي كلمة التكوين ، التي لا تنفد ؛ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى . . . ﴾ الآيــة . هــذا مــع كــون وصــفِ البشرية لا يزول عنهم ، فلا يلزمُ من ثبوت الخُصوصية عدم وصف البشرية . قل : إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ وحي إلهام ، ويلقى في روعي أنما إلهكم إله واحد ، لا ثاني له في ذاته ولا في أفَعاله ، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدُنيا لقاء الشُهود والعيان ، ولقاء الوصول إلى صريحِ العرفان فليعمل عملاً صالحًا ، الذي لا حظ فيه للنفس عاجلاً ولا آجلاً ، ولا يُشرك بعبادة ربه أحدا ، فلا يقصدُ بعبادته إلا تعظيم الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، والله تعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥٦٦٤) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) تفسير البحر المديد ٢٠٣/٤-٢٠٦ .

وعن أبي هريرة مرفوعًا : قال تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك[1] معي فيه غيري تركته وشركه». رواه مسلم[2].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(أنا أغنى الشُّركاء) أي أغنى من يزعم أنهم شركاء على فرضٍ أن لهم غنى . (عن الشرك) أي عما يُشركون به مما بيني وبين غيري في قصد العمل . والمعنى ما أقبل إلا ما كان خالصًا لوجهي وابتغاء لمرضاتي . فاسم المصدر الذي هو الشرك مستعمل في معنى المفعول ، ويؤيد ما قررناه ما أوضحه بطريق الاستئناف بقوله : (من عملٍ عملاً أشرك فيه) أي في قصدِ ذلك العمل (معـي) أي مـع ابتغاء وجـه (غيري) أي من المخلوقين فلا يضرُه قصد الجنة وتوابعها مثلاً فإنها من جملة مرضاته سبحانه ، وإن كان المقام الأكمل أن لا يعبُده لطمع جنةٍ أو خوفِ نارٍ ، فإنه عد كفرًا عند بعض العارفين . لكن التحقيق فيه أنه لو كان بحيث لو لَم تخلق جنة ولا نار لما عبده سبحانه لكان كافرًا فإنه يستحق العبادة لذاته ، ولذا مُدح صُهيب بما روي في حقه : نعم العبدُ صهيب لو لم يخف الله ما عصاه . وقوله (تركتُه وشركه) خبر من والواو بمعنى مع ، أو المعنى تركته عن نظر الرحمة وتركت عمله المشترك عن درجةِ القبول . . . وقال شارح أي : هو لفاعله ، يعـنـي : تركتُ ذلك العـمـل وفاعله لا أقبله ولا أُجازي فاعله بذلك العمل لأنه لم يعمله لي انتهى . وفيه أنه يلزمُ منه أن يكون عمله حينئذ مباحًا مع أن العمل على وجه الإشراك حرام إجماعًا فيعاقب فاعله بذلك العمل فتأمل . ولنذكر بقية كلام الشراح ، فقال ابن الملك رحمه الله : أغنى أفعل التفضيل من غني به عنه غنية ، أي استغنى به عنه وإضافته إما للزيادةِ المُطلقة ، أي أنا غني من بين الشركاء ، وإما للزيادة على

---

(١) لفظ مسلم : أشرك فيه معي غيري .

(٢) صحيح مسلم (٢٩٨٥) .

ما أضيف إليه ، أي أنا أكثرُ الشركاء استغناءً عن الشرك لكون استغنائه من جميع الجهات وفي جميع الأوقات ، وفيما ذكره من الوجه الثاني ما لا يخفى . وقال الطيبي رحمه الله : اسم التفضيل هنا لمُجرد الزيادة والإضافة فيه للبيان ، أو على زعم القوم . وفيه أن وجه الإضافة للبيان يحتاج إلى مزيد البيان وكأنه أراد أن معناه : أنا غني مما بينهم دونهم . ثم قال : والضمير المنصوب في تركته يجوز أن يرجع إلى العمل . والمراد من الشرك الشريك ، قال النووي رحمه الله تعالى : معناهُ أنا غني عن المشاركَة وغيرها ، فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركُه مع ذلك الغير . . . ويجوز أن يرجع إلى العامل . والمراد بالشرك الشركة وقوله وهو يعود إلى العمل على الوجه الأول وإلى العامل على الوجه الثاني أي العامل لما عمل به من الشرك يعني يختص به ولا يتجاوز عنه وكذا الضمير في منه . أقول : ويمكن أن يقال معناه : أنا أغنى كل من يطلق عليه اسم الشريك كقوله تعالى : ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ (الصافات:١٢٥) ، فإن كثيرًا من الشُّركاء في الدنيا من الأغنياء إذا وقع لهم سهم مع الفقراء فإنهم يسامحونَهم به ويعطونهم إياه أو يهبونه لواحدٍ منهم من أفقرهم ، فإذا كان هذا وصف بعض الشركاء من الضُعفاء فكيف بالذي لا شريك له وله وصفُ العظمة والكبرياء . هذا وقال الإمام حجة الإسلام : درجاتُ الرياء أربعة أقسام :

الأولى : وهي أغلظُها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي ، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس فهذا جرد قصده للرياء فهو الممقوت عند الله تعالى .

والثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضًا ولكن قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعلهُ ولا يحملهُ ذلك القصد على العمل ولو لم يكن الثواب لكان قصدُ الرياء يحمله على العمل فقصد الثواب فيه لا ينفي عنه المقت .

والثالثة : أن يكون قصد الثواب والرياء متساويين بحيث لو كان واحد خاليًا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم رأسًا برأس .

والرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحًا مقويًا لنشاطه ولو لم يكن لم يترك العبادة ، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم . فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصلَ الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله : (أنا أغنى الشُّركاء) هو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح[1] .

وقال ابن عبد السلام : متى اجتمع باعثُ الدنيا والآخرة فلا ثواب مطلقًا للخبر الصحيح[2] (أنا أغنى الشُّركاء عن الشرك من عمل عملاً أشركَ فيه غيري فأنا منه بريءٌ هو للذي أشرك) ، وقال الغزالي : يعتبر الباعث فإن غلب باعث الآخرة أثيب أو باعث الدنيا أو استويا لم يثب . قال ابن حجر : يؤخذ من قول الشافعي وأصحابه : من حج بنية التجارة كان ثوابه دون ثواب المتخلي عنها لأن القصد المصاحب للعبادة إن كان محرمًا كالرياء أسقطها مطلقًا وهو محمل الحديث المذكور كما يصرح به لفظه ، أو غير محرم أثيب بقدر قصده الآخرة أخذًا بعموم قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٧) اهـ . وهو تفصيل حسن وتعليل مستحسن ، هذا بلسان العلماء أرباب العبارة ، وأما بلسان العرفاء أصحاب الإشارة فمعناه مجملاً أن أعمال ظاهر القالب متعلق بما يقع في القلوب من أنوار الغيوب . والنية جمع الهم في تنفيذ العمل للمعمول له ، وأن لا يسنح في السر ذكر غيره ، وللناس فيما يعشقون مذاهب . ثم نية العوام في طلب الأغراض مع نسيان الفضل والأعراض ، ونية الجاهل التحصين عن سوء القضاء ونزول البلاء ، ونية أهل النفاق التزين

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٥٠١-٥٠٣ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٦٥٢٩) .

عند الناس مع إضمار الشقاق ، ونية العلماء إقامة الطاعات ، ونية أهل التصوف ترك الاعتماد على ما يظهر منهم من العبادات ، ونية أهل الحقيقة ربوبية تولت عبودية ، وإنما لكل امرئ ما نوى من مطالب السعداء ، وهي الخلاص عن الدركات السفلى من الكفر والشرك والجهل والمعاصي والسمعة والرياء والأخلاق الذميمة وحجب الأوصاف ، والفوز بالدرجات العلى وهي المعرفة والتوحيد والعلم والطاعات والأخلاق المحمودة وجذبات الحق والفناء عن إنابته والبقاء بهويته،أو من مقاصد الأشقياء وهي إجمالاً ما يبعد عن الحق[1]...

وعن أبي سعيد مرفوعًا : «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل». رواه أحمد[2].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/١٠٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد(١١٢٧٠) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

٣٧- باب
من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا .

قولـه تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ (هود:١٥) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾** بعمله **﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾** ، فكان إحسانه وبره رياء وسمعَة ، **﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾** أي : نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا ، من الصحة والرئاسة ، وسعة الأرزاق ، وينالُون ما قصدوا من حمد الناس ، وإحسانـهـم وبـرهـم ، **﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾** لا يُنقصون شيئًا من أجورهم ، فيحتمل : أن تكون الآية نزلت في أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم كما ورد في حديث[٢] الغازي والغنى والقارئ المرائين ، وأنهم أول من تسعر بهم جهنم . ويحتمل أن تكون نزلت في الكفار ، وهو أليق بقوله : **﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾** لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة ، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة . **﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾** أي : في الدنيا ، فكل ماصنعوا في الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة لأنهم لم يريدوا به وجه الله . والعمدة في انتظار ثواب

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾** (هود:١٥،١٦) .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٢) وقال : حسن غريب . قال الألباني : صحيح .

الأعمال هو الإخلاص ، ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص .

الإشارة : في الحديث : « من كانت الدّنيا همّه : فَرّق الله عليه أمره ، وجَعل فقرَه بين عَينيه ، ولم يأتِه من الدّنيا إلا ما قُسم له . ومن كانت الآخرةُ نيتَه : جمَع اللهُ عليه أمره ، وجعَل غِناه في قلبِه ، وأتتهُ الدّنيا وهي صاغِرة »[1] . قلت : ومن كان الله همه كفاه هم الدارين . فطالبُ الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير . فارفع همتك أيها العبد عن الدار الفانية ، وعلق قلبك بالدار الباقية ، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية ، ولا تكن ممن قصرَ همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له في الآخرة إلا النار . وحصّن أعمالك بالإخلاص ، وإياك وملاحظة الناس فتبوأ بالخيبة والإفلاس ، وبالله التوفيق[2] .

وفي الصحيح[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة[4] ، إن أعطى رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشفع ».

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٦٥) . قال الألباني : صحيح .

(٢) تفسير البحر المديد ٣/٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) صحيح البخاري (٢٨٨٦)(٢٨٨٧)(٦٤٣٥) وفيه :« تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع ».

(٤) ليس فيه لفظ : الخميلة .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(تعس) بكسر العين ويفتح ، أي خابَ وخسر . (عبدُ الدينار) أي الذي اختاره على رضا معبوده الجبار بأن يأخذهُ من غير حلهِ وأن لا يصرفه في محله . (وعبد الدرهم) وهذان مثالان وخُصا بالذكر لأنهما النقدان الحاصلُ بهما جميع مقاصد النفسِ والشيطان . (وعبد الخميصة) وهي ثوب خز أو صوف معلم وخصت بالذكر لأن الغالب في لبسها الخُيلاء والرعونة والرياء والسمعة ومن كمال ميل النفس إليها وعدم الطاقة على مفارقتها ، فكأنه عبدٌ لها . وقيل : هي كساء أسود مربع له علمان . أراد به محب كثرةِ الثياب النفيسة والحريص على التجمل فوق الطاقة . وحاصله ذم التقيد بالزينة الظاهرة مما يتعلق بالثياب الجميلة لا سيما إذا كانت محرمةً أو مكروهة . وعدم التعلق بتخليةِ الباطن عن الأوصاف الدنية وتحليتها بالنعوت الرَضية . فإن من لبسِ الحرير في الدنيا لم يلبسهُ في الآخرة ، ومن رق ثوبُه رق دينه . ثم تطويل الأكمام وجر الأذيال حرامٌ على وجه التكبر والخيلاء ، ومكروه إذا كان بخلافه . وأما إذا كان اللبس على الوجه المباح في الشريعة فيختلفُ باختلاف النية في اختيار التكلف والتقشف ، فقد قال تعالى : ﴿ **قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ** ﴾ (الأعراف:٣٢). واختلف السادةُ الصوفية في أيهما أفضل، ومختار الشاذلية والنقشبندية والبكرية التلبس بلباس الأغنياء كما عليه بعض السلف من الأولياء ، كما روي أن فرقد السنجي دخل على الحسن وعليه كساء وعلى الحسن حلة فجعل يلمسها فقال له الحسن : ما لك تنظر إلى ثيابي . ثيابي ثيابُ أهل الجنة وثيابك ثياب أهل النار ، بلغني أن أكثر أهل النار أصحاب الأكسية . ثم قال الحسن : جعلوا الزهد في ثيابهم والكبر في صدورهم ، والذي يُحلف به لأحدهم بكسائهِ أعظمُ كبرًا من صاحب المطرف

بمطرفه . ثم الجملة أنها خبر أو دعاء على من استعبده حب الدنيا واسترقه الهوى وأعرض عن عبودية المولى . ولذا قال بعض العارفين :

أتمنى على الزمانِ محالاً أن ترى مُقلتاي طلعةَ حرٍّ .

ولم يقل صاحبها إيذانا بأن المذموم من يكون أسيرًا لجمع المال بحيث لا يُؤدي حق الملك المُتعال . (إن أعطي) أي هذا التَعيس (رضي وإن لم يُعط سخط) بكسر الخاء أي غضب . والجملة بيانٌ لشدةِ حرصه وانقلاب حاله كما أخبر الله تعالى عن حال المنافقين بقوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ (التوبة:٥٨) ، وكما قال عز وجل : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ** ﴾ (الحج:١١)، (تعسَ) كرر للتأكيد وليعطف عليه التشديد . قوله : (وانتكس) أي : صار ذليلاً (وإذا شيك) بكسر أوله ، أي دخل شوك في عضوه (فلا انتقش) بصيغة المجهول . وفي نسخة على بناء المعلوم أي فلا يقدرُ على إخراجِه أو لا يجدُ من يُخرجه . والمعنى أنه إذا وقعَ في البلاء لا يرحم عليه ولا يقدر على دفعه بنفسه أيضًا . هذا وفي النهاية : تعس إذا عثر وانكب على وجهه ، وقد تفتح العين وهو دعاء عليه بالهلاك . وانتكس أي انقلبَ على رأسِه وهو دعاءٌ عليه بالخيبةِ لأن من انتكس في أمرِه فقد خاب وخسر ، وإذا شيك أي إذا شاكتهُ شوكةٌ فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش . والخميصة ثوب خزٍّ أو صوف معلم . وقيل لا تسمى خميصة إلا إذا كانت سوداء معلمة ، وكانت من لباس الناس قديمًا . قال الطيبي رحمه الله : قيل خصَّ العبد بالذكر ليُؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا خلاصَ له عن أسره . ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار ، لأن المذموم

من الدنيا الزيادة على قدر الحاجة لا قدر الحاجة . وقوله : (إن أُعطي رضى وإن لم يُعط سخط) يؤذن إلى شدةِ حرصه في جمعِ الدُنيا وطمعهِ فيما في أيدي الناس . وفي قوله : (تعسَ وانتكس) صيغة الترديد مع الترقي . أعاد تعس الذي هو الانكباب على الوجه ليضم معه الانتكاس الذي هو الانقلاب على الرأس ليترقى في الدعاء عليه من الأهون إلى الأغلظ . ثم ترقى منه إلى قوله : (وإذا شيكَ فلا انتقش) ، على معنى أنه إذا وقع في البَلاء فلا يترحم عليه ، فإن من وقعَ في البلاء إذا ترحم له الناس ربما هان الخطبُ عليه وتسلى بعض التسلي ، وهؤلاء بخلافهِ بل يزيد غيظهم بفرحِ الأعداء وشماتتهم . وإنما خص انتقاشَ الشوك بالذكر لأن الانتقاش أسهل ما يُتصور من المعاونة لمن أصابه مكروه ، فإذا نفى ذلك الأهون فيكون ما فوق ذلك منفيًّا بالطريق الأولى . (طوبى) أي حالة طيبة ، أو شجرة في الجنة . (لعبدٍ) أي خالصٍ لله تعالى . (آخذ) بصيغة الفاعل ، أي ماسك . (بعنانِ فرسه) بكسر العين ، أي بلجامه . (في سبيل الله) أي طريق الجهاد (أشعث) بالنصب على أنه صفة عبد أو حال منه . وقوله : (رأسه) مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس . وفي نسخة برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة صفة عبد . وقوله : (مغبرة) بالنصب . وفي نسخة بالرفع وفي أخرى بالجر على أنها صفة عبد . وقوله : (قدماه) فاعلها ، وقال الطيبي رحمه الله : أشعث ومغبرة حالان من الضمير في آخذ لاعتماده على الموصوف،ويجوز أن يكونا حالين من العبد لأنه موصوف. (إن كان) أي ذلك العبد (في الحراسة) بكسر الحاء أي حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يتهَجم عليهم عدوهم (كان) أي كاملاً (في الحراسة) غير مقصر فيها بالنوم والغفلةِ ونحوهما . والحراسة وإن كانت في اللغة أعم لكنها في العُرف مختصة بمقدمة العسكر ، ولذا قال : (وإن كان في الساقة) أي في

مؤخرةِ الجيش منها الحراسة أيضا . (كان) أي كاملاً (في الساقة) في تلك الحالة أيضا بأن لا يخاف من الانقطاع ولا يهتم إلى السبق ، بل يلازم ما هو لأجله . وقد تقرر في علم المعاني أن الشرط والجزاء إذا اتحدا يراد بالجزاء الكمال . فالمعنى إن كان في الحراسَة أو الساقة يبذُل جهده فيها ولا يغفل عنها على وجه الكمال . قال التوربشتي رحمه الله : أراد بالحراسة حراسته من العدو أن يهجم عليهم وذلك أن يكون في مقدمة الجيش ، والساقة مؤخرة الجيش . فالمعنى ائتماره لما أمر وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه بحال ، وإنما ذكر الحِراسة والساقة لأنهما أشد مشَقةً وأكثر آفة ، الأول عند دخولهم دار الحرب والآخر عند خروجهم . (إن استأذَن) أي طلب الإذن في دخول محفل . وفي نسخة إذا استأذن . (لم يؤذن له) أي لعدم ماله وجاهه (وإن شفع) أي لأحد (لم يشفع) بتشديد الفاء المفتوحة ، أي لم تقبل شفاعته . وتوضيحه ما قيل إن فيه إشارة إلى عدم التفاته إلى الدُنيا وأربابها بحيث يفنى بكليته في نفسه لا يبتغي مالاً ولا جاهًا عند الناس ، بل يكون عند الله وجيهًا ، ولم يقبل الناسُ شفاعته وعند الله يكون شفيعًا مُشفعًا . . . وروى الترمذي[1] صدر الحديث بلفظ : «لعن عَبد الدينار لعن عبد الدرهم» مختصراً[2] .

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٧٥) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٣٥٥-٣٥٧ .

٣٨- باب

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله .

وقال ابن عباس : يوشك أن تنْزل عليكم حجارة من السماء . أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر؟

وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، ويذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٣) **. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة : الشرك ؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .**

عن عدي بن حاتم : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣١) **فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ فقلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم». رواه أحمد(١) والترمذي(٢) وحسنه .**

---

(١) لم يروه الإمام أحمد .

(٢) سنن الترمذي (٣٠٩٥) وفيه : حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي حدثنا عبد السلام ابن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه . «قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . قال الألباني : حسن .

راجع تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١) في باب : تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .

٣٩- باب

قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ٦٠).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ يا محمد ﴿ **إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ وهم المنافقون ، ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ** ﴾ ، ككعب بن الأشرف لفرطِ طغيانه .

وفي معناه كل من يحكم بالباطل ، ﴿ **وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ** ﴾ ، ويؤمنوا بالله ويرضوا بحكمه . ﴿ **وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا** ﴾ ، بأن يصرفهُم عن حكم الله ورسوله . قال ابن عباس : إنّ منافقًا خاصم يهوديًّا فدعاه اليهوديّ إلى النّبى ﷺ ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ، ثم اختصما إلى رسول الله ﷺ ، فحكم لليهودى بالحق فلم يرض المنافق ، وقال : نتحاكم إلى عمر ، فقال اليهودي : نعم فذهبا إلى عمر رضي الله عنه فقال اليهودي : قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك . فقال عمر للمنافق : أكذلك؟ قال : نعم ، فقال : على رسلكما حتى أخرج إليكما ، فدخل وأخذ سيفه فخرج ، فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ، فنزلت الآية . . وقال جبريل رضي الله عنه : إن عمر فرّق بين الحق والباطل . فسُمى الفاروق[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٦٢ .

وقولـه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾ (البقرة:١١)[١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ** ﴾ لهؤلاء المنافقين : ﴿ **لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ** ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان ، وإغراء أهل الكفر والطُغيان على أهل الإسلام والإيمان ، وتهييج الحروب والفتن ، وإظهار الهرج والمرج والمحن ، وإفشاء أسرار المسلمين إلى أعدائهم الكافرين ، فإن ذلك يُؤدي إلى فساد النظام ، وقطع مواد الإنعام ، ﴿ **قَالُوٓاْ** ﴾ في جوابهم الفاسد : ﴿ **إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ** ﴾ في ذلك ، فلا تصُح مخاطبتنا بذلك ، فإن من شأننا الإصلاح والإرشاد ، وحالنا خالص من شوائب الفساد ، قال تعالى : ﴿ **أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ** ﴾ هنالك ، ولكن لا شعور لهم بذلك . قلت : فرد الله ما ادعوه من الانتظام في سلك المصلحين بأقبح رد وأبلغه ، من وجوه الاستئناف الذي في الجملة ، والاستفتاح بالتنبيه ، والتأكيد بإن وضمير الفعل ، وتعريف الخبر ، والتعبير بنفي الشعور ، إذ لو شعروا أدنى شعور لتحققوا أنهم مفسدون . وهذه الآية عامة لكل من اشتغل بما لا يعنيه ، وعوق عن طريق الخصوص ، ففيه شعبةٌ من النفاق ، وفي صحيح البخاري[٢] : « ثلاث من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

الإشارة : وإذا قيل لمن يشتغلُ بالتعويق عن طريق الله والإنكار على أولياء الله : أقصر من هذا الإفساد ، وارجع عن هذا الغي والعناد ، فقد ظَهَرت معالم

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ** ﴾ (البقرة:١١،١٢) .

(٢) صحيح البخاري (٣٣) (٣٤) (٢٤٥٩) (٢٦٨٢) (٢٧٤٩) (٣١٧٨) (٦٠٩٥) ، صحيح مسلم (٥٨) (٥٩) .

الإرشاد لأهل المحبة والوداد . قال : إنما أنا مصلحٌ ناصح ، وفي أحوالي كلها صالح ، يقول له الحق جل جلاله : بل أفسدتَ قلوب عبادي ، ورددتهم عن طريق محبتي ووِدادي ، وعَوقتهم عن دخول حضرتي ، وحرمتهم شهود ذاتي وصفاتي ، سددت بابي في وجه أحبابى ، آيستهم من وجود التربية ، وتحكمت على القُدرة الأزلية ، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية . ولقد صدق من سبقت له العناية ، وأتحف بالرعاية والهداية ، حيث يقول :

فهــذهِ طريقــةُ الإشــراق كانــت وتبقــى مــا الوجــود بــاقٍ .

وقال أيضا :

وأنكــروه مــلأً عــوامُ لم يفهمــوا مقصــودَه فهــاموا .

فتُب أيها المنكر قبل الفوات ، واطلب من يأخذ بيدكَ قبل الممات ، لئلا تلقى الله بقلبٍ سقيم ، فتكون في الحضيض الأسفل من عذابه الأليم ، فسبب العذاب وجود الحجاب ، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم ، منحنا الله منه الحظ الأوفى في الدنيا والآخرة . آمين(١)

وقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعراف:٥٦)(٢).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ** ﴾ الـذي يستحق أن تَعبدوه ، هــو

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٥٩ ، ٦٠ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٤-٥٦) .

﴿ ٱللَّهُ ﴾ وحده ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي : أظهرهما ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : مقدار ستة أيام من أيام الدنيا إذ لم يكن ثمّ شمس ، ولو شاء خلقهن في لمحة ، والعدول إليه لتعليم خلقه التأني والتثبت . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ استواءً يليق به ، والعرش : جسمٌ عظيم محيط بالأكوان . سمي به لارتفاعه ، وللتشبيه بسرير الملك ، فالأكوان في جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحقها ، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته ، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء ، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله . وقال القشيري : ثم استوى على العرش ، أي : تَوحّد بجلالِ الكبرياء بوصف الملكوت ، وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحَشم والرعيَة برزوا لهم على سرير مُلكهم في إيوان مشاهدتهم . فأخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بما يَقرب من فهم الخلق ، بما أُلقي إليهم من هذه الكلمات ، بأنه استوى على العرش ، ومعناه : اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية ، وتقدّس الجبّارُ عن الأقطار ، والمعبودُ عن الحدود . اهـ . ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أي : يُغطي نور النهار بظلمة الليل ، ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أي : يعقبه سريعًا كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء ، ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ أي : بقضائه وتصريفه ، ومن عجائِب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية ، دالة على ظهور شيء منها . والنهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها ، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل ، فإنّ عِلم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط ، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار يخلق الله ـ تعالى ـ بها في الأرض ، وفي النبات والحيوان شيئًا ، يعني في الجملة ليس قادحًا في الدين ، بل هو الحق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل : قادح في الدين ، فالكواكب ما خلقت عبثًا ، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى

السـمـاء ، وقـرأ قـولـه تعـالـى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا . . . ﴾ (آل عمران:١٩١) الآية[1]. انظر : الإحياء للغزالى . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي : الإيجاد والتصرف بالأمر والنهى ، ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : تعاظم في ألوهيته ، وتعالى في ربوبيته ، وتفرد في وحدانيته .

قال البيضاوي : (وتحقيق الآية ـ والله أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أربابًا ، فبيّن لهم أن المستحق للربوبية واحد ـ وهو الله تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه تعالى خلق العالَم على ترتيب قويم ، وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك العلوية ، والأجرام السفلية ، ثم بعد تمام خلق عالَم الملك أخذ في تدبيره كالملِك الجالس على عرشه وسريره لتدبير مملكته ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوير الليالي والأيام ، فله الخلق والأمر . وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (يونس:٣)، (السجدة:4) ، فربّ الخلائق : مَن هذا صفته ، لا غيره ، انتهى بالمعنى . ثم أمرهم بأن يدعوه ، متذللين مخلصين ، فقال : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي : ذوى تضرع وخفاء فإن الإخفاء دليل الإخلاص ، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره ، ونبه على أن الداعي ينبغى ألا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء ، وقيل : الاعتداء في الدعاء ، هو الصياح به ، والتشدق ، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع ، وعن النبي ﷺ : «سَيكون قومٌ يَعتدون في الدّعاءِ ، وحسبُ المـرء أن يَقول : اللّهم إنّي أسألك الجنّة ومـا يـقـرب إليها من قول وعملٍ . ثـم قـرأ : إِنَّـهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»[2]. ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعـاصـي ، ﴿ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ ببعث الأنبـيـاء ، وشـرع الأحـكـام ، أو : ولا تفسدوا فى الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم بالقحط والفتن ،

(١) سنن النسائي الكبرى (١٣٢٠) .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٤٨٣) قال شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف .

بعد إصلاحها بالخصب والأمان ، ﴿ وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفًا من الرد لقصور الأعمال ، وطمعًا في القبول بالفضل والكرم ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ المخلصين . قال البيضاوي : هو ترجيح للطمع ، وتنبيه على ما يتوصل به إلى الإجابة ، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الترحم ، أو لأنه صفة محذوف أي : أمر قريب ، أو على تشبيه فعيل الذي هو بمعنى مفعول ، أو للفرق بين القريب من النسب ، والقريب من غيره . اهـ . قلت : والأحسن أنه إنما ذكره لأن المراد بالرحمة هنا : سر الخصوصية ، وهو مذكر ، فراعى معنى اللفظ ، كأنه قال : إن سر الولاية ـ وهي الخصوصية ـ قريب من المحسنين . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : قال الورتجبي : في كل يوم من هذه الأيام : ظهور صفة من صفاته الست : أولها : العلم ، والثاني : القدرة ، والثالث : السمع ، والرابع : البصر ، والخامس : الكلام ، والسادس : الإرادة ، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة ، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح ، فتجلى من صفته السابعة ـ وهي حياته القديمة الأزلية الباقية ، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس ـ فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته ، ويكون إلى الأبد لحياتها بروح حياته ، المُقدسة عن الاتصال والانفصال . قلت : وهي المعبّر عنها بالمعاني القائمة بالأوانى . ثم قال : وفي أدق الإشارة : السموات : الأرواح ، والأرض : الأشباح ، والعرش : القلوب ، بدأ بكشف الصفات للأرواح ، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح ، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب لأن مناظر القلوب للغيوب ، والغيوب من القلوب محل تجلى استواء القدم ، استوى قهر القدم ، بنعت الظهور للعدم ، أي : فتلاشى العدم ، ثم استوى تجلى الصفات على الأفعال ، واستوى تجلي الذات على الصفات ، فاستوى بنفسه لنفسه ، المُنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان . قلت : أي : إذ لا حدثان ولا أكوان لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت ، وما بقي إلا نعت

القدم . ثم قال : خصّ السموات والأرض بتجلى الصفات ، وخص العرش بتجلى الذات . قلت : لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها ، وهي أسرار الذات لم تتَردّ برداء الكبرياء ، وهو حجاب الحس الظاهر ، بخلاف المعاني القائمة بالأواني ، وهى أنوار الصفات ، تجلت مرتدية بحجاب القهرية ، فقيل لها : تجلي الصفات . ثم قال : السموات والأرض جسد العالم ، والعرش قلب العالم ، والكرسي دماغ العالم ، خص الجميع بالأفعال والصفات ، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل ، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته ، رأيته في المكاشفة أنوارًا شعشعانيًّا ، بلا جسم ولا مكان ولا صورة ، يتلألأ ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا عالمٌ يسمى عرشًا . انتهى . قلت : وأقرب من هذا كله : أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم ، حتى صارت في وسطه كل شيء ، ومعانى أسرار الربوبية ، وهي العظمة الأصلية ـ قد استولت عليه ، وأحاطت به ، ومحت وجوده ، فعبّر الحق ـ جل جلاله ـ عن استيلاء هذه العظمة ـ التي هي أسرار الربوبية ـ على العرش بالاستواء . وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله : «يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيبًا في رحمانيته ، كما صارت العوالم غيبًا في عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الآثار ـ وهي العرش وما احتوى عليه ـ بمحيطات أفلاك الأنوار» وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار ، من العرش إلى الفرش ، فعبّر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية لأن الرحمانية صفة الذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فافهم . قلت : ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق ـ جل جلاله ـ يتجلى بتجل خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته ، يستوى بتلك العظمة على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إذ تجلياته لا تنحصر ، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته ولله در القائل :

هـــذا الوجـــود وإن تعـــدد ظـــاهرًا وحيـــاتكم مـــا فيـــه إلا أنـــتم .

وهذا القدر كاف لمن شم شيئًا من أسرار التوحيد ، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء ، وأطال فيهما ، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر ، وقد تقرر في محله . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ : هو تقييد لقوله : ﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فالمختص بالرحمة هم المحسنون . انظر لفظ الحكم . واللّه تعالى أعلم[1].

وقوله : ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠)[2].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله لرسوله ـ عليه الصلاة والسّلام ـ : ﴿ وَ ﴾ أمرناك ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم ﴾ أي : بين اليهود ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم ، وقيل : لا ، والمعنى أنت مخير ، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل اللّه ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ الباطلة ، التي أرادوا أن يفتنوك بها ، ﴿ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ ، فيصرفوك عن الحكم به . رُوى أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد ، قد عرفت أنّا أحبار اليهود ، وأنّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة ، فنتحاكم إليك ، فتقضى لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدقك ، فأبى ذلك عليهم رسول اللّه ﷺ وردّهم ، فنزلت الآية . قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة السّلام ـ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ عن الإيمان ، بل وأعرضوا عن اتباعك ، ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ ﴾ في الدنيا ، ويدخر جُلّها للآخرة ، وقد أنجز اللّه وعده ، فأجلى بنى النضير ، وقتلِ

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٣٥٩-٣٦٢ .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠) .

بني قريظة ، وسبا نساءهم وذراريهم ، وباعهم في الأسواق ، وفتح خيبر ، وضرب عليهم الجزية ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن طاعة اللّه ورسوله ، ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أي : يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى ،﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : لا أحد أحسن حكمًا من الله تعالى عند أهل الإيقان لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر ، ويتحققون الأشياء بأنظارهم ، فيعلمون ألاَّ أحسن حكمًا من الله عز وجل .

الإشارة : إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية ، والتبس عليك أمرهم ، ولم تدر أيهما تتبع؟ فاحكم بينهم بالكتاب والسنة ، فمن وافقَ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فاتبعه ، فإن من أمّر الكتاب والسّنة على نفسه نطق بالحكمة ، وإن وافق أكثرُ من واحد الكتاب أو السنة ، فانظر أثقلهم على النفس ، فإنه لا يثقل عليها إلا ما هو حق ، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار ، فإن متابعة الهوى يُعمى القلب عن مطالعة الأسرار ، إلا إن وافق السّنة . قيل لعمر ابن عبد العزيز : ما ألذ الأشياء عندك؟ قال : حق وافق هواي . وفي الحديث عنه ﷺ « لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواهُ تابعًا لما جئتُ به »[1]، وفي الحكم : « لا يخافُ عليك أن تلتبس الطُرق عليك ، إنما يخاف عليكَ من غلبة الهوى عليك » . فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح ، وجعل يتبعُ الهوى ويسلك طريق الرخص ، فليعلم أن الله أراد أن يُعاقبه ببعضِ سوء أدبه ، حتى يخرج عن منهاج السالكين ، والعياذ بالله ، أو يؤدبه في الدنيا إن كان متوجهًا إليه[2].

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .

(٢) تفسير البحر المديد ١٨٥/٢ ، ١٨٦ .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

شرح الحديث :

قال ابن رجب[(١)] :

(تخريج الحديث) :

يريد بصاحب كتاب الحجة : الشيخ أبا الفتح : نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد ، نزيل دمشق . وكتابه هذا هو كتابُ (الحجة على تارك المحجة) يتضمن ذِكر أصول الدين ، على قواعدِ أهل الحديث والسنة . وقد خرّج هذا الحديثَ الحافظُ أبو نُعيم في كتاب (الأربعين) وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار ، وجياد الآثار ، مما أجمع الناقلونَ على عدالة ناقليه ، وخرَّجته الأئـمـة فـي مسانيدهم ، ثم خرجه عن الطبراني : حدثنا أبو زيد : عبد الرحمن بن حاتم المرادي ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عُقبةَ بنِ أوس ، عن عبد الله بن عمرٍو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا يؤمن

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب واسمه عبد الرحمن بن الحسن بن محمد ابن أبى البركات مسعود البغدادي الدمشقى الحنبلى ، الشيخ المحدث الحافظ زين الدين ، ولد ببغداد فى ربيع الأول سنة ٧٠٦ هـ ، وقدم دمشق مع والده فسمع معه من محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز وابن إبراهيم بن داود العطار وغيرهما ، وبمصر من أبى الفتح الميدومى وأبى الحرم القلانسى وغيرهما ، وأكثر من المسموع ، وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف : شرح الترمذى ، وقطعة من البخارى ، وذيل الطبقات للحنابلة ، واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد ، والقواعد الفقهية اجتهد فيه ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأكثر عن الشيوخ ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة ومات في شهر رجب سنة ٧٩٥ هـ . انظر : الحافظ ابن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣/١٠٩،١٠٨)» .

أَحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ، لا يزيغ عنه»[1] . ورواه الحافظ أبوبكر بن عاصم الأصبهاني ، عن ابن واره ، عن نعيم بن حماد ، حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، حدثنا بعض مشيختنا : هشام أو غيره ، عن ابن سيرين فذكره وليس عنده : (لا يزيغ عنه) . قال الحافظ أبو موسى المديني : هذا الحديث مختلَف فيه على نُعيم ، وقيل فيه : حدثنا بعض مشيختنا ، حدثنا هشام أو غيره . قلت : تصحيح هذا الحديث بعيدٌ جدًّا من وجوه ، منها : أنه حديث يتفرد به نعيم بن حماد المروزي ، ونعيم هذا ـ وإن كان وثقه جماعة من الأئمة وخرّج له البخاري ، فإن أئمةَ الحديث كانوا يحسنون به الظن ، لصلابته في السنة ، وتشدّده في الرد على أهل الأهواء ، وكانوا يَنسُبونه إلى أنه يهم ، ويُشَبه عليه في بعض الأحاديث ، فلما كثر عُثورهم على مناكيره ، حكموا عليه بالضعف . فروى صالح بن محمد الحافظ ، عن ابن معين ، أنه سُئِل عنه فقال : ليس بشيء ، ولكنه صاحب سنة . قال صالح : وكان يحدِّث من حفظه ، وعنده مناكير كثيرة لا يتابَع عليها . وقال أبو داود : عند نُعيم نحوُ عشرين حديثًا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس لها أصل . وقال النسائي : ضعيفٌ . وقال مرة : ليس بثقة ، وقال مرة : قد كثر تفرّده عن الأئمة المعروفين في أحاديث كثيرةٍ ، فصار في حَد مَن لا يُحتَج به . وقال أبو زرعة الدمشقي : يصل أحاديث يوقفها الناس . يعني : أنه يرفع الموقوفات . وقال أبو عروبة الحرّاني : هو مظلم الأمر . وقال أبو سعيد بن يونس : روى أحاديث مناكير عن الثقات . ونسبه آخرون إلى أنه كان يضعُ الحديث ، وأين كان أصحابُ عبد الوهاب الثقفي ، وأصحاب هشام بن حسان ، وأصحاب ابن

---

(١) قال محقق جامع العلوم والحكم الدكتور محمد الأحمدي أبو النور : أورده ابن أبي عاصم في السنة ١/١٢ ح١٥ من طريق نعيم بن حماد به وضعفه الشيخ ناصر محققه بنعيم وانظر تخريجه بهامشه ، لكن أورده الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٨٩/١٣ من حديث أبي هريرة بإسنادٍ صحيح وقال : (أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات ، وصححه النووي في آخر الأربعين) وهو يعني هذا الموطن .

سيرين عن هذا الحديث حتى يتفرد به نعيم ؟! ومنها أنه قد اختلف على نُعيم في إسناده : فروي عنه ، عن الثقفي ، عن هشام ، وروي عنه عن الثقفي : حدثنا بعض مشيختنا : هشام أو غيره . وعلى هذه الرواية فيكون الشيخ الثقفي غيرَ معروف عَينُه . وروي عنه عن الثقفي : حدثنا بعض مشيختنا ، حدثنا هشام أو غيره . وعلى هذه الرواية ، فالثقفي رواه عن شيخ مجهول ، وشيخه رواه عن غير معين ، فتزداد الجهالة في إسناده . ومنها أن في إسناده عقبة بن أوس السدوسِي البصري . ويقال : فيه يعقوب بن أوس أيضًا . وقد خرج له أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، حديثًا عن عبد الله بن عمرو . ويقال : عبد الله بن عُمَر . وقد اضطرَب في إسناده ، وقد وثقه العجلي ، وابنُ سعد ، وابنُ حبان . وقال ابن خزيمة : روى عنه ابنُ سيرين مع جلالته . وقال ابن عبد البر : هو مجهول . وقال الغلابي في تاريخه : يزعمون أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو ، وإنما يقول : قال عبد الله بن عَمرو فعلى هذا تكون رواياته عن عبد الله بن عمرو منقطعة ، والله أعلم .

(معنى الحديث) :

وأما معنى الحديث ، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها ، فيحب ما أَمر به ، ويكرهُ ما نَهَى عنه . وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع . قال تعالى : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء:٦٥) . وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب:٣٦) . وذم سبحانه من كره ما أحبه الله ، و أحب ما كَرِهَهُ الله ، قال الله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ (محمد:٩)، وقال تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ (محمد:٢٨)، فالواجب على

كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبةً توجِبُ لـه الإتيانَ بما وَجَب عليه منه ، فإن زادت المحبةُ ، حتى أتى بما نُدب إليه منه كان ذلك فضــلاً ، وأن يكــره ما كرهه الله تعالى كراهةً توجبُ له الكف عما حَرم عليه منه . فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنْزيهًا ، كان ذلك فضلاً . وقد ثبت في الصحيحين[1] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (لا يؤمنُ أحَدكُم حتى أكونَ أحب إليه من نفسه[2] وَولده وأهِله والناس أجمعين) . فلا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يقدمَ محبةَ الرسول على محبة جميع الخلق ، ومحبةُ الرسول تابعةٌ لمحبّة مرسله عزوجل . والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعةَ والموافقةَ في حُبِّ المحبوبات ، وبُغضِ المكروهات ، قال تعالى ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ** ﴾ (التوبة:٢٤) . وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ (آل عمران:٣١) . قال الحسن : قال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : يا رسول الله ! إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا ، فأحب الله أن يجعل لحبه عَلَمًا ، فأنزل الله هذه الآية . وفي الصحيحين[3] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاثٌ من كُن فيهِ وجد حلاوَة الإيمان : أن يكون الله ورسولُه أحب إليه مما سِواهُما ، وأن يحب المرءَ لا يحبهُ إلا لله وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار » .

---

(١) تقدم تخريجه في باب قوله الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ** ﴾ (البقرة:١٦٥) . صـ ٢٧٧ .

(٢) ليس في الصحيحين لفظ : نفسه .

(٣) تقدم تخريجه في باب قوله الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ** ﴾ (البقرة:١٦٥) . صـ ٢٧٨ .

(حب الله ورسوله وماذا يقتضيه؟) :

فمن أحب الله ورسولَه محبةً صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يُحبه الله ورسوله ، ويكرَهَ ما يكرهه الله ورسولُه ، ويَرضى بما يرضى الله ورسولُه ، ويسخطَ ما يَسخَطه الله ورسوله ، وأن يعملَ بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك بأن ارتكبَ بعضَ ما يكرهه الله ورسوله ، أو تركَ بعضَ ما يحبه الله ورسولُه ، مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوبَ من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة . قال أبو يعقوب النهرجوري : (كُل من ادّعى محبةَ الله تعالى ، ولم يوافق الله في أمره ، فدعواه باطل ، وكل محب ليس يخاف الله ، فهو مغرور). وقال يحيى بن معاذ : (ليس بصادقٍ من ادعى محبة الله عز وجل ، ولم يحفظ حدوده) . وسئل رُوَيمٌ عن المحبة فقال : الموافقة في جميع الأحوال ، وأنشد :

ولو قلتَ لي مت مت سمعًا وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومرحبًا!!

ولبعض المتقدمين :

تَعصي الإلـه وأنتَ تزعمُ حبهُ ... هذا لعمري في القياس شنيعُ ؟!

لو كان حبكَ صادقًا لأطعتَهُ ... إن المحِب لمَن يُحِب مطيعُ ؟!

(منشأ المعاصي) :

فجميعُ المعاصي، إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضعَ من كتابه فقال تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (القصص:٥٠) . وكذلك البدع : إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا يسمى أهلُها

أهلَ الأهواء . وكذلك المعاصي ، إنما تقعُ من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه .

(واجب المؤمن في المحبة) :

وكذلك حب الأشخاص : الواجبُ فيه أنْ يكون تبعًا لما جاء به الرسولُ ﷺ . فيجب على المؤمن محبة الله ، ومحبةُ مَن يحبه الله من الملائكة ، والرسل ، والأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين عمومًا . ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان ، أن يحب المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وتحرم موالاة أعداء الله ، ومن يكرهه الله عمومًا . وقد سبق ذلك في موضع آخر . وبهذا يكون الدِين كله لله . (و من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان)[1] .

(حين تكون العلاقات على أساس الهوى) :

ومن كان حبه وبغضُه وعطاؤهُ ومنعُه لهوى نفسه ، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب ، فتجب عليه التوبة من ذلك ، والرجوعُ إلى اتباع ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم من تقديم محبة الله ورسوله ، وما فيه رضا الله ورسولِه ، على هوى النفوس ومراداتها كلها . قال وهيب بن الورد : (بلغنا ـ والله أعلم ـ أن موسى عليه السلام ، قال : يا ربِّ! أوصني ، قال : أوصيك بي ، قالها ثلاثًا ، حتى قال في الأخيرة : أوصيك بي أن لا يَعرِضَ لك أمرٌ إلا آثرتَ فيه محبتي على ما سواها . فمن لم يفعل ذلك لم أزكّه ولم أرحمه) .

(معنى الهوى أظنها : عند الإطلاق) :

والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق : أنه الميل إلى خلاف الحق كما

---

(١) سنن أبي داود (٧٦٨١) قال الألباني : صحيح .

في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص:٢٦) ، وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠). وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقًا فيدخل فيه الميلُ إلى الحق وغيره . وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه . وسئل صفوان ابن عسال : هل سمعت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الهوى؟ فقال : سأله أعرابي عن الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم فقال : (المرءُ مع من أَحب)[1]. ولما نزل قوله تعالى: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (الأحزاب:٥١) ، قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : (ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك)[2]. وقال عمر رضي الله عنه : (في قصة المشاورة في أسارى بدر فهويَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ما قال أبو بكر ولم يَهوَ ما قلت)[3].

(الهوى في الحديث) :

وهذا الحديث مما جاء استعمال الهوى فيه بمعنى المحبة المحمودة ، وقد وقع مثل ذلك في الآثار الإسرائيلية كثيراً ، وكلام مشايخ القوم وإشاراتهم نظمًا ونثرًا يكثر فيها هذا الاستعمال . ومما يُناسب معنى هذا الحديث من ذلك قول بعضهم :

إن هواكَ الذي بقلبي صَيرني سامعًا مطيعَا .
أخذت قلبي وغَمضَ عيني سلَبتنِي النومَ والهجوعَا .
فَذْر فؤادي وخُذ رُقادي فقال لا بل هُمَا جميعَا[4].

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٨٥) قال الألباني : صحيح .
(٢) صحيح البخاري (٤٧٨٨) (٥١١٣) ، صحيح مسلم (١٤٦٤) .
(٣) صحيح مسلم (١٧٦٣) .
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٣/١١٤٥-١١٥٣ .

وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد ـ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ـ : وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود ـ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ـ فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه ، فنَزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ (النساء: ٦٠) . وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف . ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم : فضربه بالسيف فقتله .

٤٠- باب
من جحد شيئًا من الأسماء والصفات .

قول الله تعالى : ﴿ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ (الرعد: ٣٠) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : قد أرسلنا قبلكَ رسلاً فأنذروا وبشروا قومهم ، ﴿ **كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ** ﴾ أي : مثل ذلك الإرسال أرسلناك في أمة ، أو كما هدينا من أنابَ إلينا اختصصناك برسالتنا ، ﴿ **فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ** ﴾ مضت ﴿ **مِن قَبۡلِهَآ** ﴾ أي : تقدمها ﴿ **أُمَمٌ** ﴾ أرسل إليهم رسلهم فليس ببدعٍ إرسالك إلى هذه الأمة الأمية ، ﴿ **لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ** ﴾ : لتقرأ عليهم الكتاب ، الذي أوحينا إليك ، والحالة أنهم ﴿ **يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ** ﴾ أي : بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ، ووسعت كل شيءٍ رحمته ، فلم يشكروا ما أنعمَ به عليهم ، وخصوصًا إرسالك إليهم ، وإنزال القرآن عليهم ، الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية . قيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : في قريش حين قالوا : لا نعرفُ الرحمن ، والمعنى : أرسلناك إليهم رحمة لتتلو عليهم ما هو مناط الرحمة ، ﴿ **وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ** ﴾ ، والحال : أنهم يكفرون ببليغ الرحمة . ﴿ **قُلۡ هُوَ رَبِّي** ﴾ أي : الرحمن خالقي ومتولي أمري ، ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ لا مستحق للعبادة غيره ، ﴿ **عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ** ﴾ في أموري ، ومن جملتها نصري عليكم .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ** ﴾ (الرعد: ٣٠) .

﴿ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾ مرجعي في أموري كلها ، لا أرجع إلى أحد غيره ، ولا أتعلق بشيء سواه .

الإشارة : قد بعثَ الله في كل عصر عارفًا بالله يحيي به الدين ، ويعرف الطريق إلى رب العالمين فالأرض لا تخلو ممن يقوم بالحُجة ، غير أنهم تارةً يخفون لفساد الزمان ، وتارة يظهرون رحمةً للأنام . فإذا وقع الإنكار عليهم ، أو استغرب وجودهم ، يقال لهم : كذلك أرسلنا في كل أمة نذيرًا ، وداعيًا ، فإرسالكم أنتم وإظهاركم ليس ببدع ، لتعلموا الناس ما أوحي إليكم من طريق الإلهام فإظهاركم رحمة ، وهم يكفرون هذه النعمة . فاعتمدوا على الرحمن ، وثقوا بالواحدِ المنان ، وارجعوا إليه فى كل حال وشأن . فمن توكل عليه كفاه ، ومن التجأ إليه حماه[1] .

وفي صحيح البخاري قال علي : حَدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذب الله ورسولهُ ؟

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس : أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات ـ استنكاراً لذلك ـ فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه . انتهى . ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر (الرحمن) أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ (الرعد: ٣٠) .

---

(١) تفسير البحر المديد ٣/٣٤٠ .

٤١- باب

قوله تعالى : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل:٨٣) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الله جل جلاله : **﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾** أي : يقرون بأنها من عنده ، **﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾** بإشراكهم وعبادتهم غيرَ المُنعم بها ، وبقولهم : إنها بشفاعةِ آلهتنا ، أو بسبب كذا ، أو بإعراضهم عن حقوقها . وقيل : نعمة الله : نبوة نبينا محمد ﷺ ، عرفوها بالمُعجزات ، ثم أنكروها عنادًا . **﴿ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾** الجاحدون عنادًا . وذكر الأكثر إمّا لأن بعضهم لم يعرِف الحق لنقصان عقله ، أو لتفريطهِ في النظر ، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يَبلغ حد التكليف ، أو كان فيهم من داخله الإسلام ، ومن أسلم بعد ذلك . وإما لأنه أقام الأكثر مقام الكل ، كقوله : **﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾** (النحل:٧٥) ، قال بعضه البيضاوي[(٢)].

قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل : هذا مالي ، ورثته عن آبائي .

وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا .

وقال ابن قتيبة : يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا .

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : أن الله تعالى قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . . . الحديث وقد تقدم : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يَذُم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقًا ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير .

---

(١) تمام الآية : ﴿ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (النحل:٨٣) .

(٢) تفسير البحر المديد ٤/٤٩ .

٤٢- باب

قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٢) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : جملة الترجي حال من الواو في ﴿ **ٱعۡبُدُواْ** ﴾ ، أي : اعبدوا ربكم راجينَ أن تنخَرِطوا في سلك المُتقين الفائزين بالهدى والفَلاح ، المستوجبين جوار الله تعالى ، نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيءٍ سوى الله تعالى ـ إلى الله تعالى . و﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ** ﴾ صفة للرب ، و﴿ **فَلَا تَجۡعَلُواْ** ﴾ معطوف على ﴿ **ٱعۡبُدُواْ** ﴾ على أنه نهى ، أو منصوب بأن ، جواب له ، ﴿ **أَندَادٗا** ﴾ جمع ندّ ، بكسر النون . وهو الشبه والمثل ، و﴿ **وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ حال من ضمير ﴿ **فَلَا تَجۡعَلُواْ** ﴾ أي : فلا تجعلوا لله أندادًا والحال أنكم من أهل العلم .

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اعبدوني بقُلوبكم بالتوحيد والإيمان ، وبجوارحكُم بالطاعةِ والإذعان ، وبأرواحكُم بالشهود والعيان ، فأنا الذي أظهرتكم من العدم ـ أنتم ومَن كان قبلكم ـ وأسبلت عليكم سوابغ النعم ، الأرض تقلكم والسماء تظلكم ، والجهات تكتنفكم ، وأنزلت من السماء ماءً فأخرجت به أصنافًا ﴿ **مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ** ﴾ (البقرة:٢٢) ، فأنتم جوهرةُ الصدق ، تنطوى عليكم أصداف مكنوناتي ، وأنتم الذين اطلعتكم على أسرارِ

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٢١،٢٢) .

مكنوناتي ، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيري ؟ وقد أغنيتكم بلطائفِ إحساني وبري ، أنعمتُ عليكم أولاً بالإيجاد ، وثانيًا بتوالي الإمداد ، خصصتكم بنورِ العقل والفهم ، وأشرقت عليكم نبذة من أنوار القِدم ، فبي عرفتموني ، وبقدرتي عبدتموني ، فما عبدني غيري ، ولا وحدني سواي فلا شريكَ معي ولا ظهير ، ولا أحتاج إلى معينٍ ولا وزير .

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين في الإنسانية الذين يعبُدون الله تعظيمًا لحقِ الربوبية ، وقيامًا بوظائفِ العبودية ، وفيهم قال صاحب العينية[(١)] :

هُم الناس فالزم إن عرفتَ جَنابــــهُم ... فَفــيهم لضُــرّ العــالمين منــافعُ .

وقال قبل ذلك :

همُ القَصد للملهوفِ والكنزُ والرجــا ... ومنهم يَنالُ الصّب ما هــو طــامع .

بــهم يهتدى للعين من ضلّ في العَمى ... بــهم يُجذب العشّاق ، والرّبع شاسع .

هم القصد والمطلوب والسؤل والمــنى ... واسمُهم لِلصــبّ في الحــبّ شــافع .

فعبادة العارفين : بالله ومن الله وإلى الله ، وعبادة الجاهلين : بأنفُسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم ، عبادة العارفين حمدٌ وشكر ، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ وأجر ، عبادة العارفين قلبية باطنية ، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية ، يا أيها الناس المخصوصون بالأنسِ والقرب دوموا على عبادة القريب ، ومشاهدة الحبيب ، فقد رفعتُ بيني وبينكم الحُجب والأستار ، وأشهدتكم عجائبَ الألطاف والأسرار ، أبرزتكم إلى الوجود ، وأدخلتكم من باب الكرم والجود ، ومنحتكم بفضلي غاية الشهود ، لعلكم تتقون الإنكار والجحود ، وتعرفونني في كل شاهدٍ ومشهود . فقد جعلت أرض نفوسكم مهادًا لعلوم الشريعة ،

(١) قال محققه : هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي القادري الصوفي الحنبلي من خلفاء الشيخ الجبرتي ، ولد سنة ٧٦٧هـ ، وتوفي سنة ٨٢٠ هـ . (انظر كشف الظنون ٥/٦١٠ ، ٦١١) .

وسماء قلوبكم سقفًا لأسرار الحقيقة ، وأنزلت من سماء الملكوت ماءً غيبيًّا تحيا به أرض النفوس ، وتهتز بواردات حضرة القدوس ، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والأحوال المرضية ، ما تَتَقوت به عائلة المستمعين ، وتنتعش به أسرار السائرين ، فلا تشهدوا معي غيري ، ولا تميلوا لغير إحساني وبري ، فقد علمتم أني منفردٌ بالوجود ، ومختص بالكرم والجود ، فكيف يرجى غيري وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواي وأنا بذلت عادة الامتنان؟! مني كان الإيجاد ، وعليّ دوام الإمداد ، فثقوا بي كفيلاً ، واتخذوني وكيلاً ، أعطكم عطاءً جزيلاً ، وأمنحكم فخرًا جليلاً[(١)].

قال ابن عباس في الآية : الأنداد : هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص . ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلانًا ، هذا كله به شرك . رواه ابن أبي حاتم .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف بغير الله فقد كفر ، أو أشرك». رواه الترمذي[(٢)] ، وحسنه وصححه الحاكم .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(من حلفَ بغيرِ الله فقد كفر) وفي رواية (أشرك) أي : فعل فعل أهل الشرك ، أو تشبه بهم إذ كانت أيمانُهم بآبائهم وما يعبُدون من دون الله ، أو فقد أشركَ في تعظيم من لم يكن أن يُعظمه ، لأن الأيمان لا تصلحُ إلا بالله ، فالحالفُ بغيره معظم غيره مما ليس له فهو يُشرك غير الله في تعظيمه ورجحه

---

(١) تفسير البحر المديد ١/٦٥ ، ٦٦ .

(٢) سنن الترمذي (١٥٣٥) وقال : هذا حديث حسن . قال الألباني : صحيح .

ابن جرير . ومن هذا التقرير عُلم أن من زَعم أن الخبر ورد على منهج الزجرِ والتغليظِ فقد تكلف ، قال النووي : ومن المكروه قولُ الصائم وحق هذا الخاتم الذي على فمي[(١)].

وقال ابن مسعود : لأن أحلفَ بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا .

وعن حذيفة ﵁ عن النبي ﷺ قال : «لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح[(٢)].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان) فيه حذفٌ تقديره فهو كائنٌ أو كان لما فيه من التسويةِ بين الله وبين عباده لأن الواو للجمع والاشتراك (ولكن قولوا : ما شاء الله) أي كان ، (ثم شاء فلان) أي ثم بعد مشيئة الله شاء فلان ، لأن ثم للتراخي ، وإنما قدرنا كان قبل ، ثم شاء فلان ليندفع توهمُ الاشتراك في الحكم ولو بالتراخي أيضًا فتأمل ، فإنه مسلكٌ دقيقٌ وبالتحقيقِ حقيق وحينئذ قوله : (ثم شاء فلان) جملة مستأنفة أو معطوفة على الجملة السابقة كما أشرنا إليه ، وثم لتراخي الأخبار هذا مجمل ما ظهر لي في حل هذا المحل ، وفي شرح السنة : لما كان الواو حرف الجمع والتشريك منع من عطف إحدى المشيئتين على الأخرى وأمر بتقديم مشيئةِ الله وتأخير مشيئة من سواه بحرف ثم الذي هو للتراخي . قال الطيبي : ثم ههنا يحتمل التراخي في الزمان وفي الرتبة ، فإن مشيئةَ الله تعالى أزلية ومشيئة غيره حادثة تابعة لمشيئة الله تعالى قال تعالى :

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١٥٥/٦ .

(٢) سنن أبي داود (٤٩٨٠) قال الألباني : صحيح .

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الإنسان:٣٠) ، وما شاء الله كان ، ومشيئة العبد لم يقع أكثرها فأين أحدهما من الأخرى . . . (قال : لا تقولوا : شاء الله وشاء محمد ، وقولوا ما شاء الله وحده)[١] أي شاءَ غيره أو لم يشأ وهو لا ينافي ما سبقَ من جواز ما شاء الله ثم شاء فلان كما لا يخفى . قال الطيبي : فإن قلت : كيف رخص أن يقول : ما شاء الله ثم شاء فلان ولم يرخص في اسمه ﷺ حيث قال : قولوا : ما شاء الله وحده ، قلت : فيه جوابان أحدهما : قال دفعًا لمظنةِ التهمة في قولهم : ما شاء الله وشاء محمد تعظيمًا له ورياءً لسمعته ، وثانيهما : أنه رأسُ الموحدين ومشيئته مغمورة في مشيئةِ الله تعالى ومضمحلة فيها ، أقول : أصل السؤال مدفوع لأنه ﷺ داخل في عموم فلان ، فيجوز أن يقال : ما شاء الله ثم شاء محمد ، ولا يجوز أن يقال ما شاء الله وشاء محمد ، فجوابه الأول خطأ فاحش لأنهم لو قالوا : ما شاء الله وشاء محمد لكان شركًا جليًّا لا مظنة للتهمة التي ذكرها وجوابه الثاني في نفس الأمر صحيح لكن لا يفيد جواز الإتيان بالواو مع أن مشيئة غيره ﷺ أيضًا مضمحلةٌ في مشيئةِ الله تعالى سبحانه ، وأيضا ما سبق من قوله ﷺ ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان لمجردِ الرخصة ، وقال : هنا قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد لكان أمر وجوب أو ندب ، وليس الأمر كذلك مع أن المشيئة المسندة إلى فلان إنما هي مشيئة جزئية لا يجوز حملها على المشيئة الكلية كما رمزنا إليه فيما سبق من الكلام والله سبحانه أعلم بالمرام[٢] .

وجاء عن إبراهيم النخعي : أنه يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا ولولا الله وفلان .

---

(١) سيأتي تخريجه في باب : قول ما شاء الله وشئت .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٨/٩، ٢٩ .

٤٣- باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله .

عن عمر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحلفوا بآبائكم ، من حُلِف له بالله فليصدِّق ، ومن حُلف له بالله فليْرضَ ، ومن لم يرض فليس من الله». رواه ابن ماجه بسند حسن[١] .

شرح الحديث :

قال المناوي :

لأن الحلف بشيءٍ يقتضي تعظيمهُ ، والعظمة حقيقةً إنما هي لله وحده ، ولا يعارضه خبر (أفلحَ وأبيه إن صدق) [٢] لأن تلك كلمة جرت على لسانهم للتأكيد لا للقسم ، فيكره الحلف بغير الله تنزيهًا عند الشافعية ، وعلى الأشهر عند المالكية ، وتحريمًا عند الظاهرية ، وعلى الأشهر عند الحنابلة . قال في المطامح : وتخصيص الآباء خرج على مقتضى العادة وإلا فحقيقة النهي عامة في كل معظم غير الله[٣] .

---

(١) سنن ابن ماجه (١٧٠٨) . قال الألباني : صحيح .

(٢) سنن أبي داود (٣٩٢) . قال الألباني : شاذ بزيادة (وأبيه) .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/٤٠٤ .

٤٤- باب
قول ما شاء الله وشئت .

عن قُتيلة : أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال : « إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت». رواه النسائي وصححه[١].

وله[٢] **أيضا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال : «أجعلتني لله ندًّا ؟ ما شاء الله وحده».**

ولابن ماجه[٣] **عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قال : رأيت كأني أتيت**

---

(١) سنن النسائي (٣٧٧٣) وفيه : أخبرنا يوسف بن عيسى قال حدثنا الفضل بن موسى قال حدثنا مسعر عن معبد بن خالد عن عبد الله بن يسار عن قتيلة امرأة من جهينة أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال : « إنكم تنددون وإنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت وتقولون والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ويقولون ما شاء الله ثم شئت». قال الألباني : صحيح .

(٢) في السنن الكبرى (١٠٧٥٩) وفيه : أخبرنا علي بن خشرم عن عيسى عن الأجلح عن زيد بن الأصم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فكلمه في بعض الأمر فقال : ما شاء الله وشئت فقال النبي ﷺ « أجعلتني لله عدلاً قل ما شاء الله وحده».

(٣) سنن ابن ماجه (١٧٢١) وفيه : حدثنا هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال : نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشاء محمد وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما والله إن كنت لأعرفها لكم قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد». قال الألباني : صحيح .

على نفر من اليهود قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : «هل أخبرت بها أحدًا ؟ قلت : نعم قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده».

راجع شرح حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في باب قول الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٢٢) .

٤٥- باب
من سب الدهر فقد آذى الله .

قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية:٢٤) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَقَالُواْ** ﴾ من غاية غيهم وضلالهم : ﴿ **مَا هِىَ** ﴾ أي : ما الحياة لأنهم وعُدوا حياة ثانية ، ﴿ **إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا** ﴾ التي نحن فيها ، ﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ أي : يُصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، أو : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا ، أو : يموت بعض ويحيا بعض ، أو : نكون مواتًا نطفًا في الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك . وقيل : هذا كلام مَن يقول بالتناسخ ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ، أي : يموت الرّجل ، ثم تجعل روحه في شبح آخر ، فيحيا به ، وهو باطل عند أهل الإسلام . ثم قالوا : ﴿ **وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ** ﴾ إلا مرور الزمان وهو في الأصل : مدة بقاء العالم ، من : دهَرهُ : إذا غَلبه ، وكانوا يزعمون أن مرور الزمان بالليالي والأيام هو المؤثّر في هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت ، وقبضه الأرواح بأمر الله تعالى ، وكانوا يضيفون كلّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، كما قال شاعرهم :

أشاب الصغيرَ وأفنى الكبير ... كرّ الغداةِ ومرّ العشيّ .

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ** ﴾ (الجاثية:٢٤،٢٥) .

ومنه قول تُبع الأكبر ، أو غيره :

منــــع البقـــاء تغـــرّب الشـــمس وطلوعها من حيــث لا تـــمسى .
وطلوعهــــا بيضـــــاء صـــافية وغروبـــــها صـــفراء كـــالورس .
تجـــرى علـــى كبـــد الســـماء كما يجرى حِمام المــوت بــالنفس .
اليــــوم أعلـــم مـــا يجـــىء بـــه ومضـــى بفصـــل قضـــائه أمـــس .

فإن كان تُبّعا المتقدم فنسبة الفعل إلى الدهر مجاز ، كما سيأتى ، وعقيدة الموحدين ألاَّ فاعل إلا الله ، فالدهر مُسخّر بأمر الله وقدرته ، بل هو من أسرار الله وأنوار صفاته ، ولذلك قال ﷺ : « لا تسبّوا الدهر ، فإن الله هو الدهر »[1] وقال ﷺ : « قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدّهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »[2] فالأمور كلها بيد الله ، والدهر إنما هو مظهر لعجائب القدرة ، كما قال أبو علي الثقفي رضي الله عنه :

يـــا عاتـــبَ الـــدهر إذا نابـــه لا تلـــم الـــدهر علـــى غـــدره .
الـــدهرُ مـــأمورٌ لـــه آمـــر قـــد انتـــــهى الـــدهر إلى أمـــــره .
كـــم كـــافر أموالـــه جمّـــة تـــزداد أضـــعافًا علـــى كفـــرهِ ؟
ومـــؤمنٍ لـــيس لـــه درهـــمٌ يـــزداد إيـــمانًا علـــى فقـــره ؟

وقد ينسب أهل التوحيد الفعل إلى الدهر مجازًا ، تغزلاً ، في أشعارهم ، كما قال عبد الملك بن مروان ، حين ضعف حاله :

فاســتأثر الــدهر الغــداة بــهـــم والـــدهر يـــرمينى ومـــا أرمـــى .
يـــا دهـــر قـــد أكثـــرت فَجعتنـــا بســـراتنا وقـــرت في العظـــم .
وتركتنـــا لحمًـــا علـــى وضَـــمِ لو كنت تســتبقى مــن اللحــم !!

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً .
(٢) سيأتي تخريجه قريباً .

وسلبتنا ما لستَ تُعقبنـا يـا دهـر   مـــا أنصـــفت في الحكـــم !! .

قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : ليس لهم بما ذكر من اقتصار الحياة على ما في الدنيا ، وإسناد التأثير إلى الدهر ، (من علم) يستند إلى عقل ولا نقل ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ﴾ الناطقة بالحق ، الذي من جملته البعث ، ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحـات الـدلالـة علـى ما نطقت بـه ، أو مبينات له ، ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ ما كان متمسكًا لهـم شـيء مـن الأشـياء ، ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في أنـّا نُبعث بعد الموت ، أي : لا شبهة لهم إلا هذا القول الباطل ، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحُجة ، أي : ليس لهم حُجة إلا العناد والاستبعاد . وتسميته حُجة إما لسوقهم إياه مساق الحُجة في زعمهم ، أو تهكمًا بهم ، كقول القائل : « تحية بينهم ضرب وجيع » . قال ابن عرفة : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ الآية ، أي : إنهم مع كونهم ظانين فَهم بحيث لو استدل لهم لما ازدادوا إلا ضلالاً ، وقد تقرر فى علم الجدل أن المصمم على الشيء يصعب نقله عنه ، بخلاف الظان والشاك ، فأتت هذه الآية نفيًا لما يتوهم في هؤلاء أنهم حيث لا يقين عندهم يسهل رجوعهم حين تظهر الحجة . اهـ . ومن نصب «حجتهم» فخبر كان ، ومن رفعه فاسمها .

الإشارة : قال القشيري : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ الآية ، اغتروا بما وجدوا عليه خَلَفَهم ، وأرخوا في البهيمية عَنانهم وعمرهم ، وأغفوا عن ذكر الفكرة قلوبَهم ، فلا بالعلم استبصروا ، ولا من الحقائق استمدوا ، رأسُ ما لهم الظن ، وهم غافلون ، وإذا تتلى عليهم الآيات طلبوا إحياء موتاهم ، وسوف يرون ما استبعدوا . اهـ[1] .

---

(١) تفسير البحر المديد ٧/٧٤-٧٦ .

وفي الصحيح[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر[2] أقلب الليل والنهار». وفي رواية : «لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم) أي يقول في حقي ما أكرهه وزعم أن المراد يخاطِبني بما يؤذي من يمكن في حقه التأذي تكلف قال الطيبي : والإيذاء إيصال مكروه إلى الغير وإن لم يؤثر فيه ، وإيذاؤُه تعالى عبارة عن فعل ما لا يرضاه (يسب الدهر) يروى بحرف الجر وبياء المضارع والدهر اسم لمدة العالم من مبدإ تكوينهِ إلى انقراضه ويعبر به عن مدة طويلة (وأنا الدهر) أي مقلبهُ ومدبره ، فأقيم المضاف مقام المضاف إليه أو بتأويل الدهر على أن يكون مصدرًا أي المصرف المدبر لما يحدث ولهذا عقبه بقوله (بيدي الأمر أقلبُ الليل والنهار) أي أجددهما وأبليهما وأذهب بالملوك كما في رواية أحمد . والمعنى أنا فاعل ما يضافُ إلى الدهر من الحوادث فإذا سب الآدميُ الدهر يعتقد أنه فاعلُ ذلك فقد سبني ، ذكره الراغب . وقال القاضي : من عادةِ الناس إسناد الحوادثِ والنوازل إلى الأيام والأعوام وسبها لا من حيث إنها أيام وأعوام ، بل من حيث إنها أسباب تلك النوائب موصلتها إليهم على زعمهم ، فهم في الحقيقة ذموا فاعلها وعبروا عنه بالدهر في سبهم وهو بمعنى قوله : أنا الدهر لا أن حقيقته حقيقة الدهر ، ولإزاحة هذا الوهم الزائغ أردفه بقوله (أقلبُ الليل والنهار) فإن مقلب الشيء ومغيرهُ لا يكون نفسه ، وقيل فيه إضمار

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٦)(٦١٨١)(٦١٨٢)(٧٤٩١) ، صحيح مسلم (٢٢٤٦) .

(٢) في صحيح البخاري : بيدي الأمر .

والتقدير وأنا مقلب الدهر والمتصرف فيه والمعنى أن الزمان يُذعن لأمري لا اختيار له ، فمن ذمّه على ما يظهر فيه صادراً عني فقد ذَمني فأنا الضارُّ والنافعُ ، والدهر ظرف لا أثر له ويعضده نصب الدهر على أنه ظرف متعلق بأقلب والجملة خبر المبتدأ ، انتهى كلامه . قال المنذري : الجمهور على ضم الراء إلى هنا كلام المنذري(١) .

(لا تَسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) أي : فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر ، وسببه أنهم كان يُضيفون كل حادثةٍ تحدثُ إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان كذا في الكشاف ، وقال المنذري : معنى الحديث أن العرب كانت إذا نزل بأحدهم مكروه بسبب الدهر اعتقدوا أن الذي أصابه فعل الدهر فكان هذا كاللعن للفاعل ولا فاعل لكل شيء إلا الله فنهاهم عن ذلك(٢) .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤/٦٣٠ .
(٢) المرجع السابق ٦/٥١٧ .

٤٦- باب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه .

في الصحيح[١] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أخنعَ اسم[٢] عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله». قال سفيان : مثل شاهان شاه . وفي رواية[٣] : «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه». قوله : أخنع يعني : أوضع .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(أخنع) بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة وفي رواية أخنى أي : أفحش (الأسماء) أي : أقتلُها لصاحبه وأهلكها له يعني أدخلها في الخنوع وهو الذُل والضعة والهوان ذكره الزمخشري (عند الله يوم القيامة) قُيد به مع كونه في الدنيا كذلك ؛ إشعارًا بترتُب ما هو مسبب عنه من إنزال الهوان وحلول العذاب (رجل) أي اسم رجل قال الطيبي : لا بد من هذا التأويل ليطابق الخبر ، ويمكن أن يراد بالاسم المسمى مجازًا ، أي : أخنع الرجال رجل كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ (الأعلى:١) ، وفيه مبالغة لأنه إذا قدس اسمه عما لا يليق بذاته فذاته بالتقديس أولى وإذا كان الاسم محكومًا عليه بالصغار

---

(١) صحيح البخاري (٦٢٠٥)(٦٢٠٦) ، صحيح مسلم (٢١٤٣) .

(٢) وفي رواية : الأسماء عند الله يوم القيامة . المستدرك على الصحيحين (٧٧٢٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) صحيح مسلم (٢١٤٣) .

والهوان فكيف المسمى به انتهى . وما بحثه تقدمه إليه القرطبي فقال : المراد بالاسم المسمى بدليل رواية : (أغيظ رجل وأخبثه) ووقع في هذه الرواية (وأغيظه) معطوفًا على أخبثه ، فجاء مكررًا فزعم بعضهم أنه وهم ، وأن الصواب وأغنطه بالنون والطاء المهملة أي أشد والغنطة شدة الكذب ورده القرطبي ، أن تطريق الوهم إلى الحفاظ وهم لا ينبغي المبادرة إليه ما وجد للكلام وجه ، ويمكن حمله على إفادة تكرار عقوبة من تسمى به تغليظًا كما قال الله تعالى : ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ (البقرة:٩٠) أي بعقوبةٍ بعد عقوبة (تسمى) أي سمى نفسه ، أو سماه غيره فأقروه ورضي به (ملك) بكسر اللام (الأملاك) أو ما في معناه ، نحو شاه شاهان أو شاهان شاه والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف وألحق به ملك شاه . قيل وإذا امتنعَ التسمي بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبار والرحمن أولى . وقيد فيما مر بالعندية ، إيذانًا بشدة غضبه ، ومزيد عقابه لمن سمي بشيء من ذلك أو تسمى به والتزمه فلم يُغيره . وقال القرطبي وحاصل الحديث : أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبتَ في الفطرة أنه (لا مالك) لجميع الخلائق (إلا الله) فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى فعوقِب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يُعاقب به مخلوق . والمالك من له الملك ، والملك أمدح والمالك أخص وكلاهما واجب لله تعالى . انتهى . وقال الطيبي : قوله لا مالك إلى آخره استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية ، فنفى جنس الملاك بالكلية لأن المالك الحقيقي ليس إلا هو ، ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك ، فمن تسمى بذلك نازعَ الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده لأن وصف المالكية مختص بالله لا يتجاوز ، والمملوكية بالعبد

لا تتجاوزه ، فمن تعدى طوره فله في الدنيا الخزي والعار وفي الآخرة الإلقاء في النار . انتهى . ومن العجائب التي لا تخطر بالبال ما نقله ابن بريدة عن بعض شيوخه ، أن أبا العتاهية كان له ابنتان سمى إحداهما الله والأخرى الرحمن ، وهذا من أعظم القبائح وأشد الجرائم والفضائح وقيل إنه تاب . وألحق بعض المتأخرين بملكِ الأملاك حاكم الحكام وقد شدد الزمخشري النكير عليه، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ (هود:٤٥) : رب غريقٍ في الجهل والجور من متقّلدي الحكومة في زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكمُ الحاكمين فاعتبر واستعبر انتهى . واعترضه ابن المنير بأن خبر : (أقضاكم عليّ)[1] يؤخذُ منه جواز أن يقال لأعدل القُضاة وأعلمهم في زمنه قاضي القضاة . ورد عليه وشنع العلم العراقي منتصرًا للزمخشري . ومن النوادر أن العز بن جماعة رأى أباه في النوم فسأله عن حاله ، فقال : ما كان عليّ أضر من هذا الاسم ، فنهى المُوقعين أن يكتبوا له في الأسجال قاضي القضاة بل قاضي المسلمين ، ومنع الماوردي من جواز تلقيب الملك الذي كان في عصره بملك الملوك ، مع أن الماوردي كان يقال له أقضى القضاة ، ولعل الفرق الوقوف مع الخبر وظهور إرادة العهد الزماني في القضاة . وقال ابن أبي جمرة : يلحق بملك الأملاك قاضي القضاة وإن اشتهر في بلاد الشرق من قديمِ الزمان خلافه وفيه مشروعية الأدب في كل شيء . قال ابن القيم : وتحرم

---

(١) سنن ابن ماجه (١٥١) وفيه : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد حدثنا خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي بن أبي طالب ، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ألا وإن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». قال الألباني : صحيح .

التسمية بسيدِ الناس وسيدة الكل كما تحرم (بسيد ولد آدم)[1] فإن ذا ليس لأحدٍ إلا للرسول عليه الصلاة والسلام فلا يحلُ إطلاقه على غيره ، قال : ولا تجوز التسميةُ بأسماء الله الحسنى كالأحد ، والصمد ، ولا تسمية الملوك بالظاهر والقاهر والقادر ، وظاهر الوعيد يقتضي التحريم الشديد . هبه قصد أنه ملك على ملوك الأرض أو بعضها لكن القاضي أبا الطيب من أكابر الشافعية يجوزه بالقصد المذكور وخالفه الماوردي كما مر[2].

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٧٨) .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/٢١٩ ، ٢٢٠ .

٤٧- باب
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك .

عن أبي شريح أنه كان يُكنى أبا الحكم ، فقال لـه الـنبي ﷺ : « إن الله هو الحكَم ، وإليه الحُكم . فقال : إن قومي إذا اختلفـوا في شـيء أتـوني فحكمت بينهم ، فرضيَ كلا الفريقين . فقال : ما أحسن هذا فما لك مـن الولد؟ قال : شريح ، ومسلم ، وعبـد الله . قـال : فمـن أكـبرهم ؟ قلـت : شريح . قال : فأنت أبو شريح». رواه أبو داود[1] وغيره .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(أنه لما وفد) أي جاء (إلى رسول الله سمعهم) أي سمع النبي (يكنونه) بتشديد النون مع ضم أوله وتخفيف مع فتح أوله (بأبي الحكم) الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل وأبي المعالي وأبي الحكم وأبي الخير ، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة وأبي شُريح وإلى ما لا يلابسه كأبي هريرة ، فإنه عليه السلام رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة ، وقد تكون للعلمية الصرفة

(١) سنن أبي داود (٤٩٥٥) وفيه : حدثنا الربيع بن نافع عن يـزيـد يعـنـي ابـن المـقـدام ابن شريح عن أبيه عن جده شريح عن أبيه هانئ أنه لما وفـد إلى رسـول الله ﷺ مـع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « إن الله هو الحكم وإليه الحكم فلم تكنى أبا الحكم ؟ فقال : إن قومي إذا اختلفـوا في شـيء أتـوني فحكمـت بينهم فرضي كلا الفريقين فقال رسول الله ﷺ : ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ قال : لي شريح ومسلم وعبد الله قال : فمن أكبرهم قلت : شريح قال : فأنـت أبـو شـريح ». قال الألباني : صحيح .

كأبي بكر وأبي عمرو (فدعاه رسول الله) أي طلب هانئًا فقال : (إن الله هو الحَكم) عرف الخبر وأتى بضمير الفصل فدل على الحصر ، وأن هذا الوصف مختصٌّ به لا يتجاوز إلى غيره (وإليه الحكم) أي منه يبتدأ الحكم وإليه ينتهي الحكم له الحكم وإليه تُرجعون لا راد لحكمهِ ولا يخلو حكمه عن حكمته ، وفي إطلاق أبي الحكم على غيره يوهمُ الاشتراك في وصفه على الجملة ، وإن لم يطلق عليه سبحانه أبو الحكم لما فيه من إيــهام الوالدية والولـديـه وقـد غير ﷺ اسم عمرو بن هشام المكنى بأبي الحكم بأبي جهل ، وفي شرح السنة : الحكم هو الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حُكمه ، وهذه الصفة لا تليق بغيرِ الله تعالى ومن أسمائه الحكم ، (فلم تكنى أبا الحكم) أي فلأي شيءٍ وبأي سببٍ من أنواع الكنية تكنى بأبي الحكم (قال : إن قومي) استئناف تعليل (إذا اختلفوا في شيءٍ) وصاروا فرقتين مختلفتين وكاد أن يقتتلا (أتوني ، فحكمتُ بينهم) أي بأي نوعٍ من الحكم (فرضي كل الفريقين بحكمي) أي لمراعاتي الجانبين والعدل بين الخصمين وحصول الصلح من الطرفين (فقال رسول الله : ما أحسن هذا) أي الذي ذكرته من الحكم بالعدل أو من وجه التكنية وهو الأولى ، وأتى بصيغة التعجُّب مبالغةً في حسنه ، لكن لما كان فيه من الإيهام ما سبق في الكلام أراد تحويل كنيته إلى ما يناسبه في المرام ، فقال : إذا كان الأمر كذلك ، (فما لك من الولد) وأغرب المظهر في قوله : ما للتعجب يعني الحكم بين الناس حسن ، ولكن هذه الكنية غير حسنة ، وتبعه الطيبي فقال : ولما لم يطابق جواب أبي شريح قال له ﷺ على ألطف وجه وأرشقه ردًّا عليه ذلك (ما أحسن هذا) لكن أين ذلك من هذا فأعدل عنه إلى ما هو يليق بحالك من التكني بالأبناء ، وهو من باب الرجوع والتنبيه على ما هو أولى به وأليق بحاله . (قال : لي شريح ومسلم وعبد الله) ظاهر الترتيب المقتضي لعقله أنه قدم الأكبر

فالأكبر لكن الواو لدلالته على مُطلق الجمع كان غير صريح في المدعي (قال : ومن أكبرهم) في شرح السنة : فيه أن الأولى أن يكنى الرجل بأكبر بَنيه فإن لم يكن له ابن فبأكبر بناته ، وكذلك المرأة بأكبر بنيها فإن لم يكن لها ابن فبأَكبر بناتها . (قال : أي هانئ (قلت : شريح) أي أكبرهم (قال : فأنت أبو شريح) أي رعايةً للأكبر سنًّا فصار ببركته ﷺ أكبر رتبةً وأكثر فضلاً ، فإنه من أجلة أصحاب علي رضي الله عنه ، وكان مفتيًا في زمن الصحابة ويرد على بعضهم ، وقد ولاه علي رضي الله عنه قاضيًا ، وخالفه في قبول شهادةِ الحسن له والقضية مشهورةٌ ، قال بعض علمائنا : وأما التابعي فإن ظهرت فتواه في زمن الصحابة كشريح كان مثلهم عند البعض ، ولعله عد في فصل الصحابة في أسماء رجال المصنف لهذا المعنى أو لكونه من المخضرمين كما قاله ابن عبد البر في الاستيعاب والله أعلم بالصواب[1].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٢١ ، ٢٢ .

٤٨- باب
من هزل بشئء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (التوبة:٦٥) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : في شأنهم ، (سُورَةٌ) من القرآن على النبي ﷺ ، ﴿ **تُنَبِّئُهُم** ﴾ أي : تخبرهم ، أي : المنافقين ، ﴿ **بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ من الشك والنفاق ، وتُهتك أستارهم ، وكانوا يستهزؤون بأمر الوحي والدين،فقال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام:﴿ **قُلِ** ﴾ لهم : ﴿ **اسْتَهْزِئُوا** ﴾ تهديدًا لهم ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** ﴾ من إنزال السورة فيكم ، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ** ﴾ عن استهزائهم ، ﴿ **لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾ فيما بيننا . روي أن ركبًا من المنافقين مروا على رسول الله ﷺ ، في غزوة تبوك ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل ، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات!! فأخبر الله نبيه ، فدعاهم فقال : (قلتم : كذا وكذا؟) فقالوا : لا ، والله ، ما كنا في شيءٍ من

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾
(التوبة:٦٤-٦٦) .

أمرك ، ولا من أمر أصحابك ، ولكنا كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ، ليقصر بعضنا على بعض السفر . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، توبيخًا لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهـزاء به ، ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ ﴾ أي : لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ أي : قد أظهرتم الكُفر بإيذاء الرسول والطعن عليه ، بعد إظهار إيمانكم الكاذب . (إِنْ يُعْفَ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ) [(١)] بتوبتهم وإخلاصهم ، حيث سبق لهم ذلك كان منهم رجل اسمه مَخشِي ، تاب ومات شهيدًا . أو لكفهم عن الإيذاء ، (تُعَذَّبْ طائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كانُوا)[(٢)] في علم الله ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ مُصرين على النفاق ، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء . والله تعالى أعلم .

الإشارة : الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسبابِ المقت والبعد من الله ، والإصرار على ذلك شؤمُه سوء الخاتمة ، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكاشفوا بأسرارهم ، وقد يُطلع الله أولياءه على ذلك ، وقد لا يطلعهم ، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهُم بكشف أسرارهم لتخلقهم بالرحمة الإلهية . والله تعالى أعلم[(٣)].

عن ابن عمر[(٤)] ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء ؛ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء . فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ . فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد

(١،٢) قال محققه : أثبتنا رواية ورش بالبناء للمفعول ، ورواية حفص بالبناء للفاعل .
(٣) تفسير البحر المديد ٣/٩٣ ، ٩٤ .
(٤) تفسير الطبري (١٦٩١٢) . قال محققه أحمد شاكر : إسناده صحيح .

ارتحل وركب ناقته ، فـقـال : يا رسول الله ، إنما كنّا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقًا بِنسعَة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تَنكبُ رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ ما يلتفت إليه ، وما يزيده عليه .

انظر تفسير قول الله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ** ﴾ (التوبة:٦٥) .

٤٩- باب

قـول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ (فصلت:٥٠) [١].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾** أي : جنسه ، أو : الكافر ، بدليل قوله : **﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾** (الكهف:٣٦) ، أي : لا يملّ **﴿ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾** من طلب السعة في المال والنّعمة ، ولا يملّ عن إرادة النّفع والسلامة ، والتقدير : من دعائه الخير ، فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ، **﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾** الفقر والضيق ، **﴿ فَيَـُٔوسٌ ﴾** من الخير **﴿ قَنُوطٌ ﴾** من الرّحمة ، أي : لا يرجو زواله لعدم علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه فى الرّجوع إلى ربه ، بُولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فَعول ، ومن طريق التكرير لأن اليأس هو القنط ، والقنوط : أن يظهر أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ويُظهر الجزع ، وهذا صفة الكافر لقوله : **﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾** (يوسف:٨٧) . وقال الإمام الفخر : اليأس على أمر الدنيا من صفة القلب ، والقنوط : إظهار آثاره على الظاهر . اهـ . **﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا**

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾** (فصلت:٤٩-٥١)

مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ أي : وإذا فرجنا عنه بصّحة بعد مرض ، أو : سعه بعد ضيق ، قال : (هذا لِي) أي : هذا قد وصل إليّ لأني استوجبته بما عندي من خير ، وفضل ، وأعمال برّ ، أو : هذا لى لا يزول عني أبدا ، ﴿ **وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً** ﴾ أي : ما أظنها تقوم فيما سيأتى ، ﴿ **وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ** ﴾ كما يقول المسلمون ، ﴿ **إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ** ﴾ أي : الحالة الحسنى من الكرامة والنّعمة ، أو : الجنة . قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا لأن ما أصابه من نِعم الدنيا ، زعم أنه لاستحقاقه إياها ، وأن نِعم الآخرة كذلك . وهذا غرور وحمق ، الرجاء ما قارنه عمل ، وإلا فهو أمنية ، الجاهل من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله ، والكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . ﴿ **فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ** ﴾ أي : فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ، ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ﴾ شديد ، لا يفتر عنهم . ﴿ **وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ** ﴾ ، هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمته أبطرته النعمة ، وأعجب بنفسه ، فنسي المنعم ، وأعرض عن شكره ، ﴿ **وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ** ﴾ وتباعد عن ذكر الله ودعائه وطاعته ، أو : ذهب بنفسه وتكبر وتعاظم ، والتحقيق : أن المراد بالجانب النّفس ، فكأنه قال : وتباعد بنفسهِ عن شكر ربه ، ﴿ **وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ** ﴾ الفقر والضر ، ﴿ **فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ** ﴾ أي : تضرع كثير ، أي : أقبل على دوام الدعاء والابتهال . ولا منافاة بين قوله : ﴿ **فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ** ﴾ وبين قوله : ﴿ **فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ** ﴾ لأن الأول في قوم ، والثاني في قوم ، أو : قنوط في البَر ، وذو دعاء عريض في البحر ، أو : قَنوط بالقلب ، وذو دعاء باللسان ، أو : قَنوط من الصنم ، وذو دعاء لله تعالى .

الإشارة : اللائق بالأدب أن يكون العبد عند الشدة داعيًا بلسانه ، راضيًا بقلبهِ ، إن أجابه شَكر ، وإن منعه انتظر وصبر ، ولا ييأس ولا يقنط ، فإنه ضَمِن الإجابة فيما يريد ، لا فيما تريد ، وفي الوقت الذي يريد ، لا في الوقت الذي

تريد ، وإن فرّج عنك نسبتَ النّعمةَ إليه ، دون شيء من الوسائط العادية ، هذا ما يُفهم من الآية . . . وبالله التوفيق[1].

قال مجاهد : هذا بعملي ، وأنا محقوق به .

وقال ابن عباس : يريد من عندي .

وقوله : إنما أوتيته على علم عندي ، قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب .

وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل ، وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف .

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثةً من بني إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص ، فقال : أي شيء أحبُّ إليك؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهبُ عني الذي قد قذرني الناس به . قال : فمسحه فذهب عنه قذره ، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو البقر ـ شك إسحاق ـ فأعطي ناقة عُشراء وقال: بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحبُ إليك؟ قال شعر حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به . فمسحه فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسنًا ، فقال : أي المال أحب إليك؟ قال : البقر أو الإبل . فأعطي بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى ، فقال : أي شيء أحبُّ إليك؟ قال : أن يرد الله إليَّ بصري ، فأبصر به الناس فمسحه فردّ الله إليه بصره . قال : فأي المال أحب إليك؟ قال : الغنم ، فأعطي شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٥٣/٦ ، ٣٥٤ .

انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة . فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً ، فأعطاك الله عزوجل المال[1]؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . فقال : إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت . قال وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا . فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت ، قال: ثم إنه أتى الأعمى في صورته ، فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك وأعطاك المال شاة أتبلغ بها في سفري . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إليَّ بصري ، فخذ ما شئت ، ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله[2] عنك ، وسخط على صاحبيك». أخرجاه[3].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(إن ثلاثةً من بني إسرائيل أبرصَ وأقرع وأعمى) منصوبات على البدلية من ثلاثة (فأراد الله أن يبتليهم) أي يمتحنهمُ ليعرفوا أنفسهُم ، أي ليعرفهم الناس أو ليعلم تعالى أحوالهم علم ظهور ، كما يعلمها علم بطون . قال الطيبي : هو خبر أن عند من يجوز دخول الفاء في خبرها ومن لم يجوز قدر الخبر أي فيما أقص عليكم فقوله فأراد تفسير للمجمل ولو رفع أبرص وما عطف عليه

---

(١) لفظ الصحيحين : فأعطاك الله . دون لفظ : المال .

(٢) في صحيح مسلم : فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك .

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٤) ، صحيح مسلم (٢٩٦٤) .

بالخبرية تعين للتفسير . اهـ . يعني أن رفعها بتقدير أحدهم أبرص أو منهم أبرص (فبعثَ إليهم ملكًا) أي في صورةِ رجلٍ مسكين كما دل عليه قوله الآتي في صورته وهيئته (فأتى الأبرصَ فقال :) أي الملك (أي شيء أحب إليك؟) أي من الأحوال (قال : لون حسن) كالبياض (وجلد حسن) أي ناعم طري (ويذهب عني) بالرفع كقوله أحضر الوغى وفي نسخة على صيغة المجهول ، أي يزول عني (الذي قد قذرني الناس) بكسر المعجمة أي كرهوا مُخالطتي من أجله وهو البرص (قال) أي النبي (فمسحه) أي الملك (فذهب عنه قذره) بفتحتين (وأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا قال :) أي الملك (فأي المال أحب إليك ؟ قال الإبل أو قال البقر شك إسحاق) قال الطيبي : هو إسحاق ابن عبد الله أحد رواة هذا الحديث أقول : والإبل أرجح بقرينة قوله الآتي : فأعطي ناقة بصيغة الجزم (إلا أن الأبرص أو الأقرع) استثناء من الشك (قال أحدهما : الإبل وقال الآخر البقر) أي لم يشك إسحاق في هذا بل في التعيين قاله في الطيبي (قال) أي النبي (فأعطي) أي طالبَ الإبل لا الأبرص كما جزم به ابن حجر (ناقةً عشراء) بضم العين وفتح الشين والمد التي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم أطلق على الحامل مطلقًا (فقال) أي الملك (بارك الله لك فيها). (قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن) بفتح العين وتسكن (ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه قال وأعطى شعرًا حسنًا فقال : فأي المال أحب إليك قال : البقر فأعطي بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها قال : فأتى الأعمى ، فقال أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر) بالنصب والرفع (به الناس قال : فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطي شاة والدًا) قيل هي التي عرف منها كثرة النتاج وقيل : الحامل (فأنتج) بصيغة الفاعل من الإنتاج قال الطيبي : هكذا الرواية ، ومعناه تولى الولادة والمشهور

نتج والناتج للإبل كالقابلة للنساء وقال ابن حجر : أي استولد الناقة والبقرة . (هذان) أي الأبرص والأقرع (وولد) فعل ماض معلوم من التوليد بمعنى الإنتاج (هذا) أي الأعمى (فكان لهذا) أي للأبرص (وادٍ من الإبل ولهذا) أي للأقرع (وادٍ من البقر ولهذا) أي للأعمى (وادٍ من الغَنم قال) أي النبي ﷺ (ثم إنه) أي الملك (أتى الأبرص في صورته) أي التي جاء الأبرص عليها أول مرة (وهيئته) قال الطيبي : ولا يبعد أن يكون الضمير راجعًا إلى الأبرص ، لعله يتذكر حاله ويرحم عليه بماله والأول أظهر في الحجة عليه حيث جاءه في صورته التي تسبب في جماله ، وحصول كثرة ماله . (فقال :) أي له (رجل مسكين) أي أنا (قد انقطعت بي الحبال) أي الأسباب (في سفري) قال الطيبي : الباء للتعدية قال : السيد جمال الدين : فيه تأمل لأن المعنى لا يساعد التعدية ، والأصوب أن يقال الباء بمعنى من كما في قوله تعالى : ﴿ **يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ** ﴾ (الإنسان:٦) . اهـ . والأظهر أن الباء للسببية والملابسة . كما في قوله تعالى : ﴿ **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ** ﴾ (البقرة:١٦٦) ، والحبال بكسر المهملة بعدها موحدة جمع الحبل وهو العهدُ والزمان والوسيلة ، وكل ما ترجو فيه خيراً أو فرجًا أو تستدفع به ضرراً والحبل ههنا السبب فكأنه قال : (انقطعت بي الأسباب) وفي شرح الشيخ ابن حجر العسقلاني ، أي الأسباب التي يقطعُها في طلب الرزق ولبعض رواة مسلم الحيال بالمهملة ، والتحتانية جمع حيلة أي لم تبق لي حيلة ذكره السيد جمال الدين . وقال ابن الملك : وفي بعض نسخ البخاري الجبال بالجيم ، وهو جمع جبل أي طال سفري وقعدت عن بلوغ حاجتي . (فلا بلاغ) أي كفاية (لي اليوم إلا بالله) أي إيجادًا وإمدادًا (ثم بك) أي سببًا وإسعادًا وفيه من حسنِ الأدب ، ما لا يخفى حيث لم يقل وبك وثم التراخي الرتبة والتنزل في المرتبة . قال الطيبي : أمثال ذلك من الملائكة ليست أخبارًا بل من معاريض الكلام ، كقول إبراهيم ﴿ **إِنِّى سَقِيمٌ** ﴾ (الصافات:٨٩)

وكقوله ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً ﴾ (ص:٢٣) (أسألكَ) أي مقسمًا عليك أو متوسلاً إليك . (بالذي أعطاك اللونَ الحَسَن والجلد الحسن والمال) أي الإبل (بعيرًا) مفعول أسألك أي أطلب منك بعيرًا (أتبلغُ به في سفري) أي إلى مقصودي أو وطني (فقال : الحقوقُ كثيرة) أي حقوق المال كثيرة عليَّ ، ولم أقدر على أدائها أو حقوق المستحقين كثيرة فلم يحصل لك البعير ، وقد أراد به دفعه وهو غير صادق فيه . (فقال : إنه) أي الشأن (كأني أعرفك) ونكتة التشبيه المغالطة لتمكنه المكابرة (ألم تكن أبرص) أي قد كنت أبرص (يقذرك الناس) بفتح الذال أي يكرهونك ويستقذرونك وهو حال كقوله (فقيرًا) أو هذا خبر ثان وهو الأظهر لقوله (فأعطاك الله) أي مالاً أو جمالاً ومالاً (فقال : إنما ورثت هذا المال كابرًا) حال (عن كابر) أي كبيرًا آخذًا عن كبير أو كبيرًا بعد كبير والمعنى حال كوني أكبر قومي سنًّا ، ورياسةً ونسبًا وآخذًا عن آبائي الذين هم كذلك حسًّا ونعم من قال من أرباب الحال :

كأن الفتى لم يعر يومًا إذا اكتسى   لم يك صعلوكًا إذا ما تمولا .

وهذا من باب الاكتفاء في الجواب ، فإنه يلزم عرفًا من التكذيب في شيءٍ تكذيبه في آخر . (فقال) أي الملك (له إن كنت كاذبًا) أورد بصيغة الماضي لأنه أراد المبالغةَ في الدعاء عليه كذا في فتح الباري ، ووجهه غير ظاهر وقيل : ذكر أن دون إذا مع أن كذبه كان مقطوعًا به ، عند الملك لقصد التوبيخ وتصوير أن الكذب في مثل هذا المقام يجب أن يكون إلا على مجرد الغرض والتقدير اهـ . وفيه ما فيه والأظهر أنه عدل عن إذا كذبت إلى قوله إن كنت كاذبًا بصيغة الماضي ، وبالوصف الدال على المتصف بالكذب غالبًا للإشارة إلى أن مثل هذا يستحق الدعاء عليه ، ولا يبعد أو تكون إن بمعنى إذ كما قيل : في قوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٧٥) (فصيرك الله إلى ما كنت) من البرص والفاقة أي جعلك حقيرًا فقيرًا . (قال : وأتى الأقرع

في صورته) لم يقل هنا وهيئته اختصارًا أو اكتفاءً (فقال له مثل ما قال لهذا) أي لهذاك (ورد عليه مثل ما رد على هذا فقال إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت) قال : ميرك : فإن قلت لم دخل الفاء في الجزاء وهو فعل ماضٍ ؟ قلت هو دعاء . اهـ . أي هذا في معنى الدعاء فلذا جاز دخول الفاء ، وإن جعل خبرًا يكون التقدير فقد صيرك الله . (قال : وأتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال : رجلٌ مسكين ، وابن سبيل) أي مسافر (انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألكَ بالذي رد عليك بصرك شاةً ، أتبلغ بها في سفري فقال :) اعترافًا وتحدثًا بنعمةِ الله (قد كنت أعمى ، فرد الله إليَّ بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك) بفتح الهمزة والهاء وفي نسخة بضم الهمزة وكسر الهاء أي لا أستفرغ طاقتي (اليوم بشيء) أي بمنع شيء (أخذته لله تعالى) كذا قاله الطيبي ولا يخفى أن هذا المعنى لا يناسب المقام بل الأولى ، أن يقال معناه لا أشق عليك في رد شيء تطلبه مني ، أو تأخذه من مالي كما نقله الشيخ ابن حجر العسقلاني عن القاضي عياض ، والله أعلم ذكره السيد جمال الدين . (فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم) أي أنت ورفيقاكَ والمعنى اختُبرتم هل تذكرون سوء حالتكم ، وشدة خدمتكم أولاً وتشكرون نعمةَ ربكم عليكم آخرًا . (فقد رضي عنكَ وسخط على صاحبيك) بصيغة المجهول فيهما[1] .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤/٣٣٠-٣٣٣ .

٥٠- باب

قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (الأعراف:١٩٠) [1].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ** ﴾ آدم عليه السّلام ، ﴿ **وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا** ﴾ أي : خلق من ضلعها زوجها حواء ، سلها منه وهو نائم ، ﴿ **لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا** ﴾ ليستأنِس بها ، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه . ﴿ **فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا** ﴾ أي : جامعها حين رُكبت فيه الشهوة ، ﴿ **حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا** ﴾ أي : خف عليها ، ولم تلق منه ما تلقى بعضُ الحبالى من حملهن من الأذى والكرب ، أو حملاً خَفيفًا ، يعني النطفة قبل تصورها ، ﴿ **فَمَرَّتۡ بِهِۦ** ﴾ أي : ذهبت وجاءت به ، مخففة ، واستمرت إلى حين ميلاده ، ﴿ **فَلَمَّآ أَثۡقَلَت** ﴾ أي : ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره في بطنها ، ﴿ **دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا** ﴾ آدم وحواء ، قائلين : ﴿ **لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا** ﴾ ولدًا ﴿ **صَٰلِحًا** ﴾ أي : سويًا سالمًا في بدنه ، تام الخلقة ، ﴿ **لَّنَكُونَنَّ** ﴾ لك ﴿ **مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ على هذه النعمة المجددة . ﴿ **فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا** ﴾ ولدًا ﴿ **صَٰلِحًا** ﴾ كما سألا ، جعل أولادُهما ﴿ **لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا** ﴾ ، فسموا عبد العزى

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (الأعراف:١٨٩،١٩٠) .

وعبد مناف وعبد الدار . فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك ، ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك لعصمة الأنبياء ، وهذا هو الصحيح . وقد يُعاتبُ الملك الأب على ما فعل أولادهُ ، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له : أولادك فعلوا وفعلوا ، على عادة الملوك . وقيل : لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة الرجل ، فقال لها : وما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب ، وما يدريك من أين يخرج ؟ فخافت من ذلك ، ثم قال لها : إن أطعتينى ، وسميته عبد الحارث ، فسأخلصه لك ، وكان اسم إبليس فى الملائكة : الحارث ، وإن عصيتنى قتلته ، فأخبرت بذلك آدم ، فقال لها : إنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة أخرى ، فقال لها إبليس مثل ذلك ، فعصته ، فلما ولدت مات الولد ، ثم حملت مرة ثالثة ، فسمياه عبد الحارث طمعًا في حياته ، فقوله : (جَعَلا لَهُ شركًا[1] فِيما آتاهُما) أي : في التسمية لا غير ، لا في عبادة غير الله . والقول الأول أصح ، لثلاثة أوجه : أحدها : أنه يقتضى براءة آدم وحواء من الشرك ، قليله وكثيره ، وذلك هو حال الأنبياء ـ عليهم السلام ـ . والثاني : أنّ جمع الضمير في قوله : ﴿ **فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ ، يقتضى أن الشرك وقع من أولادهما ، لا منهما . الثالث : أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح ، وهو غير موجود .

الإشارة : قال الورتجبي : في قوله ﴿ **لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا** ﴾ : لم يجد آدم عليه السّلام في الجنة إلا سنا تجلي الحق ، فكاد أن يضمحل بنور التجلي ، لتراكمه عليه ، فعلم الله ـ سبحانه ـ أنه لا يتحمل أثقال التجلي ، وعرف أنه يذوب في نور حسنه ، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور ، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت ، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها ، ويستوحش بها سُوَيعات من سطوات التجلي ، ولذلك قال ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ :

---

(١) قال محققه : أثبتنا رواية ورش ، ورواية حفص « شركاء» .

(كلميني يا حميراء)[1]. ثم قال : وقال بعضهم : خلقها ليسكن آدم إليها ، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة ، بسكونه إليها ، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة . اهـ . فكل من سكن إلى غير الله تعالى كان سكونه بلاء في حقه ، يخرجه من جنة معارفه . والله تعالى أعلم[2].

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمـرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك حاشى عبد المطلب .

وعن ابن عباس في الآية : قال : لما تغشاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أَيلٍ ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن ، يخوفهما ، سمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا ، ثم حملت ، فأتاهما فقال مثل قوله : فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا . ثم حملت فأتاهما ، فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ (الأعراف: ١٩٠) **. رواه ابن أبي حاتم .**

وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته .

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ قال : أشفقا أن لا يكون إنسانا وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

---

(١) لا أصل له بهذا اللفظ .

(٢) تفسير البحر المديد ٢/٤٢٦ ، ٤٢٧ .

٥١- باب

قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦ ﴾ (الأعراف: ١٨٠) (١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾** تسعة وتسعين ، **﴿ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾** أي : سموه بها . قال ابن جزى : أي : سموه بأسمائه ، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على الله سبحانه ، فأما ما ورد منها في القرآن والحديث فيجوزُ إطلاقه على الله إجماعًا ، وأما ما لم يرد ، وفيه مدح ولا تتعلق به شُبهة ، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على الله ، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره ، ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ما ورد فى القرآن والحديث . وقد ورد في حديث الترمذي(٢) عدتها ، أعني : تعيين التسعة والتسعين . واختلف أهل الحديث : هل هي مرفوعة أو موقوفة على أبي هريرة؟ والذي في الصحيح : « إنّ لله تسعة وتسعين اسمًا ، مائة إلا واحدًا ، من أحصاها دخل

---

(١) تمام الآية : **﴿ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾** (الأعراف: ١٨٠) .

(٢) سنن الترمذي (٣٥٠٧) : وقال هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان ابن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث وقد روى آدم ابن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح . قال الألباني : ضعيف .

الجنّة»[1]. وهــل الإحـصــاء بالحـفـظ أو بالعـلـم أو بالتخـلـق أو بالتعـلــق أو بالتحقق؟ أقوال . قلت : كونها موقوفةً بعيدٌ جدًّا إذ ليس هذا مما يقال بالرأي . وسبب نزول الآية : أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ ، فيذكر الله مرة ، والرحمن أخرى ، فقال : يزعم محمد أن الإله واحد ، وها هو يعبد آلهة كثيرة ، فنزلت الآية مُبيّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمى واحد ، و(الحسنى) : مصدر وُصف به ، أو تأنيث أحسن ، وحسن أسماء الله هي أنها صفة مدح وتعظيم وتحميد ، وقيل : الدعاء بها : التوسل بكل واحد منها . قال تعالى : ﴿ وَذَرُواْ ﴾ أي : اتركوا ﴿ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ ﴾ أي : يميلون ﴿ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ ﴾ عن الكمال إما بتعطيلها ، أو إنكار شيء منها ، وإمـا بزيادة فيها ، مما يوهم نقصًا أو فسادًا .

قال القشيري : الإلحاد : هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين : بالزيادة والنقصان فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا . اهـ . قال البيضاوي : أي : اتركوا تسمية الزائغين فيها ، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه ، إذ ربـما يـوهـم معنًى فاسدًا ، كقولـهـم : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، أو لا تبالُوا بإنكارهم ما سمى به نفسه ، كقولهم : ما نعرف إلا رحمان اليمامة ، أو : وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام ، واشتقاقها منه كاللات من الله ، والعزى من العزيز ، فلا توافقوهم عليه ، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم . اهـ . قال ابن جزي : قيل : معنى (ذروا): اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم ، فالآيــة ، على هذا ، منسوخة بالقتال ، وقيل : معنى (ذروا) للوعيد والتهديد ، كقوله : ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (المزمل:١١) ، وهو الأظهر . قلت : وهو أليق بقوله بعده : ﴿ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ من الإلحاد وغيره .

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٣٦)(٦٤١٠)(٧٣٩٢) ، صحيح مسلم (٢٦٧٧) .

الإشارة: قال القشيري بعد كلام: ويقال إن الله سبحانه وقف الخلق بأسمائه، فهم يذكرونها قالة ، وتعزّزا بذاته ، والعقول ـ وإن صَفت ـ لا تهجم على حقائق الإشراف إذ الإدراك لا يجوز على الحق ، فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك ، وطلبه في أحوال الرؤية . والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي مُتَفرد . قلت : وأسماء الله الحسنى كلها تتجلى في مظاهر الإنسان ، وتتوارد عليه انفرادًا واجتماعًا ، وقد تجتمع في واحد ، إذا كان عارفًا ، كلها ، بحيث يتخلق بها ، غير أن تجلياتها تختلف عليه ، تارةً ملكًا قدوسًا ، وتارةً رحمانيًّا رحيمًا ، وهكذا . وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها ، في شرحنا : الفاتحة الكبير ، والله تعالى أعلم(١).

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ ﴾ : يشركون .

وعنه : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز .

وعن الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها .

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٤١٩ ، ٤٢٠ .

٥٢- باب
لا يقال : السلام على الله .

في الصحيح عن ابن مسعود ﵁ قال : «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان ، فقال النبي ﷺ : لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام»[(١)].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

لأن معنى السلام عليك هو الدُعاء بالسلامةِ من الآفات ، أي سلمت من المكاره أو من العذاب ، وهذا لا يجوز لله تعالى (فإن الله هو السلام) أي هو الذي يُعطي السلامة لعبادهِ فأنى يدعى له وهو المدعو على الحالات . وورد في الدعاء[(٢)] : (اللهم أنتَ السلام) أي المختص به لا غيرك لتعريف الجزءين الدال على الحصر ، (ومنك السلام) أي : حصوله لا من غيرك ، وإليك يعودُ السلام أي ما صدر من غيرك من السلام . فإنما لهم صورة وأما حقائقهُ فراجعةٌ إليك[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (٨٣١) (١٢٠٢) (٦٣٢٨) ، صحيح مسلم (٤٠٢) .

(٢) صحيح مسلم (٥٩١) (٥٩٢) .

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٧٧/٢ .

٥٣- باب
قول : اللهم اغفر لي إن شئت .

في الصحيح[١] عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة ؛ فإن[٢] الله لا مكره له».

ولمسلم[٣] : «وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت) ، أشار الداودي إلى حمل الكراهةِ على ما إذا أتى بذلك على سبيل الاستثناء ، أما إذا أتى به على سبيل التبرُّك فلا كراهة قال الحافظ : وهو جيد بل (ليعزم المسألة) قال العلماء : عزمُ المسألة الشدة في طلبها والجزم به من غير ضعفٍ في الطلب ولاتعليق على مشيئته ونحوها . وقيل هو حسنُ الظن بالله في الإجابة ، ومعنى الحديث استحباب الجزم في الطلب وكراهة التعليق على المشيئة . قال العلماء : سبب كراهته أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حقٍ من يتوجه عليه الإكراه فيخففُ عنه ، ويعلم أنه لا يطلب منه ذلك إلا برضاه ، والله منزهٌ عن ذلك ،

(١) صحيح البخاري (٦٣٣٩)(٧٤٧٧) ، صحيح مسلم (٢٦٧٩) .
(٢) في صحيح البخاري : فإنه لا مكره له .
(٣) صحيح مسلم (٢٦٧٩) .

وهو معنى قوله (فإنه لا مكره له) فليس للتعليق فائدة . وقيل سبب الكراهة أن في هذا اللفظ صورةَ الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه . قال الحافظ : والأول أولى . (وليعظمِ الرغبة) شدةُ الطلب (فإن الله لا يتعاظمُه) أي لا يتعاظم عليه والصيغة للمبالغة (شيء أعطاه) أي مطلوبٍ كان من دُنيوي وأخروى[1] .

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٤/٤٧٤ ، 475 .

٥٤- باب
لا يقول : عبدي وأمتي .

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وضئ ربك[١] ؛ وليـقل : سيّدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي[٢] ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي»[٣].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(عبدي) أي يا عبدي أو عبدي فـلان دفعًا لتوهُم الشركة في العُبودية أو في حقيقة العبدية ، وكذا قوله : (وأمتي) في الإعراب ، والمعنى فإن الأمة هي المملوكة على ما في القاموس ولا ملك في الحقيقة إلا له سبحانه وتعالى ، (كلكم) استئناف تعليل ، والمعنى كل رجالكُم (عبيد الله) بقرينةِ المقابلة بقوله : (وكل نسائكم إماء الله) ، ويحتمل أن يكون الأول عامًّا على وجه التغليب ، والثاني تخصيصًا بعد تعَميم ، ويؤيد التوجيه السابق قوله تعالى : ﴿ **وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ** ﴾ (النور:٣٢) ، (غلامي) أي بدلاً عن عبدي وأمتي ، وكذا قوله : (فتاي وفَتاتي) فالواو بمعنى أو وهما بمعنى الشاب أو الشابة بناءً على الغالب في الخدم أو القوي والقوية ، ولو باعتبار ما كان ، (ولا يقل العبدُ : ربي) أي بالنداء أو الإخبار لأن الإنسان مربوبٌ متعبدٌ بإخلاصِ التوحيد فكره المُضاهاة بالاسم لئلا يدخلَ في معنى

---

(١) في صحيح مسلم : ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل : سيدي .

(٢) في صحيح مسلم : كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله .

(٣) صحيح البخاري (٢٥٥٢) ، صحيح مسلم (٢٢٤٩) .

الشرك إذا العبد والحر في هذا بمنزلةٍ واحدة ، (ولكن ليقل : سيدي) لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة وحسن التدبير في المعيشة ، ولذلك يسمى الزوج سيدًا ، وفي رواية (ليقل سيدي) أي تارة (ومولاي) أي أخرى لكن بمعنى متصرف ، وفي رواية : (لا يقل العبد لسيده مولاي)[1] أي بمعنى الناصر والمعين ، فلا ينافي ما سبق ولذا يطلق المولى على المُعْتِق والمُعْتَق ، ومنه قوله ﷺ : « مولى القوم من أنفسهم » على ما رواه البخاري[2] عن أنس ، « ومولى الرجل أخوه وابن عمه » على ما رواه الطبراني[3] عن سهل بن حنيف ، والحاصل أن المولى له معانٍ متعددة منها ما يختصُّ به سبحانه ، فلا يجوز استعماله في حقٍ غيره تعالى وهو نعم المولى ، ولذا قال : « فإن مولاكم الله »[4] أي المختص بهذا المعنى الخاص ، ولذا قيل في كراهة هذه الأسماء هو أن يقول ذلك على طريق التطاول على الرقيق والتحقير لشأنه ، وإلا فقد جاء به القرآن قال الله تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ ﴾ (النور:٣٢) ، وقال : ﴿ عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ (النحل:٧٥) ، وقال : ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف:٤٢) ، وقال : ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ ﴾ (يوسف:٢٥)، ومعنى هذا راجع إلى البراءةِ من الكبر والتزام الذل والخضوع ، فلم يحسن لأحد أن يقول : فلان عبدي بل يقول : فتاي ، وإن كان قد ملك فتاه ابتلاءً وامتحانًا تعالى لأنبيائه وأوليائه ابتلى يوسف عليه السلام بالرق ، كذا في شرح السنة ، وفي شرح مسلم للنووي . قالوا : إنما كره للمملوك أن يقول لمالكه : ربي لأن فيه إيهام المشاركة لله تعالى ، وأما حديث : « حتى يلقاها ربها »[5] في الضالة ، فإنما استعمل لأنها غير مكلفة ، فهي كالدار والمال ، ولا كراهة أن

---

(١) صحيح مسلم .
(٢) صحيح البخاري (٦٧٦١) .
(٣) في المعجم الكبير (٥٥٥٧) .
(٤) صحيح مسلم .
(٥) صحيح مسلم (١٧٢٢) .

يقول رب المال والدار،وأما قول يوسف عليه السلام: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف:٤٢) و ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ (يوسف:٢٣) ، ففيه جوابان : أحدهما : أنه خاطبه بما يعرفه وجاز ذلك للضرورة ، وثانيهما : أن هذا منسوخ في شرعنا . اهـ . والأظهر في الجواب عن قوله ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ أن الضمير لله تعالى أي أنه خالقي أحسن منزلتي ومأواي بأن عطف عليَّ القلوب فلا أعصيه ، وعن قوله ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي اذكر حالي عند الملك كي يخلصني ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف:٤٢) ، أي أنسى يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره ، ويؤيده قوله عليه السلام : « رحمَ الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث في السجن سبعًا بعد الخمس »[(١)] كذا في تفسير البيضاوي . وقال أبو سعيد القرشي : لما قال لصاحب السجن ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ نزل جبريل عليه السلام ، فقال : الله يقرئك السلام ويقول : من حببك إلى أبيك من بين أخوتك ، ومن قيض لك السيارة لتخليصك ، ومن طرحَ في قلب من اشتراك من مودتك حتى قال : ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾ (يوسف:٢١)، ومن صرفَ عنك وبال المعصيةِ ؟ قال : الله تعالى قال فإنه يقول : أنا الذي حفظتك في هذه المواضع أخشيت أن أنساك في السجن حتى استعنت بغيري وقلت : ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، أما كان ربكَ أقرب منك وأقدر على خلاصك من رب صاحب السجن لتلبثن فيه بضع سنين ، قال يوسف : وربي عني براضٍ ، قال : نعم . قال : لا أبالي ولو إلى الساعة . كذا في حقائق السلمي[(٢)] .

---

(١) ضعيف . المعجم الكبير للطبراني (١١٦٤٠) .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٧/٩ ، ١٨ .

٥٥- باب
لا يرد من سأل بالله .

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «من سأل بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه». رواه أبو داوود[١] والنسائي[٢] بسند صحيح .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(من استعاذَ) أي من سأل منكُم الإعاذة مستغيثًا (بالله فأعيذوه) قال الطيبي : أي من استَعاذ بكم وطلب منكم دفعَ شركم أو شرغيركم عنه ، قائلاً بالله عليك أن تدفع عني شرك فأجيبوه ، وادفعوا عنه الشر تعظيمًا لاسم الله تعالى فالتقدير من استعاذ منكم متوسلاً بالله مستعطفًا به ، ويحتمل أن تكون الباء صلة استعاذ أي من استعاذ بالله فلا تتعرضوا له بل أعيذوه وادفعوا عنه الشر ، فوضع أعيذوا

---

(١) سنن أبي داود (١٦٧٢) وفيه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه». قال الألباني : صحيح .

(٢) سنن النسائي (٢٥٦٧) وفيه : أخبرنا قتيبة قال حدثنا أبوعوانة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن آتى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه». قال الألباني : صحيح .

موضع ادفعوا ولا تتعرضوا مبالغةً . (ومن سأل بالله فأعطوه) أي تعظيمًا لاسم الله وشفقةً على خلق الله (ومن دعاكم) أي إلى دعوة (فأجيبوه) أي إن لم يكن مانعٌ شرعي (ومن صنَع إليكم معروفًا) أي أحسن إليكم إحسانًا قوليًّا أو فعليًّا (فكافئوه) من المكافأة أي أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم لقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠) و ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص:٧٧) (فإن لم تجدوا ما تكافئوه) أي بالمال والأصل تكافئون فسقط النون بلا ناصب وجازم ، إما تخفيفًا أو سهوًا من الناسخين كذا ذكره الطيبي والمعتمد الأول لأن الحديث على الحفظِ معول ، ونظيره كما تكونوا يول عليكم على ما رواه الديلمي في مسند الفردوس[1] عن أبي بكرة . (فادعوا له) أي للمحسنِ يعني فكافئوه بالدعاءِ له (حتى تروا) بضم التاء أي تظنوا وبفتحها ، أي تعلموا أو تحسبوا (أن قد كافأتُموه) أي كرروا الدعاء حتى تظنوا قد أديتم حقه ، قال ابن الملك : وقد جاء من حديث آخر : «من صُنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء» قلت : رواه النسائي[2] والترمذي[3] وابن حبان[4] عن أسامة مرفوعًا قال : فدل هذا الحديث على أن من قال لأحدٍ جزاكَ الله خيرًا مرةً واحدة ، فقد أدى العوض وإن كان حقه كثيرًا ، وكانت عادة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذا دعا لها السائل تُجيبه بمثل ما يدعو لها ثم تُعطيه من المال ، فقيل لها تعطين السائل وتدعين بمثل ما يدعو لك فقالت : لو لم أدع له لكان حقه بالدعاء لي عليَّ أكثر من حقي عليه بالصدقة فأدعو له بمثل ما يدعو لي حتى أكافئ دعاءه ، بدعائي لتخلص لي الصدقة[5].

---

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣٢٠) : ضعيف .
(٢) في كتاب عمل اليوم والليلة (١٨٠) .
(٣) سنن الترمذي (٢٠٣٥) وقال : هذا حديث حسن جيد غريب لانعرفه من حديث أسامة بن زيد إلا من هذا الوجه . قال الألباني : صحيح .
(٤) صحيح ابن حبان (٣٤١٣) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .
(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٧٥/٤ .

٥٦- باب
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة .

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود[1].

---

(١) سنن أبي داود (١٦٧١) قال الألباني : ضعيف .

٥٧- باب
ما جاء في اللو .

وقول الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ [(١)]
(آل عمران:١٥٤).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **مِّنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ** ﴾ الذي أصابكم بموت إخوانكم ، والإرجاف بقتل نبيكم ، الأمن والطمأنينة ، حتى أخذكم النعاس وأنتم في الحرب . قال أبو طلحة : غَشينا النعاس ونحن في المصافّ ، حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ، ثم يسقط فيأخذه . وقال الزبير رضي الله عنه : لقد رأيتني حين اشتدّ الخوف ، ونحن مع النبي ﷺ ، أرسل الله ـ تعالى ـ علينا النوم ، والله إنى لأسمع قول معتب ، والنعاس يغشانى ، ما أسمعه إلا كالحلُم : (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) . ثم إن هذا النعاس إنما ﴿ **يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ** ﴾ وهم المؤمنون ، أو : هذه الأمنة إنما تغشى طائفة منكم ، وأما المنافقون فقد ﴿ **أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ ، أي : أوقعتهم في الهموم والغموم ، أو ما يهمهم إلا أنفسهم ، يُدبرون خلاصها

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴾ (آل عمران:١٥٤) .

ونجاتها ، فقد طارت قلوبهم من الخوف ، فلا يتصور في حقهم النوم ، ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : غير الظن الحق ، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر ـ عليه الصلاة والسلام ، وأن أمره مضمحل ، أو ظنوا أنه قتل ، ظنًّا كظن الجاهلية ، أهل الشرك ، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي : بعضهم لبعض : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي : عُزلنا عن تدبر أنفسنا ، فلم يبق لنا من الأمر من شيء . قاله ابن أُبي ، لما بلغه قتل الخزرج . ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار ، حال كون المنافقين ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ من الكفر والنفاق ﴿ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ﴾ أي : لو كان تدبيرًا أو اختيارًا ما خرجنا مع محمد حتى نُقتل ههنا ويُقتل رؤساؤنا . ﴿ قُل ﴾ لهم يا محمد : أخرجتكم القدرة في سلسلة المقادير ، رغمًا على أنفكم ، فـ ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ آمنين ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ ﴾ ، ووصل أجلهم ﴿ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ ومصارعهم ، رغمًا على أنفهم ، فإن الله قدّر الأمور ودبرها في سابق أزله ، لا معقب لحكمه ، وإنما فعل ذلك ، وأخرجكم إلى المعركة ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي : يختبر ما فيها من الخير أو الشر ، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي : يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص ، فقد ظهر خبث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذي تمكن فيه ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي : بخفاياها قبل إظهارها . وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غنيٌّ عن الابتلاء ، وإنما فعل ذلك ليُميّز المؤمنين ويُظهر حال المنافقين . قاله البيضاوي .

الإشارة : ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون ، أو من تعلق بكم من السائرين ، من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمنة في قلوبكم بالطمأنينة بشهود الله ، وراحة فى جوارحكم من تعب الخدمة فى السير إلى الله ، حتى وصلتم فنمتم في ظل الأمن والأمان ، وسكنتم في جوار الكريم المنان . قال بعض العارفين : (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح) ، وهذه الراحة إنما تحصلُ للعارفين ، أو من تعلق بهم من المريدين ، وطائفة من

غيرهم وهم المتفقرة الجاهلون ، الذين لا شيخ لهم ، قد أهمتهم أنفسهم ، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها ، تارة تُشرق عليهم أنوار التوجه ، فيقوى رجاؤهم في الفتح ، وتارة تنقبض عنهم فيظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الفتح من شيء؟ قل لهم : ﴿ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ يوصل من يشاء ويبعد من يشاء ، يخفون في أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك ، فإذا طال عليهم الفتح ، وغلب عليهم الفقر ، ندموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا بالذل والفقر والجوع ، قل لهم : ذلك الذي سبق في علم الله ، لا محيد لأحد عنه ، ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب ، [كن صادقًا تجد مرشدًا] ، فلو صدقتم في الطلب لأرشدكم إلى من يُوصلكم ويريحكم من التعب . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق(١).

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ (٢) (آل عمران:١٦٨).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ يا معشر المسلمين يوم أُحُد ﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار ، من القتل والجرح والهزيمة ، ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وقضائه ، لا راد لإمضائه ، ﴿ وَلِيَعْلَمَ ﴾ علم ظهور في عالم الشهادة ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والمنافقين فيظهر إيمانُ هؤلاء وكفر هؤلاء ، وقد ظهر

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٨٧/١ ، ٣٨٨ .

(٢) قال الله عزوجل : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران:١٦٦-١٦٨)

نفاقهُم حيث رجعوا مع عبد اللّه بن أبي ، وكانوا ثلاثمائة . وذلك أنّ ابن أُبي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين ، فلما طلب الخروج قومٌ من المسلمين ، فخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما تقدم ، غضب ابن أُبي ، وقال : أطاعهم وعصاني . فرجع ، ورجع معه أصحابه ، فتبعهم أبـو جـابـر عبد اللّه ابن عمرو بن حرام ، وقال لهم : ارجعوا ﴿ **قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ** ﴾ ، أي : كثروا سواد المسلمين ، فقال ابن أُبي ـ رأس المنافقين ـ : ما أرى أن يكون قتالاً ، ولو علمنا أن يكون قتال ﴿ **لَّٱتَّبَعۡنَـٰكُمۡ** ﴾ ، وكنا معكم . قال تعالى : ﴿ **هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَـٰنِ** ﴾ لظهورِ الكفر عليهم من كلامهم ، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان ، أو : هم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان ، لأن رجوعهم ومقالتهم تقوية للكفار عليهم وتخذيل للمسلمين ، ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِى قُلُوبِهِمۡ** ﴾ ، فهم يظهرونَ خلاف ما يبطنون ، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان ، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ ، ﴿ **وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ** ﴾ من النفاق لأنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب ، وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات . وهؤلاء المنافقون هم ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالُواْ** ﴾ في شأن إخوانهم الذين قُتلوا يوم أحد: ﴿ **لَوۡ أَطَاعُونَا** ﴾ وجلسوا في ديارهم ﴿ **مَا قُتِلُواْ** ﴾ ، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج ، ﴿ **قُلۡ** ﴾ لهم يا محمد : ﴿ **فَٱدۡرَءُواْ** ﴾ أي : فادفعوا ﴿ **عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ** ﴾ أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه ، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم ، فإنه أحرى بكم ، فالقعود لا يُنجى من الموت إذا وصل الأجل ، فإن أسباب الموت كثيرة ، فقد يكون القعود سببًا للموت إن بلغ الأجل ، وقد يكون الخروج سببًا للنجاة إن لم يبلغ . والله تعالى أعلم .

الإشارة : وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق ، حين استشرفتم على الجمع وجمع الجمع فبإذن اللّه فإن الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، وليظهر الصادق من الكاذب ، فإن

محبة اللّه مقرونة بالبلاء ، والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره ، مشروطة بقتل النفوس وحط الرؤوس ، ودفع العلائق ، والفرار من العوائق . فإذا قيل للعوام : قاتلوا أنفسكم في سبيل اللّه لتدخلوا حضرة اللّه ، أو ادفعوا عن أنفسكم العلائق لتشرق عليكم أنوار الحقائق ، قالوا : قد انقطع هذا الطريق واندرست أرباب علم التحقيق ، ولو نعلم قتالاً بقي يوصلنا إلى ربنا ، كما زعمتم لاتبعناكم ودخلنا في طريقكم . هم للكفر يومئذ أقرب للإيمان ، حيث تحكموا على القدرة الأزلية ، وسدوا باب الرحمة الإلهية ، وإنما يقولون ذلك احتجاجًا لنفوسهم ، وإبقاء على حظوظهم ، وليس ذلك من خالص قلوبهم ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية ، قالوا لإخوانهم ، الذين دخلوا في طريق القوم ، وقد قعدوا هُم مع العوام : لو أطاعونا ولم يدخلوا في هذا الشأن ، ما قتلوا أو عذبوا ، فقل لهم أيها الفقير : القضاء والقدر يجرى على الجميع ، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون ، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه . واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه[(١)].

في الصحيح[(٢)] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنني فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

---

(١) تفسير البحر المديد ٣٩٨/١ ، ٣٩٩ .

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤) وفيه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير قالا حدثنا عبد الله بن إدريس عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(المؤمنُ القوي) أي القادر على تكثير الطاعة (خير وأحب إلى الله) عطف تفسير (من المؤمن الضعيف) أي العاجز عنه (وفي كلٍّ خير) أي أصلُ الخير موجود في كل منهما . قيل : المراد بالمؤمن القوي الصابر على مخالطة الناس وتحمل أذيتهم وتعليمهم الخير وإرشادهم إلى الهدى ، ويؤيده ما رواه أحمد(١) وغيره عن ابن عمر مرفوعًا : «المؤمنُ الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». وقيل : أراد بالمؤمن القوي الذي قوي في إيمانه وصلب في إيقانه بحيث لا يرى الأسباب ووثق بمسبب الأسباب،والمؤمن الضعيف بخلافه وهو في أدنى مَراتب الإيمان. وقال النووي رحمه الله : القوة هنا يراد بها عزيمةُ النفس في أمور الآخرة ، فيكون صاحب هذا أكثر إقدامًا على الغزو والجهاد ، وأسرع خروجًا وذهابًا في طلبه وأشد عزيمةً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك . وقوله : (في كل خير) معناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات . (احرص) بكسر الراء ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ ﴾ (النحل:٣٧) ، وفي نسخة بفتحها . ففي القاموس : حرص كضرب وسمع . والمعنى : كن حريصًا . (على ما ينفعُك) أي من أمور الدين (واستعن بالله) أي على فعلك فإنه لا حول ولا قُوة إلا بالله . (ولا تعجز) بكسر الجيم ومنه قوله تعالى جل جلاله : ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ (المائدة:٣١) ، وفي نسخة بالفتح . ففي القاموس : عجز كضرب وسمع ، أي ولا تعجز عن الحرص والاستعانة ، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يعطيك قوةً على طاعته إذا استقمت على استعانته . وقيل :

(١) مسند الإمام أحمد (٥٠٢٢) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

معناه لا تعجز عن العمل بما أمرت ولا تتركه مقتصراً على الاتستعانة به ، فإن كمال الإيمان أن يجمع بينهما . قال الطيبي رحمه الله : يمكن أن يذهب إلى اللف والنشر فيكون قوله : (احرص على ما ينفعك) ولا تترك الجهد ، بيان للقوي ، ولا تعجز بيان للضعيف . (وإن أصابكَ شيء) أي من أمر دينك أو دُنياك (فلا تقل لو أني فعلت) أي كذا وكذا (كان) أي لصار (كذا وكذا) فإن هذا القول غير سديد ومع هذا غير مفيد فإنه قال تعالى جل شأنه : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾ (التوبة:٥١). وقال ﷺ : «ماأصابكَ لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[(١)] وقد قال عز وجل : ﴿ **لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** ﴾ (الحديد:٢٣) ، (ولكن قل :) أي بلسانِ القال أو لسان الحال (قدر الله) بتشديد الدال ، أي قل : قدر الله ويجوز تخفيفهاَ ، أي قل : قدر الله كذا وكذا ، أي وقع ذلك بمقتضى قضائه وعلى وفق قدره . (وما شاء) أي الله فعله (فعل) فإنه فعالٌ لما يريد ولا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه (فإن لو)أي كلمة الشرط ، أو أن (تفتحُ عمل الشيطان) قال الشاطبي رحمه الله : ولم ولو وليت تورث القلب انفلاقًا . قال بعض شراح المصابيح : أي أن قول لو واعتقاد معناها يُفضي بالعبد إلى التكذيب بالقدر أو عدم الرضا بصنع الله ، لأن القدر إذا ظهر بما يكره العبد قال : لو فعلت كذا لم يكن كذا . وقد قدر في علم الله أنه لا يفعل إلا الذي فعل ولا يكون إلا الذي كان وقد أشار بقوله ﷺ قبل ذلك : (ولكن قدر الله وما شاء فعل) . ولم يرد كراهة التلفظ بلو في جميع الأحوال وسائر الصور ، وإنما عني الإتيان بها في صيغة تكون فيها منازعة القدر والتأسف على ما فاته من أمور الدنيا ، وإلا فقد ورد في القرآن مثل : ﴿ **لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ** ﴾ (آل عمران:١٥٤) ، وفي الحديث : «لو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرت»[(٢)] لأنه لم يُرد به منازعة

---

(١) حديث صحيح وسيأتي تخريجه في باب (ما جاء في منكري القدر) .

(٢) صحيح البخاري (١٥٥٧)(١٦٥١)(٢٥٠٥)(٢٠٥٦) ، صحيح مسلم (١٢١٦) .

القدر . وقال القاضي رحمه الله : قوله : فإن لو تفتح ، أي لو كان الأمر لي وكنت مستبدًّا بالفعل والترك كان كذا وكذا . وفيه تأسفٌ على الفائت ومنازعة للقدر وإيهام بأن ما كان يفعله باستبداده ومقتضى رأيه خيرٌ مما ساقه القدر إليه من حيث إن لو تدل على انتفاء الشيء لانتفاء غيره فيما مضى ، ولذلك استكرهه وجعله مما يفتح عمل الشيطان . وقوله ﷺ في حديث فسخ الحج إلى العمرة : « ولو أني استقبلتُ من أمري ما استدبرت » ليس من هذا القبيل وإنما هو كلام قُصد به تطييب قلوبهم وتحريضهم على التحلل بأعمال العمرة . وفي شرح مسلم للنووي رحمه الله : وقال القاضي عياض رحمه الله : هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقدًا ذلك حتمًا . وأما قول أبي بكر رضي الله عنه : لو أن أحدهم رفعَ رأسه لرآنا . فهذا لا حجة فيه لأنه إنما أخبر عن مستقبل ، وكذا قوله ﷺ : (لو كنتُ راجمًا بغير بينة لرجمت هذا)[1]. وشبه ذلك لا اعتراض فيه على قدر فلا كراهة فيه لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته ، وأما الماضي فليس في قدرته . وأما معنى قوله : (فإن لو تفتح عمل الشيطان) . أنه يلقي في القلب معارضةَ القدر ويوسوس به الشيطان . قال الشيخ رحمه الله تعالى : وقد جاء استعمال لو في الماضي كقوله ﷺ : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى » فالظاهر إنما ورد فيما لا فائدة فيه فيكون نهي تنزيه لا تحريم ، وأما من قاله متأسفًا على ما فات من طاعة الله تعالى أو هو معتذر من ذلك فلا بأس به وعليه يحمل أكثر استعمال لو الموجودة في الأحاديث . أقول : بل التأسف على فوت طاعة الله مما يثابُ فينبغي أن يعد من باب الاستحباب[2].

---

(١) صحيح البخاري (٥٣١٠)(٥٣١٦)(٦٨٥٥)(٧٢٣٨) ، صحيح مسلم (١٤٩٩) .
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٩/٤٨٢-٤٨٤ .

٥٨- باب
النهي عن سب الريح .

عن أُبي بن كعب ﵁ : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أُمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به». صححه الترمذي[١] .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(لا تسبوا الريح) فإن المأمور معذور (فإذا رأيتم ما تكرهون) أي ريحًا تكرهونها ، لشدةِ حرارتها أو برودتها أو تأذيتُم لشدة هبوبها . (فقولوا :) أي : راجعين إلى خالقها وآمرها (اللهم إنا نسأُلك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به)، على بناء المفعول (ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به)[٢] .

---

(١) سنن الترمذي (٢٢٥٢) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح . .
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥٦٦/٣ .

٥٩- باب

قول الله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤) .

تقدم تفسير الآية الكريمة في باب (ما جاء في اللو) .

وقوله : ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾(الفتح: ٦)[1] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ** ﴾ أي : السكون والطمأنينة ، فعلة ، من : السكون ، كالبهيتة من البهتان ، ﴿ **فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ حتى لم يتضعضعوا من الشروط التي عقدها ﷺ مع المشركين ، من ردّ من أسلمَ منهم ، وعدم ردهم من رجع إليهم ، ومن دخول مكة قابلاً بلا سلاح ، وغير ذلك مما فعله ﷺ معهم بالوحي ، وما صدر عن عمر رضي الله عنه فلشدة قُوته وصلابته ، وما زال يعتق ويفعل أموراً كفارة لذلك . وقيل : (السكينة) : الصبر على ما أمر به الله من الشرائع والثقة بوعدِ الله ، والتعظيم لأمر الله ، ﴿ **لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ** ﴾ أي : يقينًا إلى يقينهم ، أو : إيمانًا بالشرائع مع إيمانهم

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ (الفتح: ٤-٧) .

بالعقائد . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : بعث الله نبيه بشهادة ألا إله إلا الله فلما صدّقوه فيها ، زادهم الصلاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الزكاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الحج ، فلما صدّقوا زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم ، فذلك قوله : ﴿ **لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** ﴾ يُدبرها كما يريد ، يسلط بعضها على بعض تارة ، ويوقع الصلح بينهما أخرى ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكم والمصالح ، ﴿ **وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا** ﴾ مبالغًا في العلم بجميع الأمور ، ﴿ **حَكِيمٗا** ﴾ في تدبيره وتقديره . ﴿ **لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ** ﴾ ، اللام متعلق بما يدل عليه ما ذكر من قوله : ﴿ **وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** ﴾ من معنى التصرف ، أي : دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين ، ليعرفوا نعمة الله ويشكروها ، فيدخلهم ﴿ **جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ** ﴾ أي : يُغطى عنهم مساوئهم ، فلا يظهرها لهم ولا لغيرهم . وتقديم الإدخال على التكفير ، مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى . ﴿ **وَكَانَ ذَٰلِكَ** ﴾ أي : ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿ **عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا** ﴾ لا يُقادر قدره لأنه منتهى ما امتدت إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر . و« عند الله » : حال من « فوزًا عظيمًا » لأنه صفته في الأصل ، فلما قُدم عليه صار حالاً ، أي : كائنًا عند الله في علمه وقضائه . والجملة : اعتراض مقررٌ لما قبله .

﴿ **وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ** ﴾ لِما أغاظهم من ذلك وكرهوه ، وهو عطف على « يدخل » ، وفي تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب . ﴿ **ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ** ﴾ أي: ظن الأمر السّوء، وهو ألا ينصر الله رسولَه والمؤمنين، ولا يُرجعهم إلى مكة ، فالسّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، يقال : فعل سوءٍ ، أي : مسخوط فاسد . ﴿ **عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ** ﴾ أي : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين ، وهو دائر عليهم وحائق بهم . وفيه لغتان : فتح السين وضمها ، كالكَره والكُره ، والضَّعف والضُّعف ، غير أن المفتوح غلب عليه أن يضاف

إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء ، وأما السوء فجار مجرى الشيء الذي هو نقيض الخير ، أي : الدائرة التي يذمونها ويسخطونها دائرة عليهم ، ولا حقة بهم ، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ لهم ، وهو عطف لما استوجبوه في الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا ، وعطف «ولعنهم» وما بعده بالواو ، مع أن حقهما الفاء المفيدة للسببية إيذانًا باستقلال كلّ واحد منهما بالوعيد ، وأصالته ، من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، إعادة لما سبق ، وفائدتها : التنبيه على أن لله جنود الرحمة وجنود العذاب، كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة في قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ أي : غالبًا ، فلا يردّ بأسه ﴿ حَكِيمًا ﴾ فلا يعترض صنعه . والله تعالى أعلم .

الإشارة : هو الذي أنزلَ السكينة في قلوب المتوجهين ، حتى سكنوا لصدمات تجلي الجلال ، وأنوار الجمال ، وسكنوا تحت مجارى الأقدار ، كيفما برزت ، بمرارة أو حلاوة . قال القشيري : والسكينة : ما يسكن إليه القلب من أنوار الإيمان والإيقان ، أو العرفان بمشاهدة العيان ، بل الاستغراق فى بحر العين بلا أين . اهـ . ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ، فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ، أو من علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، أو من المراقبة إلى المشاهدة ، أو من رؤية الأسباب إلى مسبب الأسباب . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وهي الجنود التي يمد الله بها الرّوح في محاربتها للنفس ، حتى تغلبها وتستولي عليها ، وهي اليقين ، والعلم ، والذكر ، والفكر ، والواردات الإلهية ، التي تأتي من حضرة القهار ، فتدمغ كل ما تُصادمه من الأغيار والأكدار ، وكان اللّه عليمًا بمن يستحق هذه الواردات ، حكيمًا في ترتيبها وتدبيرها ، ليدخل من تأيد بها جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم ، ويغطي عنهم مساوئهم حتى يصلوا إليه ، بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه وهذا هو الفوز العظيم ، يفوز صاحبه بالنعيم المقيم ، في جوار الكريم . ويُعذب أهل النفاق

المنتقدين على أولياء الله ، المتوجهين إليه ، الظانين بالله ظن السوء ، وهو أن خصوصية التربية انقطعت . ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، أي : جنود الحجاب ، وهو جند النّفس ، من الهوى والشيطان ، والدنيا والنّاس ، يسلطها على من يشاء من عباده ، إن تبقى في ظلمة الحجاب ، والله غالب على أمره[1].

قال ابن القيم في الآية الأولى : فُسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته . ففسر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، وأن يظهره الله على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذي ظنهُ المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده . فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله ، وليستغفره من ظنه بربه ظَن السوء . ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامةً له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر . وفتش نفسك ، هل أنت سالم .

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيًا .

---

(١) تفسير البحر المديد ١٣٣/٧-١٣٥ .

٦٠- باب
ما جاء في منكري القدر .

قال ابن عمر : والذي نفس ابن عمر بيده ، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر . ثم استدل بقول النبي ﷺ : «الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشَره». رواه مسلم[١] .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(الإيمان) هو (أن تؤمن) تصدق (بالله) أي : بأنه واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله (وملائكته) أي بأن لله ملائكةً مخلوقين من النور وهم عبادٌ له تعالى سفراء بينه وبين رسله ، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم:٦) ، ليسوا بذكورٍ ولا إناثٍ (وكتبه) بأنها كلام الله القديم القائم بذاته المنزه عن الحُروف والأَصوات التي أنزلها على بعض رسله لهداية الناس (ورسله) وبأن لله رسلاً أرسلهم اللّه إلى الناس لإرشادهم إلى ما فيه مصلحة معاشهم ومعادهم وهم معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها (و) تؤمن (باليوم[٢] الآخر) وهو من الحشر إلى ما لا نهاية أو إلى فصل القضاء (وتؤمن بالقدرِ خيره وشره) حلوه ومره : أي بأن ما قدره الله في الأزل من خيرٍ أو شرٍّ لا بد من وقوعه[٣] .

---

(١) صحيح مسلم (٨) .

(٢) في المصدر السابق : واليوم الآخر .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/٢٤٠ .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه : يا بُني ، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب فقال[1]: رب ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات على غير هذا فليس مني»[2].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(إن أول ما خلق الله القلم) بالرفع وهو ظاهر وروي بالنصب ، قال بعض المغاربة : رفع القلم هو الرواية فإن صح النصب كان على لغة من ينصب خبر إن ، وقال المالكي : يجوز نصبه بتقدير كان على مذهب الكسائي كقوله : يا ليت أيام الصبار واجعا . وقال المغربي : لا يجوز أن يكون القلم مفعول « خلق » لأن المراد أن القلم أول مخلوق ، وإذا جعل مفعولاً لخلق أوجب أن يقال : اسم إن ضمير الشأن ، وأول ظرف فينبغي أن تسقط (الفاء) من قوله : « فقال » إذ يرجع المعنى إلى أنه قال له : اكتب حين خلقه فلا أخبار بكونه أول مخلوق . اهـ . وإنما أوجب ما ذكر لأنه بدونه يفسُد أصل المعنى ، إذ يصير التقدير إن أول شيءٍ خلق الله القلم وهو غير صحيح ، وقيل : لو صحت الرواية بالنصب لم تمنع الفاء ذلك إذ يقدر قبل فقال : أمره . وهو العامل في الظرف كذا حققه الطيبي . وفيه أنه حينئذ لا يكون تنصيص على أولية خلق القلم الذي يدل عليه رواية الرفع الصحيحة ، وفي الأزهار : (أول ما خلق الله القلم) يعني

---

(١) في سنن الترمذي (٢١٥٥) : فقال : «اكتب فقال : ما أكتب قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد». وفي رواية : فقال له : «اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد». قال الترمذي : حديث غريب . قال الألباني : صحيح .

(٢) سنن أبي داود (٤٧٠٠) . قال الألباني : صحيح .

بعد العرش والماء والريح لقوله عليه الصلاة والسلام :« كتبَ الله مقادير الخلائقِ قبل أن يخلق السموات والأراضين بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء» رواه مسلم[1]. وعن ابن عباس سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (هود:٧) (على أي شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح) رواه البيهقي ذكره الأبهري ، فالأولية إضافية والأول الحقيقي هو النور المحمدي على ما بينتُه في المورد للمولد . (فقال) أي الله ، وفي نسخة صحيحة (له) أي للقلم (اكتب) أمر بالكتابة (قال) وفي نسخة بالفاء (ما أكتب) ما استفهامية مفعول مقدم على الفعل (قال : اكتب القدر) أي المقدر المقضي ، وفي المصابيح قال : (القدر ما كان) إلخ قال شراحة ، أي اكتب القدر فنصبه بفعل مقدر وما كان بدل من المقدر ، أو عطف بيان . (فكتب ما كان) المضي بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام قال الطيبي : ليس حكايةً عما أمر به القلم وإلا لقيل فكتب ما يكون ، وإنما هو إخبار باعتبار حاله عليه الصلاة والسلام ، أي قبل تكلم النبي ﷺ بذلك لا قبل القلم ، لأن الغرض أنه أول مخلوق ، نعم إذا كانت الأولية نسبية صح أن يراد ما كان قبل القلم (وما هو كائن) ما موصولة (إلى الأبد) قال الأبهري : ما كان يعني العرش والماء والريح وذات الله وصفاته . اهـ ويمكن أن يحمل ما كان على القضاء وما هو كائن على القدر . والله أعلم .

ظهر لي فيه إشكال والله أعلم بالحال وهو أن ما لا يتناهى في المآل كيف ينحصر وينضبط تحت القلم في الاستقبال سيما مع قوله عليه الصلاة والسلام : « جف القلم »[2] اللهم إلا أن يقال : المراد به كتابةُ الأمور الإجمالية الكلية لا الأحوال التفصيلية الجزئية وهو خلاف ظواهر الأدلة المروية ، ثم رأيت الأبهري نقل عن زين العرب أن الأبد هو الزمان المستمر غير المنقطع ،

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣) .

(٢) سنن الترمذي (٢٦٤٢) وقال : حديث حسن . قال الألباني : صحيح .

فالجمع بينه وبين إلى ممتنع لأنه لا يمكن وصول شيء إليه حتى ينتهي ، قلت : يحمل الأبد على الزمان الطويل . اهـ . وفيه أن الزمان الطويل والله أعلم أنه انقراض العالم ، أو استقرار الفريقين في الموضعين ، ويلزم منه أن لا تكون أحوال الدارين مكتوبةً والله أعلم . ثم رأيت في الدر المنثور نقلاً عن ابن عباس : (إن أولَ شيءٍ خلقه الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال يا رب وما أكتب ، قال : اكتب القدر يجري من ذلك بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم) رواه البيهقي وغيره والحاكم وصححه . وفي الدر أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول شيء خلق الله القلم ثم النون وهي الدواة ، ثم قال له : اكتب ، قال : وما أكتب ، قال : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أثر أو رزق أو أجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة » أخرجه الحكيم الترمذي(١) . هـذا وروي (أن أول ما خلق الله نوري وأن أول ما خلق الله روحي ، وأن أول ما خلق الله العرش) ، والأولية من الأمور الإضافية فيؤول أن كل واحدٍ مما ذكر خُلق قبل ما هو من جنسه ، فالقلم خُلق قبل جنسِ الأقلام ونوره قبل الأنوار وإلا فقد ثبت أن العرش قبل خلق السموات والأرض ، فتطلق الأولية على كل واحد بشرط التقييد فيقال : أول المعاني كذا ، وأول الأنوار كذا ، ومنه قوله : (أول ما خلق الله نوري) وفي رواية (روحي) ومعناهما واحد ، فإن الأرواح نورانية ، أي أول ما خلق الله من الأرواح روحي(٢) .

وفي رواية لأحمد(٣) : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ». انظر ما تقدم .

---

(١) باطل . سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني(١٢٥٣) .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٢٦٨-٢٧٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٢٧٥٧) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح وهذا إسناد حسن .

وفي رواية لابن وهب[1] قال رسول الله ﷺ : «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره : أحرقه الله بالنار».

وفي المسند[2] والسنن[3] عن ابن الديلمي قال : أتيت أبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي . فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيت عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ . حديث صحيح . رواه الحاكم في صحيحه .

---

(١) في كتاب القدر (٢٦) . قال مخرج أحاديثه عبد العزيز عبد الرحمن محمد العثيم : أخرج ابن وهب هذا الحديث من طريقين منقطعين .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢١٦٢٩) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده قوي .

(٣) سنن ابن ماجه (٧٤) قال الألباني : صحيح . سنن أبي داود (٤٦٩٩) وفيه : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن أبي سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن ابن الديلمي قال : أتيت أبي بن كعب فقلت له وقع في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطاك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال : مثل ذلك قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك قال : ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك . قال الألباني : صحيح .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(أتيت أبي بن كعب) أقرأ الصحابة رضي الله عنهم ، قال المصنف : هو أبي ابن كعب الأكبر الأنصاري الخزرجي ، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي ، وهو أحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله كناه النبي أبا المنذر وعمر أبا الطفيل ، وسماه النبي ﷺ سيد الأنصار وعمر سيد المسلمين ، مات بالمدينة سنة تسعة عشر ، روى عنه خلق كثير . (فقلت له) بحكم قوله تعالى : ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل:٤٣) (وقع في نفسي شيءٌ من القدر) أي حزازة واضطراب عظيم من جهة أمرِ القضاء والقدر باعتبار العقل لا بموجب النقل ، قال ابن حجر : أي من بعض شبه القدر التي ربما تؤدي إلى الشك فيه كاعتقاد أن الإنسان يخلقُ فعل نفسه كما قالته المعتزلة ، أو أنه مجبورٌ على الفعل كما قالته الجبرية ، فكيف يُعذب ؟ وأنا أريد الخلاص منه ، أي من هذا المبحث (فحدثني) أي بحديث (لعل الله أن يذهبه من قلبي) أي رجاء أن يزيل ذلك مني ، وقال أولاً (في نفسي) وثانيًا (من قلبي) إشعارًا بأن ذلك تمكن منه وأخذ بمجامعه من ذاته وقلبه كذا قاله الطيبي . والأظهر أن الحزازة تنشأ من الخطرات النفسية والثبات والاطمئنان من الصفات القلبية ، ثم قوله : (أن يذهبه) خبر (لعل) أعطاه حكم عسى في دخول أن في خبره . (فقال :) أي أبي رضي الله عنه متحريًا غاية البيان الشافي ونهاية الإرشاد الوافي (لو) أي فرض (أن الله عذب أهل سماواته) من الملائكة المقربين (وأهل أرضه) من الأنبياء والمرسلين (عذبهم) وفيه إشكال ، ودفعه أن الشرطية غير لازمة الوقوع (وهو غير ظالم لهم) الواو للحال لأنه متصرفٌ في ملكه وملكه . فعذابه عدلٌ وثوابه فضل ، قيل : فيه إرشاد عظيم وبيان شاف لإزالة ما طلب منه لأنه يهدم منه قاعدة الحسن والقبح العقليين ، لأنه مالك الجميع فله أن يتصرف كيف شاء

ولا ظلم أصلاً. (ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم) أي الصالحة، إشارةً إلى أن رحمته ليست بسببٍ من الأعمال، وإيجابها إياها إذ هي لا توجبها عليه ، كيف وهي من جملة رحمته بهم ؟ فرحمته إياهم محضُ فضل منه تعالى عليهم ، فلو رحم الأولين والآخرين فله ذلك ولا يخرج عن حكمة . غايته أنه أخبر أن المطيعين لهم الثواب وأن العاصين لهم العقاب كما هو مثبت في أم الكتاب، فالأمر المقدر لا يتبدل ولا يتغير وهذا هو الصواب في الجواب. (ولو أنفقتَ مثل أحدٌ) بضمتين جبل عظيم قريب المدينة المعظمة (ذهبًا) تمييز (في سبيل الله) أي مرضاته وطريق خيراته (ما قبله الله) أي ذلك الإنفاق ، أو مثل ذلك الجبل (منك) وهو تمثيل على سبيل الفرض لا تحديد ، إذ لو فرض إنفاق ملء السموات والأرض كان كذلك . (حتى تؤمنَ بالقدر) أي بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها وحلوها ومرها ونفعها وضرها وقليلها وكثيرها وكبيرها وصغيرها بقضائه وقدره وإرادته وأمره ، وأنه ليس فيها لهم إلا مجرد الكسب ومباشرة الفعل . والمراد هنا كمال الإيمان وسلب القبول مع فقده يؤذن بأن المبتدعة لا تقبل لهم أعمال ، أي لا يثابون عليها ما داموا على بدعتهم ، ويؤيده خبر : (أبى الله : أن يقبل عمل صاحب بدعةٍ حتى يتوب من بدعته) [1] ، وفيه إشعار بأن أهل البدعة ليسوا من المتقين لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (المائدة:٢٧) ، وأنه لا يحبهم فإن الله يحب المتقين (وتعلم) تخصيص بعد تعميم (أن ما أصابك) من النعمة والبلية ، أو الطاعة والمعصية مما قدره الله لك أو عليك (لم يكن ليُخطئك) أي يجاوزك (وأن ما أخطأَك) من الخير والشر (لم يكن ليصيبك) وهذا وضع موضع المحال كأنه قيل : محال أن يخطئك ، وفيه ثلاث مبالغاتٍ دخول أن ولحوق اللام

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٩) . قال الألباني : ضعيف .

المؤكدة للنفي وتسليط النفي على الكينونة وسرايته في الخبر ، وهو مضمون قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة:٥١) ، وفيه حثٌّ على التوكل والرضا ونفي الحول والقوة وملازمة القناعة والصبر على المصائب . (ولومت) بضم الميم من مات يموت ، وبكسرها من مات يميت (على غير هذا) أي على اعتقاد غير هذا الذي ذكرت لك من الإيمان بالقدر (لدخلت النار) يحتمل الوعيد ويحتمل التهديد (قال) أي ابن الديلمي (ثم أتيت عبد الله بن مسعود) صاحب السجادة والمخدة والنعلين والمطهرة ﵁ (فقال مثل ذلك) أي مثل جواب أبي في سؤالي (قال ثم أتيت حذيفة بن اليمان) وهو صاحب سر النبي ﷺ وأبوه اسمه حسيل بالتصغير واليمان لقب له ، وقتل بأحد شهيدًا رضي الله عنهما (فقال مثل ذلك) فالحديث من طرقهم صار موقوفًا ، (ثم أتيت زيد بن ثابت) أفضلُ كتبة الوحي وأفرض الصحابة ، قال المصنف : هو زيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي ﷺ كان له حين قدم النبي ﷺ المدينة إحدى عشرة سنة ، وكان أحدَ فقهاء الصحابة الأجلة القائم بالفرائض ، وهو أحد من جمع القرآن وكتبه في خلافة أبي بكر ، ونقله من المصحف في زمن عثمان ، روى عنه خلق كثير مات بالمدينة سنة خمس وأربعين وله ست وخمسون سنة . (فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك) فصار الحديث من طريقه مرفوعًا ، قال الطيبي : في سؤاله من الصحابة واحدًا بعد واحد واتفاقهم في الجواب من غير تغيير ، ثم انتهاء الجواب إلى حديث النبي ﷺ دليل على الإجماع المستند إلى النص الجلي ، فمن خالف ذلك فقد كابر الحق الصرى[1].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٦١- باب
ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى : ومن أظلم مـمـن ذهب يخلق[1] كخلـقـي ، فليخلـقـوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة». أخرجاه[2].

شرح الحديث :

قال المناوي :

(قال الله تعالى : ومن أظلمُ ممن ذهب) أي قصد (يَخلق خلقًا كخلقي) أي : ولا أحد أظلمُ ممن قصد أن يصنع كخلقي ، وهذا التشبيه لا عموم له يعني كخلقي من بعض الوجوه في فعل الصورة لا من كل وجه ، واستشكل التعبير بأظلم بأن الكافر أظلم ، وأجيب بأنه إذا صور الصنمَ للعبادة كان كافرًا فهو هو ويزيد عذابه على سائر الكفار بقبح كفره ، (فليخلقوا ذرة) بفتح المعجمة وشد الراء نملة صغيرة ، (أو ليخلقوا حبة) بفتح الحاء أي حبة بر بقرينة ذكر الشعير أو هي أعم ، (أو ليخلقوا شعيرة) والمراد : تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق حيوان وهو أشد وأخرى بتكليفهم خلق جمادٍ وهو أهون ومع ذلك لا قدرة لهم عليه ، وأخذ منه مجاهد حُرمة تصوير ما لا روح فيه حيث ذكر الشعيرة وهـي جـمـاد وخالـفـه الجمـهـور استدلالاً بقـولـه في حديث آخر : «أحيوا ما خلقتم»[3] ، وفيه نوعٌ من الترقي في الخساسة ونوع من التنزل والإلزام ،

---

(١) في صحيح مسلم : يخلق خلقاً كخلقي .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٣)(٧٥٥٩) ، صحيح مسلم (٢١١١) .

(٣) صحيح البخاري (٥٩٥١)(٧٥٥٨) ، صحيح مسلم (٢١٠٧) (٢١٠٨) .

وحكي أنه وقع السؤال عن حكمة الترقي من الذرة إلى الحبة إلى الشعيرة فأجاب التقي الشمني بديهة : بأن صُنع الأشياء الدقيقة فيه صعوبة والأمر بمعنى التعجيز فناسب الترقي من الأعلى للأدنى فاستحسنه الحافظ ابن حجر وزاد في إكرام الشيخ وإشهار فضيلته(١).

ولهما(٢) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن رسول الله ﷺ قال : «أشَد الناسِ عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(وقد سترت سهوةً لي بقرام) جملة حالية من رسول الله ﷺ والسهو بفتح السين المهملة وسكون الهاء سيأتي معناه ومعنى القرام (فيه تماثيل) جملة صفة لقرام أو الطرف صفة وتماثيل فاعله ، والتماثيل بمثناة ثم مثلثة جمع تمثال وهي الشيء المصوّر أعم من أن يكون شاخصًا أو يكون نقشًا أو دهانًا أو نسجًا في ثوب (فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه) أي نزعه ، وفي رواية البخاري عن عائشة : (فأمرني أن أنزعه فنزعتُه وتلون وجهه) أي تغير من غضبه لله سبحانه (وقال : يا عائشة أشدُ الناس عذابًا عند الله يوم القيامة) ظرف

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤/٦٣١ ، ٦٣٢ .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٤) وفيه : حدثنا علي بن عبد الله : حدثنا سفيان قال : سمعت عبد الرحمن بن القاسم ، وما بالمدينة يومئذ أفضل منه ، قال : سمعت أبي قال : سمعت عائشة رضي الله عنها : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وقال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». صحيح مسلم (٢١٠٧) وفيه : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة وزهير بن حرب جميعا عن ابن عيينة (واللفظ لزهير) حدثنا سفيان ابن عيينة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أنه سمع عائشة تقول : دخل علي رسول الله ﷺ وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه وتلون وجهه وقال : «يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».

لأشـد ، وقـولـه (الـذيـن يضاهـون بخلق الله) خـبـر أشد : أي الذين يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله ، وقد استشكل كون المصور أشد عذابًا من قوله تعالى : ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٦) فإنه يقتضي كون المصوِّر أشد عذابًا من آل فرعون . وأجاب الطبري بأنه محمول على من يصوّر ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك قاصد له فإنه يكفر بذلك . وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات «من» ثابتة ويحذفها محمولة عليها : أي إن المصورين من أشدِّ الناس عذابًا . وقال أبو الوليد بن رشد : إن كان الحديث في حق كافر فلا إشكال فيه لأنه يكون مشتركًا في ذلك مع آل فرعون ويكون فيه دلالة على عظم كفر المذكورين ، وإن كان ورد في حق عاص فيكون المراد أشد عذابًا من غيره من العصاة ويكون دالاًّ على عظم المعصية المذكورة . وأجاب القرطبي في المفهم بأن الناس إذا أضيف إليه أشد لا يراد به كلهم بل البعض ، وهو من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب ، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الألوهية عذابًا ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشدُّ عذابًا ممن يقتدي به في ضلالة فسقه . ومن صوّر صورةً ذات روح للعبادة أشد ممن يصورها لا للعبادة . واستشكل ظاهرُ الحديث أيضًا بإبليس وابن آدم الذي سنّ القتل ، ويجاب بأن المراد من الحديث من ينسب إلى آدم فخرج إبليس ، وأما ابن آدم فالثابت في حقه أن عليه أوزار من يقتل ظلمًا ولا منع أن يشاركه في مثل تعذيبه من ابتدأ الزنى مثلاً فإن عليه مثل أوزار الزناة بعده ، لأنه أول من سن ذلك ، ولعل عدد الزناة أكثر من القاتلين[1] .

ولهما[2] عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم».

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٣/١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) لم يروه البخاري ، وهو في صحيح مسلم (٢١١٠) بلفظ : كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(كل مصورٍ) لـذي روح (في النـار) أي يكـون يـوم القيامـة في نـار جهـنم ، لتعاطيه ما يشبه ما انفرد الله به من الخلق والاختراع (يجعل له) بفتح ياء يجعل والفاعل الله أضمر للعلم به (بكل صورةٍ صـورها نفسًـا فتعذُبـه في جهـنم) أي : يعذبه نفس الصورة بأن يجعل فيها روح والباء في بكل بمعنى في أو يجعـل لـه بعدد كل صورة شخصًا يعذبه فالباء بمعنى لام السبب[1].

ولهما[2] عنه مرفوعًا : «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيهـا الروح[3] وليس بنافخ».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(من صور صورةً) ذات روح (في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ) أي ألزم ذلك وطوقه ولا يقدر عليه فهو كناية عن دوام تعذيبه ، واستفيد منه جوازُ التكليف بالمحال في الدنيا كما جاز في الآخرة ، لكن ليس مقصود هذا التكليف طلب الامتثال ، بل تعذيبه على كل حال وإظهار عجزه عما تعاطاه مبالغةً في توبيخه وإظهاراً لقبح فعله ذكره القرطبي ، وهذا وعيد شديد يفيد أن التصوير كبيرة وتمسك بعضهم بهذا الخبر على أنه أغلظ من القتل لأن وعيده ينقطع بحمل قوله تعالى : ﴿ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ (النساء:٩٣) ، على الأمد الطويل وهنا لا يستقيم أن يقال يعذب زمنًا طويلاً ثم يخلص لكونه مغيًّا بما لا يمكن وهو نفخ الروح فيها المستحيل حصوله ، ولهذا ذهب المعتزلة إلى تخليده في النار وأهل السنة على خلافه وحملوا الخبر على من يكفر

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥/٤١ .

(٢) صحيح البخاري (٢٢٢٥)(٥٩٦٣)(٧٠٤٢) ، صحيح مسلم (٢١١٠) .

(٣) في صحيح مسلم : يوم القيامة .

بالتصوير ، كمن يُصور صنمًا ليُعبد أو يقصد مضاهاة خلق الله ، وأما من لم يكفر به في حقه خرج مخرج الروعِ والتهويل فهو متروك الظاهر ، وفيه أن أفعال العبادِ مخلوقة لله للحوق الوعيد لمن تشبه بالخالق ، فكيف يقال إن الله خالق حقيقة واعترض بأن الوعيد على خلق الجواهر لا الأفعال ، والمعتزلة لم تقل بخلقِ الجواهر لغير الله ، وأجيب بأن الوعيد لاحق بالشكل والهيئة وذلك غيرّ جوهر ، واعترض بأنه لو كان كذا كان تصوير غير ذي روح كذا ومنع بأن ذا رخص فيه بأثر ورد فيه ، نعم الاستدلال بذلك غير مرضي من جهة أخرى وهو أن المسألة قطعية والدليل من الآحاد[1].

ولمسلم[2] عن أبي الهّياج قال : قال لي علي : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة[3] إلا طمستها ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(قال : قال لي علي ألا أبعثك) بتشديد اللام للتحضيض وقيل : بفتحها للتنبيه (على ما بعثني عليه) أي أرسلني إلى تغييرهِ ولذا عدى بعلى . قال التوربشتي : أي ألا أرسلك للأمر الذي أرسلني له . (رسول الله ﷺ) وإنما ذكر تعديته بحرفِ على لما في البعث من معنى الاستعلاء والتأمير أي هلا أجعلكَ أميرًا على ذلك كما أمرني رسول الله ﷺ . (أن لا تدع) أن مصدرية ولا نافية خبر مبتدأ محذوف أي هو أن لا تدع وقيل أن تفسيرية ولا ناهية أي لا تترك (تمثالاً) أي صورةً (إلا طمستهُ) أي محوته وأبطلته والاستثناء من أم الأحوال . في الأزهار ، قال العلماء : التصويرُ حرام ، والمحو واجبٌ حيث لا يجوز

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١٧٢/٦ .
(٢) صحيح مسلم (٩٦٩) .
(٣) في المصدر السابق : أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته .

الجلوس في مشاهدته . (ولا قبرًا مُشرفًا) هو الذي بني عليه حتى ارتفع دون الذي أعلم عليه ، بالرمل ، والحصباء أو محسومةً بالحجارة ليُعرف ولا يوطأ . (إلا سويته) في الأزهار قال العلماء : يستحب أن يرفع القبر قدر شبر ، ويكره فوق ذلك ويستحب الهدم ففي قدره خلاف قيل : إلى الأرض تغليظًا وهذا أقرب إلى اللفظ أي : لفظ الحديث من التسوية . وقال ابن الهمام : هذا الحديث محمول على ما كانوا يفعلونه من تعلية القبور ، بالبناء العالي وليس مرادنا ذلك بتسنيم القبر بل بقدر ما يبدو من الأرض ، ويتميز عنها والله سبحانه أعلم . قال في الأزهار : النهي عن تجصيص[1] القبور للكراهة وهو يتناول البناء بذلك وتجصيص وجه والنهي في البناء[2] للكراهة إن كان في مُلكه وللحرمة في المقبرة المُسبلة ، ويجب الهدمُ وإن كان مسجدًا . وقال التوربشتي : يحتمل وجهين أحدهما البناء على القبر بالحجارة ، وما يجري مجراها والآخر أن يضربَ عليها خباءً ونحوه وكلاهما منهي لعدم الفائدة فيه . قلت : فيستفادُ منه أنه إذا كانت الخيمة لفائدة مثل أن يقعد القراء تحتها ، فلا تكون منهية . قال ابن الهمام : واختلف في إجلاس القارئين ، ليقرؤوا عند القبر والمختار عدم الكراهة . اهـ . ثم قال التوربشتي : ولأنه من صنيع أهل الجاهلية أي كانوا يظللون على الميت إلى سنة قال وعن ابن عمر أنه رأى فسطاطًا على قبر أخيه عبد الرحمن ، فقال انزعه يا غلام وإنما يظله عمله . وقال بعض الشراح من علمائنا : ولإضاعة المال وقد أباح السلف البناء على قبر المشايخ ، والعلماء المشهورين ليزورهمُ الناس ويستريحوا بالجلوس فيه اهـ[3] .

(١،٢) في صحيح مسلم (٩٧٠) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حفص بن غياث عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :« نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه ».

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤/١٥٥ ، ١٥٦ .

٦٢- باب
ما جاء في كثرة الحلف .

وقول الله تعالى : ﴿ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ (المائدة: ٨٩) [(١)].

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : **﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾** وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصدٍ ، كقوله : لا واللّه ، وبلى واللّه . وإليه ذهب الشافعي ، وقيل : هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة ، **﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ﴾** عليه ، أي : بما جزمتم عليه بالنية والقصد ، **﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ ﴾** أي : ما عقدتم عليه إذا حلفتم ، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية . ثم بيّن الكفارة ، فقال : **﴿ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾** ، فمن أطعم غنيًّا لم تجزه ، واشترط مالك أن يكونوا أحرارًا ، وليس في الآية ما يدل على ذلك ، ثم بيّن نوعه فقال : **﴿ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ ﴾** أي : من وسط طعام أهليكم في القدر أو في الصفة ، أما القدر فقال مالك : يطعم مُدًّا لكل مسكين بمد النبي ﷺ إذا كان في المدينة المشرفة ، وفي غيرها وسط من الشبع ، وقال الشافعي وابن القاسم : يجزئ المُد في كل مكان ، وقال أبو حنيفة : إن غذاهم وعشاهم أجزأه . قلت : وهو

---

(١) قال الله عزوجل : **﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾** (المائدة: ٨٩)

قول في المدونة لمالك أيضًا . وأما الصنف ، فاختلف : هل يطعم من عيش نفسه ، أو من عيش بلده وهو المشهور؟ فمعنى الآية على هذا : ﴿ **مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ** ﴾ أيها الناس ﴿ **أَهۡلِيكُمۡ** ﴾ على الجملة ﴿ **أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ** ﴾ فيكسو كل مسكين ما تصح به الصلاة ، فالرجل ثوب ، والمرأة قميص وخمار ، ﴿ **أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ** ﴾ مؤمنة على مذهب مالك لتقييدها بذلك في كفارة القتل . وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر ، لإطلاق اللفظ هنا ، واشترط مالك أيضًا أن تكون مسلّمة من العيوب ، وليس في الآية ما يدل عليه ، فهذه الثلاثة بالتخيير . ﴿ **فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ** ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة ، ولم يقدر على شيء منها ، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله في يومه ما يطعم به ، ﴿ **فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ** ﴾ يستحب تتابعها ، اشترطه أبو حنيفة لأنه قرئ : (أيام متتابعات) ، والشاذ ليس بحجة ، ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ المذكور هو ﴿ **كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ** ﴾ وحنثتم ، ﴿ **وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ** ﴾ أي : صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف ، فيكون الله عرضة لأيمانكم ، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا ، إلا إن كان في الامتناع من الخير ، فالحنث فيها أحسن ، كما في الحديث(١) . أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم ، ولا تتهاونوا بها ، ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ** ﴾ أي : مثل ذلك البيان يُبين لكم أعلام شرائعه ﴿ **لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ** ﴾ نعمة التعليم ، أو نعمه الواجب شكرها ، فإن مثل هذا التبيين يُسهل لكم المخرج من ضيق اليمين ، فهو نعمة يجب شكرها . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ليس التشديدُ والتعقيد من شأن أهل التوحيد ، إنما شأنهم الاسترسال مع ما يبرز من عنصر القدرة ، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه ، قد حلّ التوحيد عُقدهم ودكّ عزائمهم ، فهم في عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون ، وإن وقع منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى ما يفعل الواحد

---

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين ، فرأى غيرها خيراً منها ، فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه ». صحيح مسلم (١٦٥٠) .

القهار ، لا يتعطشون إلى شيء ولا يهربون من شيء ، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع . ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله ، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركًا ، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنة لله ، وإن وقعت منهم زلة أو غفلة تأدبوا مع الله ، وبادروا بالتوبة إلى الله ، وما صدر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلعل ذلك كان حالاً غالبة عليهم ، قد أزعجهم وعظ النبي ﷺ ، وأنهضهم حاله ، فلما رآهم غلب عليهم الحال ردهم إلى حال الاعتدال ، ولعل الحق ـ جل جلاله ـ ، إنما جعل كفارة اليمين جبراً لخلل ذلك التعقيد ، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث ، فكأنه حلف على فعل غيره ، ففيه نوع من التألي على الله . والله تعالى أعلم[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب»[(٢)]**. أخرجاه**[(٣)].

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(الحلف منفقة) بفتح الميم والفاء وسكون النون بينهما وبعد الفاء قاف فهاء ، (للسلعة) بكسر السين المهملة واللام وبالمهملة : أي البضاعة (ممحقة) بوزن منفقة الحاء مهملة (للكسبِ) أي للنماءِ والزيادة المقصودة منها ، وفي رواية للبركة ، وفي المصباح : محقه محقًا من باب نفع نقصه أذهب منه البركة ، والبركة : الزيادة والنماء[(٤)].

---

(١) تفسير البحر المديد ٢/٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) سنن النسائي (٤٤٦١) قال الألباني : صحيح .

(٣) صحيح البخاري (٢٠٨٧) وفيه : ممحقة للبركة . صحيح مسلم (١٦٠٦) وفيه : ممحقة للربح .

(٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٤/٤٥٩ .

وعـن سلـمان رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثـلاثـة لا يكلمهم[1] الله ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : أشـيمط زان ، وعائـل مسـتكبر ، ورجـل جعــل الله بضــاعته : لا يشـتري إلا بيمينـه ، ولا يبيــع إلا بيمينـه ». رواه الطبراني[2] بسند صحيح .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(ثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة) استهانةً بهم وغضبًا عليهم ؛ بما انتهكوا من محرماته وخالفوا من أوامرِهِ (ولا يُزكيهم) لكونهم لم يزكوا أحكامه (ولهم عذابٌ أليم) يعرفونَ به ما جهلوا من عظمتهِ واجترحوا من حرمته (أشيمط زان) في النهاية : الشمط الشيب (وعائل مستكبر) أي فقيرٌ ذو عيال لا يقدر على تحصيلِ مؤونتهم ولا يطلب من بيتِ المال ، أو من الناس متكبر فهو آثم لإيصال الضرر إلى عياله (ورجلٌ جعـل الله بضـاعــتـه لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) فيه أن المنّ صفةُ ذم في حق العبد إذ لا يكون غالبًا إلا عن بخل وكبر وعجب ونسيان منن الله عليه .

(تنبيه) قال القونوي : سر ما تقرر في الحديث أن الزنا في الشباب له فيه نوعُ عذرٍ ، فإن الطبيعة تنازعه وتتقضاه ، وأما الشيخ فشهوتهُ ضعفت وقوته انحطت ، فإذا كان زانيًا فليس ذلك إلا لكونهِ مُفسدًا بالطبعِ فهو مجبول على الفساد ، فذلك وصف ذاتي له فيستلزم النتائج الرديئة . وأما العائل المستكبر فالعائل الفقير والمستكبر الذي يتعانى الكبر ، وهذا ينقسم أعني التكبر إلى قسمين ذاتي وصفاتي : فالتكبر الصفاتي محصور في موجبين المال والجاه ، فالتكبر من الناس وإن كان قبيحًا شرعًا وعقلاً لكن لأصحاب الجاه والمال فيه

(١،٢) هذا لفظه في المعجم الأوسط (٥٥٧٧) ، والصغير (٨٢١) . ورواه في المعجم الكبير (٦١١١) بلفظ : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . . .

صورة عذر ، وأما عداهما إذا تكبر فلا عذر له بوجه ، فالتكبر إذن صفة ذاتية له فلا جرم ينتج نتيجة رديئة ويأتي نحو ذلك التوجيه في الخلاف[١].

وفي الصحيح[٢] عن عمران بن حصين ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : «خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران : فلا[٣] أدري : أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا ؟ ـ ثم إن بعدكم قومًا[٤] يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمَن».

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

قال السيوطي في الترشيح : القرن أهل زمانٍ واحدٍ متقارب اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودة ، والأصح ألا يضبط بمدةٍ فقرنه ﷺ هم الصحابة وكانت مدتهم من المبعث إلى آخر من مات من الصحابة مائة وعشرين سنة (ثم الذين يلونهم) أي ثم قرن التابعين ، وقرنهم من سنة مائة نحو سبعين (ثم الذين يلونهم) أي من أتباع التابعين ، وقرنهم من ثمت إلى حدود العشرين ومائتين ، ومن هذا الوقت ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعتِ الفلاسفة رءوسها وامتُحن أهل العلم ليقولوا بخلقِ القرآن وتغيرت الأحوال تغيرًا شديدًا ولم يزل الأمر في نقصٍ إلى الآن . اهـ . قال المصنف : والمراد تفضيلُ جملة القرن ، ولايلزم منه تفضيل الصحابي على الأنبـياء ولا تفضيل أفراد النساء على مريم وآسية وغيرهما بل المراد جملة القرن بالنسبة إلى جملة القرن . حكى عن عياض عن المغيرة قال : قرنه أصحابه ، والذين يلونهم

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤/٤٣٦ ، ٤٣٧ .

(٢) صحيح البخاري (٢٦٥١)(٣٦٥٠)(٦٤٢٨)(٦٦٩٥) ، صحيح مسلم (٢٥٣٥) .

(٣) وفي رواية : فما أدري . صحيح البخاري (٦٤٢٨) .

(٤) وفي رواية : ثم يكون بعدهم قوم . صحيح مسلم (٢٥٣٥) .

أبناؤهم ، والثالث أبناء أبنائهم ، وقال سهل : قرنه ما بقيت عين رأته ، والثاني ما بقيت عين رأت من رآه ثم كذلك (قال عمران) هذا من كلام أحد الرواة عنه ، ويحتمل على بعد أن يكون عبر عن نفسه باسمه كما هي طريق كثير من الأوائل (فما أدري ، قال النبي ﷺ) ثم الذين يلونهم (مرتين أو) قالها (ثلاثًا) وشرف القرن الرابع باعتبار من فيه من أئمة الإسلام الناصرين للحقِّ الذابين عنه ، المجاهدينَ في سبيل الله ، الصابرينَ على ما أصابهم في سبيله كالإمام أحمد بن حنبل وأضرابه (ثم يكون بعدهم) أي أهل القرون المشهود لها بالأخيرية (قوم يشهدون ولا يستشهدون) قال المصنف في شرح مسلم : هذا غيرُ مخالفٍ الحديث : (خير الشهود الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسأل عنها) [1] لأن ذلك محمولٌ على دعاوى الحسبة أو إعلام ذي الحق بأنك تشهد به وهو لا يعلم شهادتك به ، وحديث الباب محمول على الشهادة لذي الحق العالم بها عند الحاكم قبل طلبِها منه ، أو على شاهدِ الزور ، أو على من ينتصب شاهدًا وهو ليس من أهل الشهادة ، أو على من يشهد لقومٍ بالجنة أوالنار من غير توقيف ، وهذا ضعيف . اهـ . ملخصًا . (ويخونون ولا يؤتمنون) قال المصنف في شرح مسلم : بعد أن أورده بلفظ «يتمنون» بتشديد الفوقية ، كذا في أكثر النسخ ، يعني من مسلم ، وفي بعضها يؤتمنون ومعناه يخونون خيانةً ظاهرةً بحيث لا يبقى معها أمانة ، بخلاف من خان بحقير مرة واحدة فإنه يصدق عليه أنه خان فلا يخرج عن الأمانة في بعض المواطن . اهـ .

قلت : ويصح أن يكون جملة النفي في محل الحال : أي إن طبعهم الخيانة مع عدم الائتمان لهم ، فليس لهم سوى وبال العزم عليها من غير ظفرٍ بشيء والله أعلم ، (وينذرون) بفتح الفوقية وضم الدال المعجمة وكسرها لغتان كما قال المصنف ، (ولا يوفون) قال في شرح مسلم : وفي رواية «ولا يفون» وهما صحيحتان يقال وفى وأوفى ، (ويظهر فيهم السمن) أي كثرةُ اللحم ، أي

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٥٥) قال الألباني : صحيح .

إنه يكثر ذلك فيهم ، وليس الخلقي منهم مذمومًا بل المكتسب له بالتوسع في المأكل والمشرب وغيره زيادة على المعتاد ، وقيل المراد التكثُر مما ليس لهم وادعاء ما ليس لهم من الشرف وغيره ، وقيل المراد جمعهم الأموال[١].

وفيه[٢] عن ابن مسعود : أن النبي ﷺ قال : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته».

شرح الحديث :

قال المناوي :

(تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) أي : في حالين لا في حالة واحدة لأنه دور . قال البيضاوي كالكرماني : هم قومٌ حراص على الشهادة ، مشغوفون بترويجها يحلفون على ما يشهدون به تارة يحدّثون قبل أن يشهدوا ، وتارة يعكسون ، واحتج به من ردّ شهادة من حلف معها والجمهور على خلافه . وقضيته أن الصحابة أفضل من التابعين وأن التابعين أفضل من أتباعهم وهكذا لكن أفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ؟ قولان ذهب ابن عبد البر إلى الأول والجمهور إلى الثاني . قال ابن حجر : والذي يظهر أن من قاتلَ مع النبي ﷺ أو في زمنه بأمره ، وأنفق شيئًا من ماله بسببه ، لا يعدلُه في الفضل أحدٌ بعده كائنًا من كان ، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل بحثٍ ، ومن وقف على سير أهل القرن الأول علم أن شأوهم لا يُلحق . قال الحسن البصري : التابعي الكبير المجمع على جلالته وإمامته ، لقد أدركنا أقوامًا أي وهم الصحابة أهل القرن الأول كنا في جنبهم لصوصًا ، وقال : أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة عشرين سنة يبكون حتى تبتل الوسادةُ

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٢/٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢) صحيح البخاري (٢٦٥٢)(٣٦٥١)(٦٤٢٩) ، صحيح مسلم (٢٥٣٣) .

من دموعهم لا يشعر عيالهم بذلك ، وقال : ذهبت المعارف وبقيت المناكير ، ومن بقي اليوم من المسلمين فهو مغموم وكان كثيراً ما ينشد :

ليس مـــن مَـــات فاســـتَراحَ بميـــتٍ إنمـــا الميـــتُ ميـــتُ الأحيـــاءِ .

وقال الربيع بن خيثم :

لو رآنا أصحاب محمـــد ﷺ لقـــالوا هؤلاء لا يؤمنون بيـــوم الحســـاب[1].

وظاهر الخبر أن صحبه أفضل من جميع من جاء بعدهم وعليه كثير ، لكن ذهب جمعٌ منهم ابن عبد البر إلى أنه يمكن أن يكون فيمن بعدهم أفضل من بعضهم للخبر الحسن بل قيل الصحيح الآتي : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى آخره خيرٌ أم أوله »[2] ، وانُتصر للأول بما لا يخلو عن تكلفٍ وفي الأخذ بإطلاقه صعوبة ، ويبعدُ كل البعد القطع بأفضليةِ أعرابي جلف لم يحصل له إلا مجرد الرُؤية ، ولم يخالط علماء الصحابة على مثل الأئمة الأربعة ، والسفيانين ، وأضرابهم[3].

وقال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار .

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦٣٧/٣ ، ٦٣٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٢٤٨٣) قال شعيب الأرناؤوط : حديث قوي بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦٦٣/٣ .

٦٣- باب
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [(١)]

(النحل: ٩١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ** ﴾ كالبيعةِ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وللأمراء ، والأيمان ، والنذور ، وغيرها ، ﴿ **إِذَا عَـٰهَدتُّمۡ** ﴾ الله على شــيء مـن ذلك ، ﴿ **وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ** ﴾ أيمان البيعة ، أو مطلق الأيمان ، ﴿ **بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا** ﴾ بعد توثيقها بذكر الله ، أو صفته ، أو أسمائه ، ﴿ **وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً** ﴾ شاهداً ورقيبًا ، بتلك البيعة فإن الكفيل مراع لحال المكفول رقيب عليه ، ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ** ﴾ في نقض الأيمان والعهود . وهو تهديد لمن ينقضُ العهد ، وهذا في الأيمان التي في الوفاء بها

---

(١) قال الله عزوجل : ﴿ **وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَـٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَـٰنَكُمۡ دَخَلاَۢ بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَكُمۡ دَخَلاَۢ بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاًۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾ (النحل: ٩١-٩٥) .

خير ، وأما ما كان تركه أولى فيُكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير ، كما في الحديث[1]﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ : أفسدته ﴿ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي : إبرام وإحكام ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ أي : طاقات ، أي : صيرته طاقات كما كان قبل الغزل ، بحيث حلت إحكامه وإبرامه ، حتى صار كما كان ، والمراد : تشبيه الناقض بمن هذا شأنه ، وقيل : هى «ريطة بنت سعد القرشية» فإنها كانت خرقاء ـ أي : حمقاء ـ تغزل طول يومها ثم تنقضه ، فكانت العرب تضرب بها المثل لمن قال ولم يُوف،أو حلف ولم يَبر في يمينه.﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ أي : لا تكونوا متشبهين بامرأة خرقاء ، متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم . وأصل الدخل : ما يدخل الشيء ، ولم يكن منه ، يقال : فيه الدخل والدغل ، وهو قصد الخديعة . تفعلون ذلك النقض لأجل ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾:بأن تكون جماعة أزيد عددًا وأوفر مالاً ، من جماعة أخرى ، فتنقضون عهد الأولى لأجل الثانية لكثرتها . نزلت في العرب ، كانت القبيلة منهم تحالف الأخرى ، فإذا جاءها قبيلة أقوى منها ، غدرت الأولى ، وحالفت الثانية . وقيل : الإشارة بالأربى هنا إلى كفار قريش إذ كانوا حينئذ أكثر من المسلمين ، فحذر من بايع على الإسلام أن ينقضه لما يرى من قوة كفار قريش . ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ﴾ : يختبركم (اللهُ بِهِ) بما أمر من الوفاء بالعهد لينظر المطيع منكم والعاصي . أو : بكون أمة هي أربى ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تَغترّون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم؟ ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ في الدنيا حين يجازيكم على أعمالكم بالثواب والعقاب . ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أهل دين واحد متفقين على الإسلام،﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بعدله ، ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بفضله ، ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت ومجازاة ، ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا لتُجازوا عليه . ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ ، كرره تأكيدًا مبالغة في قبح المنهي

---

(١) تقدم في الباب السابق صـ ٤١٦ .

عنه من نقض العهود ، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ ﴾ عن محجة الإسلام ﴿ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾ : استقامتها عليه ، والمراد : أقدامهم ، وإنما وُحد ونُكّر للدلالة على أن زلل قدم واحد عظيم ، فكيف بأقدام كثيرة ؟ ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ ﴾ : العذاب في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بصدكم عن الوفاء بعهد الله ، أو بصدكم غيركم عنه فإن من نقض البيعة ، وارتد ، جعل ذلك سُنّة لغيره ، ﴿ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ في الآخرة . ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ أي : لا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ بأخذكم ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾ : عرضاً يسيرًا من الدنيا ، بأن تنقضوا العهد لأجله . قيل : هو ما كانت قريش يعدونه لضعفاء المسلمين ، ويشترطون لهم على الارتداد ، ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من النصر والعز ، وأخذ الغنائم في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، ﴿ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ مما يعدونكم ، ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ذلك فلا تنقضوا ، أو إن كنتم من أهل العلم والتمييز .

الإشارة : الوفاءُ بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، من شأن الصالحين الأبرار ، كالعباد والزهاد ، والعلماء الأخيار . وأما أهل الفناء والبقاء من العارفين : فلا يقفون مع شيء ، ولا يعقدون على شيء ، هم مع ما يبرز من عند مولاهم في كل وقت وحين ، ليس لهم عن أنفسهم إخبار ، ولا مع غير الله قرار . يتلونون مع المقادير كيفما تلونت ، وذلك من شدة قربهم وفنائهم في ذات مولاهم . قال تعالى : ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ (الرحمن:٢٩) ، فهم يتلونون مع الشئون البارزة من السر المكنون فمن عقد معهم عقدًا ، أو أخذ منهم عهدًا ، فلا يعول على شيء من ذلك إذ ليست أنفسهم بيدهم ، بل هي بيد مولاهم . وليس ذلك نقصًا في حقهم ، بل هو كمال لأنه يدل على تغلغُلهم في التوحيد حتى هَدَمَ عزائمهم ، ونقض تدبيرهم واختيارهم . ولا يذوق هذا إلا من دخل معهم ، وإلاَّ فحسبه التسليم ، وطرح الميزان عنهم ، إن أراد الانتفاع بهم . والله تعالى أعلم[١] .

(١) تفسير البحر المديد ٤/٥٤-٥٦ .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أَمــَّر أميرًا على جيــش أو سريةٍ أوصاه[1] بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا فقال[2] : «اغزواً بسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغـزوا ولا تَغلوا ولا تَغـدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم[3] ثم ادعهم إلى التحول مـن دارهــم إلى دار المهاجرين ، وأخبـرهــم أنـهـم إن فـعـلــوا ذلك فلـهـم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فـإن أبـوا أن يتحولـوا منهـا فـأخبرهم أنهـم يكونـون كـأعراب المسـلمين ، يجـري علـيهم حكـم الله تعالى[4]، ولا يكـون لهـم في الغنيمـة والفـيء شـيء إلا أن يجاهـدوا مـع المسلمين . فإن هم أبوا فاسألهم الجزية . فإن هـم أجـابوك فاقبـل مـنهم وكُف عنهم . فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمـة أصحابكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه[5]. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب[6] فيهم حكم الله أم لا». رواه مسلم[7].

---

(١) في صحيح مسلم : أوصاه في خاصته بتقوى الله .
(٢) في المصدر السابق : ثم قال .
(٣) في المصدر السابق : وكف عنهم .
(٤) في المصدر السابق : الذي يجري على المؤمنين .
(٥) في المصدر السابق : وذمة رسوله .
(٦) في المصدر السابق : أتصيب حكم الله فيهم أم لا .
(٧) صحيح مسلم (١٧٣١) .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(كان رسول الله إذا أَمَّر) بتشديد الميم أي جعل أحدًا (أميرًا على جيش أو سرية أوصاه) أي ذلك الأمير (في خاصته) أي في حق نفسه خصوصًا ، وهو متعلق بقوله : (بتقوى الله) وهو متعلق بأوصاه ، وقوله : (ومن معه) معطوف على خاصتهِ أي وفيمن معه (من المسلمين) وقوله : (خيرًا) نصب على انتزاع الخافض أي بخير ، قال الطيبي : ومن في محل الجر ، وهو من باب العطف على عاملين مختلفين كأنه قيل : أوصى بتقوى الله في خاصة نفسه وأوصى بخير فيمن معه من المسلمين ، وفي اختصاصِ التقوى بخاصة نفسه ، والخير بمن معه من المسلمين إشارةً إلى أن عليه أن يشد على نفسه فيما يأتي ويذر ، وأن يسهل على من معه من المسلمين ، ويرفق بهم كما ورد : «يسروا ولا تُعسروا وبشروا ولا تنفروا»[1] . (ثم قال : اغزوا بسم الله) أي مستعينين بذكره (في سبيل الله) أي لأجلِ مرضاته وإعلاء دينه ، (قاتلوا من كَفر بالله) جملة موضحة لا غزوًا . وأعاد قوله : (اغزوا) ليعقبه بالمذكورات بعده ، (فلا تغلوا) بالفاء . وفي نسخة بالواو ، وهو بضم الغين المعجمة وتشديد اللام أي لا تخونوا في الغنيمة (ولا تغدروا) بكسر الدال أي لا تنقُضوا العهد . وقيل : لا تحاربوهم قبل أن تدعوهم إلى الإسلام ، (ولا تمثلوا) بضم المثلثة . وفي نسخة من باب التفعيل ، ففي تهذيب النووي : مثل به يمثل كقتل إذا قطع أطرافه . وفي القاموس : مثل بفلان مثله بالضم نكل كمثل تمثيلاً ، وفي الفائق : إذا سودت وجهه أو قطعت أنفه ونحوه . قال صاحب الهداية : والمثلة المروية في قصة العُرنيين منسوخة بالنهي المتأخر ، وقد روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ بعد ذلك خطبة إلا ونهى فيها عن المثلة . وقد جاء في حديث صحيح مسلم[2] : أنه إنما سمل النبي ﷺ أعينهم لأنهم سملوا أعين

(١) صحيح البخاري (٦٩) (٦١٢٥) ، صحيح مسلم (١٧٣٤) .

(٢) صحيح مسلم (١٦٧١) .

الرعاة . وتحقيق هذا المبحث في شرح ابن الهمام . (ولا تقتلوا وليدًا) أي طفلاً صغيرًا ، قال ابن الهمام : والصبي والمجنون يقتلان في حال قتالهما ، وكذا الصبي الملك والمعتوه الملك لأن في قتل الملك كسر شوكتهم ، (وإذا لقيتَ عدوك من المشركين) الخطاب لأمير الجيش وهو نظير : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ (الطلاق:١)، قال الطيبي : هو من باب تلوين الخطاب ، خاطب أولاً عامًّا فدخل فيه الأمير دخولاً أوليًّا ثم خص الخطاب به فدخلوا فيه على سبيل التبعية كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ ، خص النبي ﷺ بالنداء (فادعُهم إلى ثلاثِ خصال) أي مرتبة (أو خلال) شك من الراوي والخصال ، والخلال بكسرهما جمع الخصلة ، والخلة بفتحهما في معنى واحد (فأيتهن) بالرفع ، والضمير للخصال المدعوة ، (ما أجابوكَ) أي قبلوها منك ، وما زائدة . (فاقبل منهم) جزاء الشرط (وكف) بضم الكاف وفتح الفاء ، ويجوز ضمها وكسرها أي امتنع (عنهم) أي في الأوليين (ثم ادعهم) أي إذا عرفت ما ذكر من الخصال على وجه الإجمال ، فاعلم حكمها على طريق التفصيل ، فادعهم أي أولاً (إلى الإسلام) . قال النووي: هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم، ثم ادعهم قال القاضي عياض: الصواب رواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد ، وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها . وقال المازري : ثم هنا زائدة ، وردت لافتتاح الكلام والأخذ فيه ، (فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول) أي الانتقال (من دارهم) أي من بلاد الكفر (إلى دار المهاجرين) أي إلى دار الإسلام ، وهذا من توابع الخصلة الأولى بل قيل : إن الهجرة كانت من أركان الإسلام قبل فتح مكة (وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك) أي التحول (فلهم ما للمهاجرين) أي من الثواب واستحقاق مال الفيء ، وذلك الاستحقاق كان في زمنه ﷺ فإنه كان ينفقُ على المهاجرين من حين الخروج إلى الجهاد في أي وقت أمرهم الإمام ، سواء كان من بإزاء العدو كافيًا أو لا بخلافِ غير المهاجرين فإنه لا يجب عليهم الخروج إلى الجهاد إن كان بإزاء العدو من به الكفاية وهذا معنى قوله : (وعليهم ما على المهاجرين) أي من الغزو (فإن أبوا

أن يتحولوا منها) أي من دارهم (فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين) أي الذين لازموا أوطانهم في البادية لا في دار الكفر ، (يجري) بصيغة المجهول . وفي نسخة بصيغة المعلوم أي يمضي (عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين) أي من وجوب الصلاة والزكاة وغيرهما والقصاص والدية ونحوهما . (ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا) من باب ما أضمر عامله على شريطة التفسير ، وهو يفيد المبالغة ، والتقدير لتكرير الإسناد في التعبير أي فإن امتنعوا عن الإسلام ، (فسلهم) بالهمز والنقل أي فاطلب منهم (الجزية) ، وهو أشار إلى الخصلة الثانية . قال النووي : في الحديث فوائد منها أنه لا يعطى الفيء والغنيمة لأهل الصدقات من هؤلاء الأعراب الذين لم يتحولوا وكانوا فقراء مساكين ، ولا تعطى الصدقات لأهل الفيء والغنيمة . وقال مالك وأبو حنيفة : المالان سواء يجوز صرف كل منهما إلى النوعين ، والحديث مما يستدلُ به مالك والأوزاعي ومن وافقهما على جواز أخذِ الجزية من كل كافرٍ عربيًّا كان أو عجميًّا ، كتابيًّا أو غير كتابي . وقال أبو حنيفة : تؤخذ الجزية من جميع الكفار إلا من مشركي العرب ومجوسهم . وقال الشافعي : لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس أعرابًا كانوا أو أعاجم ، ويحتج بمفهوم (سنوا بهم سنةَ أهل الكتاب)[1] ، وتأول هذا الحديث على أن المراد بهؤلاء أهل الكتاب لأن اسم المشرك يطلق على أهل الكتاب وغيرهم ، وكان تخصيصه معلومًا عند الصحابة . قال ابن الهمام : وهذا إن لم يكونوا مرتدين ولا مشركي العرب ، فإن هؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف على ما سيتضح . (فإن هم أجابوك) أي قبلوا بذل الجزية ، وكذا هو المراد بالإعطاء المذكور في القرآن بالإجماع ، (فاقبل منهم وكف عنهم) . في الهداية قال علي رضي الله عنه : إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا وأموالهم كأموالنا . قال ابن الهمام والأحاديث في هذا كثيرة ، بل هو من الضروريات ، ومعنى حديث علي كرم الله وجهه

(١) موطأ الإمام مالك (١١٥٦) قال مخرج أحاديثه حسان عبد المنان : إسناده منقطع .

رواه الشافعي في مسنده أخبرنا محمد بن الحسن الشيباني أنبأنا قيس بن الربيع الأسدي عن أبان بن ثعلب عن الحسين بن ميمون عن أبي الجنوب قال : قال علي من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا . وضعف الطبراني أبا الجنوب . (فإن هم أبوا) أي عن قبولِ الجزية (فاستعن بالله وقاتلهم) إشارة إلى الخصلة الثالثة (وإذا حاصرت أَهل حصنٍ) أي من الكفار (فأرادوك) أي طلبوا منك (أن تجعل لهم ذمةَ الله وذمة نبيه) أي عهدهما وأمانهما (فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه) أي لا بالاجتماع ولا بالانفراد ، (ولكن اجعل لهم ذمتكَ وذمة أصحابك ، فإنكم) وهو بالخطاب على ما في صحيح مسلم وكتاب الحميدي وجامع الأصول ، ووقع في نسخ المصابيح فإنهم بالغيبة ، (أن تخفروا) من الإخفار أي تنقضوا (ذممكم وذمم أصحابكم) والظاهر أن بفتح الهمزة كما في نسخ المصابيح ، وأن مع صلتها في تأويل المصدر بدل من ضمير المخاطب ، وخبر إن قوله : (أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله)، وقد وقع في نسخة إن بكسر الهمزة على الشرط وهو مشكل ، كذا في الخلاصة ولعل وجه الإشكال أنه حينئذ أهون بتقدير هو جزاء الشرط ، والفاء لازمة ، ويمكن دفعه بأن يحمل على الشذوذ كقوله : من يفعل الحسنات الله يشكرها . ثم المعنى أنهم لو نقضوا عهد الله ورسوله لم تدرِ ما تصنع بهم حتى يؤذن لكم بوحي ونحوه فيهم ، وقد يتعذر ذلك عليك لسبب غيبتك وبُعدك من مهبط الوحي بخلاف ما إذا نقضوا عهدك ، فإنك إذا نزلت عليهم فعلت بهم من قتلهم أو ضرب الجزية أو استرقاقهم ، أو المن ، أو الفداء بحسب ما ترى من المصلحة في حقهم . (وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله) أي ولا على حكم رسوله لما سبق ، ولقوله (ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا) . زاد ابن الهمام : وفي رواية (ثم اقضوا فيهم بعد ما شئتم) قال النووي : قوله فلا تجعل لهم ذمة الله نهي تنزيه ، فإنه قد ينقضها من لا يعرفُ حقها ، وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش ، وكذا قوله : فلا تنزلهم على حكم الله نهي تنزيه ، وفيه حجة لمن يقول : ليس كل مجتهد مصيبًا ، بل المصيب واحد ،

وهو الموافقُ لحكم الله في نفس الأمر ، ومن يقول : إن كل مجتهدٍ مُصيب يقول : معنى قوله فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم إنك لا تأمن أن ينزل عليَّ وحي بخلاف ما حكمت ، كما قال ﷺ في حديث أبي سعيد من تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة لقد حكمت فيهم بحكم الله[١]، وهذا المعنى منتف بعد النبي ﷺ فيكون كل مجتهد مصيبًا . اهـ . وهو مذهب المعتزلة وبعض أهل السنة[٢].

---

(١) صحيح مسلم (١٧٧١) .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٧/٤٣٥-٤٣٨ .

٦٤- باب
ما جاء في الإقسام على الله .

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال رجل : «والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عزوجل : من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحبطت عملك». رواه مسلم[١].

شرح الحديث :

قال ابن علان الصديقي :

(قال رسول الله ﷺ : قال رجل : والله لايغفر الله لفلان) وذلك من القائل احتقاراً للمقول عنه وازدراءً له أن تناله المغفرةُ لعظمها وجلالتها (فقال الله عز وجل : من ذا الذي) قال السفاقسي : في إعراب نظيره في آية الكرسي : الأولى أن من ركبت مع ذا للاستفهام والمجموع في موضع رفع بالابتداء والموصول بعد (يتألى) أي يحلف ، قال في المصباح : يقال آلى إيلاء مثل آتى إيتاء : إذا حلفَ فهو مول وتألى وائتلى كذلك (عليَّ ألا[٢] أغفر لفُلان) أي بأن لا أغفر له (إني قد غفرت له) جملة مستأنفة لبيان أن المحتقر عند ذلك القائل هو عند الله بمكان وأن القائل بضده كما قال (وأحبطت عملك) أي أبطلت ثوابه . وفي الحديث تحذير من احتقار أحدٍ من المسلمين وإن كان من الرعاع ، فإن الله تعالى أخفى سره في عباده[٣].

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٢١) .

(٢) في المصدر السابق : على أن لا أغفر لفلان .

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ٣٥٢/٤ ، ٣٥٣ .

وفي حديث أبي هريرة : أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة : « تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته »[1].

شرح الحديث :

قال الملا على القاري :

(إن رجلين كانا في بني إسرائيل) أي منهم أو من غيرهم (متحابين) أي في الدنيا أو لأمر ما لا في الله لعدم المناسبة والملاءمة بين المُطيع والعاصي والجنسية علة الضم قال تعالى : ﴿ **لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ** ﴾ (المجادلة:٢٢) ، وقال عزوجل : ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف:٦٧) ، ويمكن أنهما كانا متحابين أولاً ثم وقع أحدهما في المعصية وهو الأظهر . ثم تم عقد الأخوة والعمل بالنصيحة وهو أولى عند بعض الصوفية من قطع الصُحبة . لقوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (الشعراء:٢١٦) ،

---

(١) في كتاب الزهد لابن المبارك (٩٠٠) : أخبرنا عكرمة بن عمار ، قال : أخبرنا ضمضم بن جوس ، قال : دخلت مسجد المدينة ، فناداني شيخ ، وقال : يا ابن أمي ، تعاله ، وما أعرفه ، قال : لا تقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبداً ، ولا يدخلك الجنة أبداً ، قلت : ومن أنت ؟ يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ، قلت : فإن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته ، أو لخادمه ؟ قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين ، أحدهما مجتهد في العبادة ، والآخر كأنه يقول : مذنب ، فجعل يقول : أقصر ، أقصر عما أنت فيه ، فيقول : خلني وربي ، حتى وجده يوماً على ذنب استعظمه ، فقال : أقصر ، فقال : خلني وربي ، أبعثت عليَّ رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك أبداً ، ولا يدخلك الجنة أبداً ، قال : فبعث الله ملكا فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي ؟ قال : لا يا رب ، قال : اذهبوا به إلى النار ، قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده ، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته ».

حيث لم يقل منكم مع أنه يمكن أن يكون منكم مقدراً ومما تعملون علة للبراءة . كما ذهب إليه بعضهم وهو الظاهر من حديث : الحب في الله والبغض في الله ، وحمل الحديث على الابتداء خلاف ظاهر الإطلاق (أحدهما مجتهد) أي مبالغ (في العبادة والآخر يقول) قال الطيبي : أي الرسول ﷺ (مذنب) أي هو مذنب . وقال ابن الملك تبعًا للمظهر : أي بقول الآخر أنا مذنب أي معترف بالذنبِ . وهو الأظهر لقوله يقول فإنه ليس له زيادة فائدة على القول الأول . وحينئذ لا يحتاج إلى حسن المقابلة بأن يقال أي مجتهد في المعصية حيث قال الطيبي : يمكن أن يقال إن المعنى والآخر منهمك في الذنب ليطابق قوله مجتهد في العبادة لأن القول كثيراً ما يعبر به في الأفعال المختلفة بحسب المقام . اهـ . وفيه إنه لا دخل للقول حينئذ في المقام ، كما لا يخفى على ذوي الأفهام فالظاهر أن العدول عن قوله والآخر مذنب بإدخال يقول بينهما لأن ينسب القول إليه مراعاة للأدب معه ، لعلمه عليه الصلاة والسلام بأنه سعيد عند ربه في غُفران ذنبه ولهذه النكتة بعينها قال مجتهد ولم يقل صالح أو عابد ، (فجعل) أي طفق وشرع (المجتهد يقول) أي للمذنب (أقصر) أمر من باب الأفعال أي أمسك وامتنع ، وفي رواية : أقصر أقصر (عما أنت فيه) أي من الذنب (فيقول) أي الآخر (خلني وربي) أي اتركني معه فإنه غفورٌ رحيم ، وتكرر هذا الكلام والجواب (حتى وجده) أي المجتهدُ المذنبَ (يـومًا) أي وقـتًـا ما ، (على ذنبٍ استعظمه) أي المجتهد ذلك الذنب (فقال : أقصر فقال : خلني وربي أبعثت) بصيغة المجهول بالاستفهام الإنكاري أي أرسلك الله (عليَّ رقيبًا) أي حافظًا (فقال :) أي المجتهد من كمال غُروره وعجبه وحقارة صاحبه لارتكاب عظيم ذنبه (والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة) أي من غير سابقة عقوبة فهو مبالغة غاية المبالغة . وأما قول ابن حجر : تأكيدًا لما قبله لأن عدم الغفران لازم لعدم دخول الجنة فغير صحيح ، لأن المؤمن المذنب قد لا يغفر الله له فيعذبه ثم يدخله الجنة كما عليه أهل السنة ، (فبعثَ الله إليهما ملكًا فقبض) أي عزرائيل (أرواحهما) أي روحيهما على حد ﴿ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم:٤) ، (فاجتمعا)

أي بأرواحهما (عنده) أي في محل حكمه وهو البرزخ أو تحت عرشه (فقال : للمذنبِ ادخل الجنة برحمتي) أي جزاءً لحسن ظنك بي ، (وقال للآخر) وفي العدول عن التعبير بالمجتهد نكتة لا تخفي وهي أن اجتهاده في العبادة ضاع لقلة علمه ومعرفته بصفات ربه فانقلب الأمر وصار في الذنب كالآخر ، والمذنب بحسن عقيدته واعترافه بالتقصير في معصيته منزل المجتهد (أتستطيع) الهمزة للإنكار أي أتقدر (أن تحظر) بضم الظاء المعجمة أي تمنع وتحرم (على عبدي رحمتي) أي التي وسعت كل شيء في الدنيا وخصت للمؤمنين في العقبى (فقال : لا يا رب) اعترف حين لا ينفعه الاعتراف (قال) أي الرب (اذهبوا به) خطابًا للملائكة الموكلين بالنار أو لذلك الملك والجمع للتعظيم أو لكبره كأنه جمع (إلى النار) حتى يذوقَ العذاب جزاءً على غروره وعجبه العجاب . ولا دلالةَ في الحديث على كفره ليكون مخلدًا في النار . وأغرب ابن الملك حيث قال : إدخاله النار كان مجازاةً له على قسَمه بأن الله لا يغفُر للمذنب ذنبه لأنه جعل الناس آيسين من رحمة الله وحكم بأن الله غير غفور . وفيه أن هذا كله غير مفهوم من كلامه وإنما هو بالغَ في الأمر بالمعروف وصدر هذا الكلام عنه في حال غضبه ولو كان لله لسومح به ، لكن لما كان مغرورًا باجتهاده محتقرًا للمذنب لأجل الإصرار على ذنبه استحق العقوبة . ولذا قيل : «معصية أورثت ذلاً واستصغارًا خيرٌ من طاعةٍ أوجبت عجبًا واستكبارًا» . وقال ابن حجر : عند قوله (يا رب) أكذب نفسه وحلفه فاستحق العقاب . فمن ثَمَّ قال : اذهبوا به إلى النار لأنه آيس من رحمة الله واليأس منها كفر لمن استحله كهذا الرجل . كما دل عليه حلفه السابق المتضمن للحكم على الله تعالى بأنه لا يغفر الذنوب وعلى صاحبِه بأنه يئس من رحمة الله . وما ذكره من يأس المجتهد واستحلاله وكفره غير صحيح مع أنه على سبيل التنزل ، يكون على معتقد المعتزلي من عدم تجويز غفران صاحب الكبيرة وعليه ظواهر كثيرة من الآيات في الوعيد ، ولم يقل أحدٌ من أهل السنة بتكفير الخوارج والمعتزلة . نعم في الحديث رد بليغ على معتقدهم حيث

إن الله تعالى غَفر للمذنب وأدخله جنته برحمته من غير رجوع المذنب وتوبته . وروى البغوي بإسناده في المعالم عن ضمضم بن جوس قال : دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ فقال لي : يا يمامي تعال وما أعرفه فقال لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك أبدا ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله قال أبو هريرة : قال : فقلت : إن هذه الكلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب أو لزوجته أو لخادمته قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلين الحديث إلى آخره . ثم قال أبو هريرة : (والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت بدنياه وآخرته . اهـ .) وتعليل ابن حجر هنا بقوله لأنها صيرته إلى النار المؤبدة عليه خطأ ظاهر كما قدمناه[١] .

(١) مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح ٥/٢٥٤-٢٥٦ .

٦٥- باب
لا يستشفع بالله على خلقه .

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، نُهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله . فقال النبي ﷺ : «سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه . ثم قال : ويحك أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه». وذكر الحديث ، رواه أبو داود[(١)].

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٦) . قال الألباني : ضعيف .

٦٦- . باب
ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد
وسده طرق الشرك[(١)]

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : «أنت سيدنا . فقال : السيد الله تبارك وتعالى . قلنا : وأفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً ، فقال : قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان». رواه أبو داود[(٢)] بسند جيد .

شرح الحديث :

قال المناوي :

(السيد) حقيقةً هو (الله) لا غيره أي : هو الذي يحقُّ له السيادة المُطلقة فحقيقة السؤدد ليست إلا له إذ الخلق كلهم عبيده . قال الزمخشري : والسيد فَيعل من ساد يسود قلبت واوه ياء لمجامعتها الياء وسبقها إياها بالسكون اهـ ، وقال الراغب : سيد الشيء هو الذي يملك سواده أي شخصه جميعه ، وقال الدماميني : السيد عند أهل اللغة من أهل للسؤدد وهو التقديم يقال ساد قومه إذا تقدمهم ، وهذا قاله لما خوطب بما يخاطب به رؤساء القبائل من قولهم أنت سيدنا ومولانا فذكره ، إذ كان حقه أن يخاطبَ بالرسول أو النبي فإنها منزلةٌ ليس وراءها منزلة لأحد من البشر ، فقال : السيد الله ، حول الأمر فيه إلى الحقيقة أي : الذي يملك النواصي ويتولى أمرهم ويسوسهم إنما هو الله ،

---

(١) تقدم عنوان الباب (انظر الباب رقم ٢٢) صـ ٢٠٣ .

(٢) سنن أبي داود (٤٨٠٦) . قال الألباني : صحيح .

ولا يناقضه : (أنا سيد ولد آدم) [1] لأنـه إخبـار عمـا أعطـي مـن الشـرف علـى النوع الإنساني ، واستعمال السيد في غير الله شائعٌ ذائع في الكتاب والسـنة قـال النووي : والمنهي عنه استعماله على جهة التعاظُم لا التعريف ، واستدل بعضهم بهـذا الخـبر أن السـيد اسمًـا مـن أسمـاء الله تعـالى . وسـببه أن رجـلاً جـاء إلى المصطفى صلى عليه وسلم فقال له :« أنت سيدُ قريش ، فقال : السيد الله قـال : أنت أعظمها فيها طولاً وأعلاها قولاً ، فقال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس قولـوا بقولِكم ولا يستهوينكُم الشيطان أنا عبد الله ورسوله »[2].

وعن أنس رضي الله عنه : أن ناسًا قالوا : « يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا . وابن سيدنا فقال : يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان . أنا محمد عبد الله ورسوله . ما أحب أن ترفعوني فوق منْـزلتي التي أنزلني الله عزوجل». رواه النسائي[3] بسند جيد .

انظر ما تقدم .

(١) تقدم تخريجه في باب (التسمي بقاضي القضاة ونحوه) .

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير . ٤/٢٠٠.

(٣) في السنن الكبرى (١٠٠٦) . قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٩٧): صحيح .

٦٧- باب

ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (الزمر:٦٧)[١] .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ** ﴾ أي : ما عظّموه حق تعظيمه حيث جعلوا له شريكًا ، أو وصفوه بما لا يليق بشئونه الجليلة ، أو : حيث دعوك إلى عبادة غيره تعالى ، أو : ما عرفوه حق معرفته ، حيث لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى . قال ابن عباس : فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره . يقال : قدرت الشيء : إذا أحزرته لتعرف مبلغه ، والقدر : المقدار والضمير ، إما لقريش ، المحدث عنهم ، وقيل : لليهود ، حيث تكلموا في صفات الله تعالى ، فألحدوا وجسموا . ثم بين لهم شيئًا من عظمته تعالى ، فقال : ﴿ **وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾ : فـ « جميعًا » : حال من الأرض لأنه بمعنى الأرضين ، أي : والأرضون جميعًا مقبوضة له بقدرته يوم القيامة . ﴿ **وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ أي : بقدرته . والقبضة : المرة من القبض ، والقُبضة : المقدار المقبوض بالكف ، والمراد من الكلام : تصوير عظمته تعالى ، والتوقيف على كنه جلاله ، وأن تخريب هذا العالم هو عليه شيء هين ، على طريقة التمثيل والتخييل ، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقةً ، ولا مجازًا ، هكذا قال جمهور المفسرين . قلت : لا يبعد أن تحمل

---

(١) تمام الآية : ﴿ **وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ (الزمر:٦٧) .

الآية على ظاهرها ، فإن الله تعالى يُبدل الأرض ويجمعها بأجمعها ، فتكون كخبزة النقي ، ويطوي السماء كطي الكتاب ، حتى يبرز العرش ، كما في الحديث ، ففي حديث البخاري ، عن أبى سعيد الخدري ، قال النبى ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدةً ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفؤ أحدكم خُبزته فى السفر ، نُزلاً لأهل الجنة »[1]. وفي حديث أبى هريرة : « إن الله يقبضُ الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض »[2]. وقال ابن عمر رأيت النبى ﷺ قائمًا على المنبر ، وهو يحكى عن ربه تعالى ، فقال : « إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ، جمع السماوات والأرضين السبع في قبضته ، ثم قال هكذا ، وشد قبضته ، ثم بسطها ، ثم يقول : أنا الله ، أنا الرحمن . . » الحديث . وفي لفظ آخر : « يطوى الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكبرون؟ »[3]. وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : كل ذلك فـي يمينه ، وليس في يده الأخرى شيء ، وإنما يستعين بشماله المشغول بيمينه ، وما السماوات السبع ، والأرضون السبع ، في يد الله تعالى ، إلا كخردلة في يد أحدكم ، ولهذا قال : ﴿ **مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ : يعنى السماوات والأرضين كلها بيمينه .

قلت : من كَحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص ، لا تصعب عليه هذه الأمور إذ تجليات الحق لا تنحصر ، فيمكن أن يتجلى من نور جبروته بنورٍ يشاكل الآدمي في الأعضاء كلها ، فيكون له ذات لها يدان وقدمان ، وبه ورد أن الله يضع قدمه على النار ، فتقول : قط قط[4]، ويكشف عن ساقه[5] لأهل

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٢٠) ، صحيح مسلم (٢٧٩٢) .

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٢)(٦٥١٩) ، صحيح مسلم (٢٧٨٧) .

(٣) سيأتي تخريجه قريباً .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٤٨)(٦٦٦١)(٧٣٨٤) . صحيح مسلم (٢٨٤٨) .

(٥) صحيح البخاري (٤٩١٩) ، صحيح مسلم (١٨٣) .

الموقف ، ويتقدمهم للجنة[1] ، إلى غير ذلك مما ورد في الحديث . ولا يلزم من ذلك حصر ولا تجسيم ، إنما هي تجليات للذات الكلية المطلقة ، ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء والبقاء من العارفين ، فسلم تسلَم . ﴿ **سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ** ﴾ أي : تنزيهًا عظيمًا لمن هذه قدرته وشأنه عما يضاف إليه من الشركاء ، أي : ما أبعد من هذا شأنه عن إشراكهم ! .

الإشارة : ما عرف الله حق معرفته مَن أثبت الكائنات معه ، وهي ممحوة بأحدية ذاته ، لا وجود لها معه على التحقيق ، فالأرض قبضة أسرار ذاته ، والسماوات محيطاتُ أفلاك أنواره ، وبحر الذات مطبق على الجميع ، ماحٍ للكل ، وأنشدوا :

فالكل دون الله إن حقيقتَه ... عدم على التفصيل والإجمال .

واعلم بأنك والعوالِم كلّها ... لولاه في محوٍ وفي اضمحلال .

من لا وجودَ لذاتِه من ذاتِه ... فوجوده لولاه عينُ مُحال .

وقال آخر :

من أبصَر الخلق كالسّراب ... فقد ترّقى عن الحِجاب .

إلى وجودٍ تراه رَتقًا ... بلا ابتعادٍ ولا اقتراب[2].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقًا لقول الحبر . ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ . وفي رواية لمسلم : والجبال

---

(١) سنن الدارمي (٢٨٠٣) قال محققه حسين سليم أسد : إسناده صحيح .

(٢) تفسير البحر المديد ٦/٢٨٠-٢٨٢ .

والشجر على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الله . وفي رواية للبخاري : يجعل السماوات على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع . أخرجاه[1].

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

ظاهرُ تقسيم الأشياء على الأصابع موهم لإرادة تحقق الجارحة المشتملة على الأصابع الخمسة كما هو مذهب المُجسمة من اليهود وسائر أهل البدع ، ولكنه لما قرره ﷺ حيث لم ينكره لزم إما التأويل وهو مذهب الخلف وهو أعلم ، أو التسليم والتفويض مع الاتفاق على التنزيه وهو مذهب السلف وهو أسلم والله تعالى أعلم . فقال شارح : والمعنى يهون على الله إمساكها وحفظها كما يقال في العرف : فلان يحمل بإصبعه لقوته . وقال التوربشتي : السبيل في هذا الحديث أن يُحمل على نوعٍ مـن المجاز أو ضربٍ من التمثيل ، والمراد منه تصوير عظمته والتوفيق على جلالة شأنه وأنه سبحانه يتصرف في المخلوقات تصرف قوي قادر على أدنى مقدور . تقول العرب في سهولة المطلب وقرب التناول ووفور القدرة وسعة الاستطاعة هو مني على حبل الذراع وإني أعالج ذلك ببعض كفي ، واستقله بفرد إصبع ونحو ذلك من الألفاظ استهانة بالشيء واستظهارًا في القدرة عليه . والمتورع عن الخوض في تأويل أمثال هذا الحديث في فسحةٍ من دينه إذ لم ينزلها في ساحة الصدر منزلة مسميات الجنس ... قال صاحب الكشاف : إنما ضحك أفصحُ العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساكٍ ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة . ولا ترى بابًا في علم البيان أدق

---

(١) صحيح البخاري (٤٨١١) (٧٤١٤) (٧٥١٣) ، صحيح مسلم (٢٧٨٦)

ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأهون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا . . . (ثم قرأ :) أي : النبي ﷺ اعتضادًا ، ويحتمل أن يكون القارئ هو ابن مسعود استشهادًا . ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ** ﴾ أي : ما عَرفوه حق معرفته ، أو ما عظموه حق تعظيمه . ﴿ **وَٱلْأَرْضُ** ﴾ الواو للحال أي والحال أن جنس الأرض وهو الأرضين السبع ﴿ **جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ** ﴾ أي مقبوضته وفي ملكه وتصرفه ﴿ **يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ** ﴾ (يتصرفُ فيه كيف يشاء بلا مزاحم مع سهولة . والمعنى أنهن بعظمتهن بالنسبة إلى قدرته ليست إلا قبضةً واحدةً ﴿ **وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ أي مجموعات بقدرته أو مغيبات بقسمه لأنه تعالى أقسم بعزته وجلاله أنه يفنيهما ﴿ **سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه[(١)].

ولمسلم[(٢)] عن ابن عمر مرفوعًا : « يطوي الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين[(٣)] السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟ ».

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري :

(يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذُهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون) أي الظلمة القهارون (أين المتكبرون) أي بمالهم وجاههم وخيلهم وحشمهم . لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . حفاةً عراة غرلاً . (ثم يطوي الأرضين) بفتح الراء وتسكن . . . (ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟) . . . قال أصحاب التأويل : المراد باليد اليمنى

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٠/١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢،٣) صحيح مسلم (٢٧٨٨) وليس فيه لفظ : السبع .

والشمال المقدرة ، والمراد من الطي التسخير التام والقهر الكامل وهو كذلك الآن أيضًا ، ولكن في القيامة يكون أظهر ، ونسب طي السموات إلى اليمين وطي الأرضين إلى الشمال تنبيهًا لما بينهما من المقبوضين من التفاوت بعد أن نزه ذاته سبحانه من نسبة الشمال إليه بقوله : (وكلتا يديه يمين)[1] لأن الشمال ناقص في القوة عادة والله منزه عن النُقصان وعن سائر صفات الحدثان[2].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ما السماوات السبع ، والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم .

وقال ابن جرير[3] : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس».

وقال[4] : قال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود قال : بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرشُ فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم . أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله ، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله . قاله الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ قال : وله طرق .

---

(١) صحيح مسلم (١٨٢٧) .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٨٢/١٠ .

(٣) في تفسيره (٣٩٩/٥) وذكره الحافظ الذهبي في كتاب العلو (٢٧٣) قال مخرج أحاديثه حسن بن علي السقاف : موضوع .

(٤) في تفسيره (٣٩٩/٥) وذكره الحافظ الذهبي في كتاب العلو (٢٧٢) قال مخرج أحاديثه حسن بن علي السقاف : موضوع .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض . والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم بني». أخرجه أبو داود[1] وغيره .

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٣) . قال الألباني : ضعيف .

المصادر والمراجع

١- الأعلام . خير الدين بن محمود بن محمد الزّركلي . دار العلم للملايين ــ بيروت ـ لبنان الطبعة الخامسة عشر أيار / مايو ٢٠٠٢ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

٢- الأحاديث المختارة . تأليف : الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد ابن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضياء المقدسي . تحقيق: عبد الملك ابن عبد الله بن دهيش . مكتبة النهضة الحديثة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .

http://www.almeshkat.net

٣- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد . تأليف : أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني . تحقيق : عمر أحمد الراوي . دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان . الطبعة الثالثة ٢٠١٠م .

٤- التصوف بين الإفراط والتفريط . الدكتور عمرعبد الله كامل . دار ابن حزم . بيروت ـ لبنان . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٥- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة . الحافظ ابن حجر العسقلاني . تحقيق : محمد عبد المعيد ضان . مجلس دائرة المعارف العثمانية صيدر آباد ـ الهند ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .

http://www.almeshkat.net

٦- السنة لابن أبي عاصم . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . http://www.alalbany.net

٧- السنن الأربعة . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني http://www.alalbany.net

٨- العلو للحافظ أحمد بن محمد بن قايماز الذهبي . تحقيق حسن بن علي السقاف . دار الإمام النووي عمان ـ الأردن الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٩- الزهد . الإمام أحمد بن حنبل . نسخة من موقع أهل الحديث
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=35926

١٠- الزهد . لعبد الله بن المبارك . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .
http://www.almeshkat.net

١١- القدر وما ورد في ذلك من الآثار . تأليف الإمام عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري . تحقيق ودراسة وتخريج : دكتور عبد العزيز عبد الرحمن محمد الهثيم دار السلطان للنشر للتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م . نسخة من موقع الوقفية . http://waqfeya.com

١٢- المعجم الصغير للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمرير . المكتب الإسلامي ، دار عمار ـ بيروت ، عمان الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

١٣- المعجم الأوسط للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : طارق ابن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين ـ القاهرة ، ١٤١٥هـ . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .
http://www.almeshkat.net

١٤- المعجم الكبير للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي مكتبة العلوم والحكم . الموصل ـ العراق الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .
http://www.almeshkat.net

١٥- المستدرك على الصحيحين . تأليف الحاكم الإمام أبي عبد الله محمد ابن عبد الله بن حمدويه الحافظ . نسخة من موقع صيد الفوائد .
http://www saaid.net

١٦- الموطأ . للإمام مالك بن أنس . اعتنى به : حسان عبد المنان ــ بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤م .

١٧- تحقيق المقال في تخريج أحاديث فضائل الأعمال . تأليف الإمام الكاندهلوي . اعتنى به وعلق عليه الشيخ لطيف الرحمن البهراجي القاسمي . مكتبة الحرمين للنشر والتوزيع ـ دبي دولة الإمارات العربية المتحدة . الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

١٨- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . تحقيق : الدكتور محمد الأحمدي أبوالنور . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة . القاهرة ـ مصر الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٩- جامع البيان في تأويل القرآن . محمد بن جرير الطبري . تحقيق : أحمد محمد شاكر . الناشر : مؤسسة الرسالة ــ الطبعة الأولى ١٤٢٠ هــ - ٢٠٠٠ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .
http://www.almeshkat.net

٢٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . http://www.alalbany.net

٢١- سلسلة الأحاديث الضعيفة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . http://www.alalbany.net

٢٢- سنن الإمام النسائي (الكبرى) . أحمد بن شعيب النسائي . الناشر : دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م . تحقيق : دكتور عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن ، نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

٢٣- سنن الدارمي . عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي . الناشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ. تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي . الأحاديث مذيلة بأحكام حسين سليم أسد عليها . موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

٢٤- عمل اليوم والليلة . أحمد بن شعيب النسائي . تحقيق الدكتور فاروق حمادة مؤسسة الرسالة بيروت ـ لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ . نسخة من موقع الشاملة . http://www.shamela.ws

٢٥- صحيح الإمام البخاري . محمد بن إسماعيل البخاري . اعتنى به : حسان عبد المنان ـ بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢ م .

٢٦- صحيح الإمام مسلم . مسلم بن الحجاج النيسابوري . اعتنى به : حسان عبد المنان ـ بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢م .

٢٧- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي . تحقيق : شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ لبنان الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

٢٨- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . تأليف: محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي . المتوفي سنة ١٠٥٧هـ . تحقيق : عصام الدين الصبابطي . دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة ـ جمهورية مصر العربية . الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٢٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير . محمد عبد الرؤوف المناوي . تحقيق: أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية . بيروت ـ لبنان . الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م .

٣٠- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح . الملا علي القاري . تحقيق : الشيخ : جمال العيتاني دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ــ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٣١- مسند الإمام أحمد . الناشر : مؤسسة قرطبة ــ القاهرة الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرناؤوط عليها . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .

http://www.almeshkat.net

٣٢- مسند أبي يعلى . أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي المتوفي ٣٠٧هـ . دار المأمون للتراث تحقيق : حسين سليم أسد . دمشق ـ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .

http://www.almeshkat.net

٣٣- مسند البزار . أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المتوفى : ٢٩٢ هـ . المحقق : محفوظ الرحمن زين الله ، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي الناشر : مكتبة العلوم والحكم ــ المدينة المنورة الطبعة الأولى ، (بدأت ١٩٨٨م ، وانتهت ٢٠٠٩م). نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . http://www.almeshkat.net

٣٤- موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية . تأليف : وليد الزبيري ــ إياد القيسي ـ بشير القيسي ـ عماد البغدادي . الناشر : سلسلة إصدارات الحكمة ـ لندن . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م .

فهرس

٢- باب : فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

(٨٦-٩٤)

٣- باب : من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

(٩٥-١٠٤)

٤- باب : الخوف من الشرك

(١٠٥-١٠٩)

٥- باب : الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

(١١٠-١١٧)

٦- باب : تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

(١١٨-١٢٩)

٧- باب : من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

(١٣٠-١٣٢)

٨- باب : ما جاء في الرقي والتمائم

(١٣٣-١٣٦)

٩- باب : من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

(١٣٧-١٤٠)

١٠- باب : ما جاء في الذبح لغير الله

(١٤١-١٤٤)

١١- باب : لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

(١٤٦-١٤٨)

١٢- باب : من الشرك النذر لغير الله

(١٤٩-١٥١)

١٣- باب : من الشرك الاستعاذة بغير الله

(١٥٢-١٥٣)

١٤- باب : من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

(١٥٤-١٦١)

١٥- باب

قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

(١٦٢-١٦٩)

١٩- باب : ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

(١٨٩-١٩٦)

٢٠- باب : ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟

(١٩٧-٢٠٢)

٣٢- باب : قول الله عزوجل :
﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
(٢٨٢-٢٨٧)

٣٣- باب : قول الله عزوجل : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
(٢٨٨-٢٩٤)

٣٤- باب : قول الله عزوجل :
﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾
(٢٩٥-٢٩٩)

٣٥- باب : من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

(٣٠٠-٣٠٥)

٣٦- باب : ما جاء في الرياء

(٣٠٦-٣١٣)

٣٧- باب : من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

(٣١٤-٣١٩)

٣٨- باب : من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله

(٣٢٠-٣٢١)

٣٩- باب : قول الله عزوجل :
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾
(٣٢٢-٣٣٨)

٤٠- باب : من جحد شيئًا من الأسماء والصفات
(٣٣٩-٣٤٠)

٤١- باب : قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾
(٣٤١-٣٤١)

٤٢- باب : قول الله عزوجل : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
(٣٤٢-٣٤٦)

٦٢- باب : ما جاء في كثرة الحلف

(٤١٥-٤٢٢)

٦٣- باب : ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

(٤٢٣-٤٣١)

٦٤- باب : ما جاء في الاقسام على الله

(٤٣٢-٤٣٦)

٦٥- باب : لا يستشفع بالله على خلقه

(٤٣٧-٤٣٧)

٦٦- باب : ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد ، وسده طرق الشرك

(٤٣٨-٤٣٩)

٦٧- باب : ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(٤٤٠-٤٤٦)